

دانييل جيلبرت



التغير في السعادة

Telegram: @mbooks90



ترجمة:
فائزة أبودبوس



دانييل جيلبرت

التعريف في السعادة

ترجمة:

فائز أبو ديبوس

مراجعة وتدقيق وتحضير:

د. سلوى العباسي



الكاتب: دانيال غيلبرت
عنوان الكتاب: التعرُّث في السعادة
ترجمة: فائزة بودبوس

..

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

..

ر.د.م.ك: 8-060-74-9938-978

الطبعة الأولى 2022

..

..



دار رشم للنشر والتوزيع

السعودية - عرعر - حي الجوهرة - شارع الخمسين

+ 966 54 709 470 9



rashm.ksa@gmail.com



rashm-store.com



@rashm_ksa



٢٧٠٧٢٨٨٦٩٨

«ليس بوسع المرء لا التكهن ولا التنبؤ بالظروف التي تحقق السعادة؛ بل يعثر عليها مصادفة،
في ساعة حظ، في مكان ما في نهاية العالم ويتشبث بها، مثلما يتمسك بالحظ والشهرة».

ويلا كاتر، لو لافاندو، 1902

مقدمة

إنه لأهدأ أما من لدغة الثعبان أن تنجب طفلاً ناكراً للجميل

شكسبير، الملك لير

ماذا كنت لتفعل لو علمت في هذه اللحظة أنك ستموت خلال عشر دقائق؟ هل كنت ستركض إلى الطابق العلوي وتشعل تلك السيارة من نوع المارلبورو، التي كنت تخبئها في درج الجوارب منذ زمن إدارة فورد؟ أم هل كنت ستذهب إلى مكتب رئيسك في العمل، وتقدم له وصفا تفصيليا عن عيوبه الشخصية؟ أم ستقود سيارتك نحو مطعم «الستيك هاوس»، ذاك الذي يقع حذو «المول» الجديد وتطلب شريحة لحم نصف مطهو، مضافا إليها بعض الكولسترول من النوع السيئ جدا؟

من الصعب الإجابة بالطبع، لكني أراهنك على أن قلّة من بين تلك الأشياء التي قد تفعلها في الدقائق العشر الأخيرة من حياتك، تقوم بها اليوم فعليا.

الآن سيتحسر بعض الناس على هذا الأمر، وسيصوّبون أصابعهم في اتجاهك وهم يخبرونك بلهجة شديدة بأنّ عليك أن تعيش كل دقيقة من حياتك، كما لو كانت الأخيرة. وهو ما سيكشف أنّ بعض الناس قد يمضي الدقائق العشر الأخيرة من حياته في إسداء الناصح السخيفة للآخرين.

إنّ الأشياء التي نفعلها عندما نتوقّع أنّ حياتنا ستستمرّ، هي بطبيعة الحال أشياء مختلفة جدا عن تلك التي قد نفعلها، إذا كنا نتوقّع نهايتها بغتة. فلا نكثر من تناول شحم الخنزير ولا من التدخين ونبتسم مدفوعين بالواجب لنكتة أخرى من النكات السمجة لرئيسنا في العمل ونقرأ كتبنا كهذا الكتاب، في حين يمكننا ارتداء قبعات من الورق وتناول حلوى الفستق في حوض الاستحمام.

كلّ هذه الأشياء هي بمثابة عمل خير نقوم به لفائدة أناس سرعان ما سنصبح نحن هم. فنحن نعامل ذواتنا في المستقبل، كما لو كانت أطفالنا المدلّين، ونمضي معظم وقتنا في التخطيط لرسم غدها السعيد. وبدلا من الانغماس في الاستمتاع بالحاضر، ننقل كواهلنا بالبحث عما سيوفّر لنا الرفاهية والراحة في المستقبل، فنذخر قسطا من رواتبنا كلّ شهر حتى نستمتع بالتقاعد في أحد ملاعب الغولف والهرولة، بشيء من الانتظام تجنبنا لتصلّب الشرايين وترقيع اللثة، ونتحفل الحفّافات القذرة والتكرار المضجر لقصة «القط في القبة» «the cat in the

hat» حتى نحظى يوما ما بأحفاد وجناتهم ممتلئة يقفزون في أحضاننا.

يصبح كذلك إنفاق دولار واحد في محل البقالة أشبه بحركة خيرية بنية ضمان أن الشخص الذي على وشك أن نكون هو، سيستمتع بـ «الكاب كيك» الذي ندفع ثمنه الآن، في الواقع، متى رغبتنا في شيء، كالحصول على ترقية، أو زواج، أو سيارة أو تناول وجبة «تشيز برغر»، فنحن نتوقع أن الشخص الذي سيحمل بصماتنا خلال ثانية أو دقيقة أو يوم أو عقد من الآن، سيستمتع بالعالم الذي سيرثه عنا، مقدرا تضحياتنا، بينما يجني حصاد فطنة قراراتنا الاستثمارية وإمساكنا عن أكل ما نشتهي.

حسنا، حسنا لا تأملوا كثيرا، إذ غالبا ما تكون ذريتنا جاحدة. فنحن نكد ونعرق لنقدم لأولادنا ما نعتقد أنه سينال إعجابهم، لكنهم يتركون عملهم ويطلقون شعر رؤوسهم، وينتقلون من سان فرانسيسكو أو إليها، ويتساءلون كيف باستطاعتنا أن نكون بهذا الحمق الذي يجعلنا نفكر أن هذا سيعجبهم، ونفشل في إحراز الألقاب والجوائز التي نعتبرها بالغة الأهمية لتحقيق رفاهيتهم.

لكن تنتهي بهم الحال إلى شكر الله على أن الأمور لم تجر وفق خططنا الخاطئة، ضيقة الأفق. حتى ذلك الذي يقضم قليلا من «الكاب كيك» الذي اشتريناه قبل بضع دقائق، قد يعبس، ويتهمنا بابتغاي الوجبة الخفيفة غير المناسبة. بالطبع، لا أحد يحب الانتقاد، ولكن إذا كانت الأشياء التي بذلنا جهدا في سبيل تحقيقها لا تجلب السعادة لذواتنا في المستقبل، أو إذا كانت الأشياء التي تجئنا القيام بها دون أن ننجح في ذلك، تحقق لها تلك السعادة، يبدو من المنطقي إذن، حتى وإن لم يكن من غير اللائق، أن نستحضر الماضي بنظرة استخفاف، وتساءل عما كنا -بحق الجحيم- نفكر فيه.

ربما تعترف بنوايانا الطيبة وتقزر، على مضض، أننا قمنا بأفضل ما كان بوسعنا، لكنها حتما ستتذمر أمام المعالج النفسي من أن أفضل ما لدينا لم يكن جيدا بما يكفي.

فكيف يمكن لهذا أن يحدث؟ ألم يكن من الأجدر بنا أن نعرف أذواق الناس الذين سنصبح نحن هم وما يفضلون واحتياجاتهم ورغباتهم في السنة المقبلة - أو على الأقل في وقت لاحق ظهر هذا اليوم؟ ألم يكن من الأجدر بنا أن نفهم ذواتنا المستقبلية بما يكفي لتشكيل حياتها، ولإيجاد وظائف وعشاق سيهتمون بها ولشراء أغلفة للأريكة التي ستفضل استخدامها في السنوات المقبلة؟

لماذا، إذن، ينتهي بها المطاف إلى زكن تلك الأشياء في العلية، وفي عيش حيوات مزدحمة بأشياء كنا نعتبرها ضرورية، وتعتبرها هي باعثة على الألم، مريكة أو بلا فائدة؟ لماذا تنتقد

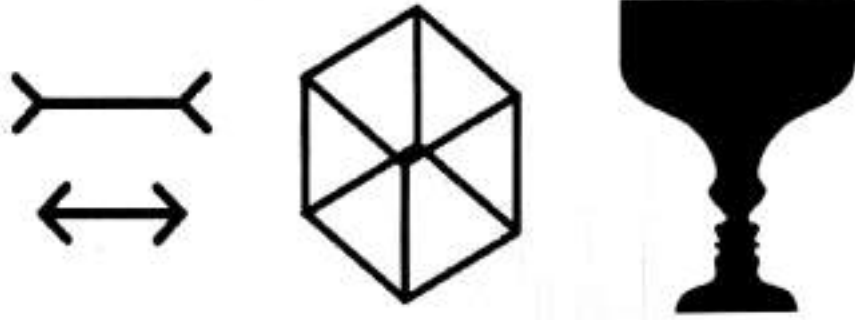
اختيارنا شركاءنا الرومانسيين وتشكك في إستراتيجياتنا من أجل التقدم المهني وتنفق أموالا طائلة لإزالة «التاتو» الذي أنفقنا أموالا وفيرة لرسمه؟ لماذا تشعر بالندم وبرغبة في الخلاص، عندما تفكر فينا بدلا من الزهو والتقدير؟

قد نتفهم كل هذا، لو كنا أهملناها أو تجاهلناها أو أسأنا معاملتها على نحو جوهري. لكن - اللعنة!- لقد منحناها أفضل سنوات حياتنا فكيف لها أن تشعر بخيبة أمل، وقد حققنا أهدافنا التي كنا نتوق لها؟ ولم هي على هذا القدر من الطيش اللعين الذي يجعلها تنتهي في المكان الذي سعينا جاهدين لتجنبها الاقتراب منه تحديدا؟ هل العيب فينا؟ أم فيها؟

حين كنت في العاشرة، كانت أكثر الأشياء سحرية في بيتنا كتاب عن الخدع البصرية. تعزفت من خلال صفحاته على خطوط Muller-Lyer (التي تجعلها أطراف رؤوس سهامها تبدو، كما لو أنها مختلفة الطول، حتى لو أظهرت المسطرة أنها متطابقة)، ومكعب «نيكر» (Necker) الذي يبدو للحظة واحدة، مفتوحا من أحد جوانبه وفي اللحظة الموالية مفتوحا من الأعلى، و«رسم الكأس» (a chalice) الذي يصبح فجأة ظلين لزوج من الوجوه، قبل أن يرتد إلى صورة الكأس من جديد (انظر الرسم 1).

كنت أجلس على الأرضية في مكتب أبي، وأظل أحذق في ذلك الكتاب لساعات، مفتونا بحقيقة أن هذه الرسوم البسيطة تستطيع الدفع بدماغي إلى تصديق أشياء يعرف بثقة تامة أنها خاطئة. كان ذلك الوقت الذي تعلمت فيه أن الأخطاء مثيرة للاهتمام وبدأت أخطط لحياة تضم العديد منها. لكن ما يجعل الخدعة البصرية مثيرة للاهتمام، ليس مجرد دفعها بالجميع لارتكاب الأخطاء، وإنما دفعهم إلى ارتكاب الخطأ ذاته. فلو رأيت أنا كأسا، ورأيت أنت وجه أليس Elvis، ورأى صديق لنا علبة كرتونية من طبق «المو غو غاي بين» Moo goo gai pan الصيني، قد يكون عندها الجسم الذي ننظر إليه بقعة حبر مدهشة، لكنه حتما ليس سوى خدعة بصرية رديئة.

إن ما يجعل الخدع البصرية مقنعة هو أن الجميع يرى الكأس أولا، ثم الوجهين، ثم، وفي رمشة عين يظهر الكأس من جديد. فالأخطاء التي تسببها الخدع البصرية أخطاء مشروعة، منتظمة وممنهجة، وهي ليست أخطاء سخيفة، بل خدع ذكية، تمكن أولئك الذين يفهمونها من أن يلمحوا تصميم النظام البصري الأنيق وآليات عمله الداخلية.



رسم 1

إن الأخطاء التي نرتكبها عندما نحاول تخيل مستقبلنا الشخصي، هي كذلك أخطاء مشروعة منتظمة وممنهجة، وهي أيضا تتميز بتصميم يكشف لنا قوة البصيرة وحدودها، بنفس الطريقة التي تكشف لنا بها الخدع البصرية قوة البصر وحدوده، وهذا كل ما يدور حوله هذا الكتاب.

ورغم وجود الكلمة الثالثة في العنوان، فهو ليس كتابا تعليميا سوف يخبرك عن كل ما يفيدك حول كيفية الوصول إلى السعادة. فإذا أردت ذلك النوع من الكتب، يمكنك أن تعثر عليه في قسم المساعدة الذاتية على بعد رواقين من هنا، وبمجرد اقتناء أحدها والقيام بكل ما يدلك عليه، ستشعر، رغم ذلك، بأنك بائس، يمكنك عندها دائما العودة إلى هنا وفهم السبب.

وفي المقابل هذا كتاب يصف ما يجب على العلم أن يخبرك به بشأن كيفية تخيل العقل البشري مستقبه الخاض، ومدى قدرته على ذلك وعن كيفية ومدى قدرته على التنبؤ بأي مستقبل سيستمع به أكثر من غيره.

يتناول هذا الكتاب أحجية طالما شغلت عديد المفكرين خلال الألفيتين الأخيرتين، ويستخدم أفكارهم (وبعضا من أفكارني) لشرح لماذا يبدو أننا نعرف القليل جدا عن قلوب الأشخاص وعقولهم، أولئك الذين نحن على وشك أن نحل محلهم.

وتشبه قضته بعض الشيء نهرا يعبر الحدود دون الاستعانة بجواز سفر، لأنه لا وجود لأي علم أوجد حلا مقنعا للأحجية.

يقدم هذا الكتاب شرحا أجده شخصا مقنعا من خلال دمج وقائع ونظريات في علم النفس وعلم الأعصاب العرفاني وعلم الاقتصاد السلوكي، غير أنه عليك أن تحكم على وجاهتها بنفسك.

إن تأليف كتاب امتياز في حد ذاته، لكن قراءته تعني تخصيص وقت مستفيض وأموال، كان من الأجدر إنفاقها لتحقيق أرباح صافية في الأسهم. فإذا لم تكن ذا دراية وتفتقر إلى التسلية، فأنت تستحق أن تعود إلى عمرك البدائي وأن تستعيد قيمتك الخالصة.

الجزء الأول

التنبؤ

«التطلع إلى المستقبل والنظر فيه»

الفصل الأول

رحلة إلى زمن آخر

آه، ليت بوسع المرء أن يعرف سلفا ما سيسفر عنه هذا اليوم!

شكسبير، يوليوس قيصر

يقسم الكهنة بأن يظلّوا دون زواج ويقسم الأطباء المعالجون بالأَيّ يتسبّبوا في الأذى ويقسم سعاة البريد بأن يكملوا جولاتهم المحددة بسرعة، رغم الثلج والصقيع والعناوين الخاطئة.

لكنّ قلة من الناس تدرك أنّ علماء النفس أيضا يقطعون على أنفسهم عهدا بأنهم في مرحلة ما من حياتهم المهنية سينشرون كتابا أو فصلا أو على الأقلّ مقالا يتضمّن هذه الجملة: «الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي...». من حقّنا أن ننهي هذه الجملة بأيّة طريقة نريد، لكنّها يجب أن تبدأ بتلك الكلمات الخمس. ينتظر معظمنا حتّى وقت متأخّر نسبيا من مساراتنا المهنية الوفاء بهذا الميثاق المعهود، لأنّنا نعرف أنّ الأجيال المتلاحقة لعلماء النفس ستتجاهل كلّ تلك الكلمات الأخرى التي نجحنا في رصفها طيلة عمر من الدراسة نذرناه لتحقيق ذاك الهدف، ولا يتذكّر أولئك العلماء سوى طريقتنا في إنهاء تلك الجملة.

كما يُعرف أيضا أنّه كلّما كان أداؤنا أسوأ، تذكّرنا بشكل أفضل. فعلى سبيل المثال، علماء النفس الذين أنّهوا الجملة بـ: «يستطيع استعمال اللغة»، هم من وقع تذكّرهم دون سواهم، عندما غلّم الشمبانزي التواصل من خلال إشارات اليد، وعندما اكتشف الباحثون أنّ الشمبانزي في الغابة يستعمل العصي لاستخراج النمل الأبيض الشهّي من وسط تلال التربة (مثلما يستعملونها لضرب بعضهم بعضا على رؤوسهم بعنف من حين إلى آخر).

تذكر العالم فجأة الاسم الكامل والعنوان الإلكتروني لكلّ عالم نفس سبق أن أنّهى الجملة بـ: «يستخدم الأدوات».

لذلك فلأغلب علماء النفس سبب وجيه لتأجيل إنهاء الجملة لأطول وقت ممكن، أمّلين في أنّهم إذا انتظروا الوقت الطويل الكافي، قد يموتون في الوقت المناسب تجنّبا لأن يكونوا عرضة لإهانة علنية من أحد القروء.

لم يسبق لي أبدا أن كتبت الجملة، لكنّي أرغب في فعل ذلك الآن بحضورك أنت شاهدا. الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفكّر في المستقبل. الآن دعني في البداية أخبرك بأنني لم يسبق لي أبدا أن كتبت تلك الجملة، لكنّي أرغب في فعل ذلك الآن في حضورك أنت، أيّها القارئ

بصفتك شاهدا.

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفكر في المستقبل، أما أنت فدعني الآن في البداية أخبرك بأنني أملك قططا وكلابا ويرايبع وفنرانا وأسماك ذهبية وسلاطيع (لا لا ليس ذلك النوع الذي ربما تتخيله) وأدرك أن الحيوانات غير البشرية غالبا ما تتصرف، كما لو أنها تملك القدرة على التفكير في المستقبل.

لكن مثلما يبدو أن الرجال الصلع الذين يضعون باروكات رخيصة غالبا ما ينسون، فاذعاء امتلاك شيء ما وامتلاكه حقا أمران مختلفان، وكل من ينظر عن كتب يستطيع اكتشاف الفرق بينهما.

مثلا، أنا أقطن في ضاحية حضرية، وكل خريف تدعي السناجب في حديقة بيتي (وهي بصغر حجم سنجاين) معرفتها بكونها لن تتمكن من الأكل في وقت لاحق، ما لم تطمر طعامها الآن.

ويقطن في مدينتي مواطنون قد حصلوا قدرا جيدا من التعليم، لكن سنابهم، كما يعلم الجميع، لا يميزها شيء خاص، فهي تملك أدمغة سنابج طبيعية، تشغل برامج طمر الطعام عندما يتضاءل حجم ضوء الشمس الذي يخترق العيون العادية للسناجب بمقدار كبير.

تحفز الأيام الأقصر هذا السلوك لديها دون أن يتخلل ذلك تأمل لما سيحدث غدا. والسناجب الذي يخبئ حبة جوز في حديقتي يعادل ما «يعرفه» عن المستقبل ما «تعرفه» تقريبا صخرة أثناء سقوطها، عن قانون الجاذبية-مما يعني أنها لا تعرف شيئا.

فإلى أن يبكي الشمبانزي عندما يفكر أنه سيهرم وحيدا، أو يبتسم متأقلا الصيف أو يرفض تناول حلوى التفاح، لأنه سيبدو بدينا، وهو يرتدي السراويل القصيرة، سأظل متمسكا بصيغتي الخاصة في بناء تلك الجملة.

نحن نفكر في المستقبل بشكل لا يستطيع أي حيوان آخر القيام به، لا الآن، فحسب، ولا فيما مضى، وهذا التصرف البسيط، السائد، العادي هو سمة تميز طبيعتنا البشرية (1).

فرح الآتي

لو سئلت عن أعظم إنجاز للعقل البشري، قد تجيب بأنها الأعمال الفنية التي أنجزها ذلك العقل، وأول إنجاز قد يخطر ببالك هو هرم الجيزة العظيم، أو محطة الفضاء العالمية، أو ربما «جسر البوابة الذهبية» The Golden Gate Bridge.

إنها إنجازات عظيمة بالفعل، وتستحق أمغتنا موكبا احتفاليا جزاء على إنتاجها، غير أنها ليست الأعظم على الإطلاق. فأي آلة متطورة قادرة على تصميم أي من هذه الأشياء وبنائها، لأن التصميم والبناء يحتاجان إلى المعرفة والمنطق والصبر وهي الميزة الغالبة على الآلات.

لكن في الواقع ثقة منجز واحد أروع من أن تدعي أكثر الآلات تطورا قدرتها على صنعه، ألا وهو تجربة الوعي، فرؤية الهرم العظيم أو تذکر البوابة الذهبية أو تخيل محطة الفضاء هي أفعال أكثر بروزا بكثير من بناء أي منها. بل أكثر من ذلك، إن واحدا من هذه الأفعال الخارقة يعتبر أكثر بروزا من الأفعال الأخرى. فأن ترى يعني أن تعيش العالم كما هو، وأن تتذكر يعني أن تعيش العالم كما كان، لكن أن تتخيل -حسنا- أن تتخيل يعني أن تعيش العالم، كما لم يكن، ولن يكون، لكن كما يمكن أن يكون.

إن أعظم إنجاز للعقل البشري هو قدرته على تخيل أجسام وأحداث لا توجد في مجال الواقع، وهذه القدرة هي ما يمكننا من التفكير في المستقبل. وكما لاحظ أحد الفلاسفة، فإن العقل البشري «آلة استباقية» و«خلق المستقبل» هو أهم فعل تقوم به (2).

لكن ما معنى «خلق المستقبل»؟

يمكن القول أنه ثقة طريقتان يعتمد عليهما العقل لخلق المستقبل. إحداها نشترك فيها مع العديد من الحيوانات الأخرى، أما الأخرى فهي خاصة بنا وحدنا. كل الأدمغة -أدمغة البشر وأدمغة الشمبانزي وحتى أدمغة السناجب التي تطمر الطعام- تتوقع المستقبل الوشيك، والموضعي، والشخصي، دفعة واحدة.

إنها تقوم بهذا من خلال توظيف معلومات عن الأحداث الحالية («أشتم رائحة») وأحداث ماضية («في المرة السابقة اشتمت هذه الرائحة، وكان ثقة شيء كبير حاول أكلني»), وذلك حتى تتوقع الحدث الأكثر احتمالا ليحصل لهم بعد ذلك (شيء كبير على وشك أن —) (3).

لكن لاحظوا وجود خاصيتين لما يسمى التوقع. أولا، رغم المزج السخيف بين قوسين، فإن توقعات كهذه لا تحتاج إلى العقل الذي ينشئها كي تحصل على أي شيء يشبهه، -حتى ولو بشكل طفيف- فكرة واعية. فالأدمغة يمكنها إضافة الماضي إلى الحاضر لإنشاء المستقبل دون مجزء التفكير بأي منها، تماما مثل معداد يجمع اثنين واثنين للحصول على أربعة، دون أن تكون لديه أفكار عن علم الرياضيات.

فالأمر، في الواقع، لا يتطلب دماغا يبني توقعات كهذه، وبقليل من الدربة، يستطيع «بزاق البحر» الضخم والمعروف أيضا باسم «أبليسيا بارفولا» *Aplysia parvula* أن يتعلم توقع صدمة كهربائية في خياشيمه وتجنبها.

فبزاق البحر لا يملك، حتما، دماغا، وهو ما يمكن لأي كان أن يبرهن عليه بسهولة باستخدام مشرط. الحواسيب أيضا لا دماغ لها، لكنها تستخدم نفس الخدعة بالتحديد التي يستخدمها «بزاق البحر»، لرفض بطاقتك الائتمانية لأنك كنت تحاول دفع حساب عشاء في باريس، بعد أن دفعت حساب الغداء في لوس أنجلوس.

باختصار، تثبت الآلات واللافقاريات بأنه لا حاجة إلى عقل ذكي، واع وذي إدراك ذاتي لتوقع أشياء بسيطة عن المستقبل.

ثانيا، ما نلاحظه أن توقعات كهذه لا تتعلق، خاصة، بأشياء بعيدة المدى. فهي لا تعني نفس الشيء الذي يعنيه توقع النسبة السنوية للتضخم أو التأثير الثقافي لما بعد الحداثة أو الموت الحراري للكون أو اللون التالي لشعر مادونا.

بل هي توقعات ما سيحدث في هذا المكان بالذات، وتحديدًا بعد ذلك، ولي أنا بالذات. ونحن نسميها توقعات نظرا لعدم وجود كلمة أفضل منها في اللغة الانكليزية.

لكن استعمال ذلك اللفظ-بدلالاته التي لا مفر منها من تأمل، يخضع للدرس والتفكير العميق، في أحداث يمكن أن تحصل في أي مكان، ولأي كان، وفي أي وقت- قد يسفر عن حجب حقيقة أن الأدمغة تنشئ باستمرار توقعات عن المستقبل الآتي والموضعي والشخصي لأصحابها دون إدراك منها، لهذا فبدلا من قول إن هذه الأدمغة تتوقع، لنقل أنها تفكر في الآتي.

فقد تكون في هذه اللحظة مثلا، تفكر بوعي في الجملة التي قرأتها للتو، أو في حلقة المفاتيح في جيبك والمغروسة بشكل غير مريح في فخذك، أو عما إذا كانت حرب سنة 1812 تستحق مستهأها.

ومهما كان الذي يشغل فكرك، فمن المؤكد أن أفكارك تدور حول شيء مختلف عن الكلمة التي تنتهي بها هذه الجملة. لكن حتى، وأنت تسمع صدى هذه الكلمات بالذات يتردد في رأسك وأنت تفكر في الأفكار التي أوحى لك بها الجملة، فإن دماغك يستخدم الكلمة التي يقرأها الآن، والكلمات التي قرأها مباشرة قبل ذلك ليخمن تخمينا عقلانيا هوية الكلمة القادمة التي سيقروها، وهو ما يمكنك من القراءة بسلاسة(4).

فأي دماغ تدرّب على وجبة منتظمة من «أفلام الجريمة» Film noir والروايات البوليسية القديمة، يتوقّع تماما أن عبارة «ليل» ستأتي بعد جملة: «حلّ الظلام وكان الجوّ عاصفا»، وعندها، كلما صادف كلمة ليل يكون مستعدا أكمل استعدادا، وبشكل خاص لاستيعابها.

ومادامت قد تبينّت صحة تخمينك فستواصل إبحارك بسعادة، من اليسار إلى اليمين، فمن اليسار إلى اليمين، محوّلا الخربشات السوداء إلى أفكار ومشاهد وشخصيات ومفاهيم غير مدرك الإدراك الكافي أن دماغك الذي يفكر في الآتي يتوقّع مستقبل الجملة بوتيرة مذهلة. فقط حينما يخطئ دماغك التوقّع، يتعكّر مزاجك فجأة.

أي أن تندهش، أرايت؟

الآن فكر في معنى تلك اللحظة القصيرة من الدهشة، إن الدهشة شعور نعيشه عندما نصطم باللامتوقّع.

مثلا: ثلاثة وأربعون صديقا يرتدون قبعات من الورق في غرفة استقبال بيتنا يصرخون «عيد ميلاد سعيدا!» بينما نعبّر الباب الأمامي بكيس من البقالة ومثانة ممتلئة. وعندها يكشف حدوث المفاجأة طبيعة توقّعاتنا، تكشف الدهشة التي شعرت بها في نهاية الفقرة السابقة أنك، بينما كنت تقرأ الجملة التالية: «فقط حينما يخطئ دماغك التوقّع، فأنت تشعر فجأة أنك...». لقد كان دماغك في الآن ذاته ينجز عملية توقّع منطقية لما سيحدث بعد ذلك.

إنه يتوقّع أن عينيك في وقت ما، خلال بضعة أجزاء من الألف من الثانية ستقع على مجموعة من الخربشات السوداء التي ترمز إلى كلمة انكليزية، تصف شعورا بالحزن أو الغثيان أو حتى الدهشة.

لكنه بدلا من ذلك، يصادف نتيجة توقّظك من سباتك الدغمائي وتكشف طبيعة توقّعاتك لأي شخص كان يراقب ذلك. إن هذا الشعور بالدهشة يدلّ على أننا لم نكن نعرف ما كنا نتوقّعه على الإطلاق.

ولأنّ مشاعر الدهشة ترافقها عموما، ردود فعل يمكن ملاحظتها وقيسها بتقويس الحاجبين واتساع العينين وفغر الأفواه والأصوات التي تعقبها سلسلة من علامات التعجب، فإن علماء النفس يستطيعون الاستفادة من الدهشة لمعرفة متى يقوم الدماغ بتوقّع ما سيأتي.

فعلى سبيل المثال: عندما ترى القردة أحد الباحثين يسقط كرة أسفل أنبوب من بين عدّة أنابيب، فإنها تنظر بسرعة إلى عمق ذلك الأنبوب، وتتوقّع أن تظهر الكرة من جديد. وعندما تظهر

الكرة بواسطة خدعة تجريبية من أنبوب آخر غير الأنبوب الذي ألقيت داخله، تظهر على القردة علامات الدهشة لأنه من المحتمل أن أدمغتها كانت تتوقع ما سيأتي (5).

يملك رضع البشر نفس ردود الأفعال تجاه الفيزياء العجيبة، فمثلا: عندما يُعرض على الرضع فيديو عن مكعب أحمر كبير يصطدم بمكعب أصغر صغير، يردون الفعل بلامبالاة حينما ينحرف المكعب الأصغر الصغير على الفور خارج الشاشة. لكن عندما يتروّج المكعب الأصفر لحظات قليلة، قبل أن يثجه بعيدا خارج الشاشة، يحدّق الرضع تحديق مازين في تحظّم قطار، كما لو أن الانحراف المؤجل للمكعب عن الشاشة يخالف التوقع الذي قامت به أدمغتهم وهي تتخيل المستقبل (6).

مثل هذه الدراسات تكشف لنا أن أدمغة القردة «تعرف» معنى الجاذبية (بأن الأشياء تسقط إلى الأسفل وليس على الجانبين) وأن أدمغة الرضع «تعرف» المقصود بالديناميكا (أن الأجسام المتحركة تنقل طاقة للأجسام الثابتة في اللحظة التي تحتك بها بالتحديد، وليس بعد بعض الثواني).

لكن الأهم من ذلك، أن تلك الدراسات تبرز أن أدمغة القردة ورضع البشر تضيف ما تعرفه سابقا (الماضي) إلى تراه الآن (الحاضر) لتتوقع ما سيحدث بعد ذلك (المستقبل). لكن عندما يكون الشيء التالي الفعلي مختلفا عن الشيء التالي المتوقع، يتفاجأ كل من الرضع والقردة.

صُفمت أدمغتنا من أجل توقع المستقبل، وهذا بالضبط ما استفعله. فعندما نقوم بجولة على الشاطئ، تتوقع أدمغتنا مدى ثبات الرمل تحت أقدامنا، وتضبط حركة ثني ركبتنا، وفقا لذلك. وعندما نقفز لالتقاط صحن طائر، تتوقع أدمغتنا أين سيكون القرص عندما نقطع طريق طيرانه، فنرفع أيدينا إلى تلك النقطة بالتحديد وعندما نرى سرطانا رمليا خلف قطعة خشب طافية في طريقه نحو الماء، تتوقع أدمغتنا متى وأين سيظهر ذلك المخلوق من جديد. ثم نوجه أعيننا إلى النقطة المحددة التي سيظهر بها مجددا.

إن هذه التوقعات مهمة من حيث سرعتها ودقتها في آن واحد، ومن الصعب تخيل الحالة التي ستكون عليها حياتنا، لو توقفت أدمغتنا عن القيام بها لتتركنا بالكامل «في الوقت الراهن» عاجزين على أن نخطو الخطوة التالية.

لكن رغم أن هذه التوقعات الأوتوماتيكية والمستمرة واللاواعية للمستقبل الوشيك والموضعي والشخصي مدهشة ودائمة الحضور أيضا، إلا أنها ليست من ضروب التوقعات التي تجعل نوعنا البشري يتطور.

في الواقع، هي تلك الأنواع من التوقعات التي تصدر عن الضفادع، حتى دون أن تغادر أوراق الزنبق، وهكذا، فهي ليست تلك المقصودة من الجملة (The Sentence).

بل هي، نوعية أخرى تماما للمستقبل، نخلقها نحن، البشر، ولا أحد غيرنا يفعل.

القرد الذي يتطلع إلى المستقبل

يحب البالغون طرح أسئلة ساذجة على الأطفال متوقعين إجابات تثير الضحك. أحد تلك الأسئلة الغبية التي نحب طرحها على الأطفال بشكل خاص: «ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟» وعادة ما تعلق الحيرة ملامح الأطفال الصغار ويشعرون بالقلق، فرّما يحيلهم سؤالنا إلى وجود خطر محقق بنموهم، وحتى لو أجابوا أصلا، فهم يختلقون أشياء من نوع «رجل الحلوى» أو «متسلق الأشجار».

تثير تلك الإجابات ضحكنا لأن احتمالات اشتغال الطفل بتلك الوظائف في المستقبل ضعيفة، بل منعدمة، وهي كذلك، لأنها ليست من أنواع الوظائف التي يحبذ الأطفال القيام بها في المستقبل، عندما يبلغون السن الكافية لطرح تلك الأسئلة الساذجة ذاتها.

لكن لاحظ أن هذه الأجوبة قد تكون غير مناسبة للسؤال المطروح، لكنها مناسبة لسؤال آخر، لاسيما السؤال: «ماذا تريد أن تصبح الآن؟». فالأطفال لا يستطيعون توقع ماذا يريدون أن يصبحوا لاحقا لأنهم لا يفهمون حقا ما الذي تعنيه كلمة «لاحقا» (7).

لذلك، ومثل السياسيين الفطنين، فهم يتجاهلون الرد على سؤال المستقبل مكتفين بالإجابة عن السؤال الذي بإمكانهم الإفادة عنه. بالطبع يبلي البالغون بلاء أحسن من هذا. فعندما سُئلت امرأة ثلاثينية من مانهاتن أين تظن أنه بإمكانها قضاء فترة التقاعد، ذكرت ميامي وفينيكس أو أحد مواقع الراحة الاجتماعية. فقد يحلو لها الآن وجودها في منطقة حضرية قاسية. لكنها تتوقع في غضون عقود قليلة أن يكون للعبة «البينفو» وللعاية الطبية السريعة قيمة أكبر من المتاحف الفنية وماسحي زجاج السيارات.

فعلى عكس الطفل الذي لا يستطيع التفكير إلا في كيفية سير الأمور في الحاضر، بإمكان الزاهد التفكير في شأن سيرها مستقبلا، وفي نقطة ما، بين كرسينا العالي وكرسينا الهزاز نتعزف على ما نعتبره «لاحقا» (8).

«لاحقا»! يا لها من فكرة مدهشة! ويا له من مفهوم قوي! ويا له من اكتشاف مذهل!

كيف للبشر أن يتعلموا مسبقا تخيل سلسلة من الأحداث لم تمرّ بعد؟ فأني عبقرى ذاك الذي أدرك في عصر ما قبل التاريخ أن باستطاعته الهروب من اليوم عبر إغماض عينيه والانتقال بنفسه في صمت إلى الغد؟

من سوء الحظ، أن الأفكار العظيمة لم تخلف حفريات للتأريخ باستخدام الكربون المشع وهكذا فقد فقدنا التاريخ الطبيعي لـ ما نعتبره «لاحقا» إلى الأبد.

لكن علماء الحفريات ومختصي علم الأعصاب يؤكدون أن هذه اللحظة المحورية في قصة التطور البشري حصلت، بغتة في وقت ما، خلال الثلاثة ملايين سنة الأخيرة، حيث ظهر الدماغ الأول على وجه الأرض منذ حوالي 500 مليون سنة وقضى نحو 430 مليون سنة يتطور على مهل، إلى أدمغة «الرئيسيات الأصلية» التي تطّبت نحو 70 مليون سنة إضافية لتتطور إلى أدمغة البشر البدائيين الأوائل. ثم حدث شيء ما - لا أحد يعرف ما هو بالضبط، لكن التخمينات تعلقت بحدثين هما نقطة تحوّل الطقس إلى البرودة أو فترة اختراع الطبخ. فشهد الدماغ، الذي سرعان ما سيتحوّل إلى دماغ بشري، طفرة في النمو غير مسبوق، مما ضاعف حجمه خلال ما يزيد عن زهاء مليوني سنة، تحوّل خلالها من دماغ «هومو هابيليس» Homo habilis أو الإنسان الماهر الذي يزن رطلا وربعاً إلى دماغ «هومو سايبينس» Homo Sapiens الذي يزن نحو ثلاثة أرطال(9).

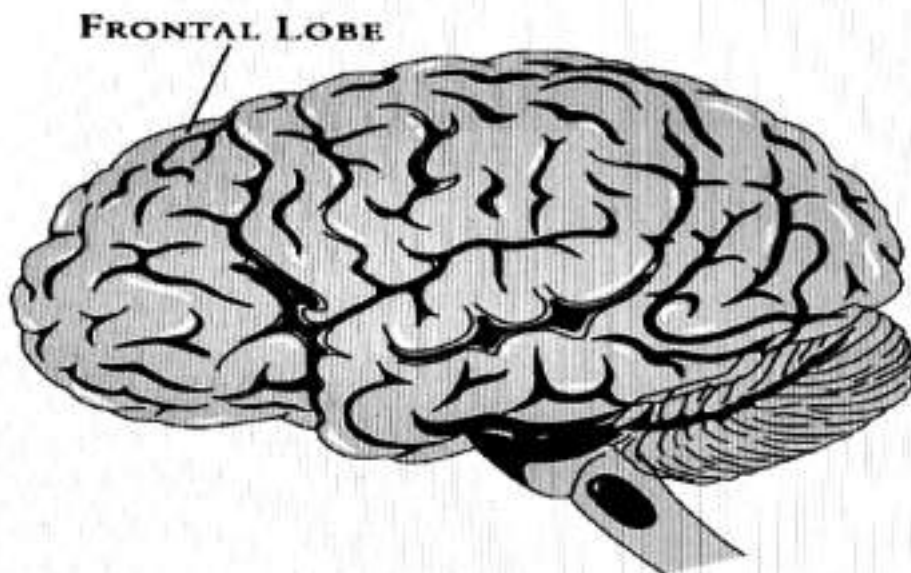
الآن، لو ظللت بشكل منتظم تتناول الحلوى الساخنة، ونجحت في مضاعفة وزنك في وقت قصير جدا، فمن غير المتوقع أن تتقاسم مختلف أعضاء جسمك الوزن الإضافي بشكل متساو، بل من المحتمل أن يكون بطنك وأردافك الأكثر تخزينا لكمية الشحم المكتسب حديثا، بينما سيبقى لسانك وأصابع قدميك أنحف دون تأثر.

وبنفس الطريقة، لا تضاعف الزيادة الدراماتيكية لحجم الدماغ البشري بشكل متساو حجم كل عضو، بحيث ينتهي البشر المتطورون إلى أن تصبح لديهم أدمغة جديدة تحمل بنية الأدمغة القديمة ذاتها، لكن بحجم أكبر.

إنما يتركز النسيج الأوفر في جزء معين من الدماغ معروف باسم «الفض الجبهي» Frontal lobe والذي يقع -كما يوحي اسمه- في الجانب الأمامي للرأس مباشرة فوق العينين (انظر رسم (2).

وهكذا فقد دفعت حواجب أسلافنا الأوائل المنخفضة المائلة، إلى الأمام لتصبح حادة وعمودية، تساعد في الإبقاء على قبعاتنا فوق رؤوسنا. وقد حدث التغيير في بنية رؤوسنا

أساسا من أجل استيعاب التغير المفاجئ في حجم أدمغتنا. فما الذي فعله هذا الجزء الجديد من الجهاز الدماغي لتبرير هذا التغيير في حجم الجمجمة؟ ما الذي يتعلق بهذا الجزء بالذات حتى يدفع بالطبيعة إلى القلق بشأن كل واحد منا، إلى درجة منحه دماغا أكبر حجما؟ ببساطة، ما فائدة «الفض الجبهي» Frontal Lobe؟



رسم 2: الفص الجبهي هو الجزء المضاف مؤخرا إلى الدماغ البشري والذي يمكننا من تخيل المستقبل.

اعتقد العلماء، حتى وقت قريب، أن الفص الجبهي ليس مفيدا على الإطلاق، إذ يبدو أن الناس الذين أتلّف فضهم الجبهي، لم يتأثروا بذلك أبدا. كان فينيس غيدج كبير العقال في خط السكة الحديدية لروتلاند Rutland Railroad ذات يوم خريفي جميل سنة 1848، قد تسبّب في انفجار صغير بالقرب من قدميه، مما أدى إلى انطلاق قضيب حديدي بطول ثلاثة أقدام ونصف في الهواء، التقطه فينيس ببراعة بواسطة وجهه. فاخترق القضيب أسفل خذه الأيسر، بالضبط، ليخرج من أعلى جمجمته، محدثا تجويفا بمثابة النفق داخل جمجمته، منتزعا معه جزءا كبيرا من الفص الجبهي. (انظر الرسم 3)

سقط فينيس أرضا، حيث تمزّد لبعض الدقائق. ثم، وأمام دهشة الجميع نهض وسأل، إن كان يستطيع أحد زملائه في العمل مرافقته إلى الطبيب، مؤكدا طوال الوقت أنه لا يحتاج إلى سيارة، بل بإمكانه المشي.

قام الطبيب بتطهير الجرح بعض الشيء، وأزال زميله في العمل القليل من مخه العالق

بالقضيب، وبعد وقت قصير نسبياً عاد فينيس وزميله إلى عملهما(10).

ثم اتخذت شخصيته منحى سيئاً، رغم أن أكثر ما كان يلفت النظر إليه هو تصرفه الذي كان طبيعياً وهذا ما تسبب في شهرته حتى هذا اليوم.

فلو جعل القضيب جزءاً آخر من الدماغ كالقشرة البصرية، أو منطقة بروكا أو جذع الدماغ، حشوة همبرغر، ربما لمات فينيس أو أصيب بالعمى أو فقد قدرته على الكلام أو قضى بقية حياته، يتجول دون عقل. لكنه على العكس من ذلك، عاش ورأى وتكلم واشتغل وسافر بشكل جعل أطباء الأعصاب يستخلصون أنه لا وجود لأية فائدة من الفض الجبهي في حياة أي شخص تجعله غير قادر على التواصل دونه(11). وهو ما كتبه أحد هؤلاء الأطباء سنة 1884 حيث قال: «منذ واقعة القضيب الحديدي الشهيرة بات معروفاً أن تلف هذه الفصوص لا يسبب بالضرورة أية أعراض»(12).



رسم 3: صورة طبية بدائية توضح مكان اختراق القضيب جمجمة فينيس غيدج.

لكن طبيب الأعصاب كان مخطئاً. ففي القرن التاسع عشر، كان علم وظائف الدماغ يتأسس بشكل واسع على مراقبة الناس الذين كانوا، مثل فينيس غيدج -لسوء الحظ- ضحايا إحدى

التجارب العرضية، غير الدقيقة على الأعصاب. وفي القرن العشرين بدأ الجراحون من حيث توقفت الطبيعة، وشرعوا في القيام بتجارب أكثر دقة رسمت نتائجها صورة جذ مختلفة لعمل الفض الجبهي. وفي ثلاثينيات القرن الماضي كان ثقة طبيب برتغالي يدعى أنطونيو ايغاس مونيذ وكان هذا الطبيب قد سمع، أثناء انشغاله بالعثور على طريقة لتهدئة مرضى الذهان الذين يعانون من اضطراب شديد، عن طريق عملية جراحية جديدة تسمى بـ«عملية استئصال الفض الجبهي» lobotomy، وهي تتضمن عملية إتلاف كيميائية وميكانيكية لبعض أجزاء الفض الجبهي. كان قد تم إجراء هذه العملية على القردة التي كانت غاضبة جدًا بسبب احتجاز طعامها، لكن ردة فعلها إزاء تلك الإهانة اتسمت بصبر لا متناه إثر إجراء العملية. فقام إيغاس مونيذ بالتجربة على مرضاه، واكتشف أن لديها التأثير المهدئ ذاته. (كان لديها التأثير ذاته أيضا على ايغاس مونيذ، حيث نال بفضلها جائزة نوبل في الطب سنة 1949).

ثم تحسنت على مدى العقود الموالية التقنيات الجراحية (إذ أصبح يمكن للعملية أن تُجرى تحت تخدير موضعي باستخدام «معول الثلج») وتراجعت الآثار الجانبية غير المرغوب فيها (مثل الذكاء المتدني والتبول اللاإرادي)، فبات إتلاف جزء من الفض الجبهي علاجا مرجعيا لحالات القلق والاكتئاب التي لم تفلح معها أشكال أخرى من العلاج(13).

وعلى عكس الاعتقاد الطبي التقليدي السائد في القرن الماضي، صنع الفض الجبهي الفارق، وهو يكمن هنا في أن بعض الناس بدؤوا أفضل حالا من دونه.

لكن رغم أن بعض الجراحين أثنوا على منافع تلف الفض الجبهي، كان البعض الآخر يشير إلى ما قد يكلفه القيام بذلك من مخلفات. ومع أن أداء المرضى الذين أتلّف فضهم الجبهي كان جيدا عند إجراء بعض الاختبارات، من قبيل اختبارات الذكاء المعيارية أو الذاكرة إلى غير ذلك، إلا أنها ظهرت عليهم إعاقة شديدة عند إجراء أي اختبار مهما كان بسيطا- يتعلق بالتخطيط.

فعلى سبيل المثال، عندما يتم وضعهم أمام متاهة أو أحجية يحتاج منهم حلها أن يفكروا أولا في مجموع الخطوات الكاملة التي يجب قطعها قبل أن يخطوا الخطوة الأولى، تنتاب هؤلاء الأذكاء الحيرة(14).

ولم يكن عجزهم عن التخطيط يقتصر على تجربة المختبر التي أجريت عليهم. فقد يتمكن هؤلاء المرضى من التفكير تفكيرا منطقيًا في الوضعيات المعتادة، كأن يشربوا الشاي دون إراقته أو ينخرطوا في محادثة صغيرة عن الستائر، لكنه من المستحيل عليهم عمليا أن يتحدثوا عما سيفعلونه لاحقا في ظهيرة ذلك اليوم.

في تلخيص علمي عن هذا الموضوع يستنتج عالم بارز قائلا: «إنَّ عدم القدرة على التخطيط هي أكثر أعراض الفص الجبهي التي أفاد عنها التقرير اطرادا...وقد ظهر ذلك كالعراض الوحيد للخلل الذي أصاب وظيفة قشرة الفص الجبهي....[و] لا يرتبط بالتلف الإكلينيكي لأي بنية عصبية»(15).

الآن، يبدو من خلال هاتين الملاحظتين -بأنَّ تلف بعض أجزاء الفص الجبهي يمكن أن يجعل الناس يشعرون بهدوء أكثر، لكنه يتركهم أيضا عاجزين عن التخطيط- أننا يمكننا أن نتفق على استنتاج واحد.

فما هي العلاقة المفاهيمية التي تربط بين القلق والتخطيط؟

كلاهما بالتأكيد متصل بشكل وثيق بمسألة التفكير في المستقبل. فنحن نشعر بالقلق عندما نتوقع حدوث شيء سيء، ونخطط ما سنفعله عبر تخيل كيفية تطوُّر أفعالنا مع مرور الوقت.

إنَّ التخطيط يتطلَّب منا التعمُّق في النظر إلى المستقبل. والقلق هو أحد ردود الفعل التي قد تصدرَ عنا عندما نفعل ذلك(16).

فحقيقة أنَّ تلف الفص الجبهي يعيق القدرة على التخطيط، والقلق بشكل فريد وبالغ الدقَّة تدلُّ على أنه الجزء الأساسي للجهاز الدماغي الذي يمكن الإنسان المعاصر والعادي من التخطيط للمستقبل، ودونه نطلُّ عالقين في اللحظة الراهنة، غير قادرين على تخيل الغد. وبذلك لا نشعر بالقلق حيال ما قد يجلبه إلينا.

إنَّ الفص الجبهي، كما يعترف العلماء اليوم، «يمكن البالغين الأصحاء من القدرة على التفكير في امتداد وجودهم الذاتي عبر الزمن»(17). وبذلك، فإنَّ الناس الذين يعانون من تلف في الفص الجبهي، يصفهم من يفحصونهم بأنهم «مقيدون بالمحفزات الآتية»(18). أو «حبيسو الفضاء والزمن الآتيين»(19). أو بأنهم يظهرون «نزعة تجاه الواقعية الزمنية»(20)، بعبارة أخرى، يعيشون، مثل «رجال الحلوى» ومتسلقي الأشجار، في عالم لا مستقبل له.

إنَّ الحالة الباعثة على الحزن والمتعلقة بالمرض المعروف بـ: ن.ن تفتح لنا نافذة على هذا العالم. فقد تعرَّض ن.ن لإصابة في الرأس خلال حادث سيارة عام 1981، عندما كان يبلغ من العمر ثلاثين سنة، وكشفت الفحوصات أنه تعرَّض لضرر بالغ في الفص الجبهي. حاور طبيب نفسي ن.ن قبل سنوات قليلة، إثر الحادث وسجَّل هذه المحادثة:

الطبيب النفسي: ماذا ستفعل غدا؟

ن. ن: لا أعرف.

الطبيب النفساني: هل تتذكر السؤال؟

ن. ن: ماذا سأفعل غدا؟

الطبيب النفساني: أجل، هل يمكنك أن تصف حالة ذهنك عندما تحاول التفكير في ذلك؟

ن. ن: خال تماما، أعتقد... أنه مثل الشعور بالنعاس... أو مثل الوجود في غرفة فارغة، وثقة شخص يطلب منك أن تجد كرسيًا، لكن لا يوجد شيء هناك... إنه مثل السباحة وسط بحيرة، ولا وجود لأي شيء تلمسك به أو تفعل به أي شيء (21).

إن عجز ن. ن عن التفكير في شأن المستقبل هو سمة تجمع بين المرضى الذين يعانون من ضرر بالفض الجبهي. فبالنسبة إليه سيظل الغد دوماً غرفة فارغة، وعندما يحاول تخيل ما سيحدث لاحقاً، سيشعر دوماً مثلما نشعر نحن، عندما نحاول تخيل العدم أو الأبدية. لكن لو انطلقت في محادثة مع ن. ن عن مترو الأنفاق، أو تحدثت إليه أثناء انتظار مجيء دورك في الطابور أمام مكتب البريد، فربما لن تلاحظ أنه يفتقد إلى شيء أساسي بالنسبة إلى الإنسان كذاك الشيء. فهو على أية حال، يفهم الزمن والمستقبل كما لو كان شيئاً مجرداً، ويعرف ما تعنيه الساعات والدقائق، وكم من دقيقة في الساعة، ويعرف ما يعنيه قبل وبعد. وهو كما ذكر الطبيب النفساني الذي حاوره: «يعرف الكثير من الأشياء عن العالم، وهو واع بهذه المعرفة، ويمكنه التعبير عنها بمرونة. وبهذا المعنى، فهو لا يختلف على نحو كبير عن أي شخص راشد عادي، لكن يبدو أنه لا يملك القدرة على اختبار الزمن اختباراً ممتداً وذاتياً... بل، يعيش «الحاضر بصورة دائمة» (22).

الحاضر الدائم، أية عبارة مؤزقة هذه! كم يبدو غريباً وسريالياً أن تعيش بشكل مؤبد في سجن اللحظة الراهنة، وأن تقع في شرك الحاضر الأبدي، في عالم بلا نهاية وزمن ليس فيه ما نعده لاحقاً. إنه لمن الصعوبة البالغة على غالبيتنا أن نتخيل وجوداً كهذا، وجوداً غريباً عن تجربتنا المعتادة، إلى درجة تجعلنا نميل إلى تجاهله باعتباره مصادفة، جنوناً غريباً، نادراً، مشؤوماً، ناجماً عن إصابة صادمة في الرأس.

لكن في الواقع، هذا الوجود الغريب هو القاعدة، ونحن الاستثناء. فخلال مئات الملايين الأولى إثر ظهورنا الأول على هذا الكوكب، كانت كل الأدمغة عالقة في الحاضر الدائم، وأغلب الأدمغة لا تزال إلى اليوم كذلك. لكن ليس هذا شأن دماغك أو دماغي، ذلك أن أسلافنا شرعوا،

منذ مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، في هروب ضخم من الهنا والآن، وكانت وسيلتهم في ذلك الفرار كتلة من النسيج الرمادي ذات الاختصاص الهائل، هشة، مجعدة، ملحقة بالدماغ. هذا الفض الجبهي، هو آخر جزء يتطور فيه، وهو الأبطأ في النمو والأول في التدهور عند التقدم في السن. إنه آلة زمن تمكّن كل منا من إخلاء الحاضر وعيش المستقبل قبل أن يحدث. لا يملك أي حيوان آخر فضا جبهيا كالذي نملكه، وهو ما يفسر أننا الحيوان الوحيد الذي يفكر في المستقبل. لكن إذا كانت قصة الفض الجبهي تخبرنا عن كيفية استحضار البشر غدهم المتخيل، فهي لا تخبرنا عن السبب الكامن وراء ذلك.

التواء القدر

في نهاية الستينيات، تناول بروفيسور في علم النفس بجامعة هارفرد حبوب هلوسة واستقال من منصبه (ببعض التشجيع من الإدارة)، وذهب إلى الهند ليلتقي بمرشد روحي، ثم عاد ليؤلف كتابا لقي رواجا كبيرا بعنوان: «الوجود هنا والآن» Be Here Now، وتتمثل فكرته الرئيسية باختصار في ما يعبر عنه العنوان (23)، حيث يذهب البروفيسور السابق إلى أن مفتاح السعادة والانجاز والتنوير يتمثل في الكف عن التفكير في المستقبل تفكيراً مفرطاً.

الآن، ما الذي قد يجعل أي شخص يجتاز كل تلك المسافة وصولاً إلى الهند، وينفق وقته وأمواله وخلايا دماغه، فقط ليتعلم عدم التفكير في المستقبل؟

إن عدم التفكير في المستقبل، كما يعرف كل من جرب تعلم التأمل، هو أكثر صعوبة من أن تكون أستاذاً محاضراً في علم النفس. فهو يتطلب إقناع فضاء الجبهي بالتخلي عما هو مُصمّم من أجله. ومثلما لا يكف القلب عن النبض، فهو يؤتي وظيفته بشكل طبيعي.

وخلالها لن ن، لا يبذل معظمنا جهداً شاقاً من أجل التفكير في المستقبل، لأن المحفزات الذهنية للمستقبل ترد على وعينا بانتظام، ودون دعوة وتشغل كل ركن من حياتنا العقلية. عندما يُطلب منهم أن يخبروا عن مقدار تفكيرهم في الماضي والحاضر والمستقبل معاً، يؤكّد الناس أنهم يفكرون بالمستقبل أكثر من غيره (24).

في الواقع، حين يغذ الباحثون العناصر التي تطفو على تيار وعي الإنسان العادي، يجدون أن حوالي 12% من أفكارنا اليومية، هي أفكار عن المستقبل (25). بعبارة أخرى، تنطوي كل ثمان ساعات من التفكير على ساعة من التفكير في أشياء لم تحدث بعد، أي أن كلاً منا، وبالمعنى الحقيقي للكلمة، يعتبر مقيماً في الغد بديمومة مؤقتة.

لماذا لا نستطيع ببساطة أن نكون هنا الآن؟ لماذا لا نستطيع القيام بما تجده سمكتنا الذهبية شيئاً بسيطاً؟ ولماذا تصرّ أدمغتنا بعناد على الإلقاء بنا في المستقبل، بينما ثفة الكثير من الأشياء يمكننا التفكير فيها اليوم؟

التنبؤ والعاطفة

تتمثل الإجابة الأكثر بدهاة على هذا السؤال في أنّ التفكير في المستقبل يمكن أن يكون أمراً ممتعاً.

فنحن نحلم أحلام اليقظة حول إحراز نقاط في لعبة «البيسبول»، خلال نزهة نظمتها الشركة أو التقاط صورة صحبة مفوض اليانصيب أو إلى جانب شيك بحجم الباب أو بثرثرة سريعة مع أمينة الصندوق الجذابة بالبنك. لكننا نفعل ذلك، لأننا نتوقع حدوث هذه الأشياء أو حتى نرغب فيها، بل لأنّ مجرد تخيل هذه الاحتمالات في حدّ ذاته، في الواقع يجلب السعادة. تؤكّد الدراسات ما ما قد تشكّك أنت في مدى صحته، وهو أنّ الناس عندما يستغرقون في أحلام اليقظة بشأن المستقبل، فهم يميلون إلى تخيل الإنجازات والنجاح بدلا من التعثر والفشل (26).

في الحقيقة، يمكن للتفكير في المستقبل أن يكون ممتعاً إلى درجة تجعلنا نُؤثر التفكير فيه على تحقيقه.

فقد ورد في إحدى الدراسات أنه قيل لمجموعة من المتطوّعين أنهم فازوا بعشاء مجاني في مطعم فرنسي مدهش، ثم سئلوا متى يرغبون في تناوله: الآن؟ الليلة؟ أو غدا؟ ورغم أنّ لذائذ الطعام كانت ظاهرة ومغرية، اختار أغلب المتطوّعين أن يؤجلوا زيارتهم إلى المطعم بعض الشيء، بشكل عام حتى الأسبوع المقبل (27).

ما سبب هذا التأجيل الذي قاموا به من تلقاء أنفسهم؟ لأنّ هؤلاء الناس، بانتظارهم أسبوعاً، لن يمضوا فقط ساعات في التهام المحار واحتساء نبيذ «شاتو شوفال بلان 47» Château Cheval Blanc 47، بل سيظلون أيضاً يتطلّعون إلى كل تلك الملذّات التي سيلتهمونها ويحتسونها على امتداد سبعة أيام كاملة قبل الموعد. فتأخير اللذة هي طريقة مبتكرة للحصول على ضعف مقدار العصير من نصف الفاكهة.

في الواقع، إنّ تخيل بعض الأحداث أكثر متعة من عيشها (كلنا نستطيع تذكّر ذلك الموقف عندما مارسنا الحبّ مع شريك جذاب أو تناولنا حلوى ذات مذاق رائع جداً، لنكتشف أنّ التفكير في ذلك الفعل كان أفضل من عيشه)، وفي هذه الحالات قد يقزّر الناس تأجيل الحدث إلى الأبد.

فعلى سبيل المثال: ورد في دراسة أنه ظُلب من بعض المتطوعين أن يتخيلوا أنفسهم يطلبون موعداً مع شخص يعجبهم بشكل كبير، فكانت النتيجة أن أولئك الذين أُطُلبوا في تخيلاتهم المبهجة عن موعدهم مع الحبيب المقرب، هم الذين كان قيامهم بذلك خلال الأشهر القليلة التالية الأقل احتمالاً (28).

نحن نحب أن نمرح ونحن نتخيل أفضل أيام الغد، ولم لا؟ فنحن، في النهاية، نملاً ألبومات صورنا بصورٍ عن حفلات عيد الميلاد والعطل التي قضيناها في المناطق الاستوائية، بدلاً من صور حوادث السيارات وزياراتنا إلى حجرات الطوارئ لأننا نرغب في الشعور بالسعادة أثناء تجوالنا في ممر الذاكرة.

إن لم نأخذ نفس الموقف من تجوالنا في شارع الخيال؟ ورغم أن تخيل مستقبل سعيد يشعرنا بالسعادة، إلا أن ذلك قد يؤدي إلى عواقب قد تسبب لنا المتاعب. فقد اكتشف الباحثون أن الناس عندما يجدون سهولة في تخيل حدث ما، فإنهم يبالغون في تقدير إمكانية تحققه (29)، وذلك لأن معظمنا مدرب على تخيل الأحداث الجيدة أكثر من تلك السيئة، كما نميل إلى المبالغة في تقدير احتمال حدوث الأحداث الجيدة، مما يقودنا إلى تفاؤل مفرط بالمستقبل.

على سبيل المثال، يتوقع طلبة الجامعة الأمريكيون أن يعيشوا طويلاً، وأن يدوم زواجهم طويلاً وأن يسافروا إلى أوروبا على نحوٍ أكثر تواتراً من المستوى المعتاد (30). إنهم يعتقدون كذلك بأنهم، على الأرجح، سوف يرزقون بطفل موهوب ويملكون منزلهم الخاص ويظهرون في الصحف، وأنه من المستبعد تعرضهم لنوبة قلبية أو مرض تناسلي أو إدمان على الكحول أو حادث سيارة أو كسر في العظام أو مرض في اللثة. يتوقع الأمريكيون من كل الأعمار أن يكون غدهم أفضل من حاضرهم (31). ورغم أن المواطنين في بلدان أخرى ليسوا بذلك التفاؤل الذين هم عليه، إلا أن الأمريكيين يميلون أيضاً إلى تخيل أن مستقبلهم سيكون أكثر إشراقاً من مستقبل غيرهم (32).

إنه لمن الصعبه بمكان التراجع عن هذه التوقعات المغالية في التفاؤل بمستقبلنا. فووقوع زلزال مثلاً، قد يجعل الناس يفكرون، مؤقتاً، بشكل أكثر واقعية إزاء خطر وقوع كارثة أخرى مستقبلاً قد يهلكون فيها. لكن، في خضم أسبوعين، حتى الناجون من الزلزال يعودون إلى المستوى المعتاد من التفاؤل غير المبرر (33).

في الحقيقة، إن الأحداث التي تنفي اعتقاداتنا المتفائلة يمكن أن تزيد من تفاؤلنا بدلاً من

التقليل منه. فقد كشفت دراسة عن أن مرضى السرطان أكثر تفاؤلا بخصوص مستقبلهم من أولئك الذين يتمتعون بصحة جيدة (34).

من المؤكد أن المستقبل الذي تصرّ أدمغتنا على استقدامه، لا يتعلّق فقط بالنبيذ والفيل والمحار الشهّي، بل غالبا ما يتعلّق بالأشياء العاديّة، المملّة، الغبيّة، البغيضة أو المخيفة للغاية. كما أن الناس الذين يبحثون عن علاج عاجزهم عن التفكير في المستقبل عادة ما يقلقون بشأنه بدلا من الاستمتاع به. فنحن نبدو جميعا، مثل سنّ يتخلخل ويتوسل انتزاعه، مرغمين بشكل عكسي على تخيل سيناريو مستقبلي تقلع فيه الطائرة دوننا، ونفوت اجتماعا مهقا مع العميل. وفي طريقنا إلى حفلة عشاء نتخيل سيناريوها مستقبليا يُناول فيه الجميع مضيفتهم قثينة من النبيذ، بينما نسلم نحن عليها محرّجين بيدين خاويتين. وفي طريقنا نحو المركز الطبي نتخيل سيناريوها يقظب فيه الطبيب جبينه، بينما يفحص صدورنا بواسطة أشعة أكس X-ray، وينذر بشيء سيء، كأن يقول «دعنا نتحدّث عن الخيارات التي تملكها». إن هذه الصور القاسية تجعلنا نشعر بالفزع حرفيا- لماذا إذن نبذل كل ذلك الجهد في اختلاقها؟

ثقة سيبان إثنان لذلك. أولا، يمكن لتخيل وقوع أحداث بغيضة أن يخفّض من قوّة تأثيرها. لنضرب مثلا هنا: تتحدّث دراسة عن تعرض مجموعة من المتطوّعين لسلسلة من عشرين صدمة كهربائية، تمّ تحذيرهم ثلاث ثوان قبل بداية كلّ واحدة منها (35). بعض أولئك المتطوّعين (الذين تلقوا الصدمات الأقوى) تلقوا عشرين صدمة كهربائية شديدة القوّة على كواحلهم.

أما البعض الآخر (مجموعة الصدمة الكهربائية المنخفضة) فتلقوا ثلاث صدمات شديدة القوّة وسبع عشرة واحدة منخفضة الحدة. ورغم أن مجموعة الصدمات المنخفضة تلقّت فولتات (volts) أقل من مجموعة الصدمات شديدة القوّة، إلا أن قلوب أفرادها كانت تدقّ بسرعة أكبر وكان العرق يتصبّب من أجسادهم بشكل أكثر غزارة، وصنّفوا أنفسهم بوصفهم الأكثر خوفا.

لماذا؟ لأنّ المتطوّعين في مجموعة الصدمة الكهربائية المنخفضة تلقوا صدمات كهربائية متفاوتة الشدّة في أوقات متباينة، مما جعل من المستحيل عليهم توقّع المستقبل. فيبدو أن ثلاث شحنات كهربائية لا يستطيع المرء توقّعها، هي أشدّ ألما من عشرين شحنة كهربائية كبرى بالإمكان توقّعها (36).

وأما السبب الثاني لتحقلنا كل ذلك العناء في تخيل أحداث بغيضة، فيتمثل في أن الخوف والقلق والحيرة حالات دورها مفيد في حياتنا. فنحن نستحثّ موظفينا وأطفالنا وأزواجنا وحيواناتنا الأليفة على السلوك القويم من خلال المبالغة في تصوير العواقب السيئة لسوء

تصرفهم، ونشجع أنفسنا على ذلك أيضا، من خلال تخيل الأيام غير السارة التي تنتظرنا في المستقبل، إذا قزرنا التخفيف من استعمال كريم واقى الشمس أو الإكثار من أكل حلوى الشوكولا. فالتنبؤات قد تكون «تنبؤات للخوف» (37) fearcasts، هدفها ليس توقع المستقبل، بقدر ما هو الحيلولة دون وقوعه. وقد أثبتت الدراسات أن هذه الطريقة غالبا ما تكون ناجعة في حث الناس على الشروع في سلوك حذر ووقائي (38). باختصار، نحن نتخيل أحيانا مستقبلا مظلما حتى نخيف أنفسنا.

التنبؤ والتحكم

يوفر التنبؤ المتعة ويمنع الألم، وهو أحد الأسباب التي تجعل أدمغتنا تصرّ بعناد على ابتكار أفكار عن المستقبل. لكنه ليس السبب الأهم. إذ ينفق الأمريكيون بكل سرور الملايين -وربما المليارات- من الدولارات كل سنة على الفيزياء وعلى مستشاري الاستثمار والقادة الروحانيين وخبراء الأرصاد الجوية ومختلف المحتالين الذين يدعون أنهم يستطيعون التنبؤ بالمستقبل. أما أولئك الذين يشجعون من بيننا أعمال قراءة الطالع، فهم لا يرغبون في معرفة ما يمكن أن يحدث، فقط من أجل متعة توقعه، فنحن نرغب في معرفة ما الذي قد يحدث، حتى نستطيع فعل شيء إزاء ذلك. فإذا كانت نسب الفوائد مثلا سترتفع بشكل صاروخي الشهر المقبل، عندها سنرغب في تحويل سنداتنا إلى أوراق مالية حالا. وإذا كانت ستمطر هذه الظهيرة، فإننا سنرغب في أخذ مطرئة معنا هذا الصباح. فالمعرفة هي القوة، وأهم سبب يجعل أدمغتنا تصرّ على تحفيز حدوث المستقبل، حتى عندما نفضل وجودنا في الحاضر، مستمتعين بلحظة نتقاسمها مع سمكتنا الذهبية. إن أدمغتنا ترغب في التحكم في التجارب التي نحن على وشك خوضها.

لكن لماذا نرغب في السيطرة على تجاربنا المستقبلية؟ ظاهريا، يبدو سؤالنا بلا معنى كسؤالنا عن رغبتنا في التحكم في أجهزة التلفاز الخاصة بنا وسياراتنا. لكن أمهلي قليلا حتى أوضح الأمر. فنحن نملك فضا جبهيا يمكننا من ولوج المستقبل، ونفعل ذلك بغية توقعه، ونتوقعه بغية التحكم فيه، لكن لم نتحكم فيه أصلا؟ لم لا ندع المستقبل ببساطة ينكشف أمامنا ونعيشه عندما يحدث؟ لم لا نكون الآن هنا وعندها وهناك؟ ثقة إجابتان عن هذا السؤال، إحداهما أن الأمر صحيح على نحو غير متوقع، والأخرى أن الأمر خاطئ على نحو غير متوقع أيضا.

إن السبب الصحيح على نحو غير متوقع هو أن الناس يستمتعون من خلال فعل التحكم، ليس فقط لأن ذلك يجعلهم يؤجلون المستقبل، لكن أيضا جزاء فعل السيطرة في حد ذاته. فأن نكون مؤثرين من خلال تغيير الأشياء والتأثير فيها واختلاقها هو أحد الاحتياجات الأساسية التي يبدو أن الطبيعة حبت بها أدمغتنا، والكثير من تصرفاتنا منذ الطفولة حتى الآن هي مجرد

تعبير عن هذا الميل نحو التحكم (39).

فقبل أن تلامس مؤخراتنا أولى الحفظات، كنا نمتلك تلك الرغبة الشديدة في الرضاعة والنوم والتبول وإنجاز الأمور. نستغرق بعض الوقت لنلبي آخر تلك الرغبات، فقط لأننا نمضي وقتنا حتى نكتشف أصابعنا، لكن عندما نفعل ذلك، على العالم أن يحذر منا. يصرخ الأطفال الصغار فرحا عندما يطيحون بكومة من المكعبات أو يضربون كرة أو يسحقون كعكة على جبينهم. لماذا؟ لأنهم نجحوا في ذلك. «انظري يا أمي لقد فعلت يدي ذلك. الغرفة أصبحت مختلفة لأنني داخلها. لقد فكرت في إسقاط المكعبات، وها قد سقطت».

في الحقيقة، يأتي البشر إلى العالم ولديهم رغبة ملحة في التحكم ويغادرونه بنفس الرغبة. ويشير البحث إلى أنهم إذا فقدوا القدرة على التحكم في أي لحظة بين دخولهم ومغادرتهم العالم، فإنهم يشعرون بالتعاسة، والعجز، واليأس، والكآبة (40).

وقد يؤدي بهم ذلك في بعض الأحيان إلى الموت. فقد ورد في إحدى الدراسات أن بعض الباحثين أعطوا بعض المسنين النزلاء في دار محلية للرعاية نبتة منزلية، وأخبروا نصفهم بأنهم سيتولون رعاية النبتة وسقايتها (المجموعة الأعلى تحكماً) ثم أخبروا بقية النزلاء أن أحد الموظفين سيهتم برعاية النبتة (المجموعة الأقل تحكماً) (41). بعد ستة أشهر، مات 30 % من النزلاء الذين ينتمون إلى مجموعة الأشخاص الأقل تحكماً، مقارنة بـ 15 % فقط من النزلاء المنتمين إلى المجموعة الأعلى تحكماً.

بعد تلك التجربة، صدرت دراسة وأثبتت أهمية التحكم الذي تمت ملاحظته لدى نزلاء دار الرعاية في الحفاظ على صحتهم، لكن كانت نهايتها غير متوقعة وغير سارة (42).

ولقد رتب باحثون زيارات منتظمة لفائدة بعض الطلبة المتطوعين إلى نزلاء دار الرعاية. سمح للنزلاء في مجموعة الأعلى تحكماً باختيار توقيت زيارة الطالب ومدتها («رجاء تعال لزيارتي الخميس القادم مدة ساعة»)، أما نزلاء المجموعة الثانية، فلم يسمح لهم بذلك (سأتي لزيارتك الخميس القادم مدة ساعة). بعد شهرين، كان النزلاء من مجموعة الأعلى تحكماً أكثر سعادة وصحة ونشاطاً وأقل تناولاً للأدوية من أولئك الذين في مجموعة الأقل تحكماً. عند تلك المرحلة أنهى الباحثون دراستهم، وأوقفوا زيارات الطلبة. وبعد عدة أشهر وصلهم خبر حزين مفاده أن عدداً متفاوتاً من النزلاء الذين كانوا ضمن مجموعة الأعلى تحكماً قد ماتوا، ولم يوضح سبب تلك المأساة إلا في وقت لاحق، فقد منحت للنزلاء فرصة التحكم واستفادوا بشكل ملحوظ من ذلك أثناء ممارستهم له، ثم، وعلى نحو مفاجئ، انثرت منهم تلك القدرة على

يبدو أنّ للقدرة على التحكّم تأثيرا إيجابيا في صحة الإنسان ورفاهيته لكنّ فقدان تلك القدرة يمكن أن يكون أسوأ من امتلاكها أصلا.

إنّ رغبتنا في التحكّم قوية جدا، وشعورنا بأننا متحكّمون في الأمور شعور مثير على نحو يجعل الناس يتصرفون غالبا، كما لو أنّهم يستطيعون التحكّم في ما هو خارج عن سيطرتنا. فعلى سبيل المثال، يراهن الناس بقدر من المال على ألعاب الحظّ، عندما يكون منافسوهم غير أكفاء أكثر من القدر الذي يقامرون به عندما يكون منافسوهم أكفاء- كما لو أنّهم يعتقدون أنّ بإمكانهم التحكّم في عشوائية سحب أوراق اللعب، وبذلك الاستفادة من ضعف منافسهم(43). كما يشعر الناس بثقة أكبر في كسب ورقة يانصيب، إذا كان بإمكانهم التحكّم في الرقم الذي على بطاقتهم(44). وعند لعب النرد يشعرون بثقة أكبر بأنهم سيكسبون رمية نرد، إذا قاموا برمي الحجر بأنفسهم(45). كما يراهن الناس على حجر النرد الذي لم يتمّ رميه بعدّ بقدر أكبر من النقد من ذلك الذي يراهنون به على حجر النرد الذي ألقى به مسبقا. غير أنّ نتيجته غير معلومة بعدّ(46). وسيقامرون أكثر، إذا كانوا هم، وليس شخصا آخر، من بإمكانهم تقرير أي رقم سيحتسب رقما رابحا(47).

في كلّ مثال من هذه الأمثلة، يتصرّف الناس بطريقة كانت ستبدو عبثية بالكامل إذا كانوا يعتقدون أنّهم لا يتحكّمون في أمر خارج عن سيطرتهم. لكنّ إذا كانوا، في مكان ما في دواخلهم، يعتقدون أنّ بإمكانهم فرض سيطرتهم -ولو كان بنسبة جزء صغير من ذرّة واحدة من التحكّم- عندها سيكون تصرفهم معقولا للغاية. وفي أعماقنا، هذا ما يبدو بالتحديد أنّ معظمنا يؤمن به، لماذا لا يبدو لنا من الممتع مشاهدة تسجيل لمباراة كرة القدم دارت الليلة الماضية، رغم أنّنا لا نعلم من ربح؟ لأنّ حقيقة أنّ اللعبة انتهت نهاية تحول دون احتمال أن يخترق هتافنا التلفاز على نحو ما، ويمتدّ عبر الأسلاك «الكبلية» ليجد طريقه نحو الملعب، ويؤثر في مسار الكرة، بينما تندفع بسرعة نحو قائمتي المرمى! قد لا يكون أغرب ما في وهم السيطرة هذا أنه يتحقّق، بل أنّه يضيف الكثير من المزايا السيكولوجية للسيطرة الحقيقية.

في الواقع، ثمة مجموعة واحدة من الناس يبدو أنّهم محضنين عموما، أمام هذا الوهم، وهم المصابون بالاكتئاب السريري(48)، والذين يميلون إلى التقدير الدقيق لدرجة تحكّمهم في الأحداث في أغلب الوضعيات(49).

إن هذه النتائج التي توصلنا إليها ونتائج أخرى، قادت بعض الباحثين إلى استنتاج أن الشعور بالتحكم -سواء أكان واحدا أو حقيقيا- فهو أحد منابع الصحة العقلية (50). وهكذا إذا كان السؤال هو: «لماذا علينا أن نتحكم في مستقبلنا؟، فالإجابة الصحيحة على نحو غير متوقع، هي أن ذلك يمنحنا شعورا رائعا، نقطة، فالتأثير مجز.

إن الاضطلاع بشيء مهم يمنحنا شعورا بالسعادة، فقيادة المرء قاربه في عمق النهر مصدر متعة أيّا كان ميناء الوصول.

الآن، وفي هذه المرحلة، من المحتمل أنك تصدق شيئين اثنين: أولا، ربما تعتقد أنك إذا لم تسمع من قبل بعبارة «نهر الزمن»، فسيحدث ذلك قريبا. أمين. ثانيا، ربما تعتقد أنه، حتى لو كان فعل قيادة قارب مجازي في عمق نهر مألوف مصدر متعة ورفاه، إلا أن وجهة القارب أكثر أهمية من ذلك، أكثر بكثير. فلعب دور القبطان يبعث على سعادة لا يعادلها شيء، لكن السبب الحقيقي وراء رغبتنا في قيادة قواربنا هو أننا بإمكاننا توجيهها نحو «هانالاي» Hanalei عوضا عن «جيرزي سيتي» Jersey City.

فبالأكيد، تحدّد طبيعة المكان شعورنا عند الوصول، وقدرتنا الإنسانية المتفردة على التفكير في المستقبل الممتدّ أمانا تمكّنا من اختيار أفضل الوجهات وتجنب أسوأها. نحن القردة الذين تعلمنا التطلع إلى الأمام، لأن القيام بذلك يمكّنا من انتقاء أفضل مصير من بين المصائر الكثيرة التي قد تصيبنا. والحيوانات الأخرى مجبرة على خوض التجربة حتى تتعرّف على الملذات والألام. لكن قدراتنا على التنبؤ تمكّنا من تخيل تلك التي لم تحدث بعد، وبذلك نوّفر على أنفسنا عناء الدروس المستخلصة من التجربة. فنحن لا نحتاج إلى لمس جمرة لنعرف أنها ستسبب لنا الأذى، إذا فعلنا ذلك، ولا نحتاج إلى التعرّض للهجر، أو الازدراء أو الطرد أو تخفيض الرتبة أو المرض أو الطلاق لنعرف أن كل هذه الأشياء ذات نهايات غير محبذة، وأنه علينا القيام بكل ما في وسعنا لتجنبها. إننا نرغب في التحكم في وجهة قاربنا وعلينا أن نرغب في ذلك، لأن بعض أيام الغد أفضل من الأيام الأخرى وحتى من هذه المسافة يجب علينا أن نكون قادرين على التمييز بينها.

هذه الفكرة هي بديهية إلى حد يجعلها بالكاد جديرة بالذكر، لكنني مع ذلك سأشير إليها. في الواقع، سوف أكمل بقية هذا الكتاب محيلا إليها، لأنه من المحتمل أن الأمر يتطلب أكثر من بضع إشارات، فقط لإقناعك بأن ما يبدو لك فكرة بديهية، هو في الحقيقة الإجابة الخاطئة غير المتوقعة عن سؤالنا. نحن نصز على توجيه قاربنا، لأننا نعتقد أننا نملك دراية جيدة بالمكان الذي علينا الذهاب إليه. لكن في الحقيقة، جزء كبير من قيادتنا بلا جدوى - ليس لأن القارب لن ينقاد

لنا، ولا لأننا لا نستطيع العثور على وجهتنا، بل لأن المستقبل مختلف بشكل جوهري عما يبدو من خلال «مجهر التنبؤ» prospectiscope.

تماما مثلما جزينا أوهام البصر («أليس من الغريب أن يبدو ذيل أطول من الآخر، رغم أنه ليس كذلك؟») وأوهام «الإدراك المتأخر» hindsight («أليس من الغريب ألا أستطيع تذكر أي أخرجت كيس القمامة رغم من أي قمت بذلك؟»)، كذلك نحن نجذب خدع استشراف المستقبل- وتُفسر كل أنواع الخدع الثلاث بنفس المبادئ الأساسية لسيكولوجية الإنسان.

إلى الأمام

حتى أكون صادقا تماما، سوف لن أشير فقط إلى الإجابة الخاطئة غير المتوقعة، بل سأسحقها وأسدد لها اللكمات، حتى تستسلم وتعود أدراجها. فالإجابة الخاطئة غير المتوقعة تبدو منطقية للغاية وراسخة بشكل كبير، مما يجعل أمل شطب هذا الاعتقاد السائد من أذهاننا، لا يمكن أن يتحقق إلا بتسديد ضربات مستمرة له. إذن، وقبل أن تبدأ مباراة الضغينة هذه، دعوني أشارككم خظتي للهجوم.

• في الجزء الثاني، «الذاتية»، سأحدثك عن علم السعادة. كلنا نقود أنفسنا باتجاه المستقبل الذي نعتقد أنه سيجعلنا سعداء، لكن ما الذي تعنيه تلك الكلمة حقا؟ وكيف لنا أن نأمل في الحصول على إجابات ووجيهة وعلمية عن أسئلتنا حول شعور رقيق، هس هو أوهى من بيت العنكبوت؟

• نحن نستخدم أعيننا لنمعن النظر في الفضاء، ومخيلتنا لنمعن النظر في الزمن. ومثلما تقودنا أعيننا في بعض الأحيان إلى رؤية أشياء على خلاف حقيقتها، فإن مخيلتنا أحيانا تقودنا إلى التنبؤ بأشياء على خلاف ما ستكون عليه. تعاني المخيلة من ثلاثة عيوب تُفضي إلى خدع استشراف المستقبل التي يتناولها هذا الكتاب بصورة أساسية.

• في الجزء الثالث، «الواقعية»، سأحدثكم عن العيب الأول: تعمل المخيلة بسرعة وصمت وفاعلية قصوى تجعلنا لا نشكك بالقدر الكافي في ما تنتجه.

• في الجزء الرابع، «الحاضرة»، سأحدثك عن العيب الثاني والمتمثل في أن نتاج المخيلة... حسنا، ليس خياليا تماما، لذلك فالمستقبل المتخيل غالبا ما يشبه زمن الحاضر.

• في الجزء الخامس، «العقلنة»، سأحدثك عن العيب الثالث، وهو أن المخيلة يصعب عليها أن تخبرنا كيف سنرى المستقبل عندما نبلغه. إذا كنا نواجه بعض المتاعب عند تنبؤ أحداث

المستقبل، فسنواجه متاعب أكثر في تنبؤنا بكيفية رؤيتنا لها عندما تحدث.

• أخيراً، في الجزء السادس، «قابلية الإصلاح»، سوف أحدثك عن سبب صعوبة علاج خدع تنبؤ المستقبل بواسطة التجربة الشخصية أو الحكمة التي نرثها عن جدائنا. ثم سأختم بإخبارك عن علاج بسيط لهذه الخدع، والذي لن تتقبله بالتأكيد.

عندما تتم قراءة هذه الفصول، أرجو أن تكون قد فهمت لماذا نقضي جزءاً كبيراً من حياتنا في تحريك دفة السفينة ورفع الأشرعة، ثم ما نلبث أن نكتشف أن «شانغريلا» Shangri-la ليست كما كنا نعتقد، ولا هي في الواجهة التي ظننا أنها توجد فيها.

الجزء الثاني الذاتية

«الذاتية: لا يلاحظ التجربة إلا من يخوضها»

الفصل الثاني الرؤية من هنا

ولكن، أه كم هو قاس أن ترى السعادة بعيون سواك!

شكسبير، كما تشاء

قد تكون لوري وربما شابيل توأمتين لكنهما مختلفتان تماما. فربما فتاة خجولة، انقطعت قليلا عن شرب الكحول، وقامت بتسجيل ألبوم حاز على جائزة موسيقى «الكانتري»، أمّا لوري فهي منفتحة، مرحة، مولعة بشراب الفراولة الفسكر، تعمل في المستشفى، وترغب يوما ما في الزواج وإنجاب الأطفال. مثل كل الشقيقات، كانتا تتشاجران من حين إلى آخر، لكنهما في معظم الأحيان تتفقان وتكفل إحداهما الأخرى، وتتمازحان، وتعرف كل واحدة منهما ما تفكر فيه أختها.

في الحقيقة، ثقة شينان فقط غريبان يتعلقان بلوري وريبا: الأول أنهما تتقاسمان نفس الدم وجزءًا من الجمجمة وبعض الأنسجة الدماغية. فقد ولدتا ملتصقتين عند الجبهة، حيث إن جانبًا من جبهة لوري كان ملتصقا بالجانب الآخر من جبهة ريبا، فأمضيتا كل لحظة من حياتهما مرتبطتين الواحدة بالأخرى وجها لوجه. الأمر الغريب الثاني المتعلق بلوري وريبا أنهما سعيدتان- ليستا فقط راضيتين وقانعتين، بل هما فرحتان، مرحتان، متفائلتان(51). بالطبع لقد واجهتا خلال حياتهما الغريبة الكثير من التحذيرات، لكن، من لا يواجه ذلك؟ عندما تُسألان عن إمكانية إجراء عملية جراحية لفصلهما، تقول ريبا، نيابة عنهما الإثنتين: «من وجهة نظرنا الإجابة هي لا، لا ودون تردد. فما الذي قد يدفع بالمرء إلى القيام بذلك؟ قد تُحظم حياتان أثناء هذه العملية»(52).

إذن فالسؤال هو الآتي: إذا كانت هذه حياتك، فكيف كنت ستشعر؟ إذا قلت: فرحا، مرحا، متفائلا، فأنت لم تحترم قواعد اللعبة، وسأمنحك فرصة أخرى. حاول أن تكون صادقا لا أن تعطي إجابة مناسبة.

الإجابة الصادقة هي: «بائسا، يائسا، كئيبا». فمن البديهي أن لا أحد من العقلاء، يمكن أن يشعر حقا، بالسعادة في ظل ظروف كهذه، مما يجعل الرأي الطبي السائد يقول بوجود فصل التوأمين الملتصقين عند الولادة، حتى لو تفت المخاطرة بموت أحدهما أو الاثنين معا. كما كتب مؤرخ طبي بارز: «يرى كثير من الأفراد، وخاصة الجراحون، أنه لا يمكن تصوّر أن حياة توأمين لصيقين جديدة بأن تعاش، ولا أن يكون أحدهما غير مستعد للمخاطرة بكل شيء: بالقدرة على

الحركة وعلى الإنتاج وبحياة أحد التوأمين أو كليهما، من أجل محاولة فصلهما» (53). بعبارة أخرى، لا يتوقف الأمر على أن الجميع يعرف أن التوأمين اللصيقين سيكونان حتما أقل سعادة من الناس العاديين فحسب، بل الجميع يعلم أيضا أن الحياتين المرتبطتين غير جديرتين تماما بالعيش، مما يجعل عمليات الفصل بينهما ضرورة أخلاقية. ومع ذلك من يعارض يقيننا بشأن كل هذه المسائل هما التوأمين نفساها، فعندما سئلت لوري وريبا كيف تشعران إزاء وضعيتهما، قالتا إنه لم يكن بوسعهما أن تكونا على شاكلة أخرى.

وأثناء قيامه ببحث مضمّن في الأدبيات الطبية كان المؤرخ الطبي ذاته قد وجد أن «الرغبة في البقاء معا، منتشرة وسط التوائم الملتصقة في كل العالم تقريبا» (54). ثقة شيء خاطئ بشكل مفرع في هذا. لكن ما هو؟

ظاهريًا هناك إمكانيتان: هناك من يرتكب خطأ فادحا بحديثه عن السعادة، سواء أكانت لوري وريبا أو أي أحد آخر في العالم. ولأننا نمثل ذلك الآخر المعني بالأمر، فمن الطبيعي أن ننجذب إلى الاستنتاج الأخير، لننفي ادعاء سعادة التوأمين من خلال ردود مرتجلة مثل: «أوه، إنهما لا يقصدان ذلك تماما»، أو «ربما تظننان أنهما سعيدتان، لكنهما ليستا كذلك»، أو يكون ذلك الرد الأكثر شيوعا: «إنهما لا تعرفان ما تعنيه السعادة حقا». (عادة نقول هذا كما لو أننا نعرف معنى السعادة) وهو أمر معقول.

لكن هذه الردود هي أيضا إدعاءات، كتلك الإدعاءات المرفوضة، إدعاءات علمية وفلسفية، تفترض إجابات عن أسئلة حيرت العلماء والفلاسفة مدة آلاف السنين. فما الذي نتحدث عنه جميعا عندما نزعم مزايم كهذه بشأن السعادة؟

الرقص على الهندسة المعمارية

لقد ألقت آلاف الكتب عن السعادة، وبدأ معظمها بالسؤال عن معناها الحقيقي، وهو -مثلما سارع القراء بالفهم- ما يعادل تقريبا استهلال رحلة بالسقوط مباشرة في أول حفرة وحل تعترضك، لأن السعادة بشكل أو بآخر، ليست في حقيقتها سوى كلمة يستطيع مبتدعو الكلمات استخدامها للإشارة إلى أي شيء يولد داخلنا حالة من الاستمتاع.

لكن الإشكال يكمن في أن الناس يبدون مبتهجين باستخدام هذه الكلمة بالذات للإشارة إلى حزمة من الأشياء المتنوعة، مما خلق فوضى اصطلاحية هائلة تأسست عليها عدة مسارات مهنية، أكاديمية، ناجحة. وإذا انزلق أحدها نحو هذه الفوضى فترة كافية من الزمن، فسيدرك أن أكثر الاختلافات في الرأي بشأن المعنى الحقيقي للسعادة هي اختلافات دلالية عفا إذا كان

ينبغي استخدام الكلمة للإشارة إلى هذا أو ذلك، أكثر من كونها اختلافات فلسفية حول طبيعة هذا أو ذلك. فما: هذا أو ذلك اللذان تشير إليهما السعادة غالباً؟

تستخدم كلمة السعادة للإشارة على الأقل إلى ثلاثة أشياء متصلة ببعضها البعض والتي يمكن أن نسقيها على نحو ما بـ: السعادة العاطفية والسعادة الروحية والسعادة التقديرية.

الشعور بالسعادة

إن السعادة العاطفية، هي أكثر أنواع السعادة أهمية في هذا الثلاثي، في الحقيقة، هي مهمة إلى حد يجعل ألسنتنا تنعقد عندما نحاول تعريفها، فعبارة السعادة العاطفية هي رديفة كلمات من قبيل: شعور، تجربة، حالة ذاتية وهكذا فهي لا تملك مرجعاً في العالم المادي.

قلو سرنا على مهل في اتجاه الحانة التي في المنعطف، والتقينا بكائن فضائي ينتمي إلى كوكب آخر وسألنا عن تعريف ذلك الشعور، فسنشير إما إلى الأشياء في العالم التي تولد ذلك الشعور، أو سنذكر مشاعر أخرى تشبهه. في الحقيقة، هذا ما يمكننا فعله فحسب، عندما يُطلب منا تعريف تجربة ذاتية.

لنفكر، على سبيل المثال، كيف بإمكاننا تعريف تجربة ذاتية بسيطة كتجربتنا مع الأصفر. لا بد أنكم تعتقدون أن الأصفر لون، لكنه ليس كذلك، بل هو حالة نفسية، وهو ما يختبره البشر بواسطة جهاز بصري، عندما يُسلط الضوء على عيونهم بطول موجي يقدر بـ 580 نانوميتر. إذا طلب منا صديقنا الفضائي في الحانة بأن نصف ما نعيشه، عندما ندعي أننا نرى الأصفر، فمن المحتمل أن نبدأ بالإشارة إلى وعاء من الخردل أو إلى ليمونة أو إلى بطة مطاطية، ونقول: «هل ترى كل تلك الأشياء؟».

إن الشيء المشترك في التجربة البصرية التي نعيشها عندما ننظر إليها يسمى «الأصفر». أو قد نحاول تعريف التجربة التي تُسمى الأصفر من خلال تجارب أخرى. كأن نقول مثلاً: «الأصفر؟ حسناً إنه يشبه تجربة البرتقالي على نحو ما، وأقل بقليل من تجربة الأحمر. فإذا صرح الفضائي بأنه لم يستطع معرفة الشيء المشترك بين البطة والليمونة ووعاء الخردل، وأنه لم يعش قط تجربة البرتقالي والأحمر، عندها سيكون الوقت قد حان لطلب نصف زجاجة أخرى من الشراب وتغيير الموضوع نحو الحديث عن الرياضة العالمية لـ «هوكي الجليد»، لأنه لا وجود لطريقة أخرى للتعريف بالأصفر.

يحبذ الفلاسفة القول إن الحالات الذاتية «لا يمكن اختزالها»، مما يعني أن لا وجود لشيء قد نشير إليه، ولا شيء يمكننا مقارنته بها، ولا شيء يمكننا قوله عن ركانتها العصبية يستطيع

تعويض تلك التجارب، في حد ذاتها، تعويضا كلياً (55).

شهر الموسيقار فرانك زابا بقوله: إن الكتابة عن الموسيقى تشبه الرقص على الهندسة المعمارية، وهكذا هو الحديث عن الأصفر. لو كان نديماً الجديد يفتقر إلى آلية رؤية الألوان، فلا يمكنه إذن، مقاسمتنا تجربتنا مع الأصفر -أو لا يعلم أبداً أنه يتقاسمها معنا- مهما أجدنا الإشارة إليه أو التحدث عنه (56).

هكذا هي السعادة العاطفية. إنها الإحساس المشترك بتلك المشاعر التي نمز بها عندما نرى حفيدتنا الجديدة تبتسم ابتسامتها الأولى، أو عندما نحصل على ترقية، أو عندما نساعد سائحا تائها في العثور على متحف الفنون أو نشعر بمذاق الشوكولا البلجيكية على ألسنتنا، أو نستنشق رائحة شامبو من نحب، أو نسمع الأغنية التي كانت تعجبنا كثيراً أيام المدرسة ولم نسمعها منذ سنوات، أو يلامس خدنا فرو هزتنا الصغيرة أو نعالج أحداً من السرطان أو نستنشق حفنة هائلة من الكوكايين.

إن هذه المشاعر مختلفة بالتأكيد، لكن بينها، مع ذلك شيء مشترك. فقطعة أرض لا تعادل حصة من الأسهم في البورصة التي بدورها لا تعادل أوقية من الذهب. لكنها كلها أشكال من الثروة تحتل نقاطاً مختلفة وموزعة على مقياس القيمة. وبالمثل فتجربة الكوكايين لا تعادل تجربة فرو الهزة الصغيرة، والتي هي بدورها، لا تعادل تجربة الترقية، لكن كلها ضروب متنوعة من شعور يحتل نقاطاً مختلفة وموزعة على مقياس السعادة.

في كل من هذه الحالات، تُولد مصادفة شيء ما في العالم، تقريبا نمط النشاط العصبي ذاته (57). وهكذا يصبح من المنطقي وجود شيء مشترك في عيشنا كل حالة من تلك الحالات، يتمثل في انسجام مفاهيمي، قاد البشر إلى تجميع مزيج من الأحداث ضمن الأنموذج اللساني نفسه، منذ الأزل.

في الحقيقة، عندما حلل الباحثون كيفية ارتباط الكلمات في أي لغة بالكلمات الأخرى، اكتشفوا بشكل لا محيد عنه بأن جدوى الكلمات أي مدى قدرتها على الإشارة إلى تجربة السعادة أو التعاسة - هي العامل الوحيد الأكثر أهمية في علاقتها ببعضها البعض (58). ورغم جهود تولستوي الرائعة، يعتبر أغلب من خاضوا في الموضوع أن الحرب ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقىء أكثر من ارتباطها بالسلام.

فالسعادة هي إذن، ذاك الشعور الذي يسمي: أنت تعرف ما أعني. فإذا كنت إنساناً يعيش في هذا القرن وتقاسمي بعضاً من التأقلم الثقافي، سوف تكون إشارتي إلى الأشياء والمقارنة بينها

أمرا فعلا، وسوف تعرف الشعور الذي أعنيه بالضبط. أفا إذا كنت كائنا فضائيا لازال يجاهد لفهم معنى الأصفر فسيكون فهم الشعور بالسعادة تحديا حقيقيا. لكن لا تخف، لأنني قد أواجه تحديا مماثلا، إذا أخبرتني بأن على كوكبك ثقة شعور مشترك بين هذه الأفعال: قسمة الأرقام على ثلاثة وخبط الرأس برفق على مقبض الباب وإطلاق شحنات متواترة من النيوترونات من أي ثقب في أي وقت، ما عدا يوم الثلاثاء.

إذ لن يكون لدي أي فكرة عن ذلك الشعور، وسيكون بوسعي فقط حفظ الاسم والأمل في استخدامه بتهذيب أثناء المحادثات. إذ يمكن تعريف السعادة العاطفية على نحو التقريب فقط، من خلال الأحداث التي تسبقها وعلاقتها بالتجارب الأخرى، وذلك لأنها تجربة (59). خصص الشاعر ألكسندر بوب نحو ربع مقاله عن الإنسان لموضوع السعادة، وختمه بهذا السؤال: «فمن ذا الذي يعزف السعادة إذن، بأكثر أو أقل من كونها سعادة؟» (60).

قد تتصدى السعادة العاطفية لجهودنا التي تحاول ترويضها من خلال وصفها، لكن حين نشعر بها، لن يخامرنا الشك بخصوص حقيقتها وأهميتها، فكل من يتأمل السلوك البشري لأكثر من ثلاث ثوان متواصلة، سوف يلاحظ أن الناس مدفوعون بقوة، وربما حتى بصورة أولية وبمتمتهى الوثوق نحو الشعور بالسعادة. وإذا كان ثقة مجموعة من البشر يفضلون اليأس على البهجة والإحباط على الرضا والألم على المتعة، فلا بد أنهم يحسنون الاختباء جيدا لأن لا أحد سبق أن رآهم. فالناس يرغبون في تحقيق السعادة، ومن أجل بلوغ تلك الغاية يتخذون عادة من كل الأشياء الأخرى وسائل لذلك. وحتى عندما يمتنعون عن السعادة، عن طريق اتباع حمية عوض الأكل أو العمل إلى وقت متأخر، عوض النوم مثلا، فهم يقومون غالبا بهذا من أجل زيادة تحققها في المستقبل.

يفسر القاموس «أفضل» بـ «أن نختار أو نرغب في شيء بدلا عن شيء آخر لأنه قد يكون أكثر متعة»، مما يعني أن السعي وراء السعادة يتأسس داخل مفهوم الرغبة. وبهذا المعنى، لا يشخص تفضيل الألم والمعاناة بصفاتها حالة نفسية بقدر ما هو «أوكسيمورون» oxymoron (تناقض ظاهري).

اعتاد علماء النفس جعل السعي وراء السعادة محور نظرياتهم التي تتعلق بالسلوك الإنساني، لأنهم اكتشفوا أنهم لو لم يفعلوا ذلك، فلن تعمل نظرياتهم بصورة جيدة. كما كتب سيغموند فرويد:

«لقد ظرحت مسألة الغاية من حياة الإنسان مزارا لا تحصى ولا تعد. غير أنها لم تصل إلى

إجابة شافية، أو ربما لم تعترف بوحدة... لهذا دعونا ننتقل إذن، إلى السؤال الأقل طموحا والمتعلق بما يظهره البشر من سلوك يعكس هدفهم وغايتهم من الحياة. فما الذي يطلبونه من الحياة ويتمنون تحقيقه؟ إن الإجابة عن هذا لا جدال فيها، إنهم يسعون وراء السعادة؛ ويرغبون في أن يصبحوا سعداء على نحو دائم. هذا السعي له جانبان، جانب إيجابي وآخر سلبي. فهو من ناحية يهدف إلى حياة بلا ألم ولا استياء ومن ناحية أخرى، إلى تجربة الإحساس بمتعة قوية» (61).

كان فرويد هو من بلّور هذه الفكرة بامتياز. لكنه لم يكن مبتدعها، فقد ظهر هذا التنظير ذاته بشكل أو بآخر في النظريات النفسية لأفلاطون وأرسطو وهوبز وميل وبنثام وآخرون، وقد كان عالم النفس والرياضي بليز باسكال على وجه الخصوص واضحا بشأن هذه النقطة في قوله:

«يبحث كل البشر، دون استثناء، عن السعادة. ومهما اختلفت الوسائل التي يستخدمونها، كلهم يميلون إلى بلوغ هذه الغاية. والسبب وراء ذهاب البعض إلى الحرب وتجنب آخرين لها، هو الرغبة ذاتها عند كليهما، غير أنهم ينضمون إلى الحرب بوجهات نظر مختلفة. فإرادتهم لا تدفعهم إلى اتخاذ أي خطوة، إلا من أجل بلوغ هذا الهدف. هذا هو الدافع لكل فعل من أفعال البشر، حتى أولئك الذين يشنقون أنفسهم» (62).

أشعر بالسعادة لأنني

إذا سلم كل المفكرين في كل قرن بأن الناس يبحثون عن السعادة العاطفية، فكيف إذن نشأ كل هذا الالتباس حول معنى الكلمة؟ من بين الإشكالات المطروحة، أن الكثير من الناس يعتبرون الرغبة في السعادة تشبه بعض الشيء الرغبة في التبرز: شيئا نملكه كلنا، لكنه ليس بالشيء الذي ينبغي علينا أن نفتخر به افتخارا مخصوصا. إن نوع السعادة التي يتصوّرونها في أذهانهم هي سعادة رخيصة، وضيعة، حالة تافهة من «قناعة البقر» (63)، التي لا يمكنها، على الأرجح، أن تكون أساس حياة إنسانية ذات معنى. وفي هذا السياق، كتب الفيلسوف جون ستورت ميل:

«من الأفضل أن تكون إنسانا غير راض على أن تكون خنزيرا راضيا، من الأفضل أن تكون سقراطا غير راض على أن تكون أحمق راضيا. وإذا كان للأحمق، أو للخنزير رأي آخر، فذلك لأنهما على دراية فقط، بالجانب الذي يخضهما من المسألة» (64).

حاول الفيلسوف روبرت نوزيك أن يستدل على شيوع هذا الاعتقاد من خلال وصف آلة خيالية للحقيقة الافتراضية تمكن أيا كان من أن يعيش التجربة التي يختارها وتجعله ينسى أنه

ثم استنتج أن لا أحد قد يرغب في أن يظل موصولاً بتلك الآلة بقية حياته، لأنَّ السعادة التي سيعيشها بفضلها، لن تكون سعادة حقيقية مطلقاً. «فمن يقوم شعوره على تقييمات مزيفة، لا أسس لها، على هذا النحو الفظيع، سوف لن نكون على يقين من تسميته سعيداً، رغم أنه يشعر بالسعادة(66). إذن، فالسعادة العاطفية، باختصار مناسبة للخنازير، لكنها هدف بلا قيمة بالنسبة إلى مخلوقات متطورة، وذات قدرات مثلنا.

الآن، دعونا نخضع بعض الوقت لنفكر في هذه الوضعية الشائكة التي وجد كل من يحمل هذا الرأي نفسه فيها، ودعونا نخمن كيف سيحل هذا الأمر. فإذا كنت تعتبره أمراً شديداً المأساوية، ألا تهدف الحياة إلى شيء آخر أكثر قيمة جوهرية وأهمية من مجرد شعور ورغم ذلك لا يسعك سوى أن تلاحظ أن الناس تنفق أيامها بحثاً عن السعادة، فأبي استنتاج قد تجد نفسك مدفوعاً إليه؟

وجدتها! قد تميل إلى استنتاج أن كلمة سعادة لا تشير فقط إلى شعور جميل، بل شعور جميل وخاض، لا يمكن للفرد أن يبلغه إلا بوسائل خاصة، عندما يعيش حياته مثلاً بطريقة سليمة، أخلاقية، ذات معنى، عميقة، مثمرة، سقراطية، لا تشبه حياة الخنازير.

حينئذ، هذا هو نوع الشعور الذي لن يخجل الفرد من السعي وراءه. في الواقع، يملك الإغريق مفردة من مترادفات هذا النوع من الشعور «يودايمونيا» Eudaimonia وهي ترجمة حرفية لـ «الروح الطيبة»، لكنها قد تعني شيئاً آخر كـ «الازدهار الإنساني» أو «الحياة الطيبة». فمن وجهة نظر سقراط وأفلاطون وأرسطو وشيشرون وحتي أبيقور (اسم عادة يرتبط بسعادة الخنازير)، وما يحفز هذا النوع من السعادة هو أداء الفرد واجباته أداءً فاضلاً، مع ترك شرح المعنى الدقيق لكلمة فضيلة لكل فيلسوف، كي يقوم به بنفسه. أشار واضع القانون الإغريقي سولون قديماً إلى أنه ليس بوسع أي كان أن يصف شخصاً بأنه سعيد، قبل أن تنتهي حياة ذلك الشخص، لأنَّ السعادة ثمرة عيش الفرد حياته وفق قدراته. فكيف يمكننا إطلاق حكم كهذا قبل أن نرى كل ذلك يتحقق؟

ثم بعد عدة قرون، قام اللاهوتيين المسيحيين بإضافة تطور ذكي لهذه الرؤية الكلاسيكية قائلين إنَّ السعادة ليست مجرد نتاج حياة تتسم بالفضيلة، بل جزء حياة فاضلة، غير أنه ليس من المتوقع ضرورة أن يحصل الفرد على ذلك الجزء في هذه الحياة(67).

شعر الفلاسفة مدة ألفي سنة بضرورة تعريف معنى السعادة من خلال الفضيلة، لأنهم

يعتقدون أنها نوع السعادة التي لا بد أننا نرغب في الحصول عليها. وربما هم على حق، لكن إذا كان عيش الفرد وفقا للفضيلة يؤدي إلى السعادة، فهذا لا يتطابق مع معنى السعادة في حد ذاتها. وليس من المجدي التعقيم على النقاش بإطلاق الاسم ذاته على السبب والنتيجة. مثلا، يمكنني أن أسبب لك الألم من خلال وخز إصبعك بواسطة دبوس أو من خلال تحفيز نقطة معينة في دماغك بواسطة الكهرباء. وفي كلتا الحالتين سيكون شعورك بالألم هو ذاته. لكنه متولد عن وسيلتين مختلفتين، فلا فائدة إذن، من تسمية الألم الأول *ألما حقيقيا* والآخر *ألما مزيفا*. فالألم هو الألم، مهما كان سببه. لذلك، وفي نطاق خلط الفلاسفة بين الأسباب والنتائج، اضطروا إلى بناء وسائل دفاعية مثيرة للدهشة أمام تعرضهم للتعذيب. فعلى سبيل المثال: لا يمكن اعتبار مجرم حرب نازي يتشقق على شاطئ في الأرجنتين شخصا سعيدا حقا، بينما يعتبر المبشر الروع الذي يتم التهامه حيا من طرف آكلي لحم البشر شخصا سعيدا. كتب شيشرون في القرن الأول قبل الميلاد: «لا شيء يمنع السعادة من التحقق مهما تعرضت للتعذيب» (68). قد يثير هذا الكلام الإعجاب لما يتصفه من شجاعة، لكنه قد لا يصور مشاعر المبشر الذي أعذ ليكون طبقا رئيسيا لآكلي لحوم البشر.

إن السعادة كلمة نستخدمها عموما للإشارة إلى تجربة ما، وليس إلى الأفعال التي تؤدي إليها. فهل من المنطقي القول: «بعد أن قضى يوما في قتل والديه، كان فرانك سعيدا»؟ نحن نأمل ألا يوجد قط مثل هذا الشخص، لكن الجملة لغويا صحيحة ويسهل فهمها. إن فرانك شخص مخبول ومريض، لكن إذا قال إنه سعيد، وإذا بدت عليه السعادة، فهل يوجد أي سبب مبدئي للشك في صحة قوله؟ وهل من المنطقي القول: «كانت سو سعيدة لأنها سقطت في غيبوبة»؟ بالطبع لا، فإذا كانت سو فاقدة وعيها، لا يمكنها أن تشعر بالسعادة، مهما كانت أعمال الخير التي أذتها قبل أن تحل بها تلك المصيبة. أو ماذا عن هذه الجملة: «أثبع الحاسوب الوصايا العشر وكان سعيدا كحلزون صدفي»؟ ثقة احتمال مستبعد أن يشعر هذا الحلزون بالسعادة لأن احتمال امتلاكه القدرة على الشعور أصلا، مستبعد قليلا. قد يصادف وضع كونك تشبه حلزونا صدفيا، ولكن لا وجود لوضع كونك تشبه حاسوبا.

حينئذ، لا يمكن للحاسوب أن يكون سعيدا مهما كان عدد زوجات جاره اللاتي لم يُفلح في اشتهاهن (إحدى الوصايا العشرة: لا تشته امرأة قريبك) (69). تشير السعادة إلى المشاعر، بينما تشير الفضيلة إلى الأفعال. وتلك الأفعال يمكن أن تؤدي إلى تلك المشاعر. لكن ذلك لا يحدث ضرورة وبصورة حصرية.

مصدر الشعور بالسعادة

إنّ ذلك الشعور الذي يسمّى: «تعرف ماذا أعني» هو ما يسمّيه الناس عادة سعادة، لكنه ليس قصدهم الوحيد. فإذا كان الفلاسفة اختلط عليهم المعنيان الروحي والعاطفي لكلمة سعادة، فعلماء النفس يخلطون بين المعنى العاطفي والتقديرى بنفس التواتر والقدر. مثلا، عندما يقول شخص: «أنا عموما سعيد بالطريقة التي عشت بها حياتي»، يجزم علماء النفس إجمالا بأنه سعيد. لكن المشكلة هي أنّ الناس يستخدمون أحيانا كلمة سعيد حتى يعبروا عن اعتقاداتهم في علاقة بمزايا الأشياء، مثلما عندما يقول أحدهم: «أنا سعيد لأنه تمّ القبض على ذلك الوغد الصغير الذي حطم الزجاج الأمامي لسيارتي». كما أنهم يقولون مثل هذه الأشياء حتى عندما يكاد شعورهم يشبه شعورا بالمتعة.

كيف نعرف إذن، أنّ الشخص يعبر عن وجهة نظر ما، بدلا من زعمه التحدث عن تجربة ذاتية؟ عندما تلي كلمة سعيد كلمات مثل *أرّ* أو *بشأن*، فعادة ما يكون المتحدثون بصدد إخبارنا بأنه ينبغي علينا أن نأخذ كلمة سعيد على أنها إشارة إلى مشاعرهم، لا إلى مواقفهم. مثلا: عندما تكشف زوجة لنا أنه طلب منها قضاء سثة أشهر في فرع الشركة الجديد في تاهيتي، بينما سبق نحن في البيت للاعتناء بالأطفال، قد يقول أحدنا: «لست سعيدا طبعاً، لكنني سعيد لسعادتك». ستجعل جمل كهذه مدرّس لغة انكليزية في المدرسة يغضب، لكنها قد تبدو منطقية جدا، فقط لو استطعنا مقاومة نزعتنا في أخذ كل مثال لكلمة سعيد، مثلا عن السعادة العاطفية.

ففي المرّة الأولى التي تلفظنا فيها بكلمة سعيد أكدنا للزوجة أننا لا نملك غالبا ذلك الشعور الذي يسمّى: «تعرف ماذا أعني» (السعادة العاطفية)، أما في المرّة الثانية التي تلفظنا فيها بنفس الكلمة، فقد قمنا بالإشارة إلى أننا نقرّ بحقيقة أنّ زوجة لنا تملك ذلك الشعور (سعادة تقديرية). عندما نقول إنّنا سعداء *أرّ* أو سعداء *بشأن*، فنحن نشير ببساطة إلى وجود احتمال كونه مصدر شعور ممتع، أو مصدر متعة حدثت في الماضي، أو أننا ندرك أنه ينبغي أن يكون مصدر شعور ممتع. لكن من المؤكد أنه ليس كذلك في تلك اللحظة.

ففي الواقع، نحن لا ندعي عيش ذلك الشعور أو أي إحساس يشبهه. كان من اللائق أكثر أن نقول للزوجة: «لست سعيدا لكنني أتفهم أنك كذلك، بل ويمكنني أيضا أن أتخيل أنني، لو كنت أنا من سيذهب إلى تاهيتي وأنت من ستبقين في المنزل صحبة هؤلاء الأحداث الجانحين، فسأشعر بالسعادة بدلا من تأمل سعادتك». لكنّ التحدث بهذه الطريقة يتطلب التخلّي عن كل احتمال للرفقة الإنسانية، لذلك نحن نلتجئ إلى الكلمة المألوفة التي تختزل كل شيء فنقول إنّنا سعداء *بشأن* بعض الأشياء، حتى عندما نشعر بالانفعال، وهو أمر جيد طالما نضع في اعتبارنا أننا لا نعني دوما ما نقول.

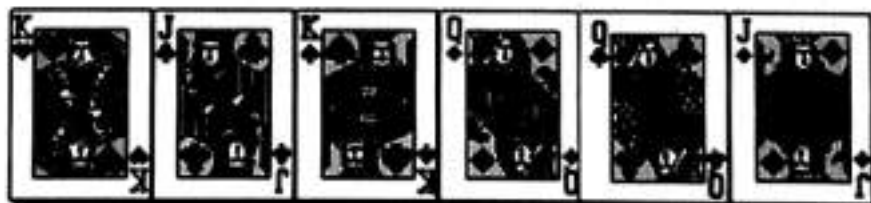
إذا اتفقنا على أن نحفظ بكلمة سعادة للإشارة إلى ذلك الصنف من التجارب العاطفية الذاتية، التي توصف بشكل مبهم على أنها تجارب سارة أو ممتعة، وإذا قطعنا وعدا بالأنا نستخدم الكلمة ذاتها للإشارة إلى السمة الأخلاقية للأفعال التي قد يقوم بها الفرد لتحفيز تلك التجارب أو ليشير إلى حكمنا على مزاياها، قد لا يزال ثقة مجال للتساؤل عما إذا كانت السعادة التي نحصل عليها من خلال مساعدة سيّدة عجوز صغيرة لتعبر الطريق يمثل نوعا مختلفا من السعادة العاطفية، أكبر وأفضل وأعمق من السعادة التي يحصل عليها الفرد، عندما يتناول قطعة من كعكة الكريمة والموز. ولعلّ السعادة التي نعيشها نتيجة الأفعال الطيبة تمنح شعورا مختلفا عن النوع الآخر. في الواقع بينما نقوم بذلك، قد نتساءل بشكل مماثل عما إذا كانت السعادة التي يحصل عليها الفرد من خلال تناول كعكة الكريمة والموز تختلف عن تلك التي يحصل عليها من خلال تناول كعكة الكريمة وجوز الهند، أو من خلال تناول قطعة من كعكة الكريمة والموز، هذه، بدلا من قطعة من تلك الكعكة المكوّنة من الكريمة وجوز الهند. كيف لنا إذن، أن نحدّد إن كانت التجارب الذاتية والعاطفية مختلف بعضها عن الآخر أم متطابقة؟

في الحقيقة، نحن لا نستطيع ذلك، بما لا يفوق قدرتنا على قول إن كانت تجربتنا مع الأصفر عندما ننظر إلى وعاء الخردل، هي نفس التجربة التي يمزّ بها الآخرون عندما ينظرون إلى نفس الوعاء. اندفع الفلاسفة بتهوّر لحلّ هذه المسألة وقتا طويلا، لكن دون جدوى (70)، لأنّ الطريقة الوحيدة، في النهاية، لقيس تطابق وضعين مختلفين، هو أن يقارن الشخص الذي يقوم بالقياس بينهما جنباً إلى جنب - أي أن يعيشهما معا. فبعيدا عن الخيال العلمي، لا أحد يستطيع في الواقع خوض تجربة شخص آخر. عندما كنا أطفالا، علمتنا أمهاتنا أن نسقي تجربة النظر إلى وعاء الخردل تلك، «الأصفر»، وبما أننا كنا أطفالا مطيعين، فقد كنا نفعل ما يُطلب منا. ثم، عندما أدركنا لاحقا أنّ الجميع في روضة الأطفال يدعون عيشهم تجربة مع الأصفر، لقا ينظرون إلى وعاء الخردل أيضا، شعرنا بالغبطة. لكنّ هذه التسميات المشتركة، قد تحجب حقيقة أنّ تجاربنا الواقعية مع الأصفر مختلفة للغاية، وهذا هو السبب الذي يجعل الكثير من الناس لا يكتشفون أنّهم مصابون بعمى الألوان، حتى وقت متأخر من حياتهم، حينما لاحظ طبيب عيون أنّهم لا يميزون بين الفوارق، كما يفعل الآخرون. إذن، رغم أنّه يبدو من غير المحتمل أنّ للبشر تجارب مختلفة على نحو جذري، عندما ينظرون إلى وعاء الخردل أو يسمعون بكاء رضيع أو يشتقون رائحة ضربان، إلا أنّه أمر وارد. وإذا أردت تصديق ذلك، فلك مطلق الحق، ولا ينبغي على أحد تبديد وقته الثمين في الجدل معك.

تذكر الاختلافات

أمل ألا تستسلم بسهولة، فربما تكون الطريقة التي يمكنك أن تحدد من خلالها إذا كانت حالتان من السعادة مختلفتين في الواقع، هي أن تنسى المقارنة بين تجربتي عقليين مختلفين، وتكتفي بسؤال أحد جزب الحالتين. قد لا أستطيع أبدا أن أعرف إذا كانت تجربتي مع الأصفر مختلفة عن تجربتك، لكن من المؤكد أنه بإمكانني القول إن تجربتي مع الأصفر، مختلفة عن تجربتي مع الأزرق، عندما أقارن بينهما ذهنيا. أليس كذلك؟ لكن، مع الأسف، هذه الإستراتيجية أكثر تعقيدا مما تبدو عليه، حيث أن لب المسألة يكمن في أننا عندما نقول إننا نقارن ذهنيا بين اثنتين من تجاربنا الذاتية الخاصة، نحن في الحقيقة لانفكر في التجريبتين في الآن ذاته، بل في أحسن الحالات، نفكر في واحدة منهما، بينما نكون قد مررنا بالأخرى سابقا، وعندما يسألنا أحد أي التجريبتين جعلتنا أكثر سعادة، أو إذا ما كنا قد شعرنا بنفس الشعور بالسعادة في كليهما، فنحن في أفضل الحالات نقارن ما نعيشه من خلال ذاكرتنا وبما عشناه في الماضي.

قد لا يكون ثمة اعتراض على هذا، لولا حقيقة أن الذكريات -خاصة تلك المتعلقة بتجاربنا- لا يمكن الاعتماد عليها، وهي حقيقة أثبتها السحرة والعلماء معا. لنبدأ بالسحر، انظر إلى البطاقات الملكية الست في الرسم رقم 4، وانتق المفضلة لديك، ولا تخبرني عنها ثم احتفظ بها لنفسك. انظر فقط، إلى بطاقتك، وردد الاسم مرّة ومرتين (أو اكبه) حتى تتذكره بعد عدة صفحات.



رسم 4

حسنا، الآن لنر كيف قارب العلماء مسألة تذكر التجربة. في إحدى الدراسات، عرض الباحثون عينة من لون واحد بظلال مختلفة، من ذلك النوع الذي يمكنك انتقاؤه من جناح الطلاء في متجر الأدوات المحلي، على مجموعة من المتطوعين وسمحوا لهم بتفحصها مدة خمس ثوان (71). بعد ذلك قضى بعض المتطوعين ثلاثين ثانية في وصف اللون (الواصفون)، بينما لم يصفه بقية المتطوعين (غير الواصفين). إثر ذلك عرض صف من ست عينات من ظلال ألوان مختلفة، من بينها اللون الذي رأوه قبل ثلاثين ثانية. وطلب منهم أن يميزوا العينة الأصلية، فكان أول استنتاج مثير للاهتمام أن 73 % فقط من المجموعة التي لم تقم بالوصف نجحوا في

تمييزه. بعبارة أخرى، أقل من ثلاثة أرباعهم استطاع أن يؤكد إن كانت هذه التجربة مع الأصفر هي التجربة ذاتها التي مزوا بها مع نفس اللون قبل نصف دقيقة، أم لا.

ثاني أهم استنتاج مفاده أن وصف اللون أعاق أداءهم عند تمييز اللون، بدلا من أن يحسنه. فقد كان بإمكان 33% فقط، من الواصفين تمييز اللون الأصلي بشكل صحيح. يبدو أن وصف الواصفين التجريبيين المعيشيين وصفا لفظيا، حل محل ذكرياتهم عن التجريبيين نفسيهما. فانتهوا إلى: تذكر ما قالوه عن التجربة، لا ما شعروا به في خضفها. كما أن ما قيل لم يكن واضحا، ولا دقيقا بشكل كاف ليساعدهم في التعرف على اللون، عندما رأوه مرة أخرى بعد ثلاثين ثانية.

معظمنا مر بهذه الوضعية، فمثلا نخبر صديقا لنا أننا قد خاب أملنا في النبيذ الأبيض المنزلي من نوع «شاردونيه» chardonnay الذي شربناه في تلك الحانة الصغيرة العصرية وسط المدينة وفي طريقة عزف «الوترية الرباعية» المفضلة لدينا.

لكن في الحقيقة قد لا نتذكر طعم النبيذ أو كيف كانت موسيقى «الوترية الرباعية» أثناء تصريحنا بذلك الكلام. بل من المحتمل أن نتذكر أننا عند مغادرتنا للحفلة، قلنا لندينا إن النبيذ والموسيقى بدأ رائعين وانتهيا رديئين. كل تجارب نبيذ «الشاردونيه» و«المقطوعة الرباعية الوترية» والأفعال الخيرة وكعكة الكريمة والموز، تجارب غنية، معقدة، كثيرة الأبعاد، غير محسوسة، وإحدى وظائف اللغة أنها تساعدنا في جعلها محسوسة، أي في استخلاص ما يميز تجاربنا من خصائص وفي تذكرها، حتى نتمكن من تحليلها وذكرها لاحقا.

يخزن أرشيف نيويورك تايمز الإلكتروني للأفلام ملخصات نقدية للأفلام، بدلا من تخزين الأفلام في حد ذاتها، مما قد يأخذ حيزا كبيرا من الفضاء، ويجعل بحث كل من يريد أن يعرف كيف كان الفلم دون أن يشاهده أكثر صعوبة، عديم الجدوى انعداما كليا. إن التجارب أشبه بالأفلام التي تتسم بأبعاد عديدة، فإذا كانت أدمغتنا تخزن الأفلام الروائية الكاملة لحياتنا، بدلا من وصف موجز لها، ينبغي أن يكون حجم رؤوسنا أكبر بعدة مرات مما هو عليه الآن. وإذا أردنا أن نعرف أو نخبر الآخرين عما إذا كانت جولة في حديقة المنحوتات تستحق ثمن التذكرة أم لا، علينا أن نعيد كل الأحداث من البداية حتى نكتشف ذلك، فقد تحتاج كل حركة من حركات الذاكرة مقدار الوقت الذي تطلبه وقوع الحدث الذي نقوم بتذكره بالتحديد. وهو ما يجعلنا نعجز بصورة كاملة عن الإجابة، إذا ما سألنا أحدهم إن كنا قد أحببنا النشأة في شيكاغو والعيش فيها، لذلك نختصر تجاربنا إلى كلمات من قبيل سعيد، وهي تكاد تنصف تلك التجارب، لكنها الأشياء التي سنحملها معنا بثقة ويسر إلى المستقبل. فرائحة الزهرة لا يمكن استعادتها. بيد أننا لو علمنا بأنها رائحة طيبة وزكية، سنعلم أننا سنتوقف عند الزهرة التالية لنشتفها.

إن تذكّرنا لأشياء حدثت في الماضي تذكّر منقوص، ولذا فمقارنة سعادتنا الجديدة بما نتذكّره عن سعادتنا القديمة مخاطرة لتحديد ما إذا كانت التجريبتان الذاتيتان حقا مختلفتين، فلنجرب إذن مقارنة مختلفة بعض الاختلاف. إذا لم يكن باستطاعتنا تذكّر الشعور الذي انتابنا أمس عند تناولنا لكعكة الكريمة والموز تذكّرا كافيا لمقارنته بشعور اليوم عند قيامنا بعمل صالح. فقد يكمن الحلّ ربما في مقارنة تجربتين لا يفصل بينهما سوى زمن قصير جدا، حتى نتمكن من مراقبة التغيير الذي يحدث بينهما في الواقع. مثلا: إذا كنا سنقوم بنسخة أخرى من اختبار عينة ظلال اللون، مع تقليص مدة تقديم العينة الأصلية وتقديم صفّ العينات الأخرى ذات الألوان المختلفة، قد لا يواجه الناس بالتأكيد، أي مشكلة في تمييز العينة الأصلية. أليس كذلك؟ إذن، ماذا لو نحفّض الوقت إلى- لنقل- خمس وعشرين ثانية؟ أو خمس عشرة ثانية أو عشر ثوان؟ أو ماذا عن جزء من الثانية؟ وماذا لو أضفنا شيئا آخر يجعل مهمة تمييز العينة أسهل، فنقوم بعرض عينة لون على المتطوعين بعض ثوان، وإبعادها مدة جزء من الثانية فقط. ثم نعرض عليهم عينة واحدة للاختبار (بدلا من عرض صفّ من العينات)، ونطلب منهم إخبارنا عما إذا كانت عينة الاختبار الوحيدة هي ذاتها العينة الأصلية، دون أن يتخلّل ذلك وصف لفظي من شأنه أن يربك ذكرياتهم ولا اختبارات عينات منافسة قد تشوّش عيونهم. فقط جزء من لحظة واحدة يفصل بين تقديم العينة الأصلية وعينة الاختبار.

يا إلهي، ألا يجدر بنا، نظرا للبساطة التي جعلنا عليها المهمة، أن نتوقّع نجاح الجميع نجاحا باهرا؟

أجل، لكنّ ذلك لن يحدث، إلا إذا كنا نستمتع بكوننا على خطأ. ففي دراسة شبيهة نظريًا بتلك التي صفّمناها للتوّ، طلب بعض الباحثين من بعض المتطوعين النظر إلى شاشة حاسوب وقراءة نص غريب إلى حدّ ما. ذلك أنّ حروفه تتراوح بين حروف كبيرة وحروف صغيرة (72). فيبدو هكذا IooKeD lIkE tHiS. الآن، كما تعلمون، عندما يحذق الناس في شيء ما، ترفّ أعينهم قليلا أمام ما يحذقون به ثلاث أو أربع مرات في الثانية. وهو ما يجعل بؤبؤ العين يتحرك بسرعة ذهابا وإيابا، إذا نظرت عن كتب. استخدم الباحثون أداة تتعقب حركة العين وتعلم الحاسوب متى تكون عيون المتطوعين مثبتة على ما يوجد في الشاشة ومتى تتحرك قليلا بعيدا عنه. وفي كلّ مرة يهتزّ بؤبؤ عين المتطوعين بعيدا عن النص جزءا من الثانية، يخادعنا الحاسوب. فيغيّر شكل كل الحروف في النص الذي يقرؤونه. ثم يصبح فجأة ما كان يبدو هكذا: IooKeD lIkE tHiS على هذه الشاكلة: LoOkEd LiKe ThiS .

ومما يثير الدهشة أن المتطوعين لم يلاحظوا أن حروف النض كانت تتراوح بين أنماط مختلفة عدة مرات في الثانية أثناء قراءتهم له. فقد أثبتت البحوث التي تلت ذلك، أن الناس لا يفلحون في ملاحظة مجموعة كبيرة من هذه «الثغرات البصرية»، لذلك بإمكان صنّاع الأفلام تغيير طراز لباس امرأة أو لون شعر رجل من مقطع إلى آخر، أو يجعلون غرضاً ما يختفي من فوق الطاولة تماماً، كل ذلك دون أن ينتبه المشاهدون (73) وما كان متيراً للاهتمام أنه طلب من الناس توقع إن كان بإمكانهم ملاحظة مثل تلك الثغرات، وكانوا واثقين جداً أن باستطاعتهم ذلك (74).

نحن لا نفوت التغييرات الطفيفة فحسب، بل حتى التغييرات الكبيرة في شكل المشهد لا يقع التفتُّن إليها كذلك. ففي تجربة مستمّدة مباشرة من صفحات «كانديد كاميرا» Candid Camera، رتب بعض الباحثين اقتراب باحث من بعض المترجلين في حرم جامعي وطلب منهم أن يرشدوه إلى الطريق نحو بناية معينة، و(75) بينما كان اهتمام المترجل والباحث منصّباً على خريطة الباحث، مز بينهما بفضاظة عاملاً بناءً، وكان كلاهما يمسك بأحد طرفي باب كبير، منع بشكل مؤقت رؤية المترجل للباحث. وأثناء حدوث ذلك انحنى الباحث الأصلي وراء الباب، وابتعد رفقة عاملي البناء، وأخذ مكانه باحثٌ آخر، كان يختبئ وراء الباب منذ البداية، وواصل المحادثة من حيث توقفت.

كان الباحثان الأصلي وذاك الذي عوضه بطوليين مختلفين، يملكان صوتين مختلفين وقصّة شعر ولباساً مختلفاً أيضاً. أي لم يكن من الصعب أبداً التمييز بينهما، لو كانا واقفين جنباً إلى جنب. فما الذي توصل إليه هذا «الساماري» الطيب The Good Samaritan الذي توقّف لمساعدة سائحٍ تائه من خلال عملية التبدّل السريعة تلك؟ لا شيء يُذكر. في الواقع، لم يلحظ معظم المترجلين أن الشخص الذي كانوا يتحدّثون إليه خُوّل فجأة إلى شخص جديد تماماً.

هل علينا إذن، تصديق أن الناس لا يمكنهم التفتُّن إلى التغيير الذي يطرأ أمام أعينهم على تجاربهم في العالم؟ بالطبع لا.

إذا ذهبنا بهذا البحث إلى الحد الأقصى، فمن المنطقي أن ننتهي إلى القيام بما يفعله المتطزفون عموماً: يتخبّطون في حالة من العبت، ويوزعون المنشورات. فإذا لم يكن بوسعنا الانتباه إلى تغيير تجربتنا في هذا العالم، فكيف نعرف أن ثقة شينا يتحرك، وكيف يمكننا أن نعرف هل نتوقّف أو نواصل السير عند مفترق الطرق، وكيف نستطيع العذب بعد ؟1

تبرز لنا هذه التجارب أن تجاربنا السابقة تبدو لنا أحياناً غامضة غموض تجارب الآخرين، لكن

الأهم من ذلك، أنها تكشف متى يكون ذلك صحيحا في الحالات الأقصى أو الأقل احتمالا.

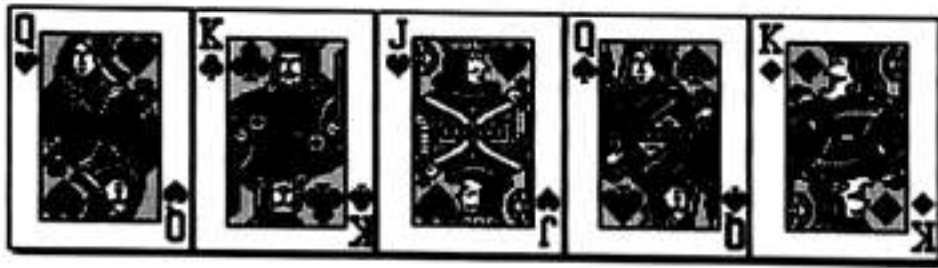
فما هو المكون الأساسي الذي دفع بالدراسات المذكورة أعلاه إلى التوصل إلى تلك النتائج؟ في كل مثال من الأمثلة، لم يشهد المتطوعون اللحظة التي أثارت التحول الطارئ على تجربتهم بشكل خاص. ففي دراسة عينة الألوان، أستخدمت العينات في غرفة أخرى خلال ثلاثين ثانية، وفي دراسة القراءة تغير النض في اللحظة التي رفّت فيها عين المتطوع بعيدا عنه. أما الدراسة حول تجربة الباب فلم يتبادل الباحثان أمكنتهما، إلا عندما كانت قطعة الخشب الكبيرة تحجب الرؤية. وعليه، قد لا نتوقع أن تتوصل هذه الدراسات إلى نفس النتائج، إذا تحول اللون البني إلى البنفسجي المشع، أو إذا **this** أصبحت **that**، أو إذا تحول محاسب من باوكبسي إلى الملكة ايزابيث 2 أثناء نظر المتطوع إليها أو إليه أو إلى أي كان مباشرة. وقد أثبت البحث بالفعل أنه عندما يكون المتطوعون منبهين شديد الانتباه إلى حافظ معين في اللحظة التي يتغير فيها بالتحديد، فإنهم يلاحظون ذلك التغيير على نحو سريع وموثوق به (76).

إن الهدف من هذه الدراسات، ليس إثبات أننا غير مؤهلين إلى حد بعيد لالتقاط التغييرات التي قد تطرأ على تجاربنا في هذا العالم، بل إثبات أننا سنضطر إلى التعويل على ذاكرتنا وعلى المقارنة بين تجربتنا الحالية، وبين ما نتذكره بشأن تجربتنا السابقة، حتى نلتقط التغيير، في حال لم تكن عقولنا تركز بشدة على جانب معين من تلك التجربة في اللحظة التي حدث فيها ذلك التغيير.

تفظن السحرة لهذا منذ قرون، بالطبع، ودأبوا على استخدام معرفتهم لسرقة أموالنا. في الصفحات القليلة السابقة اخترت بطاقة من بين سئ بطاقات، لكن ما لم أخبرك به، عندها، أنني أملك قوى تفوق قوى البشر العاديين، ولذلك كنت أعلم أي بطاقة ستختار، حتى قبل أن تفعل ذلك، وكما أثبت لك ذلك، قمت بسحب بطاقتك من مجموعة البطاقات الأخرى. ألق نظرة الآن على الرسم رقم 5 لترى إن كنت شخصا مدهشا أم لا. كيف فعلت ذلك؟ بالطبع إن هذه الحيلة تصبح أكثر إثارة، عندما لا تكون على علم سلفا بكونها حيلة، ولم يكن عليك تصفح عدة صفحات من النض لتلقي الضربة القاضية، ولن ينجح الأمر أبدا إذا قارنت الصورتين الواحدة بالأخرى، لأنك سوف لن ترى في تلك اللحظة أي واحدة من تلك البطاقات (بما في ذلك تلك التي انتقيتها) تظهر في الرسم رقم 5.

لكن عندما تكون ثقة إمكانية أن يعرف الساحر البطاقة المنتقاة- سواء، أ بواسطة خفة اليد أو عن طريق الاستنتاج الفطن أو التخاطر الذهني، وعندما لا تنظر مباشرة إلى المجموعة الأولى من البطاقات أثناء تحولها إلى مجموعة أخرى تتكوّن من خمس بطاقات، حينها ستكون الخدعة

قوية جدا. فلما ظهرت الخدعة لأول مرّة على موقع الكتروني، افترض عدد من أكثر العلماء الذين أعرفهم ذكاء أن نوعا جديدا من التكنولوجيا سيمكّن المستخدم من تخمين البطاقة من خلال ملاحظة سرعة وتسارع نقراته على المفاتيح، فقمت شخصيا بإبعاد يدي عن الفأرة فقط حتى أتأكد أن حركاتها الطفيفة لا تقاس. فلم يحدث أن تذكرت الاسم الذي أطلقتته على البطاقة التي اخترتها إلا في المرّة الثالثة، أثناء رؤيتي لمجموعة البطاقات الست الأولى، وعلى أساس ذلك، فقد فشلت في ملاحظة أن كل البطاقات الأخرى كانت قد تغيرت أيضا (77). وما تجدر الإشارة إليه هو أن خدعة البطاقات هذه، تفسر بدقّة أيضا لماذا يجد الناس صعوبة في الحديث عن مدى سعادتهم في زيجاتهم السابقة.



رسم 5

حديث سعيد

تدعي ريبا ولوري أنهما سعيدتان، وهذا يربكنا، فنحن على يقين بالغ بأن هذا الأمر لا يمكن أن يكون صحيحا، ومع ذلك، لا يبدو أن ثقة طريقة مضمونة للمقارنة بين سعادتهما وسعادتنا. إذا قالتا إنهما سعيدتان، فعلى أي أساس يمكننا استخلاص أنهما على خطأ؟ حسنا، قد نجرب الوسيلة الأكثر ذكاء للشك في قدرتهما على معرفة تجربتهما الخاصة أو وصفها أو تقييمهما. يمكننا أن نقول: «ربما تعتقدان أنهما سعيدتان، أو أنهما تقولان هذا فقط لأنهما لا تعرفان ما تعنيه السعادة تحديدا».

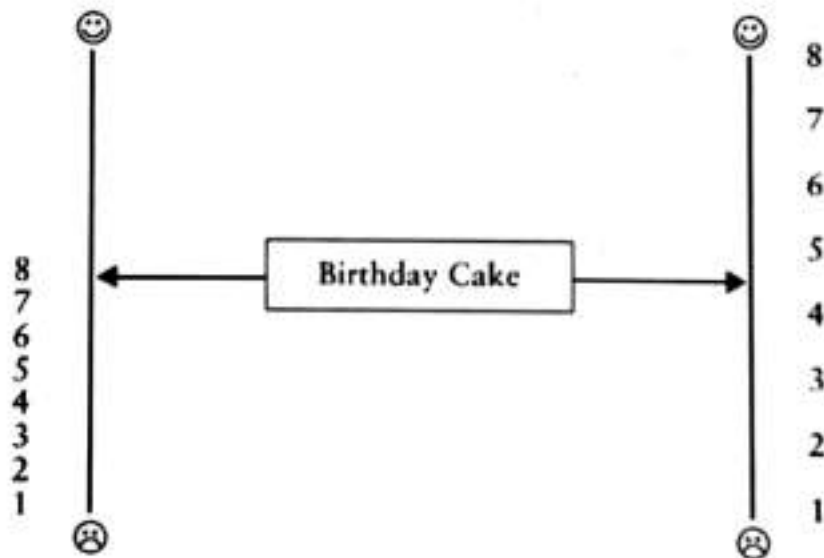
بعبارة أخرى، لأن لوري وريبلا لم تحظيا قط بكثير من التجارب التي حظينا بها نحن الأفراد، كامتطاء العربات ذات العجلات الخشبية في المروج أو الفوص في الحيد المرجاني العظيم أو التنزه على الجادة دون جذب اهتمام الحشود، فذلك يجعلنا نظن أنه قد يكون لديهما رصيد فقير من التجارب السعيدة التي تقودهما إلى تقييم حياتهما تقييما مختلفا عن بقيتنا. مثلا لنفترض أننا سنعطي التوأمين كعكة عيد ميلاد ومقياس تصنيف بثمان نقاط (وهو ما يمكن اعتباره لغة اصطناعية بثمان كلمات تعبر كل واحدة عن مدى الشعور بالسعادة). ثم نطلب

منهما أن يصف تجربتهما الذاتية، قد يخبراننا بأنهما سعيدتان للغاية، ويقيمان تجربتهما بإسناد الوصف رقم ثمانية. لكن أليس من المحتمل أن ثمانية بالنسبة إليهما وإلينا ترمزان إلى مستويين مختلفين اختلافا جوهرياً من السعادة وأن استخدامهما للغة الكلمات الثماني خُزف بسبب وضعهما الذي لا تُحسدان عليه، والذي لم يَسمح لهما باكتشاف إلى أي حد يمكن للفرد أن يكون سعيداً؟ قد تكون لوري وربما استخدمتا لغة الكلمات الثماني بصورة مختلفة عن استخدامنا لها، لأن كعكة عيد الميلاد بالنسبة إليهما تستحق التقييم الرائع الذي مُنحتا إياه. لقد أسندتا علامة إلى تجربتهما الأكثر سعادة بأكثر كلمة تدل على السعادة من بقية الكلمات، وهو أمر طبيعي. لكن لا ينبغي -على هذا- أن يجعلنا نغفل عن حقيقة أن التجربة التي سقياها ثمانية هي تجربة قد نسميها أربعة ونصفاً. باختصار، هما لا تقصدان أنهما سعيدتان على نفس النحو الذي نقصد به كوننا سعداء.

يكشف الرسم رقم 6 كيف يؤدي فقر رصيد التجربة إلى اختزال اللغة، بحيث تُستخدم مجموعة كاملة من الرموز اللغوية لوصف مجموعة محدودة من التجارب. وبهذا المنطق، عندما تقز التوأمتان بأنهما منتشيتان، هما في الواقع تشعران بما نشعر به نحن، عندما نقول أننا مسرورون.

L & R's EXPERIENCE

OUR EXPERIENCE



رسم 6. تشير فرضية اختزال اللغة إلى أن لوري وربما، عندما قُذمت لهما كعكة عيد الميلاد، شعرتا بالضبط كما نشعر نحن، لكنهما عبرتا عن ذلك بشكل مختلف.

سحق اللغة

الجميل بشأن فرضية سحق اللغة أولاً: أنها تشير إلى أن جميع الناس في كل مكان يعيشون نفس التجربة الذاتية، عندما يحصلون على كعكة عيد الميلاد، حتى لو وصفوا تلك التجربة بصورة مختلفة. مما يجعل العالم مكانا بسيطا نعيش فيه ونصنع فيه الكعك. أيضا، أنها تمكّنا من مواصلة الاعتقاد بأن لوري وربما ليستا سعيدتين حقًا، رغم ما يقولانه عن نفسيهما. وهكذا فنحن محقون كل الحق في اعتبار حياتنا أفضل من حياتهما. أما الأشياء الأقل جمالا بشأن هذه الفرضية فهي عديدة. وإذا كنا قلقين بشأن استخدام لوري وربما للغة الكلمات الثماني استخداما مختلفا عن استخدامنا لها، لأنهما لم تجزبا يوما متعة إثارة العربة ذات العجلات الخشبية، عندها علينا أن نقلق بشأن بعض المسائل الأخرى أيضا. مثلا من الأجدربنا أن نقلق، لأننا لم نشعر قط بذلك الشعور الغامر بالسلام والأمان الذي يأتي عند معرفتنا بأن هناك أخا أو أختا محبة إلى جانبنا دوما، وأننا لن نفقد أبدا صداقته/مهما كان حجم الأشياء السيئة التي قد نقولها أو نقوم بها في يوم سيء، وأنه سيكون ثقة، دائما، أحد يعرفنا كما نعرف أنفسنا، يقاسمنا آمالنا، ويهتم بهمومنا وما إلى ذلك. إذا كانتا لم تحظيا بتجارينا، فنحن أيضا لم نحظ بتجاريهما، وقد يكون من المحتمل بشكل كامل أننا من سحقنا اللغة. فعندما نقول إننا نشعر بسعادة بالغة، فلا فكرة لدينا عفا نتحدث عنه، لأننا لم نعش قط حب الرفقة ونعمة الترابط والذهول الخالص الذي عاشته لوري وربما. كلنا -أنت وأنا ولوري وربما- علينا أن نقلق بشأن وجود تجارب أفضل بكثير من تلك التي مررنا بها إلى حد الآن: تجربة الطيران دون طائرة، رؤية أبنائنا يفوزون بجوائز الأوسكار أو جوائز بوليتزر، لقاء الرب وتعلم المصافحة السرية، وأن نقلق بشأن استخدام الجميع للغة الكلمات الثماني استخداما معطوبا وبأن لا أحد يعرف المعنى الحقيقي للسعادة. فهذا المنطق، علينا جميعا أن نثب نصيحة سولون وألا نقول أبد/إننا سعداء قبل أن نموت، لأننا -عدا ذلك- لو مررنا بتلك السعادة الحقيقية، سنعجز عن التعبير عنها، جزاء كوننا استنفدنا مسبقا استخدام الكلمة المناسبة التي تعبر عنها.

لكن هذه الهموم تعتبر مجرد بداية فحسب، إذ هناك المزيد منها، وإذا رغبتنا في القيام بتجربة ذهنية قد تثبت نتائجها بصورة نهائية، فلنزع من لوري وربما لا تعرفان المعنى الحقيقي للسعادة، ربما علينا أن نتخيل أنه بوسعنا التفريق بينهما بواسطة عصا سحرية وتمكينهما من العيش منفصلتين. فإذا قدمتا إلينا بعد عذة أسابيع بنفسيهما وتنضلتا من ادعاءاتهما السابقة وتوصلتا إلينا بالأ نعيدهما إلى ما كانا عليه، ألن يقنعنا ذلك كما يبدو أنه أقنعهما أنهما في السابق كانتا تخطان بين أربعة وثمانية؟ جميعنا عرفنا من غيروا دينهم، ومن مزوا بتجربة طلاق أو نجوا من نوبة قلبية، والآن يذعون وعيهم -لأول مرة بأنهم، ورغم فما- فكروا فيه وقالوه خلال الحالة التي كانوا يجسدونها في السابق، لم يكونوا حقًا سعداء مثلما يشعرون الآن. فهل يمكننا

أن نصدق من مزوا بتلك التحولات المدهشة ونثق فيهم؟

ليس ضرورياً. لنلق نظرة على إحدى الدراسات، حيث عُرض على مجموعة من المتطوعين بعض الأسئلة، وطلب منهم تخمين احتمالية تقديم أجوبة صحيحة عنها. في البدء، عُرضت على بعض المتطوعين الأسئلة فقط (مجموعة الأسئلة) بينما عُرضت على الآخرين الأسئلة والأجوبة معا (مجموعة الأسئلة والأجوبة). واعتقد متطوعو مجموعة الأسئلة فقط أن الأسئلة صعبة للغاية، بينما اعتقد أولئك المنتمون إلى مجموعة الأسئلة والأجوبة -الذين رأوا السؤال («ماذا اخترع فيلوت. فارنسورث؟») والإجابة عنه («التلفاز»)- أنه بإمكانهم الإجابة عن الأسئلة بسهولة، حتى وإن لم يروا الإجابات على الإطلاق. من الواضح أنه بمجرد معرفة المتطوعين الأجوبة، بدت لهم الأسئلة بسيطة («بالطبع هو من اخترع التلفاز- الجميع يعرف ذلك!»)، وأصبحوا عاجزين عن تقدير مدى الصعوبة التي قد تبدو عليها الأسئلة بالنسبة إلى من لم يكن على دراية بالأجوبة مسبقاً(78).

تظهر مثل هذه الدراسات أننا بمجرد مرورنا بتجربة ما، لا يمكننا وضعها جانبا ومواصلة رؤية العالم كما كنا نفعل قبل وقوعها. فهنية المحلّفين مثلا لا تستطيع تجاهل تهكم المدعي العام، مما يثير استياء القاضي. إن تجاربنا تصبح فورا جزءا من العدسات التي نرى من خلالها كل ماضينا، حاضرا ومستقبلا، ومثل أي عدسات، فهي تشكل ما نراه وتشوّهه. لا تشبه هذه العدسات زوجا من النظارات التي يمكن وضعها جانبا على المنضدة بجانب السرير، متى رأينا أن ذلك مناسباً، بل تشبه زوجا من العدسات اللاصقة التي تُثبت إلى الأبد على مقلتينا بغراء شديد الالتصاق. فبمجرد تعلّمنا للقراءة، لن نرى بعد ذلك الحروف مجرد خريشات حبرية مائلة. وبمجرد اكتشافنا الجاز الحرّ، لن يكون بإمكاننا بعد ذلك اعتبار الصوت الذي يصدره أورنيث كولمين لدى عزفه على الساكسوفون مجرد ضجيج. ولدى اكتشافنا أن فان غوغ مريض عقلي أو أن ايزرا باوند كانت من ضمن من يعادون السامية، فلن نرى فئهما بعد ذلك، كما كنا نراه في السابق. إذا تم تفريق لوري وربما لعذة أسابع إحداهما عن الأخرى، وإذا أخبرتنا أنهما الآن أكثر سعادة من ذي قبل، فقد تكونا على حق، ومع ذلك قد لا تكونان كذلك في نفس الوقت. إذ ربّما كانتا تحاولان القول إن الوضع الذي أصبحنا عليه الآن منفصلتين الواحدة عن الأخرى، يجعلهما تريان وضعهما السابق بوصفهما توأمتين ملتصقتين بنفس القدر من المعاناة الذي نراه نحن، من عشنا كل حياتنا أفرادا مستقلين. فحتى إذا تذكّرنا ما كانتا تفكران فيه، وتقولانه أو تفعلاه عندما كانتا توأمتين غير منفصلتين، فنحن نتوقع أن تجربتهما المكتسبة في الآونة الأخيرة فردين منفصلين ستلّون تقيّمهما تجربتهما توأمتين ملتصقتين، وتتركهما غير قادرتين على وصف الشعور الحقيقي

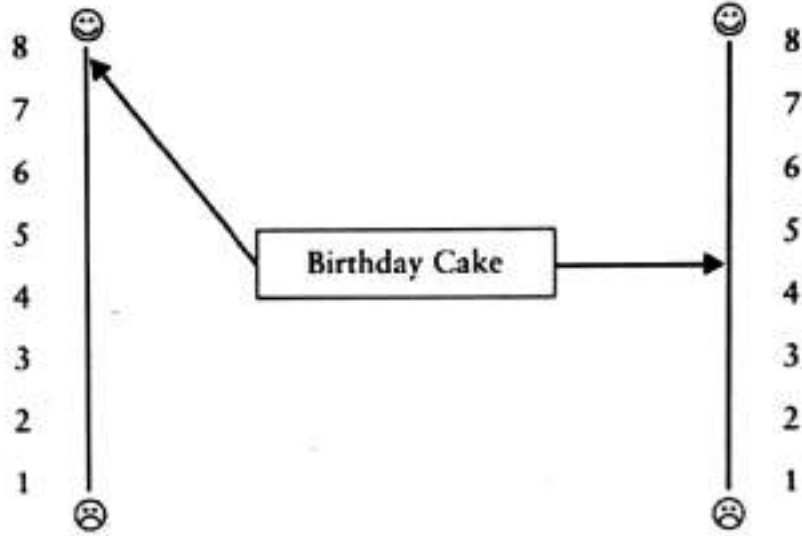
لتيك التوأمتين الملتصقتين اللتين لم تعيشا قط تجربة الأفراد.

إذن، قد تجعلهما تجربة الانفصال، إلى حد ما، في مكاننا نحن وهكذا ستكونان في الوضعية الصعبة ذاتها التي نعيشها نحن، عندما نحاول تخيل تجربة الالتصاق. إن وضعهما فردين منفصلين سيؤثر في نظرتهم إلى الماضي الذي لن يتمكننا من وضعه جانبا ببساطة. كل هذا يعني أنه عندما تكون للناس تجارب جديدة تقودهم إلى ادعاء أن لغتهم شحقت، كأن يقولوا أنهم ليسوا سعداء حقًا، حتى وإن قالوا ذلك وفكروا فيه، حيناً من الزمن - قد يكونوا على خطأ. بعبارة أخرى، قد يكون الناس مخطئين في الحاضر، عندما يقولون إنهم كانوا مخطئين في الماضي.

تمطيط التجربة

لم تفعل لوري وريبا ما يجعلنا نشعر بأحاسيس تصل إلى درجة قصوى في مقياس السعادة، كالعربات ذات العجلات الخشبية أو الغوص تحت الماء أو طلب ما نشاء من الشراب. ومن المؤكد أن هذا يحدث فرقا. إذا كان رصيد التجارب الفقير «لا يسحق اللغة» بالضرورة، فما الذي يفعله بدلا من ذلك؟ لنفترض أن لوري وريبا فعلا تملكان رصيда فقيرا من التجارب على أساسه يمكنهما تقييم شيء بسيط، كأن تحصلا على كعكة شوكولا في عيد ميلادهما. ثمة احتمال أن رصيـد تجربتهما الفقير قد يسحق لغتهما. وثمة احتمال آخر، أنه قد لا يسحق لغتهما بالقدر الذي يمظ تجربتهما - أي أنهما عندما تقولان ثمانية عند حصولهما على كعكة شوكولا تشعران بمثل ما نشعر به نحن، عندما نغوص تحت الماء على طول الحاجز المرجاني العظيم. يصف الرسم رقم 7 فرضية تمطيط التجربة.

إن عبارة تمطيط التجربة عبارة غريبة لكنها ليست فكرة غريبة، فغالبا ما نقول عن الآخرين الذين يذعون أنهم سعداء، رغم الظروف التي نعتقد أنها تمنع حصول تلك السعادة إنهم «يظنون بأنهم سعداء فقط لأنهم لا يعرفون ما ينقصهم». حسنا، بالطبع، لكن هذا هو بيت القصيد. فعندما لا نعرف ما ينقصنا، قد يعني ذلك أننا حقًا سعداء في ظروف قد لا تجعلنا كذلك، لو جزيينا ذلك الشيء الذي ينقصنا. لكن هذا لا يعني أن أولئك الذين لا يعرفون ما ينقصهم، أقل سعادة من أولئك الذين جزيوا ذلك الشيء.



رسم 7: تشير فرضية تمطيط التجربة أن لوري وريبا، عندما تحضلتا على كعكة عيد الميلاد، تحدثتا عن مشاعرهما بنفس الطريقة التي تحدثنا بها، لكنهما كانتا تشعران شعورا مختلفا.

إن الأمثلة عديدة في حياتي وحياتكم، فلنتحدث إذن عن تجاربي. أحب أن أدخن من حين إلى آخر سيجارا، لأن ذلك يشعرني بالسعادة. لكن زوجتي لا تفهم لماذا علي أن أدخن كي أشعر بالسعادة في حين أنه بإمكانها أن تكون سعيدة دون ذلك) بل تشعر بسعادة أكبر عندما لا تدخن). لكن فرضية تمطيط التجربة تشير إلى أنني أستطيع أيضا أن أكون سعيدا دون سجانر فقط، لو لم أجزب أسرارها الشفائية أيام طيش الشباب. لكنني جزيت ذلك، ولذلك أنا أعرف الآن ما الذي أفوته بالامتناع عن التدخين. وهكذا فإن تلك اللحظة العظيمة في عطلة الربيع، وأنا ممدد على كرسي الحديقة على الرمال الذهبية لجزيرة كاواي أترشف مشروب التاليسكير وأرقب انزلاق الشمس البطيء في البحر اللامع لن تكون لحظة رائعة جدا، إذا لم يكن ثقة أيضا بين شفتي سيجار كوبي يفوح برائحة كريهة. قد أخطر بزواجي إذا قمت بتطوير فرضية سحق اللغة من خلال الشرح بعناية لزوجتي أنها تملك رصيد تجربة فقير لأنها لم تجزب أبدا النكهة اللاذعة للسيجار الكوبي. حينئذ، فهي لا تعرف معنى السعادة. قد أخسر، طبعاً، لأن ذلك يحدث دائما، لكن في هذه الحالة سأستحق ذلك. أليس من المنطقي أكثر القول إنني غيرت رصيد تجربتي من خلال تعلم الاستمتاع بالسيجار. وبهذا أكون قد خزيت دون قصد كل التجارب المستقبلية التي لا تحتوي عليه؟ إن الغروب في هاواي يساوي ثمانية إلى أن يأخذ الغروب في هاواي صحبة السيجار الكوبي مكانه، ويخفّض ما يساويه الغروب دون سيجار إلى رقم سبعة فقط(79).

لقد تحدثنا كفاية علي وعن عطلتي، فلنتحدث الآن علي وعن قيثارتني. لقد ظللك أعزف

على القيثارة لسنوات، وكنت أحصل على القليل من المتعة. لكن عندما تعلمت العزف لأول مرة بصفتي مراهقا، كنت أجلس في غرفتي في الطابق العلوي أعزف بسعادة على تلك الأوتار الثلاثة، حتى يطرق والداي على السقف، ويطلبان بحقهما حسب اتفاقية جينيف. أعتقد أنه بإمكانني أن أجزب فرضية سحق اللغة هنا. وأقول إنني أدركت بفضل تحسن قدراتي الموسيقية أنني لم أكن سعيدا حقا في أيام مراهقتي تلك. لكن ألا يبدو من المنطقي الإشارة إلى فرضية تمطيط التجربة بالقول إن التجربة التي سبق أن منحتني السرور لم تعد كذلك؟ فقد يقيم الرجل الذي حصل على شربة ماء بعد أن ضاع في صحراء موهافي لأسبوع سعادته، في تلك اللحظة برقم ثمانية، لكن بعد سنة من ذلك، قد لا تحفزه شربة الماء تلك على سعادة لا تساوي أكثر من اثنين. هل علينا أن نعتقد أنه كان مخطئا بشأن مدى سعادته عندما أخذ من القنينة الصدنة تلك الرشفة التي أنقذت حياته، أم هل من المنطقي أكثر القول إن رشفة ماء قد تكون مصدرا للنشوة أو مصدرا للغذاء على حسب رصيد التجربة للفرد؟ إذا كان رصيدنا الفقير للتجربة يسحق لغتنا بدلا من تمطيط تجربتنا، فالأطفال الذين يقولون إن زبدة الفول السوداني والجيلي يجعلانها سعداء مخطئون. إذن ببساطة، وسيعترفون بذلك، فيما بعد في حياتهم، عندما يحصلون على القضة الأولى من كبد البظ، حيث سيكونون على حق، قبل أن يكبروا أكثر ويعانون من حموضة في المعدة بسبب الأطعمة الدهنية، وعندها سيدركون أنهم كانوا مجانين للصواب، مرة أخرى.

إن كل يوم يبطل اليوم الذي سبقه، ففي كل مرة نشعر بسعادة أعظم من تلك التي سبقتها حتى ندرك كفاية حجم الخداع الهائل الذي تعرضنا له إلى حد الآن.

فما هي الفرضية الصحيحة إذن؟ لا يمكننا الجزم بذلك، ما يمكننا قوله فقط، هو إن كل مزاعم السعادة هي مزاعم من وجهة نظر شخص معين، هي رؤية شخص واحد تمثل مجموعة التجارب السابقة التي ينفرد بها وحده السياق الذي يعتمد عليه والعدسات التي ينظر من خلالها والخلفية التي بواسطتها يقيم تجربته الحالية، فرغم تروق العالم لوجود وجهة نظر تنبع من لا شيء، إلا أنه أمز لا وجود له وبمجرد مرورنا بتجربة ما، لن نتمكن بعد ذلك من رؤية العالم على نفس الشاكلة سابقا. فقد فقدنا براءتنا، ولا تمكننا العودة إلى الوراء. قد نتذكر فيما فكرنا وما قلنا (وإن لم يكن أمرا ضروريا) وقد نتذكر ما فعلنا (وإن لم يكن أمرا ضروريا أيضا)، لكن احتمال أن نحیی تجربتنا ونقيمها، كما فعلنا في ذلك الوقت، احتمال ضعيف للغاية. بطريقة ما، فالأشخاص الذين صرنا إليهم: مدخن السيجار وعازف القيثارة وأكل الباتيه، لم يعد لديهم سلطة التحدث نيابة عن الأشخاص الذين كنا عليهم والذين تفوق سلطتهم سلطة من يراقب الأمر من الخارج. قد تكون التوأمتان المنفصلتان قادرتين على إخبارنا كيف تشعران الآن بشأن تجربتهما

وهما توأمتان ملتصقتان، لكن ليس بإمكانهما إخبارنا كيف يشعر توأمان لم يجزبا الانفصال قط. فلا أحد يعلم إذا كانت ثمانية بالنسبة إلى لوري وربما ترمز إلى نفس درجة السعادة التي ترمز لها ثمانية بالنسبة إلينا. وهذا ينسحب على كل من مز بتجربتهما.

إلى الأمام

شرع مستكشف القطب الشمالي أرنست شاكتين، صبيحة 15 ماي، 1916 في المرحلة الأخيرة لواحدة من أكثر المغامرات إنهاكا حيث غرقت سفينته ذي انديورنس the Endurance في بحر ودل، فانقطعت به رفقة طاقمه السبل في جزيرة إليفانتا. بعد سبعة أشهر، صعد شاكتين صحبة خمسة رجال من طاقمه على متن قارب نجاة صغير حيث قضا ثلاثة أسابيع قطعوا خلالها ثمانمائة ميل من المحيط المتجمد والهائج. ولدى بلوغهم جزيرة ساوث جورجيا South Georgia، استعدّ الرجال، الذين كانوا يتضوّرون جوعا والمتجمدة أطرافهم من الصقيع، إلى النزول عن ظهر القارب وقطع الجزيرة على القدمين أملا في بلوغ محطة صيد الحيتان على الطرف الآخر. لم يسبق أن نجا أحد من رحلة شاقة كذلك. كتب شاكتين ذلك الصباح وقد نجا من موت مُخدق:

«مررنا عبر المدخل الضيق للخليج بصخوره البشعة وأعشاب البحر المتمايلة على الجانبين. ثم انعطفنا إلى الشرق، وأبحرنا بسرور نحو الخليج، بينما بزغت الشمس، وشقّت الضباب، فمنحت المياه المتلاطمة حولنا لمعانا. بدؤنا شديدي الغرابة في ذلك الصباح المشرق، لكننا كنا نشعر بالسعادة، حتى أننا صدحنا بالغناء، وقد يظنّ الرائي العادي، رغم ما كان يبدو علينا من مظهر روبنسون كروزو، أننا في حفلة خلال رحلة بحرية في المضيق النرويجي، أو أنّ ما تنهى إلى مسامعهم هو أحد أجمل الأصوات للساحل الغربي لنيوزيلاندا(80).

هل فعلا كان شاكتين يعني ما كان يقوله؟ هل يمكن أن يكون لكلمة سعيد التي قالها نفس المعنى لكلمة سعيد التي قلناها؟ وهل ثقة أية طريقة لمعرفة ذلك؟ فالسعادة، كما رأينا، تجربة ذاتية من الصعب وصفها لأنفسنا وللآخرين، ومن ثقة، فتقييم مزاعم الناس عن سعادتهم الخاصة هو عمل شائك على نحو استثنائي. لكن لا تقلقوا- فقبل أن يتحسن العمل، يصبح شائكا أكثر

الفصل الثالث

النظر إلى الداخل من الخارج

عد إلى عمق نفسك؛ اطرق بابها وسل قلبك عما يعرف.

شكسبير، الضاع بالضاع

ليس ثقة نكت كثيرة عن أساتذة علم النفس، لذلك نميل إلى الاحتفاظ بتلك النكت القليلة التي نعرفها. ماذا يقول أساتذة علم النفس لبعضهم البعض عندما يتلاقون في الردهة؟ «مرحبا، أنت بخير، كيف حالي؟» أعرف أن النكتة ليست مضحكة. لكن السبب الذي يجعلها من المفترض أن تكون مضحكة، أنه لا ينبغي على الناس أن يعرفوا كيف يشعر الآخرون، بل كيف يشعرون هم أنفسهم. إن عبارة: «كيف حالك؟» عبارة مألوفة للغاية لنفس السبب الذي يجعل عبارة «كيف حالي؟» غريبة للغاية. ومع ذلك بقدر ما هي غريبة تمز على الناس أوقات لا يبدو أنهم يعرفون فيها كيف يشعرون ولا في ما يرغبون. عندما تدعي التوأمتان أنهما سعيدتان. وعلينا أن نتساءل عن احتمال أنهما تعتقدان فقط أنهما سعيدتان. أي أنهما قد تؤمنان بما تقولان، لكن ما تقولانه قد يكون خاطئا. قبل القبول بمزاعم الناس عن شعورهم بالسعادة، علينا أولا أن نقّر إذا كان بمقدورهم، مبدئيا، أن يخطئوا في إدراك مشاعرهم أم لا. قد نخطئ حيال الكثير من الأمور، كتمن فول الصويا أو العمر الافتراضي لعث الغبار أو تاريخ الفانيلا- لكن هل يمكن أن نخطئ في إدراك مشاعرنا الشخصية؟ هل يمكننا الاعتقاد أننا نشعر بشيء لا نشعر به حقا؟ وهل حقا، ثقة أشخاص لا تمكنهم الإجابة بدقة عن سؤال من أكثر الأسئلة المألوفة في العالم؟

أجل، هؤلاء الأشخاص موجودون، فقط انظر إلى المرأة وسترى أحدهم. تابع القراءة.

مضطرب ومصاب بالدوار

لكن ليس بعد، فقبل أن تمضي في القراءة، أتحدّك أن تتوقّف وتُنظر طويلا إلى إبهامك. الآن، أراهنك أنك لم تقبل التحدي. سأراهن أنك تابعت القراءة لأنّ النظر إلى إبهامك سهل، إلى حدّ يجعل منه حركة سخيفة يتقنها الجميع فتصبح لعبة مملة. لكن إذا كان النظر إلى إبهامك حركة لا تليق بك، ففكر إذن في ما يحصل لنا في الواقع حين نرى جسما ما في محيطنا: إبهام أو كعكة محلاة أو «حيوان الشره» المسعور. في تلك الفجوة الصغيرة جدًا بين الزمن الذي يصل فيه الضوء المنعكس على سطح الجسم إلى العينين والزمن الذي نعي فيه هوية ذلك الجسم، تستخلص أدمغتنا وتحلّل خاصيات الجسم وتقارنها بالمعلومات المتوفرة في ذاكرتنا، حتى

تحدد ماهية الشيء، وماذا يجب علينا أن نفعل بشأنه. إنه أمر معقد- معقد إلى حد أن لا أحد من العلماء فهم بعد فهمًا محددًا كيف يحدث ذلك. ولم يستطع أي حاسوب محاكاة تلك الخدعة. لكنه ذلك النوع من الأمور المعقدة التي تعالجها الأدمغة بسرعة استثنائية ودقة. في الواقع، إنها تقوم بهذه التحاليل بتلك الحرفية التي نمتلكها عند القيام بأشياء بسيطة كالنظر إلى اليسار ورؤية «حيوان الشره» والشعور بالخوف والاستعداد للقيام بكل التحليل الذي يعقب ذلك أثناء اختبارنا في شجرة الجميز.

فكر قليلا كيف تحدث الرؤية. إذا كنت ستعيد تصميم الدماغ من الصفر، فمن المحتمل أن تصفمه بحيث أنه يحدد/أولا هوية الأجسام في محيطه («أسنان حادة، فرو بني، صوت شخير منخفض وغريب، لعاب كثير، لماذا، إنه «حيوان الشره» المفترس!) ثم يفكر ماذا يفعل («يبدو الهروب في لحظة كهذه، فكرة مذهلة») لكن الأدمغة البشرية لم تصفم من الصفر. بل إن أكثر وظائفها أهمية ضُفمت أولا، ثم أضيفت، كأجراس أو صفارات، تلك الأقل أهمية مع مرور آلاف السنين. لهذا السبب، فإن أهم أجزاء دماغك (مثل تلك التي تتحكم في تنفسك) موجودة في الأسفل والأجزاء التي قد تستطيع الاستغناء عنها (مثلا: تلك التي تتحكم في مزاجك) موجودة أعلاها، مثل الأيس كريم على الكوز، ومثلما اتضح، فالهروب بأقصى سرعة من «حيوان الشره» المفترس أكثر أهمية بكثير من معرفة هويته. على حقيقتها. إن تصرفات مثل الهرب من خطر محقق، هي تصرفات بالغة الأهمية بالنسبة إلى استمرار الثدييات على الأرض، كذلك التي ننحدر منها، والتي لم يخاطر بها التطور وضمم الدماغ على نحو يجعله يجيب عن سؤال «ماذا ينبغي علي أن أفعل؟»، قبل سؤال «ما هذا؟» (81). فقد أثبتت التجارب أن في اللحظة التي نواجه فيها أي جسم، تحلل أدمغتنا على الفور بعضا من خصائصه المهمة، فقط ثم تستخدم وجود تلك الخصائص أو غيابها لتتخذ قرارا سريعا وبسيطا جدا: «هل هذا الجسم يمثل خطرا؟ وهل ينبغي علي التصدي له فوراً؟» (82). إن «حيوانات الشره» المفترسة والرُضع الباكين والحجارة المرشوقة وإيماءة الزملاء والفرانس المرتعدة، كلها أشياء تلعب دورا هاما جدا في لعبة البقاء التي تتطلب منا حركة فورية، عندما نصادفها، لا أن نتلأأ بتأمل النقاط الدقيقة التي تحدد هويتها. وهكذا فادمغتنا مصفمة لتقرر/أولا إذا كانت الأشياء مهمة لبقائنا، ثم بعد ذلك تقرر ماهية تلك الأشياء. هذا يعني أنك عندما تدير رأسك إلى اليسار، فإن دماغك خلال جزء من الثانية لا يعرف أنه يرى «حيوان الشره»، وإنما يعرف أنه يرى شيئا مخيفا.

لكن كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ كيف يمكننا معرفة أن هذا الشيء مخيف، إذا لم نكن نعرف ما هو؟ لمعرفة كيف يحدث هذا، فكر فقط كيف تحدد هوية شخص يسير نحوك قاطعا صحراء

ممتدة. سيكون أول ما يلفت انتباهك لمحة صغيرة لحركة في الأفق. وعندما تحدّق مليا سرعان ما ستلاحظ حركة جسم يتقدّم نحوك. كلما اقترب، ستري أن الحركة بيولوجية. ثم ستري أن للجسم البيولوجي قدمين، ثم ستدرك أنه بشر، ثم أنثى، ثم أنثى بدينة بشعر داكن وتي شيرت من نوع بودوايزر ثم مهلا- ماذا تفعل الخالة مايبيل في الصحراء؟ ستتطوّر معرفتك بهوية الخالة مايبيل، أي ستبدأ بتدرّج من المعرفة العامة حتى تصبح بمرور الوقت أكثر دقة. ثم ينتهي بك الأمر أخيرا إلى لقاء عائلي. وعلى نفس الشاكلة، فإنّ تحديد هوية «حيوان الشره» الموجود على مقربة شديدة منك، يتطوّر مع مرور الوقت، رغم أنه يأخذ بعض الأجزاء من الثانية فقط. وهو أيضا يتدرّج من العام إلى الأكثر دقة. فقد أثبت الباحثون وجود ما يكفي من المعلومات في المراحل المبكرة والعامة لهذا المسار من تحديد الهوية، لتقرّر إذا كان شيئا مخيفا أم لا. لكن لا توجد معلومات كافية لمعرفة ماهية ذلك الشيء.

بمجرد أن تقرّر أدمغتنا أننا في حضرة شيء يهددنا، تأمر غدنا بإفراز هرمونات تخلق حالة فيزيولوجية من الإثارة العالية، فيرتفع ضغط الدم، وتتسارع نبضات القلب، ويتقلص بؤبؤ العين، ويحدث شدّ في العضلات، مما يعدنا للانفداع نحو الحركة. فقبل أن تنهي أدمغتنا التحليل الكامل الذي سيمكننا من معرفة أن الجسم هو «حيوان الشره»، كانت قد وضعت أجسادنا مسبقا في وضع الاستعداد للهرب، في أتمّ حالات الإثارة والاستعداد للانطلاق.

إن حقيقة أنه بإمكاننا أن نستتار دون معرفة ماهية الشيء الذي أثارنا تؤذي إلى انعكاسات هامة على قدرتنا على التعرّف على مشاعرنا الخاصة (83). على سبيل المثال: درس الباحثون ردود أفعال بعض الشبان الذين كانوا يقطعون جسرا معلّقا ضيقا وممتدا. كان الجسر مبنيا بواسطة ألواح خشبية وكابلات كهربائية تهتز، وتتأرجح على ارتفاع 230 قدما على نهر الكابيلانو في شمال فانكوفر (84). اقتربت شابة من رجل بعينه، وطلبت منه إن كان يمانع إنجاز استطلاع رأي. ثم أعطت المرأة ذلك الرجل رقم هاتفها، وعرضت عليه أن تشرح مشروع الاستطلاع بمزيد من التفاصيل، إذا اتصل بها. وكان ثقة فحّ في الأمر: فالمرأة اقتربت من بعض الرجال، بينما كانوا يقطعون الجسر ومن آخرين بعد أن قطعوه. وكما اتضح بعد ذلك، فالرجال الذين التقوا بالمرأة أثناء عبورهم الجسر، كانت لديهم قابلية أكبر للاتصال بها في الأيام الموالية. لماذا؟ لأنّ الرجال الذين التقوا بالمرأة وسط جسر معلّق مرتعش ومتأرجح كانوا يشعرون بإثارة فيزيولوجية قوية. وكان ينبغي عليهم أن يسفوها خوفا. لكن، ولأنّ من حاورتهم امرأة جذابة، فقد اخطؤوا اعتبار الإثارة التي سببها الخوف إثارة جنسية. إذ يبدو أن المشاعر التي قد يفسرها الفرد بأنها خوف في ظلّ إمكانية السقوط الحز، يمكن أن تُفسّر على أنها شهوة لمجرد

وجود قميص نسائي، وهو ما يعني ببساطة أن الناس يمكن أن يخطئوا في مشاعرهم (85).

فاقد الحس على نحو مريح

كتب الروائي غراهام غرين: «يبدو أن الكره يعمل بنفس الغدد التي يعمل بها الحب» (86). في الحقيقة، يظهر الباحثون أن الإثارة الفيزيولوجية يمكن أن تُفسر بأشكال مختلفة، وتفسيرنا للإثارة التي نشعر بها يعتمد على ما نعتقد أنه أدى إلى حدوثها. فقد نخلط بين الخوف والشهوة أو التوجس والإحساس بالذنب (87) أو الشعور بالعار والقلق (88). لكن مجرد عجزنا دوماً على إطلاق اسم على تجربتنا العاطفية لا يعني أننا لا نعرف ماذا تشبه تلك التجربة، أليس كذلك؟ لعلنا غير قادرين على تسميتها أو على إدراك ما تسبب في وقوعها. لكننا نعرف دائماً بمشعر أثناءها. اتفقنا؟ فهل من المحتمل أن نعتقد أننا نشعر بشيء، بينما نحن لا نشعر بأي شيء مطلقاً؟ تحذت الفيلسوف دانييل دينيت عن المسألة كالتالي:

«لنفترض أن شخصاً من الأشخاص تلقى اقتراحاً خلال التنويم المغناطيسي بأنه سيشعر بألم في معصمه لدى استيقاظه، ونجح التنويم، هل ستكون حالة الشعور بالألم ناجمة عن التنويم المغناطيسي؟ أم مجرد حالة مز بها شخص، حث على الاعتقاد في أنه يشعر بالألم؟ فإذا أجاب أحدهم بأن التنويم استحثّ ألماً حقيقياً، لنفترض حينها أن اقتراح ما بعد التنويم المغناطيسي كان: «لدى استيقاظك سوف تعتقد بوجود ألم في معصمك»، ونجح هذا الاقتراح، فهل ثقة تشابه بين الحالتين؟ أليس اعتقادك أنك تتألم يعادل ألماً حقيقياً؟» (89).

تبدو فكرة أن بإمكاننا أن نخطئ في شعورنا بالألم للوهلة الأولى منافية للمنطق، لا شيء إلا لأن التمييز بين الشعور بالألم واعتقاد الفرد بأنه يشعر بالألم يبدو حذقة لغوية. لكن دعونا ننظر إلى الأمر بطريقة مختلفة، بينما نحن نفكر في السيناريو التالي. أنت تجلس في مقهى على الرصيف، وتحتسي اسبريسو قوية، وتتصفح صحيفة الأحد، في حالة من السكينة، والناس من حولك يتجولون مستمتعين بصباح رائق، وعلى الطاولة القريبة منك يوجد شابتان يتبادلان الحب شاهدين على روعة الربيع الأبدية. تخلت تغريد الشحور رائحة تخفر الكرواسون الطازج التي كانت تنبعث من المخبزة. كان المقال الذي كنت تقرأه حول عملية الإصلاح المالي مهفاً، وكان كل شيء يسير على ما يرام، حتى أدركت فجأة أنك الآن بصدد قراءة الفقرة الثالثة، وأنت في مكان ما، وسط الفقرة الأولى بدأت تشتم رائحة المخبوزات وتستمع إلى تغريد العصفور. وأن لا فكرة لديك الآن مطلقاً عن القصة التي تقرأها. فهل قرأت حقاً الفقرة الثانية؟ أم أنك حلمت بها فقط؟ تلقي بنظرة خاطفة على ما سبق، وتتأكد بما يكفي أن كل الكلمات مألوفة لديك، وبينما

تعيد القراءة تستطيع حتى تذكر أنك سمعتها منذ لحظات من ذلك الراوي الذي في رأسك، والذي لفرط دهشتك يبدو صوته تماما كصوتك، صوته الذي غرق لفقرة أو فقرتين داخل فصل الربيع الجميل الذي لفت انتباهه.

نحن الآن إزاء سؤالين اثنين. أولاً، هل كنت واعياً بقراءتك الفقرة الأولى؟ ثانياً، إذا كانت الإجابة نعم، فهل كنت تعلم أنك واعٍ بقراءتك لها؟ الإجابة هي تباعاً نعم ولا. فقد كنت واعياً بقراءتك الفقرة، ولذلك لأنها كانت مألوفة جداً لديك عندما تفحصتها ثانية. فلو كان ثقة عين تتابعك على الطاولة، لكنت كشفت لك أنك لم تتوقف لحظة واحدة عن القراءة. في الواقع، كنت في منتصف قراءة مسترسلة. فجأة ضبطت نفسك تمارس شيئاً ما دون أن تكون مدركاً لذلك. دعوني أتمهل قليلاً، وأتعامل بحذر مع هذه الكلمات خشية أن تبدأ بالاستماع إلى النبرة العالية لتفريد طير «نيلي الرايات». إن كلمة تجربة *experience* مشتقة من الكلمة اللاتينية *experientia* وتعني «جرب»، بينما كلمة *aware* مشتقة من الكلمة اليونانية *horan* وتعني «رأى» *to see*. إن التجربة تنطوي على المشاركة في حدث ما، بينما ينطوي الوعي على مراقبة حدث آخر. رغم أنه يمكن لكل كلمة أن تعوض الأخرى بشكل عادي في محادثات عادية، دون أن يكون لذلك تأثير كبير على المعنى. إلا أن لكل منهما تفسيراً مختلفاً عن الأخرى، فواحدة تعطينا معنى أنك مشارك، بينما الأخرى تمنحنا معنى أنك مدرك لتلك المشاركة. واحدة تشير إلى التأمل، بينما الأخرى تشير إلى موضوع التأمل. يمكن، في الواقع، اعتبار الوعي نوعاً من تجاربنا الخاصة (90)، فعندما يتجادل شخصان حول إذا كان كلباهما واعيين أم لا. عادة ما يستخدم أحدهما ذلك اللفظ المستهلك بشدة ليعني «قادراً على التجربة». بينما الآخر يستخدمها ليعني «قادراً على الإدراك». إن الكلاب ليست صخوراً، مثلما قد يزعم أحدهما. وهكذا، فهي بالطبع واعية، فيجيبه الآخر بأن الكلاب ليست بشراً، وإنه فهي بالتأكيد ليست واعية. من ثقة، من المحتمل أن يكون كلاهما محقاً، وقد تكون الكلاب عاشت تجربة الأصفر والحلوى: فقد يكون هناك ما يشبه وقوف كلب أمام شيء أصفر اللون وطعمه حلوى، حتى لو لم يكن باستطاعة البشر معرفة ذلك.

لكن الكلب الذي يمز بتلك التجربة قد لا يكون في الآن ذاته مدركاً لها، مفكراً فيها، وهو يمضغ: «اللجنة على حلوى» اللإيدي فينجر «الليذية».

إن التمييز بين التجربة والوعي أمر صعب لأن الكلمتين منسجمتان انسجاماً رائعاً. مثلاً نقوم بدش قطعة حلوى «ليدي فينجر» في أفواهنا، فنذوق طعمها الحلو وندرك أننا نذوق طعماً حلواً. لا شيء في هذا يبدو عصياً على الفهم، ولو بنسبة ضئيلة، لكن إذا كانت العلاقة الوثيقة

بين التجربة والوعي تؤدي بنا إلى الشك في أن التمييز بينهما أمر غامض، عليك فقط أن تعيد الشريط إلى الوراء قليلا (و) ثم تخيل نفسك وقد عدت إلى المقهى في تلك اللحظة ذاتها التي كانت فيها عينك تتفحصان الصحيفة، وعقلك على وشك الاستغراق في تأمل الأصوات والروائح حولك. الآن اضغط على زر التشغيل، وتخيل أن عقلك شرد بعيدا ولم يعد أبدا. هذا صحيح. تخيل أنك أثناء قراءة المقال، صار وعيك منفصلا نهائيا عن فعل القراءة، ولم تتمكن من مطاردة نفسك، وهي تنسحب بعيدا. أي من العودة إلى اللحظة التي بدأت فيها القراءة. توقّف الثنائي الجالس على الطاولة القريبة منك عن تقبيل أحدهما الآخر منذ وقت طويل، ومالا نحوك يسألانك عن آخر الأخبار حول قانون عملية الإصلاح المالي، فتشرح لهما، بصبر، أنه لا يمكنك معرفة ذلك، لأنك تستمتع بسعادة إلى أصوات الربيع ولا تقرأ الصحيفة. وهو ما قد يفهمانه بالتأكيد، لو فقط انتبها إلى شيء آخر عدا غدهما. ارتبك الثنائي من هذه الإجابة لأنك، كما يريان، تمسك بالفعل بصحيفة بين يديك وحدقتاك تتفحصان بسرعة الصفحة فعلا، حتى لو أنكرت ذلك. إثر وشوشة صغيرة وقبلة أخرى، قززا القيام باختبار ليعرفا إن كنت تقول الصدق أم لا. «نعتذر لإزعاجك مجددا، لكننا نتوق إلى معرفة كم من عضو في مجلس الشيوخ صوت لقانون الإصلاح المالي الأسبوع الفارط، ونتساءل إن كنت بارعا في التخمين؟» لأنك كنت تشتتم رائحة الكرواسون، وتستمع إلى تغريد العصافير ولا تقرأ الصحيفة، فلا فكرة لديك عن عدد أعضاء مجلس الشيوخ الذين صوتوا لصالح القانون. لكن يبدو أن الطريقة الوحيدة لجعل هؤلاء الناس الغرباء يتوقفون عن التدخل في شؤون الآخرين هي أن تجيبهم أية إجابة عشوائية قائلا: «ماذا عن واحد وأربعين؟» ولدهشتك أنت فقط، كان ذلك الرقم صحيحا تماما.

قد يبدو هذا السيناريو من الغرابة بمكان ليكون صحيحا (ففي النهاية ما مدى احتمال أن يصوت واحد وأربعون عضوا من مجلس الشيوخ لصالح مشروع الإصلاح المالي؟) غير أنه بالفعل صحيح وغريب في الآن ذاته. إن تجربتنا البصريّة ووعينا بتلك التجربة ينتجان عن طريق أجزاء متنوّعة من أدمغتنا. وهكذا فبعض الأنواع من التلف الدماغيّ (لا سيما الأضرار التي تصيب القشرة الدماغية المعروفة بـ V1) يمكن أن تعيق واحدة دون الأخرى، فتسبب فقدان التجربة والوعي لارتباطهما الوثيق المعتاد (ببعضهما البعض). مثلا: لا يعي الأشخاص الذين يعانون من حالة معروفة بـ «العمى القشري» *blindsight* قدرتهم على الرؤية، وسيقولون لك بصدق إنهم مصابون بالعمى التام (91). أضفت عملية المسح الدماغيّ مصداقية على ادعائهم من خلال الكشف عن تضاول النشاط في تلك المناطق المرتبطة عادة بوعيهم بتجاربيهم البصريّة. لكن من ناحية أخرى، كشفت نفس عملية المسح الدماغيّ تلك، عن نشاط عاديّ نسبيا في المناطق المرتبطة بالرؤية (92). إذن، لو سلطنا وميضا من الضوء على نقطة محددة على

الجدار، وسألنا الشخص المصاب بالعمى القشري، إذا كان يرى الضوء، سيقول لنا: «لا»، بالطبع لا. فكما يمكنك أن تستشف من وجود كلب الإرشاد، أنا أعمى. «لكن لو طلبنا منه أن يخفن مكان الضوء الذي ظهر(حاول فقط، قل أي شيء، أشد إلى أي نقطة عشوائيا إن شئت-«سيخفن»» تخميننا صحيحا، أكثر مما كنا نتوقع.

إنه يبصر، إذا كنا نعني بكلمة يبصر تجربة الضوء ومعرفة مكانه، لكنه أعمى، إذا كنا نعني بكلمة أعمى أنه ليس واعيا بما رآه. إن عيناه تعرضان شريط الواقع على شاشة المسرح الصغير في رأسه لكن الجمهور في البهو يشتري البوب كورن.

يمكن أن يسبب هذا الانفصال بين الوعي والتجربة نوعا من التقلب في علاقة بمشاعرنا. حيث يبدو بعض الأشخاص على وعي بأمزجتهم ومشاعرهم، وقد يحصلون حتى على جائزة الروائي الأفضل لقدرتهم على وصف أي جانب من جوانبهم القائمة أو حالة من أحوالهم. بينما يأتي البعض الآخر مجهزا إلى حد ما، بمعجم عاطفي صرف يتكوّن أساسا من جيد، ليس جيدا جدا، ولقد أخبرتك مسبقا، مما يثير استياء شركائنا العاطفيين. إذا كان عجزنا عن التعبير عميقا ومستمرا، فقد نكون مصابين بـ«اللامفراداتية» أو «الألكسيثيميا» alexithymia والتي تعني حرفيا «غياب المفردات التي تصف الحالات العاطفية». عندما يُسأل المصابون بالألكسيثيميا بماذا يشعرون، عادة ما يقولون، «لا شيء»، وعندما يُسألون عن كيفية شعورهم، يجيبون عادة بـ «لا أعرف». فلا يمكن علاج مرضهم، مع الأسف. بواسطة قاموس جيّب للمرادفات ولا دريس قصير عن قوة الكلمة، لأن المصابين بالألكسيثيميا لا ينقصهم المعجم العاطفي التقليدي، بقدر ما ينقصهم الوعي الاستبطاني لحالاتهم العاطفية. إذ يبدو أن لديهم مشاعر، لكن فقط لا يبدو أنهم يعرفون عنها شيئا. مثلا: عندما عرض بعض الباحثين على مجموعة من المتطوعين صورا عاطفية تحيل إلى ذكريات معينة، تتعلّق بتر أعضاء بشرية وحطام سيارات، لم يكن بالإمكان تمييز ردود الفعل النفسية للمصابين بالألكسيثيميا عن تلك التي تصدر عن الأشخاص العاديين. لكن عندما طلب منهم القيام بتصنيف لفظي بناء على بشاعة تلك الصور، كان المصابون بالألكسيثيميا أقل قدرة من الأشخاص العاديين على تمييزها من بين الصور المتعلقة بقوس قزح أو الجراء(93). أشارت بعض البراهين إلى أن سبب الألكسيثيميا يتمثل في خلل في القشرة الحزامية الأمامية، وهي جزء من الدماغ معروفة بدورها في التأثير في إدراكنا بعدة مؤثرات، منها حالاتنا الداخلية(94). تماما، مثلما يمكن للفصل بين الوعي والتجربة البصرية أن يؤدي إلى العمى القشري، فإن الفصل بين الوعي والتجربة العاطفية يمكن أن يؤدي إلى ما يمكننا تسميته «خدر الشعور» numbfeel. فيبدو أنه من الممكن أن يشعر بعض الأشخاص، على الأقل

في بعض الأوقات، بأنهم سعداء أو بانسون أو ضجرون أو فضوليون دون أن يدركوا ذلك.

جهاز مقياس السعادة

كان يا ما كان، خلق ربّ ذو لحية أرضاً صغيرة، مسطحة وألصقها في كبد السماء حتى يتسنى للبشر أن يكونوا في مركز كل شيء. ثم جاءت الفيزياء، وعقدت الصورة بفكرة الانفجار الكبير والكواركات والأغشية والأوتار الفائقة والآن، أي بعد مئات السنين، ونتيجة لهذا التحليل النقدي، لم يعد لأغلب الناس أي فكرة عن المكان الذي يعيشون فيه. خلق علم النفس أيضاً بعض المشاكل التي لم تكن موجودة من قبل، بعرضه عيوب فهمنا الغريزي لأنفسنا. فرئنا للكون أبعاد صغيرة أخرى تختبئ وسط الأبعاد الكبيرة. وربما يتوقف الزمن في النهاية أو يتراجع إلى الخلف. وربما لم يكن مقدراً أن أشخاصاً مثلنا يمكن أن يسبروا أغواره. لكنّ شيئاً واحداً يظل بإمكاننا دوماً الاعتماد عليه، إنه تجربتنا. استنتج الفيلسوف والرياضي ريني ديكارث أن تجربتنا هي الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نكون متأكدين منه تماماً، وأن كل شيء آخر نظن أننا نعرفه هو مجرد دليل على ذلك. ورغم ذلك لقد رأينا أننا عندما نقول بدقّة متوسطة ما نعنيه من بعض الكلمات ككلمة سعادة، فنحن لا نزال غير متأكدين أن الشخصين اللذين يدعيان أنهما سعيدان يعيشان التجربة ذاتها، أو أن تجربتنا السعادة حالياً مختلفة فعلياً عن تجربتنا السابقة للسعادة، أو هي مختلفة عن كوننا نعيش تجربة سعادة أصلاً. إذا كانت غاية العلم هي جعلنا نشعر بالغرابة والجهل أمام أشياء كنا نفهمها جيداً في الماضي، فعلم النفس تفوق، إذن، على كل العلوم الأخرى.

لكنّ العلم، شأنه شأن العادة، هو من بين تلك الكلمات التي تعني الكثير من الأشياء للكثير من الأشخاص. وهي بهذا غالباً ما تكون عرضة لثلاث تعني شيئاً مطلقاً. فقد كشف لي أبي مؤخراً - وهو عالم أحياء مرموق بعد أن قضى عذّة عقود متأملاً المسألة - أن علم النفس لا يمكن أن يكون علماً حقيقياً، لأن العلم يتطلب استخدام الكهرباء. إذ يبدو أن الصدمات التي تتلقاها على كاحلك لا تحتسب. بيد أن مفهومي للعلم أكثر إثارة بعض الشيء، لكن ثمة شيء واحد، قد نتفق أنا وأبي ومعظم العلماء حوله، ألا وهو أن الشيء الذي لا يمكن قياسه، لا يمكن بذلك دراسته علمياً. قد تتم دراسته، حتى أن أي شخص يستطيع ادعاء أن دراسة مثل هذه الأشياء التي لا يمكن قياسها، أمر جدير بالاهتمام أكثر من كل العلوم مجتمعة، لكنه ليس علماً لأن العلم يعتمد على القياس. وإذا لم يكن بالإمكان قياس شيء ما، بمعنى أنه لا تمكن مقارنته بالساعة أو المسطرة أو أي شيء آخر عدا نفسه، فلن يكون هدفاً محتملاً للبحث العلمي. وكما رأينا، من الصعب للغاية قياس سعادة فردية والاعتماد بصورة تامة على وجهة ذلك القياس ودقته. قد لا يدرك بعض

الأشخاص شعورهم، أو لا يتذكرون كيف كانوا يشعرون في الماضي. وحتى إن تمكّنوا من ذلك، لا يمكن للعلماء أن يعرفوا أبداً إذا كانت تجاربهم تتطابق مع وصفهم تلك التجربة. وهكذا لا تمكنهم معرفة كيفية تفسير مزاعم أولئك الأشخاص. كل هذا يدل على أن الدراسة العلمية للتجربة الذاتية لا بد أن تكون رحلة صعبة.

أجل، هي صعبة، غير أنها ليست مستحيلة، لأنّ الهوة بين التجارب يمكن سدها، ليس بواسطة عوارض حديدية أو طريق سريعة تتفزع عنها سبّ طرق -انتبهوا- بل بواسطة حبل طويل ومتين نسبياً، هذا إذا قبلتم بهذه المسلمات الثلاث.

صواب القياس

بإمكان أيّ نجار إخبارك بالمسألة الأولى: تجلب الأدوات ذات النقصان الإزعاج، لكنّ ذلك بالتأكيد أفضل من أن تدقّ المسامير بأسنانك. إن طبيعة التجربة الذاتية تشير إلى الغياب التام لأداة دقيقة تسمح للمراقب بأن يقيس بدقة كاملة خصائص تجربة ذاتية لشخص آخر، كي يتم أخذ القياس وتسجيله ومقارنته مع قياس آخر (95). وإذا كنا نطالب أدواتنا بأن تكون بذلك المستوى من المثالية، فما علينا إلا حزم متعلّقات العين وأجهزة مسح الدماغ وعينات الألوان وترك دراسة التجربة الذاتية للشعراء، الذين قاموا بعمل جيد لآلاف السنين. لكن إذا كنا سنفعل ذلك، فمن العدل بداهة، أن نناولهم كذلك دراسة كل شيء آخر تقريباً. لأنّ الكرونومتر والتيرمومتر والبارومتر والسبكترومتر وكل الأدوات التي يستخدمها العلماء في قياس الأجسام التي تهفهم أدوات منقوصة. فكل واحدة منها تخلف درجة معينة من الخطأ خلال عمليات الرصد التي تقوم بها، ولهذا فالحكومات والجامعات تنفق مبالغ ضخمة من المال، كل عام مقابل الحصول على نسخة أفضل بقليل من كل واحدة منها. وإذا شئنا ترك كل تلك الأشياء التي تزودنا فقط بمقاربات منقوصة للحقيقة. علينا أن نتخلص ليس من علم النفس والعلوم المادية فقط، وإنما من القانون والاقتصاد والتاريخ كذلك. باختصار، إذا كنا متمسكين بمعيار الكمال في كل المساعي التي نقوم بها، فلن يتبقى لنا شيء سوى الرياضيات و«الألبيوم الأبيض». ربّما علينا حينئذ أن نتقبل بعض الغموض، فحسب، ونتوقّف عن التذمّر.

تكمن المسألة الثانية في أن الإفادة الأنية والصادقة عن الفرد الفطن هي المعيار الأقلّ عيوباً من بين كل المعايير المنقوصة للتجارب الذاتية التي اتخذناها (96). ثمة الكثير من الطرق الأخرى لقياس السعادة، بالطبع. والبعض منها يبدو أكثر دقة وعلمية وموضوعية من مزاعم الشخص نفسها. على سبيل المثال: يمكننا التخطيط الكهربائي للعضلات *electromyography* من قيس المؤشرات الكهربائية الناتجة عن العضلات الهيكلية للوجه مثل العضلات المموجة

التي تجعد جبهاتنا، عندما نعيش شيئا مؤلما أو «العضلة الوجنية الكبرى» *zygomaticus major*، التي تسحب أفواهنا إلى الأعلى نحو آذاننا عندما نبتمس، ويمكننا علم وظائف الأعضاء *physiography* من قياس النشاط الكهربائي والتنفسي والقلبي للجهاز العصبي الأوتوماتيكي الذي يطرأ عليه تغيير، عندما تعترينا مشاعر قوية. كما يمكننا الرسم الكهربائي للدماغ *Electroence phalography* والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني *poitron-emission tomography* والتصوير بالرنين المغناطيسي *magnetic resonance imaging* من قياس النشاط الكهربائي ومعرفة مدى تدفق الدم في مناطق مختلفة من الدماغ مثل المناطق اليسرى واليمنى من قشرة الفص الجبهي التي تنحو إلى أن تكون نشطة عندما نعيش تباعا تجارب عاطفية إيجابية، وأخرى سلبية. وحتى الساعة، يمكن أن تكون أداة ذات جدوى لقياس السعادة، لأن الأشخاص الذين تعرّضوا لموقف مبالغت يميلون إلى أن يرمشوا بأعينهم ببطء، عندما يشعرون بالسعادة أكثر من أولئك الذين يشعرون بالخوف والقلق (97).

شعر العلماء الذين يعتمدون على التقارير الآتية والصادقة للأفراد الفطنين بضرورة الدفاع عن ذلك الخيار عبر تذكيرنا بأن تلك التقارير ترتبط ارتباطا وثيقا بمعايير أخرى للسعادة. لكنهم تراجعوا نوعا ما إلى الخلف، ففي النهاية، السبب الوحيد الذي يجعلنا نعتبر هذه الأنشطة الجسدية من حركة العضلات إلى تدفق الدم في الدماغ، مؤشرات للسعادة، هو عندما يخبرنا الناس أنهم كذلك. فإذا ادعى الناس أنهم يشعرون بغضب عارم أو باكتئاب عميق وبالف عندما تنقلص عضلتهم الوجنية وتتباطأ رفة أعينهم ويتدفق الدم إلى منطقة الدماغ الأمامية اليسرى، عندها قد نراجع تأويلاتنا لهذه التغييرات الفيزيولوجية، ونعتبرها مؤشرات على التعاسة بدلا من ذلك. وإذا كنا نرغب في معرفة بم يشعر أحدنا، علينا أن نبدأ بالاعتراف بحقيقة وجود مراقب واحد وحيد يملك وجهة النظر الحاسمة. فقد لا يتذكر دائما ما شعر به سابقا، وقد لا يكون دائما واعيا بما يشعر به الآن. وقد تتشوش أذهاننا تقاريره، ونشك في ذاكرته، ونقلق على قدرته في استعمال اللغة مثلنا. لكن عندما تنتهي الحيرة، علينا أن نعترف أنه الشخص الوحيد الذي يملك فرصة ضئيلة لوصف «الرؤية من الداخل»، مما يجعل ادعاءاته مثل الذهب، هي المعيار الوحيد الذي على أساسه تقاس كل المعايير. سوف نتق أكثر في مزاعمه، حينما لا تتماشى مع ما يخبرنا به المراقبون الآخرون الأقل شأنا. وعندما نتق في أنه يقيم تجربته بناء على الخلفية ذاتها التي نقيم من خلالها تجربتنا، ويستجيب جسده كما تفعل الأجساد الأخرى حينما تمز التجربة التي تدعي المرور بها وهكذا. لكن حتى عندما تتوافق كل مؤشرات السعادة المختلفة هذه بشكل رائع، فلن نكون متأكدين تماما أننا نعرف الحقيقة عن عالمه الداخلي. ومع ذلك نستطيع أن نتأكد أننا اقتربنا بنفس المسافة التي كان قد اقترب بها المراقبون، وهو أمر جيد بما يكفي.

القياس المتواتر

تتمثل المسألة الثالثة في أن عيوب القياس تمثل دوما مشكلة، لكنها قد لا تكون مشكلة فادحة إلا إذا لم نتفطن إليها. فإذا كان ثقة خدش عميق على نظاراتنا، دون أن نعلم بذلك، فقد نخطئ في استنتاج أن صدعا بسيطا فُتح في نسيج الفضاء، وأن هذا الصدع سيلاحقنا أينما ذهبنا. لكن لو كنا على وعي بالخدش، فسنفعل ما بوسعنا حتى نستثنيه عاملا، لا يمثل جزءا من ملاحظتنا، مذكّرين أنفسنا بأن ما يبدو مثل تمزق في نسيج الفضاء، هو في الواقع عيب في الأداة التي نستخدمها لفحصه. ما الذي بوسع العلماء فعله حتى «يرؤوا من خلال» العيوب الكامنة في إفادات التجارب الذاتية؟ إن الإجابة تكمن في ظاهرة يسقيها خبراء الإحصاء بـ «قانون الأعداد الكبيرة».

لدى العديد منا فكرة خاطئة عن الأعداد الكبيرة، تتمثل في كونها تشبه الأعداد الصغيرة. لكن بحجم أكبر فقط، لذلك نتوقع منها أن تقوم بأكثر مما تقوم به الأعداد الصغيرة، دون أن تفعل شيئا بصورة مختلفة. على سبيل المثال: نحن نعلم أن الخليتين العصبيتين اللتين تتبادلان إشارات كهروكيميائية عبر «المحاور العصبية» و«التغضّات»، لا يمكنها أن تكون واعية. فالخلايا العصبية هي أدوات بسيطة، أقل تعقيدا من أجهزة الاتصال اللاسلكي المتوفرة في محلات «سيرز» التجارية Sears. وهي تؤتي وظيفة بسيطة ووحيدة، هي تحديدا التفاعل مع المواد الكيميائية التي تصلها بواسطة إطلاق مواد كيميائية خاصة بها. فإذا افترضنا أن عشرة بلايين من هذه الأدوات البسيطة لا يمكنها القيام إلا بعشرة بلايين من الأشياء البسيطة. فليس بوسعنا التخمين أبدا أن للبلايين منها خاصية، لا يملكها إثنان أو عشرة أو عشرة آلاف. هذه الخاصية هي خاصية الإدراك، وهي خاصية بارزة ظهرت جزئيا باعتبارها نتيجة لعدد الهائل من الضلات ما بين الخلايا العصبية في الدماغ البشري، ولا وجود لها في أي من أجزاء الدماغ الأخرى، أو في الضلات بين عدد قليل فقط من الخلايا (98). تقدّم الفيزياء الكمية درسا مشابها لهذا، فمن المعلوم أن الجسيمات «دون الذرية» تملك تلك القدرة المدهشة والساحرة للوجود في مكانين في الوقت ذاته. وإذا افترضنا أن أي شيء يتكوّن من هذه الجسيمات يجب أن يتصرف بنفس الطريقة، فعلينا إذن أن نتوقع وجود كل الأبقار في كل الحظائر الممكنة في الآن ذاته. وهو ما لا يحدث بالطبع، لأن الثبات هو أحد الخصائص الأخرى التي تنبثق من الترابط الواقع بين عدد هائل من أجزاء متناهية الصغر التي لا تملكها هي نفسها. باختصار، إن «أكثر» لا تعني أكثر فحسب - بل هي أحيانا شيء آخر، عدا أقل.

يعمل سحر الأعداد الكبيرة إلى جانب قوانين الاحتمالات من أجل علاج الكثير من المسائل

المرتبطة بقياس التجربة الذاتية المنقوص. تعلمون أن العملة النقدية، إذا كانت عملة عادلة القسمة وقذف بها في عذة مناسبات في الهواء، فعليها أن تأتي من جهة الرأس في نصف عدد المرات. وعلى هذا النحو، إذا لم يكن لديك شيء أفضل تفعله مساء الثلاثاء، فأنا أدعوك للقائي في حانة شارع غرافتون في ساحة هارفرد لنلعب لعبة سخيفة تسمى «تقسيم النقرات مع دان» Splitting the Tab with Dan. وهي كالآتي: نقذف بالعملة في الهواء، أنا أختار الرأس وأنت تختار الذيل والخاسر يدفع لعامل البار، بول، ثمن البيرة في كل مرة. الآن، إذا ألقينا بالعملة النقدية في الهواء أربع مرات وربحت أنا ثلاث مرات، فرئنا تعتبر أن ذلك حدث من دون شك بسبب سوء حظك، وقد تتحدثني في لعبة رشق السهام بدلا من ذلك. أما إذا قذفنا بها أربع ملايين مرة، وربحت أنا في كل تلك المرات، عندها من المحتمل أن ترسل أنت وشركاؤك في طلب كمية كبيرة من الريش والقطران لتطلوا بها أنفسكم، عقابا لكم.

لماذا؟ لأنك حتى لو لم تكن على دراية بأول مبادئ نظرية الاحتمالات، فلا بد أنك تعرف بأن عيوباً صغيرة مثل هبة ريح مفاجئة أو بعض العرق السائل على الإصبع، قد تؤثر في نتيجة رمي العملة النقدية في الهواء. عندما تكون الأعداد صغيرة، أما عندما تكون الأعداد كبيرة، فلا تشكل تلك العيوب أية أهمية. قد يكون ثمة القليل من العرق على العملة النقدية عند بعض الرميات ونفحة من الهواء عند البعض الآخر، وقد تفسر هذه العيوب حقيقة ظهور العملة النقدية على جهة الرأس مرة واحدة تفوق ما كان متوقفاً عند رميها أربع مرات. لكن ما هي الاحتمالات التي قد تجعل هذه العيوب سببا في ظهور العملة النقدية على جهة الرأس مليون مرة أكثر مما كان متوقفاً؟ سوف يخبرك حدسك بأنها احتمالات ضئيلة للغاية، وسيكون حدسك صحيحا. فوجود هذه الاحتمالات يظل ممكنا، لكنه ضئيل ضالة الأشياء على سطح الأرض.

يمكن أن يطبق نفس هذا المنطق على مسألة التجربة الذاتية. لنفترض أننا قمنا بتجربتين على متطوعين قصد تحقيق الشعور بالسعادة لديهما. مثلا نعطي أحدهما مليون دولار، والآخر هدية تتمثل في مسدس من العيار الصغير. ثم نطلب من كليهما أن يخبرانا عن مدى سعادتهما. سيقول حديث الثراء إنه يشعر بنشوة بالغة، بينما المتطوع المسلح سيقول إنه مسرور بعض السرور (رغم أنه ليس مسرورا بالقدر الذي يجب أن يكون عليه متطوع يملك مسدسا). فهل من الممكن أن يكون لكليهما نفس التجربة العاطفية الذاتية، حقا، رغم أنهما يصفانها على نحو مختلف؟ أجل، فقد يكون المليونير الجديد قال ذلك من باب الأدب، وليس لأنه يشعر بالسعادة حقا. وربما شعر صاحب المسدس الجديد بالنشوة. لكنه وصفها على أنها مجرد شعور بالرضا، لأنه سبق أن عاش تجربة أكثر سحرية مع الحاجز المرجاني العظيم. إن هذه الإشكالات حقيقية، بارزة، وقد يكون من الغباء الاستنتاج، استنادا إلى تينك الإفادتين، بأن السعادة لا تتمثل في

سلاح دافى أطلق نارا للتو. (في إشارة لأغنية جون لينون: «السعادة سلاح دافى»). لكن لو وهبنا لبعض الأشخاص مليون مسدس ومليون ظرف مليء بالمال. وإذا ادعى 90% من هؤلاء الأشخاص الذين تحضلوا على أموال جديدة بأنهم أكثر سعادة من 90% من الأشخاص الذين تحصلوا على أسلحة جديدة. عندها يصبح احتمال أننا خُدعنا بواسطة خصوصيات الوصف اللفظي، ضئيلا جدًا بالفعل. كذلك إذا أخبرنا شخص أنه يشعر اليوم بسعادة بفضل كعكة الكريمة والموز، تفوق سعادته البارحة، عندما تناول كعكة الكريمة وجوز الهند، عندها قد يكون من حقنا أن نقلق نُجاه نسيانه تجربته السابقة على نحو صحيح. لكن لو حدث هذا مرارا وتكرارا مع مئات أو آلاف الأشخاص، بعضهم تذوق كعكة جوز الهند والكريمة قبل كعكة الموز والكريمة، والبعض الآخر تذوقها بعد تذوقه للأخرى، فسيكون لدينا سبب مقنع بأن نشك في كون كلتا الكعكتين تؤذيان حقيقة إلى عيش تجربتين مختلفتين، واحدة أكثر إمتاعا من الأخرى. وفي النهاية، ما احتمال أن يتذكر كل شخص على نحو خاطئ أن كعكة الموز والكريمة أفضل، وأن كعكة جوز الهند والكريمة أسوأ مما هما عليه في الحقيقة؟

إن المسألة الأساسية في علم التجربة تتمثل في الآتي: إذا كانت كلتا فرضيتي سحق اللغة وتمطيط اللغة صحيحتين، عندها، قد يكون لكل منا طريقته في التعبير عن تجاربنا بالكلمات. ولأن التجارب الذاتية لا يمكن مقاسمتها مع الآخرين، إلا من خلال القول، فطبيعة تلك التجارب الحقيقية لا يمكن أن تُقاس بشكل مثالي. بعبارة أخرى، إذا كان تقييم التجربة ومقياس وصفها يتفان بشكل مفاير بعض الشيء على حسب استعمال كل شخص لهما، فمن المستحيل إن على العلماء أن يقارنوا مزاعم شخصين، وتلك مشكلة. لكن الإشكال ليس في كلمة يقارنوا، بل في كلمة شخصين. فإثنان أيضا عدد ضئيل وعندما يصبح هذا العدد مائتين أو ألفين، تشرع المعايير المختلفة لأشخاص مختلفين في إلغاء أحدها الآخر. فإذا ثمل عمال مصنع أدوات القياس مثل المساطر و«العصي الريادية» في حفلة الإجازة، وشرعوا في صنع الملايين من أدوات قياس بأحجام مختلفة قليلا، فلن نكون على ثقة بأن دينصورا سيكون أكبر حجما من حبة لفت، هذا إذا قمت أنت بقيس واحد وقست أنا الأخرى. ففي النهاية، قد نكون استخدمنا المساطر، ونحن في حالة ثمالة. لكن إذا تقدم مئات الأشخاص بمئات المساطر نحو هذه الأشياء لأخذ قياسها، بإمكاننا معرفة معدل تلك القياسات والثقة على نحو معقول في أن التيرانيصور أكبر بالفعل من إحدى الخضروات الجذرية. على أية حال، ما احتمالات استخدام كل الأشخاص الذين قاسوا طول الدينصور بمساطر ممتدة واحتمالات استخدام، وكل الذين قاموا بقيس حبة الأفت بمساطر ملتوية؟ أجل، هذا ممكن، وقد تكون الاحتمالات محسوبة بدقّة بالغة، لكنني سأجئكم الرياضيات، وأعدكم أنها ستكون احتمالات ضئيلة، إلى درجة أن الكتابة عنها هنا، قد تخاطر

خلاصة القول، أن الإفادة الصادقة والاثنية للشخص اليقظ تظل تقديرا منقوصا لتجربته الذاتية. لكنها المصدر الوحيد المتاح. فعندما لا تتماشى سلطة الغلال أو حبيب أو مجموعة موسيقى الجاز المتكوّنة من ثلاثة عازفين مع أذواقنا، نكف عن الأكل وعن التقبيل وعن الاستماع. لكن عندما لا يتماشى القياس مع أذواقنا، لا يجب علينا، وفق قانون الأعداد الكبيرة، أن نتوقف عن القياس. بل على العكس من ذلك، علينا أن نواصل القياس مرارا وتكرارا، حتى تدعن العيوب التافهة أمام اكتساح المعطيات. فيبدو أن تلك الجسيمات الدون ذرية التي ترغب في الوجود في كل مكان في الآن ذاته، تلغي كل منها سلوك الأخرى حتى تبقى التجففات الكبرى من الجسيمات التي نسقيها أبقارا وسيارات وكنديين فرنسيين بالضبط حيث وضعناها. لا يمكن اعتبار أي إفادة قام بها شخص ما -بما في ذلك أنا أو أنت- غير قابلة للشك أو مؤشر قياس مثالي لتجربته. لكن يمكننا أن نثق في أننا لو طرحنا نفس السؤال على عدد كاف من الأشخاص، سيكون متوسط الإجابة مؤشرا صحيحا تقريبا على متوسط التجربة.

يقتضي منا علم السعادة المخاطرة، وهكذا، فدائما ما يكون ثمة، درجة من الخطأ في المعلومات التي يزودنا بها، لكنك إذا كنت ترغب في المراهنة على عكس ذلك، فاقذف بتلك العملة النقدية في الهواء مرّة أخرى، وأخرج محفظتك، وقل لبول أن يحضر لي بيرة من نوع غينيس.

إلى الأمام

تبدأ إحدى أكثر الأغاني إزعاجا في تاريخ موسيقى البوب المزعج غالبا بهذا السطر: «مشاعر، لا شيء أكثر من المشاعر». وهو سطر كلما سمعته ضدمت، إذ يبدو لي دوما تقريبا بمثابة البدء في ترنيمة ب: «المسيح، لا شيء أكثر من المسيح». لا شيء أكثر من المسيح؟ ما هو الشيء الأكثر أهمية من المشاعر؟ قد تخطر على بالنا أشياء مثل الحرب والسلام. لكن هل أهمية الحرب والسلام تكمن في شيء آخر عدا المشاعر التي تنتجها؟ فإذا لم تكن الحرب تؤدي إلى الشعور بالألم والمعاناة. وإذا لم يكن السلام باعثا على الشعور بمباهج تفوق كل ما هو دنيوي، هل كان سيكون لأي منهما أية أهمية إطلاقا؟ الحرب والسلام والفن والمال والزواج والولادة، والموت، والمرض والدين، كل هذه مسائل الكبرى، بلا شك، أراقت محيطات من الدم والحبر. لكن ما يجعلها مسائل كبرى سبب واحد، دون سواه، وهو أن كل واحدة منها تمثل مصدرا لمشاعر إنسانية. وإذا لم تجعلنا نشعر بالارتقاء والإحباط والامتنان واليأس، سوف نحتفظ بكل ذلك الحبر وتلك الدماء لأنفسنا. فكما سأل أفلاطون، «هل ما يجعل هذه الأشياء جيدة،

سبب آخر عدا أنها تؤدي إلى المتعة وتخلصنا من الألم وتجئنا إياه؟ هل أنت بصدد البحث عن معيار آخر عدا المتعة والألم، عندما تصفها بالجيّدة؟» (99). في الواقع، ليست المشاعر فقط مهفة- بل هي الأهمية في حد ذاتها. نحن نتوق أن يُسمي أي كائن يشعر بالألم، عندما يتعرض للحرق، وبالمتعة عندما يتحضر على الغذاء، الحرق والأكل أشياء سيئة وجيدة، تباعا، بنفس الطريقة بالضبط التي نتوق بها أن يجد كائن مصنوع من الأسبستوس المضاد للحرق، وبلا جهاز هضمي هذه الأوصاف اعتباطية. حاول فلاسفة الأخلاق لعدة قرون العثور على طريقة مختلفة للتعريف بمعنى كلمتي جيد وسيء. لكن لا أحد منهم أقنع البقية (ولا حتى أنا). فلا يمكننا وصف شيء ما بالجيّد، ما لم يكن بوسعنا معرفة فائدته. فإذا تفحصنا العديد من الأشياء والتجارب التي يصفها نوعنا البشري بأنها جيّدة وسألنا عن فائدتها، ستكون الإجابة واضحة: بصفة عامة، تكمن فائدتها في أنها تجعلنا نشعر بالسعادة.

نظرا لأهمية المشاعر، سوف يكون من الجيد لو تمكنا من التعريف بها بدقّة ومن معرفة كيف يقيسها فرد من الأفراد. فكما ترون، لا يمكننا القيام بذلك بتلك الدقّة التي يتوق إليها العلماء. ومع هذا، إذا لم تمكنا الوسائل المنهجية والمفاهيمية التي طورها العلم من قياس المشاعر لفرد واحد بدقّة متناهية، فهي على الأقل تمكنا من التعرّف في الظلمة بمساطر صنعها عامل تملّ من أجل قياس عشرات الأشخاص مرارا وتكرارا. إنّ الإشكال الذي نواجهه إشكال عسير، لكنه هامّ للغاية، على نحو يجعلنا لا نتجاهله وهو كالآتي: لماذا نفشل غالبا في معرفة ما سيجعلنا سعداء في المستقبل؟ وكان العلم قد قدّم بعض الأجوبة المثيرة للاهتمام على هذا السؤال. والآن، بما أننا نملك وعيا بالإشكال ومنهجية عامة لحلّه، فنحن مستعدون للاطلاع عليها.

الجزء الثالث

الواقعية

«الواقعية: الاعتقاد بأن الأشياء في الواقع تتطابق مع ما تبدو عليه في العقل»

الفصل الرابع

في النقطة العمياء من الذاكرة

وبينما يجسد الخيال صور المجهول، يُشكّلها قلم الشاعر، ويجعل لهباء العدم، مكانا في الوجود ويمنّحه اسماً محدداً

- شكسبير، حلم ليلة صيف

ما نعرفه على وجه اليقين أن أدولف فيشر لم ينظّم العصيان ولم يحرض عليه. في الحقيقة، هو لم يكن في أي مكان على مقربة من أحداث الشغب ليلة مقتل رجال الشرطة. لكن نقابة العمال تصدّت لأرباب الصناعة ذوي النفوذ، الذين يُحكمون قبضتهم على الرجال والنساء والأطفال الذين يكدحون في مصانع الاستغلال أواخر القرن التاسع عشر، فكان من الضروري أن تُلقن تلك النقابة درسا. لذلك تفت محاكمة أدولف فيشر استنادا على شهادة مزورة قُدمت مقابل المال، وحُكم عليه بالإعدام من أجل جريمة لم يرتكبها. لكنه، في يوم 11 نوفمبر 1887، وقف على منصة المشنقة، وفاجأ الجميع بكلماته الأخيرة: «إنها اللحظة الأكثر سعادة في حياتي». ثوان قليلة فُتح بعدها الباب السري تحت قدميه، والتف الحبل حول رقبتة وأزهقت روحه (100).

لكن لحسن الحظ أن أفكاره عن الإنصاف في أماكن العمل الأمريكية لم تُعدم بتلك السهولة. فبعد سنة واحدة من إعدام فيشر، ظهر شاب لامع، كان يتقن عملية التصوير الفوتوغرافي الجاف، وأطلق كاميرا من نوع «كوداك»، مثلت ثورة في عالم التصوير حينها. وسرعان ما صار واحدا من أثرياء العالم. وفي العقود التالية طوّر كذلك جورج ايستمان فلسفة ثورية للإدارة، مانحا غفاله ساعات أقصر ومستحقات العجز والمبالغ السنوية للتقاعد والتأمين على الحياة وتقاسم الأرباح، وأخيرا ثلث الأسهم في شركته. في 14 آذار 1932، جلس المخترع المحبوب، العطوف إلى مكتبه وكتب رسالة قصيرة ووضع الغطاء على قلمه الحبري بعناية، ثم دُخن سيجارة قبل أن يصدّم الجميع بانتحاره (101).

إن فيشر وايستمان شخصيتان متباينتان تباينا مدهشا. كلاهما كان يؤمن أن لعموم العمال الحق في أجور عادلة وظروف عمل كريمة وكلاهما ضحى بجزء كبير من حياتهما لإحداث تغيير اجتماعي في فجر العصر الصناعي، إلا أن فيشر فشل فشلا ذريعا، ومات مجرما وفقيرا وملعوناً. في حين نجح ايستمان نجاحا باهرا، ومات بطلا، ثريا، مبخلا. لماذا إذن، الرجل الفقير الذي لم يحقق شيئا يذكر كان يقف سعيدا على عتبة حتفه، بينما الرجل الثري الذي حقق الكثير

من أحلامه شعر بأنه مدفوع إلى إنهاء حياته؟ إن ردة فعل فيشر وإيستمان تجاه وضعيته كل منهما تبدو غاية في التناقض. بل على طرفي نقيض مما يجعل المرء يصدق أنهما، إفا يتبجحان بشجاعة زائفة، أو أنهما مصابان باضطرابات عقلية. فقد كان فيشر يبدو سعيدا في آخر يوم من وجوده البانس، بينما إيستمان بدا تعيسا في آخر يوم من حياة مثمرة. ونحن نعلم تماما أننا، لو كنا نقف في مكانهما، لعشنا عكس تلك المشاعر بالضبط. فما خطب هذين الرجلين؟ سأطلب منك أن تفكر في إمكانية عدم وجود خطأ يتعلق بهما. بل يتعلق بك أنت، وبي أنا أيضا. وهو أننا نرتكب جملة من الأخطاء المنهجية عندما نحاول تخيل «كيف سيكون شعورك لو».

إن تخيل «كيف سيكون شعورك إذا»، يبدو أشبه بأحلام اليقظة التي ليست بذات أهمية. لكنه في الواقع واحد من أهم الأفعال التي يؤديها العقل من حيث ما سيترتب عنها. وهي أفعال يؤديها عقلنا كل يوم. فنحن نأخذ قرارات بخصوص من سنتزوج وأين سنعمل ومتى سننجب أطفالا وأين سنقضي فترة التقاعد. وتستند هذه القرارات إلى مقياس ما نعتقده بشأن كيف سنشعر، إذا وقع هذا الحدث ولم يحدث ذلك (102). قد لا تمر حياتنا دائما بالطريقة التي تمنيناها أو خططنا لها. لكننا على ثقة، أنها لو مرّت على تلك الشاكلة، لكانت سعادتنا بلا حدود، وأحزاننا ضئيلة وزائلة. ربما ليس بوسعنا الحصول حقًا على ما نرغب فيه. لكننا، على الأقل، واثقون من كوننا نعرف ما نريده منذ البداية. فنحن نعرف أن السعادة موجودة في ملعب الغولف، لا على خط التجميع بمصنع من المصانع، مع لانا لا مع ليزا، سعادة خزّاف لا سباك، في أطلنطا وليس في أفغانستان. إن معرفتنا بهذه الأشياء تعود إلى قدرتنا على التطع إلى المستقبل ومحاكاة عوالم لم توجد بعد. فكلما وجدنا أنفسنا على وشك اتخاذ قرار ما ك - هل علي تناول قطعة أخرى من السمك؟ أم أمر مباشرة إلى حلوى الدينغ دونغ؟ هل أقبل العمل في مدينة كانساس؟ أم أبقى في مكاني، وأتطع إلى الحصول على ترقية؟ هل أخضع لعملية الركبة؟ أم أجرب العلاج الطبيعي أولاً؟

نتخيل المستقبل الذي ستوفره لنا خياراتنا، ثم نتخيل كيف سنشعر في كل واحد منها («فإذا فشلت العملية، سأظل دوما نادما لعدم منحي فرصة العلاج الطبيعي»). وليس علينا أن نتخيل كثيرا حتى نعرف أننا سنكون سعداء بكون أحدنا الرئيس التنفيذي لشركة مدرجة ضمن مؤشر فوتسي المكون من 100 شركة (FTSE 100) أكثر من سعادتنا بكوننا الجسد الميت المتدلي من حبل المشنقة. ولأننا القرد الذي يتطع إلى المستقبل، فليس علينا أن نعيش حياة فيشر أو جورج إيستمان لنعرف كيف سنشعر لو انتعلنا أحذيتهم ومشينا الطريق الذي قطعاه ميلا واحدا فحسب.

لكن ثقة شيء واحد فقط، إذ يبدو أن أصحاب الأحذية يثفقون معنا بشأن استنتاجاتنا. فبيشر يدعي أنه سعيد، وايستمان يتصرف كشخص لا يشعر بالسعادة. لذلك، ما لم يكن هذان الرجلان مخطئين حول شعورها إثر الحياة التي عاشاها. فنحن مضطرون للتفكير في إمكانية أن الخطأ خطؤنا، أي أن مخيلتنا خذلتنا على نحو غريب، عندما حاولنا تخيل كيف يشعر المرء، لو كان في مكان فيشر وايستمان. نحن مضطرون للتفكير في إمكانية أن ما يبدو بوضوح بمثابة الحياة الأفضل، قد يكون في الحقيقة الحياة الأسوأ، وأتينا عندما نلقي نظرة على الخط الزمني للحيات المختلفة التي قد نعيشها، قد لا نستطيع التمييز بينها. نحن مضطرون للتفكير كذلك في إمكانية أننا ارتكبنا خطأ فادحا عندما وضعنا أنفسنا في مكانهما ذهنيًا، وأن هذا الخطأ الفادح قد يدفعنا إلى اختيار المستقبل الخاطئ.

فماذا يمكن أن يكون هذا الخطأ؟ إن المخيلة أداة قوية تمكّنا من استحضار صور من العدم. لكنّها مثل كل الأدوات تشوبها بعض العيوب. وفي هذا الفصل والذي يليه سوف أخبرك عن أوّل تلك العيوب وأفضل طريقة لفهم هذا العيب المحدّد للمخيلة (الملكة العقلية التي تمكّنا من رؤية المستقبل) تكون عن طريق فهم عيوب الذاكرة (الملكة التي تمكّنا من رؤية الماضي) والإدراك الحسيّ (الملكة التي تمكّنا من رؤية الحاضر). كما ستري، إنّ العيب الذي يدفعنا إلى عدم تذكّر الماضي، وعدم إدراك الحاضر هو العيب ذاته الذي يدفعنا إلى تخيل المستقبل على نحو خاطئ. وسبب هذا العيب خدعة يقوم بها دماغنا في كلّ دقيقة من كلّ ساعة في كلّ يوم - خدعة دماغك بصدور مخاتلتك بها الآن. فدعني أخبرك بالسّر القذر الصغير للدماغ.

رأس كبير بعض الشيء

ثقة لحظة رائعة في معظم بواكير أفلام الأخوة ماركس، عندما يدسّ هاريو، الممثل الصامت ذو الوجه الملائكي، يده عميقًا في طيات معطفه اللين، ويسحب بوقًا أو فنجانًا من القهوة الساخنة أو حوض استحمام أو خروفا. عند بلوغ الثالثة من عمرنا، يدرك أغلبنا أن تلك الأشياء الضخمة لا يمكن أن تدخل داخل الأشياء الصغيرة، وأنّ الفهم يفسد الطابع الكوميديّ لحركة سحب أحدهم لغرض يتعلّق بالسباكة أو بماشية من جيبه. فكيف للبوق أن يوضع داخل معطف واق للمطر؟ وكيف لتلك السيارة الصغيرة أن تستوعب كلّ أولئك المهزجين المضحكين؟ وكيف لمساعد الساحر، ذاك، أن يطوى ويوضع داخل ذلك الصندوق الصغير؟ هذا غير ممكن بالطبع، ونحن نعلم ذلك، وهو ما يجعلنا معجبين للغاية بتلك الخدع التي يخادعوننا بها.

سدّ ثغرات الذاكرة

يقوم الدماغ البشري بنفس تلك الخدعة. لو حدث أن حاولت تخزين موسم كامل من برنامجك التلفزيوني المفضل على القرص الصلب من حاسوبك، فلا بد أنك تعلم مسبقاً بأن التمثيل الموثوق للأشياء في العالم يتطلب مساحة كبيرة. ومع ذلك تلتقط أدمغتنا ملايين اللقطات، وتسجل ملايين الأصوات، وتضيف الروائح والأذواق والأنسجة، وكذلك تسجل بعضاً مكانياً ثالثاً وتسلسلاً زمنياً وتقضياً مستمراً للأحداث. وتقوم بهذا طوال اليوم، كل يوم، سنة بعد سنة، مخزنة هذه التمثيلات عن العالم في بنك للذاكرة الذي لا يبدو أنه يفيض مطلقاً. ومع ذلك تمكّننا أدمغتنا من تذكر تلك اللحظة في ذلك اليوم المربع عندما كنا في الصف السادس، وسخرنا من تقويم أسنان فيل مايرز. وعندما تُوغَدْنَا أن يضرنا بعد المدرسة. فكيف نحشر ذلك العالم المتسع من تجربتنا داخل مخزن صغير نسبياً يوجد بين آذاننا؟ إننا نقوم بما قام به هاريو: نخدع. مثلما رأينا في الفصول السابقة. فالنسيج التفصيلي لتجربتنا ليس مخزناً في الذاكرة - أو على الأقل ليس مخزناً برمته، بل أخترل من أجل تخزينه. في البداية، من خلال تقليصه إلى بضعة مواضيع هافة، مثل هذه العبارة الموجزة («العشاء كان مُحبطاً») أو إلى مجموعة صغيرة من الخصائص الهافة (شرائح لحم قاسية، النبيذ الفلين، النادل المتعجرف). لاحقاً، عندما نرغب في تذكر تجربتنا، سرعان ما تعيد أدمغتنا صياغة نسيجها عن طريق اختلاق كتلة المعلومات التي نعيشها في صورة ذكريات، وليس عن طريق استرجاعها حقيقة» (103). تحدث عمليات الاختلاق، هذه، بسرعة ودون جهد، إلى حدّ يمنحنا الوهم (كما يفعل دوما جمهور ساحر ماهر) بأنّ الحدث بأكمله كان في رؤوسنا طوال الوقت.

لكنه لم يكن كذلك، ويمكن إثبات تلك الحقيقة بسهولة. ورد مثلاً في إحدى الدراسات أنه تم عرض سلسلة من الشرائح المصورة على مجموعة من المتطوعين، وهي تصوّر سيارة حمراء، أثناء تقدّمها نحو علامة فسح الطريق وانعطافها إلى اليمين، ثم اصطدامها بمترجل (104). إثر مشاهدتهم الشرائح المصورة، لم يُسأل بعض المتطوعين (الذين ينتمون إلى مجموعة اللا سؤال) أي سؤال. بينما سُئل بقية المتطوعين (المنتمين إلى مجموعة السؤال). وكان السؤال الذي تم طرحه هو التالي: «هل ثفة سيارة أخرى تجاوزت السيارة الحمراء أثناء توقّفها عند علامة قف؟» ثم بعد ذلك غرّضت على كل المتطوعين صورتان: في واحدة منهما تقترب السيارة الحمراء من علامة فسح الطريق، وفي الأخرى تظهر السيارة الحمراء بصدد الاقتراب من علامة قف. وطلب منهم الإشارة إلى السيارة التي رأوها فعلاً. الآن، إذا كان المتطوعون قد خزّنوا تجربتهم في الذاكرة، فقد كان عليهم أن يشيروا إلى الصورة التي تُظهر سيارة تقترب من علامة فسح الطريق، وبالفعل، أكثر من 90% من المتطوعين في مجموعة اللا سؤال قاموا بذلك تحديداً. لكن 80% من المتطوعين في مجموعة السؤال أشاروا إلى صورة السيارة المقترية

من علامة قف. كان من الواضح أن السؤال غير ذكريات المتطوعين عن تجربتهم السابقة. وهو بالتحديد ما يتوقعه المرء إذا أعاد دماغه حياكة نسيج تجاربه من ناحية، وما قد يتوقعه، إذا كان دماغه يسترجع تجاربه.

إن هذه النتيجة العامة بأن المعلومات المتحصل عليها بعد حدث ما تغير طريقة تذكرنا الحدث، تكررّت عدّة مرّات في كثير من المخابر والميادين إلى حدّ جعل معظم العلماء يقتنعون بشيئين اثنين(105): أولاً، إن فعل التذكّر يحتوي على «سدّ ثغرات» التفاصيل التي ليست مخزّنة في الواقع؛ ثانياً، أننا عموماً لا نستطيع أن نعرف متى نكون بصدد القيام بذلك، لأنّ عملية سدّ الثغرات تحدث بسرعة وبشكل لا واع(106). فهذه الظاهرة قويّة جدّاً بالفعل، إلى حدّ أنّها تحدث حتّى عندما نكون على وعي بأنّ أحدهم يخادعنا. كمثال على ذلك: اقرأ قائمة الكلمات التي في الأسفل، وعندما تنتهي، أحجب القائمة بسرعة بيدك. ثم ساقوم بخداعك.

سرير

راحة

مستيقظ

متعب

حلم

استيقظ

غفا

شرشف

نعاس

سبات

شخر

قيلولة

سلام

تناؤب

الخدعة هي الآتية، أي من الكلمات التالية لم تكن على القائمة؟ سرير، نعاس، نام أو بنزين؟ الإجابة الصحيحة هي بنزين، طبعاً، لكن الإجابة الصحيحة الأخرى هي نام. وإذا لم تصدقني، عليك إذن، أن ترفع يدك عن الصفحة. (في الواقع، عليك أن ترفع يدك عن الصفحة في كل الحالات، لأنه علينا أن نواصل). إذا كنت تشبه معظم الناس، فأنت تعرف أن كلمة بنزين ليست على القائمة. لكنك تذكرت على نحو خاطئ بأنك قرأت كلمة نام(107)، ولأن كل الكلمات على القائمة مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً، فإن دماغك يخزن لب ما قرأته («حزمة من الكلمات عن النوم») بدل تخزين كل كلمة من تلك الكلمات على حدة. عادة، هذه طريقة ذكية واقتصادية للتذكر، حيث تكون الكلمة التي تمثل الخلاصة بمثابة إعطاء تعليمات إلى الدماغ، كي يتمكن من إعادة حياكة نسيج تجربتك ويمكنك من «تذكر» قراءة الكلمات التي رأيتها. لكن في هذه الحالة، خدع دماغك بحقيقة أن الكلمة التي تمثل الخلاصة -الكلمة المفتاح، الكلمة الجوهر- ليست في الواقع ضمن القائمة. عندما يعيد دماغك حياكة نسيج تجربتك، فهو يحشر، على نحو خاطئ، كلمة تدل على الخلاصة، دون أن تظهر ضمن قائمة الكلمات فعلاً. تماماً، مثلما حدث مع المتطوعين في الدراسة السابقة التي تضيفت خطأ، علامة قف التي انطوى عليها السؤال الذي طرح عليهم، دون أن تكون قد ظهرت فعلاً في شرائح الصور التي رأوها.

لقد أنجزت هذه التجربة عشرات المرات على عشرات قوائم الكلمات، وكشفت هذه الدراسات نتيجتين مثيرتين للدهشة. أولاً، أن تذكر الأشخاص للكلمة التي تمثل فحوى القائمة، لم يكن ملتبساً، كما لم تكن رؤيتهم لتلك الكلمة مجرد تخمين. بل هم يتذكرونها بوضوح، ويثقون تماماً في ظهورها من ضمن الكلمات(108). ثانياً، أن هذه الظاهرة تحدث، حتى عندما يتم التنبيه إليها مسبقاً(109)، لكن معرفتك بأن هناك باحثاً يخادعك كي تذكر كلمة تمثل جوهر القائمة، رغم عدم وجودها فعلاً، لا يمنع حدوث ذلك التذكر الزائف.

سد الثغرات الإدراك

إن العملية القوية والخفية لسد الثغرات التي تكتنف تذكرنا للأشياء السابقة تنسحب على إدراكنا الأشياء الراهنة كذلك. فعلى سبيل المثال: إذا حدث أنك في يوم بطيء من أيام الثلاثاء على وجه الخصوص، قررت أن تتولى تشريح حدقة عينك، فستعثر في النهاية على نقطة في الجزء الخلفي للشبكية، حيث يمر العصب البصري، ويشق طريقه نحو دماغك. في تلك النقطة التي يثصل بها العصب البصري، لا يمكن لعينك أن تسجل أية صورة. وهكذا فهي تسمى بـ:

«النقطة العمياء». لا أحد بوسعه رؤية أي شيء في النقطة العمياء، لعدم وجود أي مستقبلات ضوء هناك. ومع ذلك، إذا ألقيت نظرة على الصالون في بيتك، فلن تلاحظ ثقباً أسود في الصورة الملساء لجهرك الجالس على الأريكة، وهو يلتهم صلصة الجبن. لماذا؟ لأن دماغك يستخدم التفاصيل المحيطة بالنقطة العمياء ليخمن تخميناً منطقياً ما ذاك الشيء الذي كان من المحتمل أن تراه تلك النقطة العمياء لو لم تكن كذلك. وعندها يستكمل دماغك المشهد بتلك المعلومة. أجل، إنه يخترع الأشياء، يخلقها ويؤلفها! دون أن يستشيرك لدى قيامه بذلك، ولا يبحث عن موافقتك. بل يخمن طبيعة التفاصيل الناقصة أفضل تخمين، ويستمر في استكمال المشهد، الجزء المتعلق بصرحك من بين أجزاء تجربتك البصرية، الناتج عن ضوء حقيقي منعكس من وجهه الحقيقي والجزء الذي اختلقه دماغك للتو يبدوان متطابقين تماماً بالنسبة إليك. حتى تقتنع بهذا، أغمض عينك اليسرى وثبت اليمنى على الساحر في الرسم رقم 8، ثم قم بتقريب الكتاب ببطء نحوك. استمر في التركيز على الساحر. لكن لاحظ أنه عندما تنتقل الكرة الأرضية إلى النقطة العمياء، فهي تبدأ بالاختفاء. وسترى فجأة البياض في المكان الذي توجد الكرة الأرضية فيه فعلاً، لأن دماغك يرى البياض يحيط بالكرة الأرضية من كل جانب. وهكذا فهو يفترض على نحو خاطئ وجود بياض في نقطتك العمياء أيضاً. (لو) إذا واصلت تقريب الكتاب نحوك، ستظهر لك الكرة الأرضية من جديد، وسيلامس أنفك، في النهاية، الأرنب بالطبع. وهو فعل غير طبيعي.



رسم رقم 8. إذا نظرت إلى الساحر بعينك اليمنى، وحزكت الكتاب ببطء في اتجاه أنفك، ستختفي الكرة الأرضية في نقطتك العمياء.

إن حيلة سد الفراغ لا تقتصر فقط على العالم البصري. قام باحثون بتسجيل الجملة التالية: «التقى حكام الولايات بهيأتهم التشريعية واجتمعوا في العاصمة» (The state governors met with their respective legislatures convening in the capital city) في

شريط، ثم تلاعبوا به معوضين حرف s الأول في كلمة *legislatures* بصوت سعال (110).
سمع المتطوعون السعال جيدا، لكنهم سمعوا ذلك بين الكلمات لأنهم سمعوا أيضا حرف s
الناقص. حتى لو وجهوا على نحو محدد للاستماع إلى الصوت الناقص، وحتى لو (قاموا بآلاف
المحاولات) حاولوا آلاف المحاولات، لن يكون بوسع المتطوعين معرفة الحرف الناقص الذي
أدركت أدمغتهم وجوده هناك، وقامت بإضافته (111).

في دراسة أخرى جديرة بالاهتمام، استمع متطوعون إلى الكلمة المسجلة *eel* (أنكليس)
مسبوقة بصوت سعال (الذي سارمز له بهذه العلامة *). سمع المتطوعون كلمة *peel* (قشرة)
عندما كانت ضمن جملة: «*the *eel was on the orange*» لكنهم سمعوا كلمة *heel*
(كعب) عندما كانت ضمن جملة «*The *eel was on the shoe* (112)». وهذه نتيجة
مدهشة لأنّ الجملتين تختلفان على مستوى الكلمة الأخيرة. مما يعني أنّ على أدمغة المتطوعين
أن تنتظر حتى سماع الكلمة الأخيرة للجملة، قبل أن تُستكمل المعلومة الناقصة في الكلمة
الثانية. (لكنها) لكنّ الأدمغة فعلتها، وفعلتها بسلاسة وسرعة على نحو جعل المتطوعين
يسمعون المعلومة الناقصة ثقلا فعلا في موقعها الصحيح.

إنّ مثل هذه التجارب تسمح لنا بالولوج داخل الدماغ حتى نرى عمله السحري والرائع. من
المؤكد أنك إن ولجت إلى كواليس عرض مسرحي وألقيت نظرة على الأسلاك والمرايا والأبواب
السحرية، ستفسد متعتك بالعرض عندما تعود إلى كرسيك. ففي نهاية المطاف، عندما تكتشف
الخدعة، (لن تقع فيها) لن تنطلي عليك، أليس كذلك؟ حسنا، إذا عدت إلى الرسم رقم 8 وجزيت
الخدعة مزّة أخرى، ستلاحظ أنه رغم الفهم العلمي المفضل الذي (تحصلت عليه) وصلت إليه
عن (النقطة العمياء) الثقب الأسود في الصفحات القليلة السابقة، إلا أنه لازال للخدعة تأثير
قوي فيك. في الحقيقة، مهما كان حجم ما تكتشفه عن علم البصريات، ومهما كان طول المدة
التي قضيتها حتى تلامس أرنبة أنفك الأرنب، فلن تفشل الخدعة أبدا. كيف لذلك أن يحدث؟ لقد
حاولت إقناعك بأنّ الأشياء ليست دائما كما تظهر، الآن دعني أقنعك بأنك لا تملك إلا أن تصدق
أنها كذلك.

رغيف لحم من أرض أوز

ما لم تقفز على مرحلة طفولتك وتمز مباشرة من الجزر المهروس إلى دفع أقساط الرهن،
فمن المحتمل ألا تتذكر ذلك المشهد من كتاب ساحر أوز العجيب، حيث تقف دوروثي وأترابها
مرتعدين خوفا أمام ساحر أوز العظيم والرهيب، الذي يظهر مهددا إياهم برأس عملاق. فجأة

انفلت الكلب توتو من قيده، وضرب شاشة في زاوية الغرفة، فظهر رجل صغير يشتغل على أدوات التحكم في آلة. اندهش الأبطال، ثم اتهم الرجل الفزاعة الرجل الصغير بأنه محتال.

فهتف الرجل الصغير وهو يفرك يديه كما لو كان مسرورا بذلك: تماما! أنا محتال...

سألت دوروثي: هل يعرف أي أحد آخر أنك محتال؟

أجاب أوز: لا أحد يعلم سواكم أنتم الأربعة - وأنا، لقد خدعت الجميع وقتا طويلا، حتى ظننت أن أمري لن يفتضح قط....

قالت دوروثي في حيرة: لكنني لا أفهم، كيف بدوت لي برأس ضخم؟

أجاب أوز: كانت تلك إحدى حيلتي،...

فقالت دوروثي: أظن أنك رجل في منتهى السوء.

- أوه، كلاً يا عزيزتي؛ أنا رجل طيب جداً حقاً، لكنني ساحر سيء جداً (113).

اكتشاف المثالية

قُبيل نهاية القرن الثامن عشر، مزّ الفلاسفة تقريبا بالتجربة التنويرية ذاتها التي عاشتها دوروثي واستنتجوا (على مضض) بأنه على الرغم من أن الدماغ البشري عضو رائع، إلا أنه ساحر سيء للغاية. قبل ذلك كان الفلاسفة يعتقدون أن الحواس هي قنوات تنقل المعلومات حول خاصيات الأجسام في العالم إلى العقل. فالعقل بمثابة شاشة سينما تعيد بث الأجسام مرارا وتكرارا. أحيانا تفشل العملية فيرى الأشخاص الأشياء من حين إلى آخر على غير حقيقتها. لكن عندما تعمل الحواس كما ينبغي، فهي تنقل الموجود في الحقيقة. في عام 1690 قام الفيلسوف جون لوك بوصف نظرية الواقعية:

«عندما تعمل حواسنا في الواقع على نقل أي فكرة إلى فهمنا، فلن نكون سوى مقتنعين بوجود شيء ما، في ذلك الوقت، بمنأى عنا، يؤثر في حواسنا، ويُعلن عن نفسه لملكات الإدراك لدينا من خلالها. ومن ثم يُنتج تلك الفكرة التي ندركها إثر ذلك: وحتى الآن، لا نستطيع الشك في ما تنقله لنا حواسنا، كما لا نشك في أن مجموع مثل تلك الأفكار البسيطة التي لاحظنا ارتباط بعضها ببعض من خلال حواسنا، تتعايش بالفعل معا» (114).

بعبارة أخرى، إن الأدمغة تصدق، لكنها لا تتظاهر بالتصديق. فعندما يشاهد أشخاص رؤوسا عملاقة عائمة، فذلك لأن تلك الرؤوس العملاقة تطفو فعلا في نطاق رؤيتها. فيصبح السؤال

الوحيد، بالنسبة لأي فيلسوف يتحلّى بصحة عقلية، هو كيف تحقق الأدمغة هذا الفعل المدهش من الانعكاس الوفي. لكن في سنة 1781، خرج فيلسوف ألماني يدعى ايمانويل كانط عن عزلته، وطرق على الشاشة في زاوية الغرفة وعرض الدماغ بصفته محتالا من الطراز الأول. تزعم نظرية كانط الجديدة للمثالية أن إدراكنا ليس نتيجة لعملية فيزيولوجية من خلالها تنقل أعيننا على نحو ما صورة من العالم إلى أدمغتنا، بل هو نتيجة لعملية نفسية تجمع بين ما تراه أعيننا وما نفكر فيه أو نشعر به أو نعرفه أو نريده أو نصدقه مسبقا. ثم تستخدم هذا المزيج من التفاصيل البصرية والمعرفة المسبقة لتبني به إدراكنا للواقع. كتب كانط: «لا يمكن لفهمنا أن يستشعر شيئا، ولا يمكن لحواسنا أن تفكر في شيء، فقط من خلال اتحادهما معا، يمكن للمعرفة أن تبتثق» (115). وقام المؤرخ ويل دورون بإنجاز رائع من خلال تلخيصه فكرة كانط في جملة واحدة: «إن العالم كما نعرفه، هو بناء، مُنتج مكتمل -بل يمكن القول تقريبا- أنه أداة مصنوعة ساهم الدماغ في صياغة أشكاله مثلما ساهمت الأشياء في توفير محفزات له» (116).

يقول كانط: «إن إدراك شخص ما رأسا عائنا مبني من خلال معرفة ذلك الشخص بالرؤوس العائمة وذاكرته عنها وتصديقه لها واحتياجه إليها، وأحيانا -لكن ليس دائما- من وجود الرأس العائم الحقيقي. تصوراتنا هي بورتريهات وليست صوراً، وأشكالها تكشف عن يد الفنان بدقة بالقدر ذاته الذي تعكس به الأشياء المصورة».

كانت هذه النظرية بمثابة الوحي، وفي القرون التي تلت ذلك، طوّر الفلاسفة منها من خلال الإشارة إلى أن كل فرد يقطع تقريبا نفس رحلة الاكتشاف التي تقوم بها الفلسفة. في عام 1920 لاحظ عالم النفس جون بياجى أن الطفل الصغير يفشل غالبا في التمييز بين إدراكه جسما ما وخاصيات ذلك الجسم في الواقع. وبذلك فهو يميل إلى تصديق أن الأشياء في الحقيقة هي ما تبدو عليه. حينئذ، على الآخرين أن يروها كما يفعل هو. عندما يرى طفل يبلغ من العمر سنتين رفيقه في اللعب يغادر الغرفة، ثم يرى شخصا بالغا يأخذ قطعة بسكويت من الوعاء ويخبئها في الدرج، فهو يتوقع أن رفيقه سيبحث عن قطعة البسكويت لاحقا في الدرج (117). لماذا؟ لأن طفل السنتين يعلم مسبقا أن قطعة البسكويت في الدرج، وهكذا فهو يتوقع أن الجميع يعلم ذلك أيضا. إن الطفل لا يميز بين الأشياء في العالم والأشياء في الذهن، لذلك فهو لا يستطيع فهم كيف تحمل مختلف الأذهان أشياء مختلفة. بالطبع، عندما يكبر الأطفال أكثر ينتقلون من الواقعية إلى المثالية، مدركين أن التصورات هي مجرد وجهات نظر، وأن ما يرونه ليس بالضرورة ما هو موجود، وأن شخصين قد يحملان تصورات واعتقادات مختلفة عن نفس

الشيء. استنتج بياجي أن «الطفل واقعي في أفكاره»، وأن «تطوره يكمن في تخلصه من هذه الواقعية الأولية» (118). بعبارة أخرى، يبدأ الأشخاص العاديون واقعيين مثل الفلاسفة، لكنهم سرعان ما يتجاوزون ذلك.

الإفلات من الواقعية

لكن إذا اختفت الواقعية فهي لا تبتعد كثيرا، فقد أثبتت الدراسات أن البالغين كذلك يتصرفون تصرفا واقعيًا تحت ظروف معينة. على سبيل المثال، في إحدى الدراسات جلس متطوعان بالغان اثنان على الجهتين المتقابلتين مع خزانة ذات مجموعة من الفجوات، كما نرى في الرسم رقم 9 (119). وُضعت بعض الأغراض العادية في عذة فجوات منها، وكان بعضها مفتوحا من الجانبين، بحيث تظهر تلك الأغراض، مثل الشاحنة الكبيرة والشاحنة المتوسطة، بوضوح لكلا المتطوعين. بعض الفجوات الأخرى مفتوحة من جانب واحد فقط بحيث يمكن أن تُرى الأغراض كالشاحنة الصغيرة من جانب متطوع واحد فقط، ثم يلعب المتطوعان لعبة، يقوم فيها الشخص الذي خجبت عنه الرؤية (المرشد) بإخبار الشخص صاحب الرؤية الواضحة (المحرك) بتحريك الأغراض إلى أماكن محددة. الآن، ما الذي ينبغي أن يحدث عندما يقول المرشد، «أنقل الشاحنة الصغيرة إلى الصف السفلي»؟ إذا كان المحرك مثاليًا، فعليه تحريك الشاحنة المتوسطة لأنه سيدرك أن المرشد لا يمكنه رؤية الشاحنة الصغيرة، وهكذا فلا بد أنه كان يشير إلى الشاحنة المتوسطة، التي، من وجهة نظر المرشد هي الأصغر. من ناحية أخرى، إذا كان المحرك واقعيًا، فسينقل الشاحنة الصغيرة بقطع النظر عن حقيقة أن المرشد لا يمكنه رؤيتها كما هي. وهكذا فلا يمكن أن يكون قد أشار إليها عندما أعطى هذه التعليمات. فما هي، إذن، الشاحنة التي قام المحركون بنقلها فعلا؟



رسم رقم 9

الشاحنة المتوسطة بالطبع. ماذا، هل ظننت أنهما غيبان؟ إنهما شخصان بالغان عاديان، يملكان دماغين سليمين ووظيفتين جيدتين ويحسانان آداب الطاولة، وكل تلك الأمور العادية. إنهما يعلمان أن للمرشد وجهة نظر مختلفة. وهكذا لا بد أنه كان يقصد الشاحنة المتوسطة عندما قال: «حزك الشاحنة الصغيرة؟». لكن رغم أن هذين البالغين العاديين يملكان دماغين سليمين، إلا أن أيديهما تخفيان شيئا آخر. ففضلا عن قياس حركات يد المحرك، استخدم الباحثون جهاز تعقب العين لقياس حركات عين المحرك أيضا. كشف الجهاز أنه في اللحظة التي يسمع فيها المحرك جملة: «حزك الشاحنة الصغيرة»، يثجه نظره بسرعة إلى الشاحنة الصغيرة- وليس إلى المتوسطة، التي هي أصغر شاحنة يمكن للمرشد أن يراها، بل نحو الشاحنة الصغيرة التي هي أصغر شاحنة يمكنه أن يراها. بعبارة أخرى، يقوم دماغ المحرك في البداية بتأويل عبارة «الشاحنة الصغيرة»، بوصفها إشارة لأصغر شاحنة من وجهة نظره هو، دون اعتبار حقيقة أن وجهة نظر المرشد مختلفة. فقط بعد فترة وجيزة من التفكير المتردد في نقل الشاحنة الصغيرة، يفكر دماغ المحرك في حقيقة أن المرشد نظرة مختلفة. وبهذا فلا بد أنه قصد الشاحنة المتوسطة، فيرسل الدماغ في تلك النقطة بالذات إشارات إلى يده ليحرك الشاحنة الصحيحة. تتصرف اليد بمثالية. لكن العين تكشف أن الدماغ واقعي مؤقتا.

تشير مثل هذه التجارب إلى أننا لا ننقي الواقعية بقدر ما نتفوق عليها وأنه حتى البالغون يتميزون بلحظة أولية من الواقعية (120). ووفق هذا التسلسل المنطقي، فنحن نفترض بشكل آلي أن تجربتنا الذاتية حول أمر ما هي تمثيل وفي لخصيات ذلك الشيء. فقط لاحقا، إذا كنا نملك الوقت والطاقة والقدرة، ننكر ذلك الافتراض بسرعة، ونفكر في إمكانية أن العالم الواقعي قد لا يكون في الواقع كما يبدو لنا (121). وصف بياجى الواقعية باعتبارها «ميلا عفويا وفوريا» إلى الخلط بين الدال والمدلول (122)، ويثبت البحث أن هذا الميل إلى المساواة بين إحساسنا الذاتي بالأشياء وخصائص تلك الأشياء الموضوعية، يظل عفويا وفوريا طوال حياتنا، فهو لا يختفي إلى الأبد، ولا حتى أحيانا. بل هو ميل وجيز غير واضح المعالم، سريع الزوال. لكنه يبقى دائما الخطوة الأولى في إدراكنا للعالم. فنحن نصدق ما نرى، ثم ننكره عندما نحصل عليه.

كل هذا يشير إلى أن عالم النفس جورج ميلر على حق عندما كتب: «إن العالم الواقعي هو قمة الانجاز الفكري للدماغ» (123). فالثلاثة أرباع ونصف من اللحم الموجود بين آذاننا، ليست أداة تسجيل بسيطة، بل حاسوب ذكي يجمع المعلومات ويقوم بتقديرات فطنة، وحتى بتخمينات أكثر فطنة. ويمنحنا أفضل التأويلات لطريقة سير الأمور. ولأن تلك التأويلات عادة

ما تكون جيدة، ذلك أنها تحمل غالبا ذلك الشبه المذهل للعالم، كما هو مرگب في الواقع. فنحن لا ندرك أنها تأويلات. على العكس من ذلك، نحن نشعر كما لو أننا نجلس على نحو مريح داخل رؤوسنا، بينما ننظر إلى الخارج عبر الزجاج الأمامي لأعيننا، مراقبين العالم على حقيقته. نميل إلى نسيان أن أدمغتنا عبارة عن مزورين موهوبين ينسجون ذاكرة وإدراكا ذات تفاصيل مقنعة، إلى حد يجعل الكشف عن زيفها أمرا نادر الحدوث. بمعنى آخر، كل واحد منا هو بمثابة مزور عملة يقوم بطباعة دولارات مزيفة. ثم يقبل بها بسرور عند الدفع، دون وعي منه بأنه المجرم والضحية في الآن ذاته لعملية تزوير متقنة. ومثلما أنت على وشك أن ترى، ندفع أحيانا سعرا باهظا مقابل أن نسمح لأنفسهما بأن نغفل عن هذه الحقيقة الجوهرية، لأن الخطأ الذي نرتكبه عندما نتجاهل بشكل مؤقت خدعة سد الفراغ، ونقبل دون تفكير صحة ذكرياتنا وتصوراتنا هو الخطأ ذاته الذي نرتكبه عندما نتخيل مستقبلنا.

الخرج من الغد

عندما دعانا جون لينون إلى «تخيل أن ليس هناك بلدانا»، سرعان ما أضاف «ليس من الصعب فعل ذلك». بالفعل، إن التخيل لا يحتاج عادة إلى جهد. فعندما نفكر بوجبة البسطرمة على خبز الجاودار التي ننوي تناولها عند الغداء، أو زوج البيجاما القطنية التي أقسمت ماما أنها أرسلتها بالبريد الأسبوع الفارط، فنحن لا نخضع جزءا من الوقت بين مواعيدنا من أجل ذلك. أو حينما نشمر عن سواعدنا وننكب على استحضار صور عن السندويتشات وثيراب النوم إلى أذهاننا. بل تفكر أدمغتنا في هذه الأشياء، في اللحظة التي نرغب في ذلك وإن قليلا وذلك باستخدام ما تعرفه عن الأطعمة ووجبات الغداء والطرود والأمهات، دون جهد، لتبني صورة ذهنية (بسطرمة دافئة، خبز جاودار أسمر، بيجامات صوفية، خفين على شكل أرنب) نعيشها بصفاتها نتاج لمخيلتنا. فمثلما تفعل تصوراتنا وذكرياتنا، تقفز هذه الصور الذهنية إلى وعينا باعتبارها أمرا واقعا. ولا بد لنا أن نمتن لليسر الذي به توفر مخيلتنا هذه الخدمة المفيدة، لكن بما أننا لا نشرف بشكل واع على عملية بناء هذه الصور الذهنية، فنحن نميل إلى التعامل معها معاملة الذكريات والتصورات - بداية من خلال افتراض أنها تمثيلات دقيقة للأشياء التي نتخيلها.

مثلا، يمكنك الآن أن تتخيل طبق اسباغيتي، وتخبّرنا إلى أي حد ستستمتع بتناوله عند العشاء غدا مساء. حسنا، الآن لاحظ شيئين اثنين. أولا، هذا لا يكلفك شيئا على نحو خاص، فقد تستطيع تخيل طبق المعكرونة طوال اليوم دون قطرة عرق ودون أن ينجز دماغك عملا شاقا لبناء تلك التصورات. بينما تتسكع ببيجامتك الجديدة. ثانيا، لاحظ أن السباغيتي التي تخيلتها أكثر دسامة من السباغيتي التي سألتك عنها. فقد تكون السباغيتي المتخيلة ذاك الطعام اللزج

في العلة، أو رةما كانت باستا طازجة بالحبق وإكليل الابل تغظيها طبقة من صلصة البولونيز الناعمة. وقد تحتوي الصلصة على الطماطم أو القشدة أو المحار أو حتى مربى العنب. أما النودلز فقد تكون مكوّمة تحت زوج من كرات اللحم المعتادة أو مرشوشا عليها نصف دزينة من قطع سلق البظ ومرضعة بحبات القبار والصنوبر. رةما تخيلت نفسك تتناول السباغيتي، بينما تقف على الكاونتر في مطبخك ماسكا بصحيفة في يد وعلبة كوكا في اليد الأخرى. ورةما تخيلت أن النادل قارك إلى طاولة صغيرة قرب المدفأة في المطعم المفضل لديك وفتح لك قينة بارولو 1990 حتى تبدأ. مهما كان الذي تخيلته، فمن المؤكد أنني، عندما قلت سباغيتي، لم تشعر برغبة في سؤالي عن تفاصيل الصلصة أو عن المكان، قبل أن تتصور المعكرونة في ذهنك. بل بدأ دماغك بالتصرف كرسام بورتريه مكلف بتحويل لوحة رمادية خشنة إلى لوحة زيتية كاملة الألوان، مستكملا كل التفاصيل الغائبة عن سؤالي، ليقدم لك كومة من الباستا المتخيلة. وعندما افترضت أنك ستستمتع بوجبة السباغيتي المستقبلية هذه، استجبت لهذه الصورة الذهنية المحددة على النحو ذاته الذي استجبت به لذكريات وتصورات معينة، كما لو كانت التفاصيل محددة بواسطة الشيء الذي كنت تتخيله بدلا من أن تكون مختلقة بواسطة دماغك.

وبذلك تكون قد ارتكبت خطأ قد تندم عليه ذاتك التي ستتناول السباغيتي في المستقبل (124). فجملة: «سباغيتي للعشاء مساء الغد»، لا تصف حدثا بقدر ما تصف مجموعة من الأحداث. والحدث المحدد الذي تخيلته أثر في توقعاتك عن مدى المتعة التي ستشعر بها عند الأكل. في الواقع، إن محاولتك توقع مدى متعتك بطبق السباغيتي، دون معرفة أي طبق من أطباق السباغيتي، هو بمثابة توقع الثمن الذي ستدفعه مقابل سيارة دون معرفة نوع السيارة (فراري أو سيفروليه؟)، أو محاولة توقع مدى فخرك بإنجاز زوجتك دون معرفة أي إنجاز قامت به (الفوز بجائزة نوبل أو العثور على أفضل محامي طلاق في المدينة؟) أو محاولة توقع مدى حزنك لدى موت أحد أقاربك، دون معرفة أي من أقبائك (والدك العزيز أم عمك الكبير النزق شيرمن؟).

ثمة أنواع لا تحصى ولا تُعد من السباغيتي، وذلك النوع المحدد الذي تخيلته أثر بالتأكيد في مقدار توقعاتك المتعة التي ستحظى بها خلال تلك التجربة، لأن هذه التفاصيل بالغة الأهمية في جعل توقع استجابتك للحدث الذي تتخيله أمرا دقيقا، ولأن هذه التفاصيل المهمة مجهولة، كان عليك أن تكون أكثر حكمة في الامتناع عن التوقع بشأن السباغيتي، أو على الأقل تعديله من خلال الرد بتحفظ كقول «أتوقع أن تعجبني السباغيتي، إننا لم تكن مستوية كثيرا مع بعض

لكنني مستعد للمراهنة أنك لم تمتنع، ولم تتحفظ وأنت استحضرت، بدلا من ذلك. إلى ذهك طبقا متخيلا من السباغيتي بطريقة أسرع من مقدمة برامج الطبخ ديليا سميث وهي تتزجج. ثم تنبأت بكل ثقة بالعلاقة التي توقعت أن تقيمها مع ذلك الطعام. إذا لم تقم بذلك، تهاني إذا فأنت تستحق ميدالية. أفا إذا قمت بذلك، فاعلم أنك لست وحدك. يشير الباحثون إلى أن الأشخاص عندما يتوقعون ردود أفعالهم بشأن أحداث مستقبلية، فهم يميلون إلى التغافل عن حقيقة أن أدمغتهم تمارس خدعة سد الفراغ باعتبارها جزءا جوهريا من فعل التخيل (125). على السبيل المثال: طلب من بعض المتطوعين في إحدى الدراسات أن يتنبؤوا بردود أفعالهم في مجموعة من الوضعيات: ما مقدار الوقت الذي سيكونون على استعداد لقضائه، كي يجيبوا عن بعض الأسئلة في استطلاع هاتفي؟ ما مقدار الوقت الذي سيكونون على استعداد لقضائه للاحتفال بمناسبة معينة في أحد مطاعم سان فرانسيسكو وهلم جزا (126). تحدث المتطوعون أيضا عن مدى ثقتهم في صحة كل هذه التنبؤات. وقبل القيام بعملية التنبؤ، طلب من عدد من المتطوعين أن يصفوا جميع تفاصيل الحدث المستقبلي الذي كانوا يتخيلونه («أتخيل نفسي بصدد تناول طبق الأضلاع القصيرة المطهوءة في صلصة النيذ مع الخضروات الجذرية المحمصة وحساء البقدونس في مطعم جاردينير») ثم قيل لهم إن عليهم افتراض أن كل تلك التفاصيل دقيقة للغاية (مجموعة المفترضين). أما المتطوعون الآخرون فلم يطلب منهم وصف تلك التفاصيل، ولا طرح أية فرضيات (مجموعة غير المفترضين). فأثبتت النتائج أن غير المفترضين كانوا واثقين بنفس مقدار ثقة المفترضين. لماذا؟ لأنهم عندما سئلوا عن العشاء، سرعان ما قامت مجموعة غير المفترضين بتعميم لا واع للصورة الذهنية لطبق معين في مطعم معين. ثم افتراض أن هذه التفاصيل دقيقة، بدلا من كونها مستحضرة من اللاشيء.

كلنا نجد أنفسنا في الوضع ذاته من حين إلى آخر. يطلب منا أزواجنا مثلا حضور حفلة الجمعة القادم، إذ تخلق أدمغتنا على الفور صورة لحفلة كوكتيل في الطابق العلوي لفندق وسط المدينة، حيث الندل يضعون ربطات عنق سوداء، ويحملون أطباقا فضية من المقبلات، ويعبرون أمام عازفة قيثارة مملّة. ونتوقع أن ردة فعلنا تجاه ذلك الحدث المتخيل ستمثل في التناؤب مطولا. إن ما نفشل عموما في التفكير فيه هو تنوع الحفلات الموجودة، كحفلات عيد الميلاد وافتتاحيات المعارض وحفلات الممثلين وحفلات اليخوت وحفلات الشركة وحفلات الجنس الجماعي وعيد القديس الراعي للكنيسة المقامة سنويا في شمال إنجلترا، وإلى أي مدى ستكون ردود أفعالنا مختلفة تجاه كل واحدة منها. فنخبر زوجتنا إنن، أنه من الأفضل لنا عدم

الذهاب إلى الحفلة، لكنها عادة تجزنا معها، فنقضي وقتا رائعا حقًا. لماذا؟ لأن الحفلة تحتوي على بيرة رخيصة ولعبة أطواق الهولا هوب (hula hoops) بدلا من الموسيقى الكلاسيكية ومقرمشات أعشاب البحر. إنه نوع الحفلة التي نفضلها بالتحديد. فيعجبنا ما توقعنا أننا سنكرهه، لأن توقعاتنا كانت مبنية على الصورة المفضلة التي تعكس أفضل عملية تخمين أذاها دماغنا، والتي هي خاطئة تماما في هذه الحالة. والفكرة هنا أننا عندما نتخيل المستقبل، فنحن غالبا ما نفعل ذلك في النقطة العمياء من أدمغتنا، وقد تؤدي بنا هذه النزعة إلى تخيل أحداث المستقبل على نحو خاطئ ومحاولة تقييم عواقبها.

إن هذه النزعة تتجاوز توقعاتنا الدنيوية عن الحفلات والمطاعم وأطباق السباغيتي. فعلى سبيل المثال: لا شك أن لدى معظمنا رغبة في أن نكون ايستمان أكثر من رغبتنا في أن نكون فيشر. لا شك في ذلك ما لم نتوقف لنفكر كيف يقوم دماغنا بسرعة، ودون ريب باستكمال تفاصيل حياتهما وموتهما و(ب) في مدى أهمية تلك التفاصيل الملفقة. فكم مثلا في زوج من القصص لم يخترعها دماغك تقريبا في بداية هذا الفصل:

أنت مهاجر ألماني شاب تعيش في مدينة مكتظة وقذرة وأعني بذلك مدينة شيكاغو في القرن التاسع عشر، حيث تحتكر بعض العائلات الثرية، مثل ذي آرمورز وسويفتس وفيلدن، الصناعات، وتملك الحق في استغلالك أنت وعائلتك، كما تستغل الآلات والأحصنة. فتكزس كل وقتك في قراءة صحيفة صغيرة تنادي مقالاتها بالعدالة الاجتماعية. لكنك لست غبيا، فأنت تعلم أن هذه المقالات لن تغير شيئا، وأن المصانع ستظل تشتغل وتنتج الورق ولحوم الخنزير والجزارات وتلقي بالعمال المتعبين، الذين يغذي عرقهم ودمائهم محركات الإنتاج، خارجا. فتشعر أنك شيء تافه من السهل الاستغناء عنه. فأهلا بكم في أمريكا. ذات يوم ينشب اشتباك بين بعض عمال المصانع والشرطة المحلية في ساحة هايمركت، ورغم أنك لم تكن حاضرا عند إلقاء قبلة، إلا أنه تم اعتقالك صحبة «قادة أناركيين» آخرين واتهامك بتدبير أحداث تمزد. فجأة يتصدر اسمك كل الصحف البارزة، وتصبح لديك منصة تعبر عن آرائك. عندما يحاكمك القاضي استنادا إلى قرائن مزورة، تدرك أن هذه اللحظة المخزية ستحفظها كتب التاريخ وستصبح معروفا باسم «شهيد هايمركت»، وأن إعدامك سيعبد الطريق أمام الإصلاحات التي بحثت عنها، لكنك كنت عاجزا عن إرسالها. وبعد عقود من الآن، سيكون ثفة أمريكا أخرى أفضل بكثير من هذه وسيحترمك المواطنون من أجل تضحيتك. أنت لست متدينا لكن ليس بوسعك سوى التفكير لوهلة في المسيح والصليب، المسيح الذي وهب حياته في سبيل فكرة عظيمة ستعيش طوال القرون القادمة، تفكر في ذلك وقد اتهمت بالباطل، وحوكمت ظلما، وأعدمت بوحشية. بالطبع ستشعر بالارتباك وأنت تستعد للموت، لكن في العمق، هذه اللحظة هي بمثابة ضربة حظ

وتتويج حلم، ويمكنك حتى أن تعتبرها أسعد لحظة في حياتك.

لنتقل إلى القصة الثانية: في روشستر، نيويورك سنة 1932، في قلب فترة الكساد العظيم، أنت رجل تبلغ من العمر سبعة وسبعين سنة، أمضيت حياتك في تأسيس الإمبراطوريات وفي تطوير التكنولوجيا وإنفاق ثروتك على التبرع للمكتبات والسمفونيات والكلبيات ومصحات الأسنان التي حسنت حياة الملايين. لقد انقضت أسعد لحظات عمرك في العبت بالكاميرا والطواف في متاحف أوروبا الفنية، وفي الصيد وصيد السمك والقيام بأعمال التجارة في كوخك شمال كارولينا. لكن مرض النخاع الشوكي يجعل من عيشك حياة نشيطة طالما استمتعت بها، أمرا متنامي الصعوبة، فيصبح كل يوم تقضيته في السرير محاكاة ساخرة للرجل النابض بالحياة الذي كنت عليه في السابق. فلن تعود شابا ومرور الأيام لا يعني سوى مزيد من الشيخوخة. ذات ظهيرة يوم اثنين، جلست إلى مكتبك، ثم نزعت الغطاء عن قلمك الحبري المفضل، وكتبت الكلمات التالية على دفتر: «أصدقائي الأعزاء: أتممت عملي، فلم الانتظار؟». ثم أشعلت سيجارة. وعندما استمتعت بكل نفس فيها أطفأتها، ثم وجهت فوهة مسدسك الأوتوماتيكي من طراز لوغر نحو صدرك، فقد أراك طبيبك كيف تحدد مكان قلبك، والآن بوسعك سماع نبضاته السريعة أسفل يدك. وبينما أنت تستعد لسحب الزناد تشعر بالتوتر بالطبع، لكن في أعماقك تعرف أن هذه الرصاصة المصوبة جيدا نحو هدفها ستمكنك من مغادرة الماضي الجميل والفرار نحو مستقبل مريب.

حسنا، انتهى العرض. إن هذه التفاصيل عن حياة أدولف فيشر وجورج ايستمان تفاصيل دقيقة. لكن هذا ليس المغزى الحقيقي، بل المقصود من هذا أنه مثلما توجد حفلات ومعكرونة تعجبك، وأخرى لا تعجبك، فثمة طرق تصبح من خلالها غنيا، وأخرى يُطبق عليك الحكم بالإعدام بواسطتها. مما يجعل الأولى أقل روعة والثانية أقل فظاعة، عكس ما كنا نتوقع. ومن الأسباب التي جعلتك تعتبر ردود أفعال فيشر وايستمان شاذة، هي أنك أخطأت في تفاصيل وضعيتهما على نحو شبه مؤكد. ومع ذلك، تصرفت، دون تردد، بواقعية، وأسست توقعاتك على حسب شعورك بشأن التفاصيل التي اخترعها دماغك في غفلة منك. إن خطأك لا يكمن في عدم تخيلك أشياء لا تمكنت معرفتها، فهذا هو ما يعنيه التخيل، بل يتمثل خطؤك في التعامل مع ما تخيلته دون تفكير، كما لو كان تصورا دقيقا للحقائق. أنا متأكد من أنك شخص جيد، لكنك ساحر سيء للغاية.

إلى الأمام

لو كان لك أن تختار دماغك لحظة تصميمه، لما اخترت ربما هذا الدماغ المعقد. من الجيد أنه

لم يطلب منك أحد ذلك. فمن دون خدعة سد الفراغ، لكان لديك ربّما ذكريات غامضة ومخيلة فارغة وثقب أسود يلاحقك أينما ذهبت. عندما كتب كانط أنّ «الإدراك دون تصوّر يغدو إدراكاً أعمى» (127)، كان يشير إلى فكرة أننا دون خدعة سد الفراغ التي يقوم بها الدماغ، قد لا نملك شيئاً، حتى ولو من بعيد، يشبه التجربة الذاتية التي نعتبرها جميعاً أمراً مسلماً. نحن نرى أشياء ليست موجودة بالفعل ونتذكّر أشياء لم تحدث حقاً. وبينما قد تبدو هذه الأشياء كما لو أنها أعراض التسمم بالزئبق، إلا أنها في الحقيقة مكونات بالغة الأهمية في إعداد سلس ومبهج لوصفة الواقع الطبيعي. لكنّ تلك السلاسة والطبيعية مكلفة. فرغم أننا نعي على نحو علمي غامض أنّ أدمغتنا تؤدّي ذلك الدور في استكمال الفراغ، إلا أنه لا يسعنا سوى أن نتنبأ بحدوث المستقبل بتلك التفاصيل التي نتخيلها ومثلما نحن على وشك أن نرى، فإن التفاصيل التي يضيفها الدماغ ليست مثيرة للقلق بقدر تلك التي يغفل عنها.

الفصل الخامس

مُطارِدُ الصمت

أيها الخطأ البشع، وليد الاكثاب،

لماذا تُظهر لمن هو على استعداد لتصديق الوهم

أمورا لا أساس لها ولا حقيقة؟

شكسبير، يوليس قيصر

لم يكن قد مضى على اختفاء سيلفر بلايز وقت طويل عندما كشف المحقق غريغوري والكولونيل روس هوية الغريب الذي تسلل إلى الإسطنبول وسرق حصان السباق الحائز على الجائزة. لكن كالعادة، كان شارلوك هولمز يسبق الشرطة بخطوة. التفت الكولونيل إلى المحقق العظيم قائلا:

«هل ثمة أية نقطة قد ترغب في جلب انتباهي إليها؟».

«الأمري يتعلق بحادثة الكلب الغريبة التي حدثت ليلا».

«لم يقترب الكلب شيئا ليلا».

لاحظ شارلوك هولمز قائلا: «وتلك كانت الحادثة الغريبة»(128).

يبدو أن كلبا كان يعيش في الإسطنبول، وأن عاملا الإسطنبول كان ينامان هناك خلال عملية السرقة، وأن هاتين الحقيقتين مكنتا، بلا شك، هولمز من التوصل إلى أحد أكثر استنتاجاته براعة، مثلما شرح هو، لاحقا:

«لقد أدركت مغزى صمت الكلب... فرغم وجود كلب في الإسطنبول، دخل أحدهم إلى هناك، وأخرج حصانا، لكن الكلب لم ينبح بما يكفي ليوقظ الفتية في الجزء العلوي. فمن الواضح أن زائر منتصف الليل كان شخصا يعرفه الكلب جيدا»(129).

ورغم وعي المحقق والكولونيل بما كان قد حدث، وحده هولمز كان يعي ما لم يكن قد حدث: لم ينبح الكلب، مما يعني أن الغريب لم يكن هو الرجل الذي كشفت الشرطة هويته. استطاع شارلوك هولمز، من خلال إيلانه اهتماما دقيقا حدثا غائبا، أن يجعل من نفسه أكثر تميزا عن بقية البشر. فمثلما نحن على وشك أن نرى، عندما يتخيل بقية البشر المستقبل، نادرا ما

ينتبهون إلى ما فوّته المخيلة- لكنّ تلك القطع المنقوصة أكثر أهمية مما ندرك.

البخارة الغائبين

إذا كنت تعيش في مدينة بها مبان عالية، فلا بدّ أنك تعرف تلك القدرة الخارقة للحمام على التبرز في اللحظة والسرعة والموقع المحدّد المطلوب لتسديد ذرقه مباشرة على سترتك الأعلى ثمنا. نظرا لموهبته في رشق ذرقه، يبدو من الغريب أنّ الحمام لا يستطيع القيام بأشياء أكثر بساطة. مثلا، إذا وضعت حمامة في قفص برافعتين يمكن أن تضيئا لوقت وجيز، بوسعها أن تتعلّم بسرعة أن تضغط على الرافعة المضيئة لتحصل على مكافأة من بذور الطير. غير أنه لا يمكنها أبداً أن تتعلّم الضغط على الرافعة غير المضيئة لتحصل على نفس المكافأة (130). لا يجد الحمام صعوبة في فهم أنّ حضور الضوء يشير إلى فرصة للأكل، لكنه لا يستطيع تعلّم الشيء ذاته بخصوص غياب الضوء. يشير الباحثون إلى أنّ الإنسان يشبه الحمام بعض الشبه في هذا الخصوص. وهنا نسوق مثالا عن متطوعين في إحدى الدراسات لعبوا لعبة استنتاج حيث غرقت عليهم مجموعة من المقاطع الرمزيّة (أي مجموعة تراكيب من ثلاثة حروف مثل BCG, GTR, SXY و EVX). يقوم بعد ذلك الممتحن بالإشارة إلى أحد تلك المقاطع الرمزيّة، ويخبر المتطوعين أنّ هذا المقطع مميز وعلى المتطوعين أن يعرفوا ما يجعل المقطع مميزا - أي أن يعرفوا الخاصيّة التي تميز المقطع الرمزي عن المقاطع الأخرى. رأى المتطوعون مجموعة بعد أخرى، وفي كل مرّة كان الممتحن يشير إلى مقطع مميز، فكم من مجموعة كان على المتطوعين أن يروا قبل أن يستنتجوا الخاصيّة المميّزة للمقطع الرمزي الثلاثي المميّز؟ اعتبر نصف المتطوعين أنّ ما يختص به المقطع المميز أنّه الوحيد الذي يحتوي على حرف T، وكان على هؤلاء المتطوعين أن يزوا ثلاثا وأربعين مجموعة من المقاطع المميّزة قبل أن يدركوا أنّ وجود حرف T، هو ما يجعل المقطع مميزا. بالنسبة إلى نصف الآخر، أّسم المقطع الخاص دائما بكونه الوحيد الذي ينقصه حرف T، فكانت النتائج مذهشة. إذا لا أحد من المتطوعين أدرك هذا مطلقا (131)، مهما كان عدد مجموعات المقاطع الرمزيّة التي رأوها، لقد كان من السهل ملاحظة وجود حرفٍ لكن، كنباح كلب، كان من المستحيل ملاحظة غيابه.

غياب في الحاضر

لو كانت هذه النزعة مقتصرة على بذور الطير والمقاطع الثلاثية الرمزيّة، لما كان الأمر مهفا بالنسبة إلينا، لكن وكما أتضح، فعدم القدرة عموما على التفكير في الغياب، هي مصدر قويّ لارتكاب الخطأ في الحياة اليومية. مثلا، منذ لحظات أشرت إلى أنّ للحمام موهبة في التبرز على المترجلين، فإذا كنت يوما ضحية للطحّة البراز تلك، لعلك استنتجت الشيء ذاته. لكن

ما الذي يجعلنا نفكر في أن الحمام في الواقع يضع هدفا، ثم يصوب نحو ذلك الهدف؟ تكمن الإجابة في أن معظمنا يستطيع تذكر أننا في الكثير من الحالات مررنا تحت إفريز مزين بتلك الجرذان الطائرة البغيضة، عندما تسقرنا في مكاننا بواسطة تلك الكتلة البيضاء ذات الرائحة الكريهة، رغم حقيقة أن رؤية رأس بشري من الجو تُعد هدفا صغيرا وسريع الحركة نسبيا. حسنا هذا صحيح، لكن إذا كنا حقا نرغب في معرفة إن كان الحمام خرج كي يصطادنا ويملك المهارة اللازمة للقيام بذلك، فعلينا أيضا أن نفكر في تلك المرات التي سرنا فيها تحت الإفريز، وابتعدنا دون أن تشوبنا شائبة. إن الطريقة الصحيحة لفهم عدائية الحمام الحضري وموهبته في التصويب تكون من خلال التفكير في حضور وغياب البراز على حد سواء على ستراتنا. فإذا نجح الحمام في تصويب برازه نحونا تسع مرات على عشرة، عندها ربما علينا أن نشيد بدقته ونتجنبه، لكن إذا نجح في التصويب نحونا تسع مرات على تسعة آلاف مرة، فعندها قد يكون ما يبدو تصويبا جيدا وسلوكا سيئا لا شيء سوى ضربة حظ. إن للإخفاقات أهمية بالغة في تحديد نوع الاستنتاجات التي يحق لنا استخلاصها من خلال هذه التصويبات. في الحقيقة، عندما يرغب العلماء في إثبات العلاقة السببية بين شيئين، كاستمطار السحب والمطر أو النوبة القلبية والكوليسترول، سم ما شئت، فهم يحتسبون مؤشرا رياضيا يأخذ بعين الاعتبار تكرار حدوث الحالات (كم عدد الأشخاص الذين يعانون من نسبة كوليسترول مرتفعة قد يتعرضون لنوبات قلبية؟) وعدم تكرارها (كم عدد الأشخاص الذين يعانون من نسبة كوليسترول مرتفعة ولا يتعرضون لنوبات قلبية، وكم عدد الأشخاص الذين لا يعانون من نسبة كوليسترول مرتفعة ويتعرضون لنوبات قلبية؟) وتكرار غياب الحالات (كم عدد الأشخاص الذين لا يعانون من نسبة كوليسترول مرتفعة، لا يتعرضون لنوبات قلبية؟) كل هذه الكميات ضرورية لتقييم دقيق لمدى احتمالية وجود علاقة سببية بين شيئين.

كل هذا منطقي بالطبع بالنسبة إلى خبراء الإحصاء. لكن الدراسات تثبت أن الأشخاص عندما يرغبون في معرفة ما إذا كان ثمة علاقة سببية بين شيئين، فإنهم يبحثون باستمرار ويولون الأمر اهتماما ويفكرون ويتذكرون معلومات عما حدث لكنهم يفتشون في ذلك البحث عن وفي الاهتمام ب وفي التفكير في وتذكر معلومات عن ما لم يحدث (132). يبدو أن الناس ظلوا يقتربون هذا الخطأ أمدا من الزمن. منذ قرابة أربعة قرون، كتب الفيلسوف والعالم السير فرانسيس بيكون عن أساليب ارتكاب الدماغ الأخطاء واعتبر الإخفاق في تدبر حالات الغياب من بين أكثر تلك الأساليب أهمية:

«إن أكبر عائق وانحراف يطران على الفهم البشري ينبثقان من [حقيقة أن]... تلك الأشياء

التي تحرك الحواس تتفوق على الأشياء التي لا تؤثر فيها تأثيرا مباشرا رغم كونها قد تكون أكثر أهمية. وبهذا يزول التأمل عند الرؤية إلى حد إيلاء القليل من الاهتمام إلى الأشياء غير المرئية»(133).

أضاء بيكون نقطته هذه بواسطة قصة (استعارها بدوره من سيسرو، الذي رواها قبل سبعة عشر قرنا) عن زائر إلى معبد روماني. وحتى يبهر الزائر بقوة الآلهة، عرض عليه الروماني بورتريه لعديد البحارة الأتقياء الذين مكثهم إيمانهم من النجاة من حادث غرق سفينة حدث في الآونة الأخيرة. عندما شعر الزائر أنهم يحاولون الضغط عليه لقبول هذا دليلا على وجود معجزة سأل بدهاء: «لكن أين هي صور أولئك الذين هلكوا بعد أن أخذوا نذورهم؟»(134) يشير العلماء إلى أن الناس العاديين أمثالنا نادرا ما يطلبون رؤية صور البحارة المفقودين(135).

إن عجزنا عن التفكير في حالات الغياب قد يؤدي بنا إلى استصدار أحكام غريبة على نحو ما. على سبيل المثال: في دراسة أنجزت منذ حوالي ثلاثة عقود، شغل بعض الأمريكيين أي البلدان أكثر تشابها ببعضها البعض - سيريلانكا (سيلان قديما Ceylon) ونيبال؟ أم ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية؟ اختار معظمهم الثنائي الأخير(136). لكن، عندما سئلوا أي البلدين لا يشبه أحدهما الآخر، اختار أغلب الأمريكيين الثنائي الأخير أيضا. الآن، كيف لبلدين أن يكونا أكثر تشابها من البلدين الآخرين وأكثر تباينا في الآن ذاته؟ بالطبع لا يمكنهما ذلك، لكن عندما طلب من الأشخاص تقييم التشابه بين بلدين، كانوا يميلون إلى البحث عن وجود أوجه الشبه (التي تملك ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية الكثير منها - مثلا، اسميهما) مقابل تجاهلهم أوجه التشابه. لكن عندما طلب منهم تقييم أوجه الاختلاف بين البلدين، كانوا يميلون إلى البحث عن وجود أوجه الاختلاف (التي تملك ألمانيا الشرقية والغربية الكثير منها- مثلا، حكومتهما) وتجاهل غياب أوجه الاختلاف.

إن النزعة نحو تجاهل الأشياء الغائبة يمكن كذلك أن تشوش على أخذ قرارات شخصية. تخيل مثلا أنك تستعد للذهاب في عطلة إلى إحدى جزيرتين، لنسمي الأولى موديراسيا Moderacia (نسبة إلى الاعتدال: Moderate) (التي تتميز بطقس معتدل وشواطئ عادية وفنادق متوسطة وحياة ليلية اعتيادية) واكستريميا Extremia (نسبة إلى التطرف Extreme) (التي تتميز بطقس جميل وشواطئ خلابة لكن فنادقها مكتظة والحياة الليلية فيها منعومة) وعندما يحين الوقت للقيام بالحجز، أي الجزيرتين ستختار إن؟ يختار معظم الناس Extremia(137). لكن الآن تخيل أنك تمسك بحجز غير نهائي لكلا الوجهتين وحن

الوقت لإلغاء أحدهما قبل أن يقتطعوا من بطاقتك الائتمانية. أي منهما ستلغي؟ يختار معظم الناس إلغاء الحجز إلى Extremia. ما الذي قد يجعل الناس يختارون Extremia ويرفضونها في الآن ذاته؟ نحن عندما نختار، نفكر في الخصائص الإيجابية لخياراتنا، وعندما نرفض، نفكر في خصائصها السلبية و Extremia تملك أكثر الخصائص إيجابية وأكثرها سلبية، ولهذا فالناس يميلون إلى اختيارها عند بحثهم عن شيء يختارونه ويرفضونها عند بحثهم عن شيء يرفضونه، فالطريقة المنطقية لاختيار مكان العطلة تكون بالتأكيد من خلال التفكير في وجود الخصائص الإيجابية والسلبية وغيابها، معاً، لكن ليس هذا ما يفعله معظمنا.

غياب في المستقبل

إن عدم انتباهنا للنقائص يؤثر في الطريقة التي نفكر بها في المستقبل. فمثلاً لا نتذكر كل تفصيل من تفاصيل حدث سابق (ما لون الجوارب التي ارتديتها يوم تخرجك من المدرسة الثانوية؟) أو مثلاً لا نلاحظ كل تفاصيل حدث حالي (ما لون جوارب الشخص الذي وراءك في هذه اللحظة بالذات؟)، نخفق أيضاً في تخيل كل تفصيل من تفاصيل حدث مستقبلي. أغمض عينيك الآن مدة ساعتين وتخيّل نفسك تقود سيارة مرسيدس بنز SL600 رودستر فضية بمحرك من طراز V-12 مزوّد بشاحن توربيني مزدوج طوله 36 صمام وسعته 505 لتر. قد تستطيع تخيل التقؤس في مقدّمة السيارة وميل الزجاج الأمامي ورائحة الجلد الأسود، لكن مهما أطلت القيام بذلك، فإني إذا طلبت منك عندها أن تتفحص الصورة التي ارتسمتها في ذهنك عن السيارة وأن تقرأ لي الأرقام التي على لوحة الترخيص، لوجدت نفسك مضطراً للاعتراف بأنك أغفلت ذلك التفصيل بالتحديد. لا أحد يستطيع تخيل كل شيء، بالطبع، وقد يكون من العبثي الإشارة إلى ضرورة قيامهم بذلك، لكن مثلاً نميل إلى التعامل مع تفاصيل الأحداث المستقبلية التي نتخيلها كما لو أنها ستحدث، فنحن نملك على حد السواء نزعة تثير القلق للتعامل مع تفاصيل أحداث المستقبل التي لا نتخيلها، كما لو أنها لن تحدث. بعبارة أخرى، نحن نفشل في إدراك مقدار الفراغات التي تسدّها المخيلة، لكننا نفشل في إدراك مقدار تلك التي تغفل عنها.

لتوضيح هذه النقطة، غالباً ما أطلب من الناس أن يخبروني كيف يعتقدون أنهم سيشعرون بعد سنتين من موت ابنهم الأكبر موتاً مفاجئاً. كما يمكنكم أن تخمنوا، يجعلني هذا أحظى بازدياد الجميع في الحفلات. أعرف، أعرف أنّ هذا تمرين مربع ولا أطلب منكم إجراءه، لكن الحقيقة أنكم إنا أجربتموه، فمن المحتمل أن تقدّموا الإجابة التي قدّمها لي الجميع تقريباً، وهي شبيهة بـ هل جننت؟ سيحطمني ذلك - سيحطمني تماماً. لن أكون قادراً على النهوض من السرير

في الصباح. قد أقتل نفسي. من الذي دعاك إلى هذه الحفلة أصلاً؟ فإذا لم يقذفني أحدهم بالمشروب عند هذه النقطة، عادة ما أتعمق أكثر في سؤالهم كيف وصلوا إلى تلك النتيجة. ما هي الأفكار أو الصور التي خطرت ببالهم؟ ما هي المعلومات التي فكروا فيها؟ عادة يخبرني الأشخاص أنهم تخيلوا سماعهم للخبر، أو تخيلوا أنهم حضروا الجنازة، أو تخيلوا أنهم فتحوا باب غرفة نوم فارغة. لكن في التاريخ الطويل لطرحي لهذا السؤال، أي استبعاد نفسي عن أي دائرة اجتماعية كنت أنتمي إليها سابقاً، لم أسمع بعد شخصاً واحداً يخبرني أنه، إضافة إلى هذه الصور المحزنة والكئيبة، تخيل أيضاً الأشياء الأخرى التي قد تحدث حتماً في السنتين اللتين تعقبان موت طفله. في الحقيقة، لم يذكر أي شخص أنه حضر مسرحية مدرسية لطفل آخر، أو مارس الحب مع زوجته أو تناول حلوى التفاح في أمسية صيفية دافئة، أو قرأ كتاباً أو ألف آخر أو امتطى دراجة هوائية أو أنجز أيًا من تلك النشاطات التي نتوقع -أو يتوقعون- حدوثها في تينك السنتين. الآن، أنا لا أشير بأية طريقة أو شكل من الأشكال إلى أن قسمة من الحلوى اللزجة تعوّض فقدان طفل، ليس هذا هو المقصود. ما أرغب في الإشارة إليه هو أنه لا بد أن السنتين اللتين تعقبان الحدث المأساويّ تحتويان على شيء ما -أي، لا بد أنهما مليتان إلى حد ما ببعض الوقائع والأحداث- ولا بد أن لهذه الوقائع والأحداث من تبعات عاطفية ويقطع النظر عن كون هذه التبعات كبيرة أو صغيرة، سلبية أو إيجابية، لا يمكن لأي شخص أن يجيب عن سؤالي بدقة دون التفكير فيها ومع ذلك، لا أحد ممن أعرفهم تخيل أي شيء قَطَّ عدا الحدث المرعب المشار إليه في سؤالي. فعندما يتخيل المستقبل، يغفل عن جزء كبير من الأشياء، وتلك أشياء مهمة.

وقد وُضحت هذه الفكرة في إحدى الدراسات، حيث طلب من بعض الطلبة في جامعة فيرجينيا أن يتنبؤوا بشعورهم بعد بضعة أيام من فوز فريق كرة قدم المفضل لديهم في الجامعة أو خسارته في مباراته القادمة ضد جامعة نورث كارولينا (138). طلب من المجموعة الأولى من الطلبة (مجموعة الواصفين) أن يصفوا أحداث يوم مباراة عادي ولم يُطلب من المجموعة الثانية القيام بذلك (مجموعة غير الواصفين). بعد بضعة أيام طلب من الطلبة التحدث عن مدى سعادتهم فعلاً، فأثبتت النتائج أن غير الواصفين فقط هم من بالغوا بشكل كبير في توقع تأثير الربح أو الخسارة فيهم. لماذا؟ لأنهم عندما تخيلوا المستقبل، أغفلوا بعض التفاصيل المتعلقة بالأشياء التي قد تحدث إثر نهاية المباراة. مثلاً: لقد فشلوا في التفكير في أنهم إثر خسارة فريقهم مباشرة (وهو حدث حزين) قد يذهبون لاحتساء شراب صحبة الأصدقاء (وهو ما قد يكون حدثاً جميلاً) أو أنهم مباشرة إثر فوز فريقهم (وهو ما قد يكون حدثاً سعيداً) قد يكونون مضطربين للذهاب إلى المكتبة والشروع في إعداد امتحان الكيمياء النهائي (وهو ما قد يكون حدثاً حزيباً). ركزت مجموعة غير الواصفين على جانب واحد

أوحد من المستقبل- وهو نتيجة المباراة وأخفقوا في تخيل جوانب مغايرة من المستقبل قد تؤثر في سعادتهم مثل حفلات السكر واختبارات الكيمياء. من الناحية الأخرى، كان الواصفون أكثر دقة في تنبؤاتهم بالتحديد لأنهم كانوا مضطرين للتفكير في التفاصيل التي أغفلها غير الواصفين(139).

من الصعب الإفلات من الأشياء التي تمثل مركز اهتمامنا، أي من الصعب أن نفكر في ما لا يمكن أن نغفله، وهذا أحد أسباب عدم قدرتنا على التنبؤ بردود أفعالنا العاطفية تجاه الأحداث التي تقع في المستقبل. فمثلا، يمكن تصنيف أغلب الأمريكيين إلى نوعين: أولئك الذين يعيشون في كاليفورنيا وهم سعداء بذلك وأولئك الذين لا يعيشون في كاليفورنيا ويعتقدون أنهم سيكونون سعداء لو كانوا يعيشون هناك، لكن البحث أثبت أن سكان كاليفورنيا ليسوا في الواقع، أكثر سعادة من أي أحد آخر- لماذا إذن يظن الجميع (بما في ذلك سكان كاليفورنيا) أنهم كذلك؟(140) تتميز كاليفورنيا بأحد أجمل المناظر الطبيعية وتتمتع بأحد أفضل المناخات في الولايات المتحدة القارية، وعندما يسمع غير سكان كاليفورنيا تلك الكلمة السحرية تنتج مخيلتهم على الفور صورة ذهنية لشواطئ مشمسة وأشجار الخشب الأحمر العملاقة. فرغم أن مناخ لوس أنجلس أفضل من كولومبس، إلا أن المناخ لا يمثل سوى شيء واحد من بين أشياء كثيرة تحدد سعادة الشخص - ومع ذلك فإن كل تلك الأشياء الأخرى لا تمثل جزءا من الصورة الذهنية المتخيلة. فإذا افترضنا أننا سنضيف بعض هذه التفاصيل المنقوصة إلى الصورة التي ينتجها ذهننا عن الشواطئ وأشجار النخيل- لنقل مثلا، حركة المرور ومحلات السوبر ماركت والمطارات والفرق الرياضية وتكاليف السكن والزلازل والانهيارات الأرضية وهلم جرا - قد ندرك عندها أن لوس أنجلس L. A. تتفوق على كولومبس في بعض الأشياء (مناخ أفضل) وكولومبس تتفوق على لوس أنجلس في أشياء أخرى (حركة مرورية أقل اكتظاظا). إننا نعتقد أن سكان كاليفورنيا أكثر سعادة من سكان أوهايو لأننا نتخيل كاليفورنيا مقترنة بعدد قليل من التفاصيل ولا نترك مجالا لفكرة أن تلك التفاصيل التي لم ننجح في تخيلها قد تغير الاستنتاجات التي نستخلصها استخلاصا جذريا(141).

إن النزعة التي تدفعنا إلى المبالغة في تخيل سعادة سكان كاليفورنيا تدفعنا كذلك إلى التقليل من شأن سعادة الأشخاص الذين يعانون من أمراض مزمنة وإعاقات(142). فعلى سبيل المثال: عندما يتخيل المبصرون أنهم لا يبصرون، يبدو أنهم ينسون أن العمى ليس وظيفة بدوام كامل. صحيح أن الأشخاص المصابين بالعمى لا يرون، لكنهم يقومون بكل تلك الأشياء التي يقوم بها المبصرون - فهم يذهبون في نزهة، ويدفعون الضرائب ويستمعون إلى الموسيقى

رائع، فالمستقبل البعيد ضبابي ومسطح. مثلا: عندما طلب من الشباب الذين يستعدون للزواج أو أولئك المتزوجين حديثا أن يتحدثوا عما يفكرون فيه حين يتصوّرون «أنهم متزوجون»، تصوّر الذين على بعد شهر من الحدث (سواء، أ لأنهم يستعدون للزواج بعد شهر أو لأنهم تزوجوا منذ شهر) الزواج على نحو مجرّد وضبابي، وقدموا وصفا دقيقا مثل «التزام جذي» أو «ارتكاب خطأ». لكنّ الذين يستعدّون للزواج يوم الغد تصوّروا تفاصيل ملموسة عن الزواج، مقدّمين وصفا مثل «التقاط الصور» أو «ارتداء زي خاص» (145). على نفس النحو، عندما طلب من بعض المتطوعين أن يتخيلوا أنفسهم يغلقون الباب في اليوم التالي، وصفوا صورهم الذهنية بجمل مفضلة أشبه بـ «وضع مفتاح في القفل»، لكن عندما طلب من المتطوعين أن يتخيلوا أنفسهم يوصدون بابا بعد سنة، وصفوا صورهم الذهنية بجمل غامضة من قبيل «تأمين المنزل» (146). عندما نفكّر في أحداث وقعت في الماضي البعيد أو المستقبل البعيد، نميل إلى التفكير بتجزّد في سبب وقوعها في الماضي وفي المستقبل، لكن عندما نفكّر بأحداث وقعت في الماضي القريب أو المستقبل القريب، فنحن نميل إلى التفكير بشكل ملموس في كيفية حدوثها في الماضي أو في المستقبل (147).

فالنظر عبر الزمن شبيه بالنظر عبر الفضاء، لكن ثمة اختلاف واحد مهم بين الأفق المكاني والأفق الزماني. فعندما نرقب ثورا من بعيد، تكون أدمغتنا واعية بحقيقة أنه يبدو ملتبسا وضبابيا ويفتقد إلى التفاصيل لأنّه بعيد دون أن تخطأ في استنتاج أنّ الثور في حد ذاته ضبابي. لكن عندما نتذكر أو نتخيل حدثا بعيدا في الزمن، تغفل أدمغتنا عن حقيقة أنّ التفاصيل تتلاشى عبر المسافة الزمنية، فتستنتج بدلا من ذلك أنّ الأحداث البعيدة هي في الحقيقة ملتبسة وضبابية مثلما نتخيلها ونتذكرها. وهنا نسوق مثلا: هل سبق أن تساءلت لماذا تلتزم بوعود قطعها وتندم على ذلك بشدة عندما يحين وقت الإيفاء بها؟ كلنا نفعل هذا، بالطبع. فنحن نوافق مثلا على العناية بأبناء إخوتنا وبناتهم الشهر المقبل، ونتطلع إلى تنفيذ ذلك الالتزام بينما نقوم بتدوينه في مذكراتنا، ثم عندما يحين الوقت فعلا لشراء وجبات الأطفال وتجهيز ألعابهم وإخفاء الغليون وتجاهل فكرة أن المباراة النهائية لدوري كرة السلة ستجرى على الساعة الواحدة، نبدأ في التساؤل ماذا كان يدور في رؤوسنا عندما قلنا نعم. حسنا، عندما قلنا نعم، كنا نفكّر في العناية بالأطفال انطلاقا من: لماذا بدلا من كيف، ومن حيث الأسباب والتبعات لا التنفيذ، ولم نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أنّ فعل العناية بالأطفال الذي تخيلناه دون التفاصيل المصاحبة له لن يكون شبيها بفعل العناية بالأطفال المثقل بالتفاصيل الذي سنجره في النهاية. إنّ العناية بالأطفال كما تخيلناها في الشهر المقبل هي «تعبير عن الحب»، بينما العناية بالأطفال

في الوقت الحاضر ترمز إلى «فعل إعداد الغداء للأطفال» والتعبير عن العاطفة فعل متمر روحيا خلافا لشراء البطاطس المقرمشة الذي هو ببساطة مختلف عن ذلك(148).

لعله ليس من المفاجئ أن تلك التفاصيل الدقيقة المصاحبة لفعل العناية بالأطفال والبارزة بالنسبة إلينا أثناء تنفيذنا لها، لم تكن جزءا من الصورة الذهنية التي نحملها عن ذلك الفعل عندما تخيلناها قبل شهر، لكن الغريب هو مدى تفاجننا بظهور تلك التفاصيل. إن فعل العناية بالأطفال البعيد في الزمن يتسم بنفس الضبابية التي يبدو عليها حقل الذرة في المكان(149)، لكن رغم أن جميعنا ندرك أن حقل الذرة ليس ضبابيا حقا وأنه يبدو هكذا من بعيد فحسب، إلا أننا لا نبدو على دراية تامة بأن تلك الحقيقة ذاتها تنطبق على الأحداث البعيدة في الزمن. عندما طلب من بعض المتطوعين أن «يتخيلوا يوما جيدا»، تخيلوا مجموعة متنوعة من الأحداث بناء على كون ذلك اليوم سيحصل غدا أكثر مما لو كان ذلك بعد سنة(150). لذلك فقد تخيلوه بشكل مفضل وجاءت الإجابة مزيجا كثيفا من الأشياء الجميلة في غالبيتها، (أشياء من قبيل: «سأنام في وقت متأخر، سأقرأ الصحيفة، سأذهب إلى السينما وألتقي بصديقي/تي المفضلة») مع القليل من الأشياء غير السارة. في المقابل، تخيلت أحداث اليوم الجميل الذي سيقع بعد سنة بوصفه مزيجا ملتبسا من الأحداث السعيدة. ناهيك أن الأشخاص عندما سئلوا إلى أي حد يعتقدون أن هذه الصور الذهنية عن الأحداث القريبة والمستقبلية البعيدة واقعية، زعموا أن هذا المزيج الغامض للسنة القادمة واقعي للغاية بالقدر ذاته الذي سيكون عليه الخليط الكثيف غدا. فنحن نشبه، إلى حد ما، الطيارين الذين يهبطون بطائراتهم ويصدمون أيما صدمة عند اكتشافهم أن حقول الذرة التي كانت تبدو من الجو مثل مستطيلات صفراء مسطحة هي في الحقيقة مليئة - من بين كل الأشياء - بالذرة! إن الإدراك والخيال والذاكرة كلها قدرات بارزة بينها عديد النقاط المشتركة لكن الإدراك، على الأقل بشكل ما، هو الأكثر حكمة من بين هذا الثلاثي. فمن النادر أن نخطئ في رؤية ثور من بعيد فنراه حشرة من مسافة قريبة، لكن عندما يكون الأفق زمنيًا وليس مكانيًا، نحن نميل إلى ارتكاب الخطأ ذاته الذي يرتكبه أقزام البيغمي.

إن حقيقة تخيلنا للمستقبل القريب والبعيد بذلك النسيج المختلف تؤذي بنا إلى تقييمه على نحو مختلف أيضا(151). فقد يدفع معظمنا مبلغا مقابل الحصول على تذكرة لحضور عرض برودواي الليلة أو لأكل كعكة التفاح هذه الظهرية أكبر من المبلغ الذي قد ندفعه إذا كان من المقرر أن تصلنا تلك التذكرة أو الكعكة الشهر المقبل. لا يبدو أن الأمر غير منطقي، فتأخير حدوث الأشياء أمر شاق ومن المنطقي في المقابل أن نطلب تخفيضا إذا كان علينا أن نتحمله. لكن الدراسات أثبتت أن الناس يتخيلون أن ألم انتظار حدوث شيء ما في المستقبل القريب

التفاصيل التي أغفلتها. والمشكل لا يكمن في كون أدمغتنا تملأ فراغ التفاصيل وتغفلها، فالويل لنا إن لم تفعل، بل في أنها تجيد القيام بذلك بشكل يجعلنا لا نعي به. وهكذا، فنحن نميل إلى قبول ما ينتجه الدماغ دون تشكيك ونتوقع حدوث المستقبل بتلك التفاصيل - تلك التفاصيل فقط - التي تخيلها الدماغ. تتمثل أحد عيوب المخيلة، إذن، في أنها تتصرف بحرية دون أن تعلمنا بذلك، لكن رغم أن المخيلة بهذا التحرر، إلا أنها محافظة جدًا على حد السواء، ولذلك العيب قصة أخرى.

الجزء الرابع الحاضرة

«الحاضرة: هي النزعة نحو التجربة الائنة للتأثير في رؤية الفرد للماضي والمستقبل»

الفصل السادس

المستقبل الآن

عبرت بي رسائلك من الحاضر المظلم إلى المستقبل،

وها أنا الآن أرى المستقبل في الحاضر.

شكسبير، سيمبلين

يوجد في معظم المكتبات ذات المساحة المناسبة رفوف ضُففت عليها مجلدات عن العالم المستقبلي منذ خمسينيات القرن الماضي بعناوين مثل: «نحو عصر الذرة وعالم الغد». عند تصفحك بعض هذه الكتب، سرعان ما ستلاحظ أن كل كتاب منها يتناول الزمن الذي كُتب فيه أكثر مما يتحدث عن الزمن الذي كان من المفترض أن يُبنى به. قلب صفحاته بعض التقليل وستعرضك صورة رثة بيت بتسريحة شعر «دونا ريد» وتثورة بوجل تتجول في مطبخها الصغير منتظرة هدير سيارة زوجها الصاروخية قبل أن تضع طبق التونة على الطاولة. قلب أكثر الصفحات وسترى رسما تخطيطيا لمدينة حديثة تحت قبة بلورية تزيئها قطارات نووية وسيارات مقاومة لجاذبية الأرض ومواطنين يرتدون لباسا أنيقا وينزلقون بهدوء على الأرصفة ذات الأحزمة الناقلة نحو عملهم. غير أنك ستلاحظ أيضا غياب بعض الأشياء، فالرجال لا يحملون رُصعا والنساء لا يحملن حقائب يد والأطفال ليس لديهم حواجب وحلمات مثقوبة والفئران تصدر صوت صرير بدلا من النقر ولا يوجد متزلجون ولا متسولون ولا هواتف ذكية ولا مشروبات طاقة ولا ملابس مصنوعة من ألياف السباندكس ولا اللاتكس (المطاط) ولا شركة الجور تكس (Gore-Tex) ولا أمكس (Amex) ولا شركة خدمة التوصيلات FedEx ولا شركة Wal-Mart. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أن كل الذين ينحدرون من أصول إفريقية وآسيوية وهسبانية لا أثر لهم في المستقبل مطلقا. في حقيقة الأمر، ما جعل هذه الرسومات ساحرة للغاية، هو أنها خاطئة على نحو كامل ورائع وسخيف في وقت واحد، فكيف لأي كان أن يفكر في أن المستقبل قد يكون أشبه بشيء هجين من قبيل فيلم الكوكب المحرم *Forbidden Planet* والمسلسل التلفزيوني *Father Knows Best*?

المزيد من الشيء ذاته

إن التقليل من شأن قدرة المستقبل على التجديد والابتكار تقليد قديم. كان اللورد ويليام طومسن كيلفن واحدا من أكثر الفيزيائيين الذين يئسمون بنظرة ثابتة في القرن التاسع عشر

(لذلك نحن نعتمد وحدة الكيلفن لقياس درجة الحرارة) ورغم ذلك عندما تفحص عالم المستقبل استنتج أنه «من المستحيل اختراع آلات طائرة أثقل من الهواء» (156). ووافق معظم رفقاؤه من العلماء على ذلك. كما كتب عالم الفلك سايمون نيوكمب في سنة 1960 أن: «إثبات إمكانية الجمع بين المواد الموجودة والنماذج الموجودة من الآلات وأشكال القوة الموجودة في تركيبه واحدة محتملة لاختراع آلة عملية يمكن بواسطتها للإنسان أن يحلق في الفضاء نحو مسافات بعيدة، يبدو للكاتب أمرا مستحيلا تماما كإثبات أي حقيقة مادية أخرى غير ممكنة» (157).

حتى ويلبير رايت الذي أثبت أن كيلفن ونيوكمب قد أخطأ، اعترف أنه في سنة 1901 قال لأخيه إن: «الإنسان لن يطير قبل خمسين سنة» (158). لكنه طار بعد سنتين فقط. إن عدد العلماء المرموقين والمخترعين الذين حققوا انجازات والذين اعتبروا أن اختراع طائرة أمرا مستحيلا لا يفوقه سوى عدد أولئك الذين قالوا الشيء ذاته عن السفر إلى الفضاء وعن أجهزة التلفاز وعن أفران الميكروويف وعن الطاقة النووية، وعن عملية زرع القلب وعن وجود سيدات من بين أعضاء مجلس الشيوخ. صحيح أن قائمة التنبؤات الخاطئة والمحاولات التي باءت بالفشل والأهداف التي فُوت فيها طويلة، لكن اسمح لي أن أطلب منك تجاهل العدد الهائل لمثل تلك الأخطاء لبرهة والانتباه بدلا من ذلك إلى التشابه بين أشكالها. لقد صاغ الكاتب آرثر س. كلارك ما بات يُعرف بقانون كلارك الأول: «عندما يُقرّز عالم مسنّ بارز بإمكانية حدوث شيء ما، فهو يكاد يكون على حق وعندما يُقرّز باستحالة شيء ما، فهو على الأرجح مخطئ للغاية» (159). بعبارة أخرى، عندما يقوم بعض العلماء بتنبؤات خاطئة، فخطوهم يكمن دائما في التنبؤ بأن المستقبل سيكون شبيها بالحاضر إلى حد بعيد.

الحاضرة في الماضي

إن عامة الناس يشبهون العلماء تماما في هذا الصدد، فقد سبق أن رأينا كيف أن الأدمغة تستخدم كثيرا خدعة ملء الفراغ تلك عندما تتذكر الماضي أو تتخيل المستقبل، وتشير عبارة «ملء» إلى صورة ثقب (في جدار مثلا أو سنّ) سدّ ببعض المواد (كالغراء أو الفضة). وكما اتضح، عندما تسدّ الأدمغة الثقوب في تصوراتها عن الأمس والغد، فهي تنزع إلى استخدام مادة تسقى اليوم. فكروا في عدد المرات التي حدث فيها هذا أثناء محاولتنا لتذكر الماضي. مثلا عندما يسمع طلبة الجامعة خطابات مقنعة تغيّر آراءهم السياسية بصورة جلية، فهم يميلون إلى تذكر أن شعورهم عندها كان كشعورهم الآن (160) وعندما يحاول المتواعدون تذكر كيف كانوا يرون أخلاءهم الرومانسيين قبل شهرين، فإنهم يميلون إلى تذكر أن شعورهم آنذاك كان

كشعورهم الآن(161) وعندما يتحصل طلبة على علامات اختباراتهم، فهم يميلون إلى تذكّر أنهم كانوا قلقين بشأن الامتحان قبل اجتيازه كقلقهم الآن(162) وعندما يُسأل المرضى عن ألم الصداع الذي انتابهم فحجم الألم الذي يشعرون به الآن يحدّد حجم الألم الذي يتذكرون أنه انتابهم في اليوم الفارط(163) وعندما يُطلب من أشخاص في منتصف العمر أن يتذكروا ما كان رأيهم بشأن العلاقة الجنسية قبل الزواج، أو عن شعورهم إزاء القضايا السياسية أو عن كمية الكحول التي كانوا يشربونها لقا كانوا في الجامعة، فإنّ ذكرياتهم تتأثر بطريقة تفكيرهم وشعورهم والكمية التي يشربونها اليوم من الكحول(164) وعندما تُسأل الأراامل عن حجم الحزن الذي ألمّ بهنّ عند وفاة أزواجهنّ منذ خمس سنوات، فإنّ ذكرياتهنّ تتلّون بحجم الحزن الذي يشعرن به الآن(165) ولازالت القائمة طويلة. لكنّ أهم ما ينبغي ملاحظته أنه في كل مثال من تلك الأمثلة، يخطئ الناس في تذكّر الماضي الخاص بهم عبر تذكّر أنّ ما فكّروا فيه وفعّلوه وقالوه في السابق هو ما يفكرون فيه ويفعلونه ويقولونه الآن(166).

إنّ النزعة نحو ملء تلك الثقوب في ذكرياتنا عن الماضي بواسطة مادة من الحاضر تصبح قويّة بصورة خاصة عندما تتعلق بتذكّر أحاسيسنا. في سنة 1992، وبعد إعلانه في حوار تلفزيوني واسع الانتشار بأنه يرغب في الإقامة في البيت الأبيض، أصبح روس بيرو بين عشية وضحاها المخلّص بالنسبة إلى جمهور الناخبين الساخطين ولأوّل مرّة في تاريخ أمريكا بدا كما لو أنّ رجلا لم يشغل منصبا قطّ ولم يكن مرشحا عن حزب سياسيّ كبير، قد يفوز بأهمّ وظيفة على وجه الأرض وكان مساندوه في غاية الحماس والتفاؤل. غير أنه في السادس عشر من شهر يوليو من نفس السنة، انسحب بيرو، بنفس ظهوره المفاجئ على المشهد، من السباق مشيرا إلى مخاوف مبهمة حول «حيل» السياسة «القدرة» التي قد تدمرّ زواج ابنته. فكان ذلك صادما لمناصريه. ثم في شهر تشرين الأول من السنة ذاتها، طرأ على موقفه تغيير آخر ودخل السباق من جديد ليخسره الشهر المقبل. خلال إعلانه المفاجئ في البداية وانسحابه الأكثر غرابة ثم دخوله المفاجئ بشكل لا يصدق في السباق من جديد بعد ذلك وخسارته المتوقّعة، مز أولئك الذين ساندوه بمختلف المشاعر القوية. ومن حسن الحظّ، كان ثمة أحد الباحثين الذي قام بقياس ردود الفعل العاطفية هذه في يوليو، إثر انسحاب بيرو ثم مرّة أخرى في نوفمبر، عقب انهزامه(167). طلب الباحث أيضا من بعض المتطوعين أن يتذكروا شعورهم في شهر يوليو وكانت النتائج مذهشة. فأولئك الذين ظلّوا موالين لبيرو خلال كل تلك التقلّبات، تذكّروا أنهم كانوا أقلّ حزنا وغضا حينما انسحب في شهر يوليو من شعورهم الحقيقي في ذلك الوقت، بينما أولئك الذين تخلّوا عنه عندما تخلّى عنهم تذكّروا أنهم كانوا أقلّ أملا مما كانوا عليه في

الحقيقة عندها. بعبارة أخرى، أخطأ مناصرو بيرو في تذكّر شعورهم نحوه في الماضي بتأثير من شعورهم نحوه في الحاضر.

الحاضرة في المستقبل

إذا كان الماضي بمثابة جدار ببعض الثقوب، فالمستقبل ثقب بلا جدار تستخدم الذاكرة خدعة ملء الفراغ، لكنّ المخيلة هي الخدعة ذاتها، وإذا كان الحاضر يلوّن ماضيها الفتدكر إلى حدّ ما، فهو يتسرّب بكثافة إلى مستقبلنا المتخيّل. ببساطة، مزّ معظمنا بوقت صعب ونحن نتخيّل غدا مختلفا تماما عن الحاضر ونجد صعوبة خاصة في تخيّل أنّه قد يأتي وقت نفكر فيه أو نرغب أو نشعر على نحو مختلف مما نفعل الآن (168). يرسم المراهقون عبارات من قبيل Death Rocks (في إحالة إلى نوع من موسيقى الروك) تاتوا على أجسادهم لأنهم واثقون في أنّها ستكون دائما جذابة وتتخلّى الأهمّات حديثات العهد بالأمومة عن مسيرة مهنية واعدة في القانون لأنّهن على ثقة أنّ البقاء في البيت مع أطفالهنّ سيكون دوما عملا مثمرا والمدخّنون الذين انتهوا للتوّ من سيجارة على ثقة على الأقلّ لمدة خمس دقائق أنّه بإمكانهم الانقطاع عن التدخين بسهولة وأنّهم لن يتراجعوا عن قرارهم طالما أنّ النيكوتين لازال في دماهم. لا يمتاز علماء النفس كذلك بشيء عن المراهقين والمدخّنين والأهمّات في هذا الشأن. أتذكّر أنّي في أحد أعياد الشكر (حسنا، في الواقع في كل أعياد الشكر) أكلت كثيرا حتى شعرت، مع آخر لقمة ابتلعتها من فطيرة اليقطين، أنّ تنفّسي صار ضعيفا ولم يعد لرتتي مجال للتمدّد. ترنّحت نحو حجرة الاستقبال وارتيمت على الأريكة وبينما كنت أسقط بعرق في غيبوبة التريبتوفان، كنت أسمع نفسي انطق بهذه الكلمات: «لن أكل أبدا بعد الآن». لكنني، بالطبع، أكلت من جديد - ربما في نفس تلك الليلة، وبقينا خلال أربع وعشرين ساعة ومن المحتمل أنّها كانت وجبة ديك رومي مرة أخرى. أعتقد أنّي كنت أدرك أنّ قراري ذاك كان عبثيا حتى وأنا بصدد اتخاذه، ومع ذلك، كان ثقة جزء مني يؤمن بصدق أنّ المضغ والبلع عادتان بغيضتان بحيث أنّي قد أتركهما بسهولة لو لم تكن تلك الكتلة الثقيلة التي تشقّ طريقها ببطء بداخلي نحو جهازي الهضمي بسرعة تقارب سرعة الانجراف القاريّ ستزوّدني بكل احتياجاتي الغذائية والفكرية والروحية إلى الأبد.

حريّ بي أن أشعر بالإحباط بسبب هذه الحادثة لعدّة اعتبارات. أولا، أنا أكل كالخنزير. ثانيا، رغم أنّي أكلت كالخنزير من قبل وكان عليّ تبعا لذلك أن أستخلص من التجربة أن الخنازير تعود دائما إلى الأكل من الحوض، فقد ظننت حقا أنّي لن أتناول الأكل مرّة أخرى لأيام، ربّما لأسابيع وربّما إلى الأبد هذه المرّة. لكنني أجد العزاء في فكرة أنّ الخنازير الأخرى تبدو معرّضة أيضا لمثل هذا النوع من الوهم بالتحديد، فقد أثبت البحث في المخابرة ومحلات السوبر ماركت

أن الناس الذين فرغوا للتو من الأكل، عندما يحاولون اختيار الأكل الذي يرغبون في تناوله الأسبوع المقبل، يقللون، وهم على ثقة من ذلك، من حجم شهيتهم في المستقبل (169). إن الميكل شايك المضاعف والكثيف وسندويتشات السلطة والدجاج وأكياس نقانق الجالابينو التي التهموها مؤخرا ثم ابتلعوها لا تخف من نسبة ذكائهم بشكل مؤقت، بل يجد هؤلاء الأشخاص صعوبة في تخيل الشعور بالجوع عندما تكون بطونهم ممتلئة وبهذا فهم لا يستطيعون إجبار أنفسهم على تلبية احتياجات الجوع عند عودته الحتمية بالشكل الكافي. فنحن نذهب إلى التسوق بعد أن نكون قد تناولنا فطور صباح مكتملا يحتوي على البيض والخبز المحمص ولحم البايكون المقدّد، فنشتري القليل من المشتريات حين نذهب إلى التسوق، ثم عندما نرغب في أكل آيس كريم رقائق الشوكولا المزدوجة ليلا، نلن أنفسنا لأننا لم نشتر أشياء تكفي لسد جوعنا.

إن ما ينطبق على المعدة المتخمة، ينطبق كذلك على الدماغ المتختم. ففي إحدى الدراسات، تحدّى عدد من الباحثين بعض المتطوعين للإجابة عن خمسة أسئلة تتعلق بالجغرافيا وأخبروهم أنهم بعد أن يقوموا بتخمين الأجوبة، سيحصلون على إحدى المكافآت: إما على الأجوبة الصحيحة عن الأسئلة التي ظرحت عليهم وبهذا يتحقّقون مقّا إذا كانوا قد أجابوا على نحو صحيح أو خاطئ، وإما المكافأة على لوح من الشوكولا دون أن يعرفوا أبدا إجابات الأسئلة (170). فاختار بعض المتطوعين مكافأتهم قبل أن يخضعوا للاختبار الجغرافيا، ولم يختار البعض الآخر مكافأتهم إلا بعد خضوعهم للاختبار. وهكذا وكما كان متوقّعا، فضّل الناس لوح الشوكولا قبل الخضوع للاختبار، لكنهم فضّلوا الأجوبة بعد الخضوع للاختبار. بعبارة أخرى، الخضوع للاختبار جعل الناس يشعرون بفضول بالغ إلى حدّ أنهم منحوا قيمة أكبر للأجوبة من قطعة شهية من الشوكولا، لكن، هل كانوا يدركون أنّ هذا سيحدث؟ عندما طلب من مجموعة جديدة من المتطوعين أن يتنبؤوا بالمكافأة التي سيختارونها قبل الخضوع للاختبار وبعده، تنبؤوا بأنهم سيختارون لوح الشوكولا في كلتا الحالتين. هؤلاء المتطوعين -الذين لم يختبروا فعلا الشعور بالفضول الشديد الذي يولده الخضوع للاختبار- ببساطة لا يستطيعون مطلقا تخيل أنهم سوف يتخلّون عن لوح شوكولا من نوع سنيكرز Snickers من أجل حفنة من الحقائق المملة عن المدن والأنهار. تستدعي هذه النتيجة إلى الذهن ذلك المشهد الرائع في فيلم *Bedazzled* سنة 1967، حيث يمضي إبليس كل وقته في محلات بيع الكتب، ممزقا الصفحات الأخيرة من الروايات البوليسية. قد لا يفاجئك هذا الفعل باعتباره ينم عن شذو مطلق وهو ما من شأنه أن يثير اهتمام إبليس الشخصي، لكن عندما تصل إلى نهاية رواية بوليسية جيّدة موضوعها الجريمة وتكتشف أن ذلك الجزء الذي يكشف الفاعل ناقص، عندها ستفهم لماذا

قد يستعدّ الناس للمقايسة بأرواحهم الخالدة مقابل معرفة حلّ للعقدة. إنّ الفضول دافع قوي، لكن عندما تكون في قلب الإحساس به، من الصعب عليك تخيل إلى أي مدى يمكن أن يقودك ذلك الإحساس وبأي سرعة.

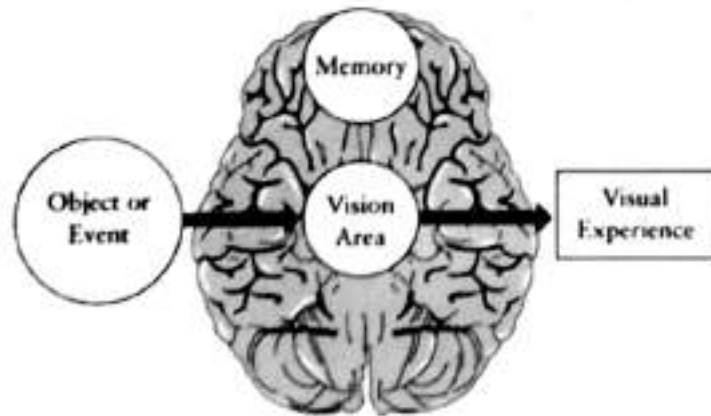
كلّ هذه المشاكل المتعلقة بالتنبؤ بجوعنا -سواء أ المتعلّق بحاجتنا إلى الأكل أو الجنس أو العاطفة أو العلاقات الاجتماعية أو الثقافة- هي مشاكل مألوفة جدًا، لكن لماذا؟ لماذا يقزم الإنسان قدرات الخيال لديه بهذا الشكل؟ فهذه المخيلة، في النهاية، هي المخيلة ذاتها التي أنتجت السفر إلى الفضاء والعلاج الجيني ونظرية النسبية ورسم متجر جين مونتني بايثن وحتى أولئك الأقلّ قدرة على الخيال من بيننا بإمكانهم تخيل أشياء جدّ جامحة وغريبة على نحو قد يجعل أمهاتنا يمحونها من رؤوسنا لو فقط يعلمن بها. فنحن نستطيع تخيل أننا انتخبنا أعضاء للكونغرس أو سقطنا من هيليكوبتر أو طلينا أجسادنا باللون البنفسجي وتدحرجنا في عجينة اللوز قد نتخيل الحياة في مزرعة موز وداخل غواصة، وقد نتخيل أنفسنا عبيدا أو محاربين أو عمدا أو آكلي لحم البشر أو غانيات لدى طبقة النبلاء أو غواصين أو جامعي ضرائب. ومع ذلك، ولسبب من الأسباب، عندما تكون بطوننا محشوة بالبطاطس المهروسة وصلصة التوت البري، لا نستطيع تخيل إحساسنا بالجوع؟ كيف يحدث هذا؟

اختلاس شعور مسبق من المخيلة

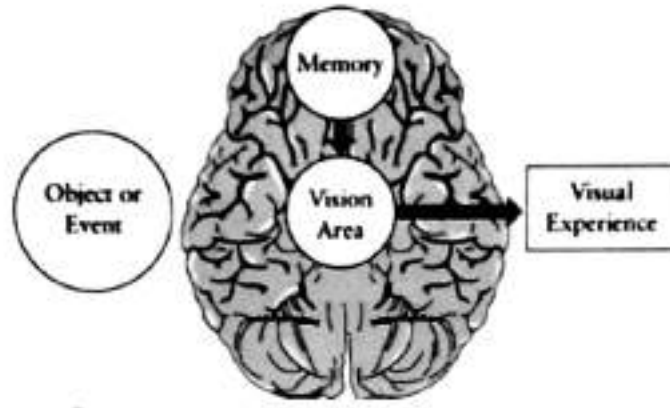
إذ الإجابة عن هذا السؤال تأخذنا عميقا داخل طبيعة المخيلة في حدّ ذاتها. فعندما نتخيل أشياء أو أجساما مثل البطاريق أو قوارب التجديف أو مورّعات الشريط اللاصق، يعيش معظمنا تجربة رؤية صورة شبه غامضة لذلك الجسم المرتسم في رؤوسنا بشكل فعلي. فعلى سبيل المثال إذا سألتك إذا كانت أجنحة البطريق أطول أو أقصر من ساقيه، من المحتمل أن تستحضر صورة ذهنية من الفراغ وتنظر إليها لتحدد الإجابة، قد تشعر كما لو أنّ صورة بطريق قفزت إلى رأسك لأنك أردت ذلك، وقد تشعر أنك تحذق في أجنحته لبرهة ثم تنظر إلى الأسفل لتتأكد من ساقيه ثم تلقي نظرة أخرى على الأجنحة لتتقدّم لي بعد ذلك إجابة. سوف تشعر بأنّ ما كنت تفعله يشبه الرؤية لأنه فعلا كذلك، فالمنطقة التي يتم تنشيطها في الدماغ حينما تنظر إلى الأشياء بعينيك -وهي منطقة حسية تسمى القشرة البصرية- يقع تنشيطها أيضا عندما تتفحص صورا ذهنية بواسطة مخيلتك (171) وهذا ينطبق على عديد الحواس الأخرى، فإذا سألتك، على سبيل المثال، في أي مقطع من عبارة «عيد ميلاد سعيد» توجد النغمة العالية عندما تُغنى، من المحتمل أن تغني اللحن في مخيلتك ثم «تستمع» إليه لتحديد مكان النغمة التي ترتفع ثم تنخفض. مرّة أخرى، إنّ إحساس «الاستماع بواسطة أذن مخيلتك» ليس فقط مجرد تعبير

مجازي(خاصة وأن لا أحد يقول هذا). فعندما يتخيل الناس الأصوات، يتبينون نشاطا في المنطقة الحسية للدماغ تسقى القشرة السمعية، والتي يقع تفعيلها عادة حينما نسمع أصواتا حقيقية بأذاننا(172).

تكشف لنا هذه النتائج عن شيء مهم يتعلق بكيفية قيام أدمغتنا بفعل التخيل، لا سيما أنها تجنّد منطقتها الحسية لمساعدتها عندما ترغب في تخيل الخصائص المحسوسة للعالم. فإذا كنا نرغب في معرفة شكل شيء معين عندما لا يكون ذلك الشيء ماثلا أمامنا، نرسل معلومات عنه نستمدّها من ذاكرتنا إلى قشرتنا البصريّة، ونختبر تلك الصورة الذهنية. بنفس الكيفية، إذا أردنا أن نعرف كيف يبدو صوت لحن ما عندما لا يقع بثّه على الراديو في تلك اللحظة، نرسل معلومات عن ذلك اللحن من ذاكرتنا نحو قشرتنا السمعية ونختبر الصوت في أذهاننا. فالبطاريق تعيش في القارة القطبية الجنوبية وأغنية «عيد ميلاد سعيد» لا تُغنى إلا في حفلات عيد الميلاد، لذلك لا شيء من هذين الأمرين يكون موجودا عندما نرغب في تفحصه. عندما لا تغني أعيننا وأذاننا القشرة البصريّة والسمعية بالمعلومات التي تحتاجانها للإجابة عن الأسئلة التي تطرح علينا، نطلب من الذاكرة أن ترسل إلينا تلك المعلومات مما يمكننا من إلقاء نظرة وهمية والحصول على إصغاء وهمي ولأنّ أدمغتنا تستطيع أن تنجز هذه الخدعة، فنحن قادرون على اكتشاف أشياء عن الأغنيات (توجد النغمة العالية في مقطع *birth* (ميلاد)) والطيور (الأجنحة أطول من القدمين) حتى عندما نكون داخل خزانة بمفردنا.



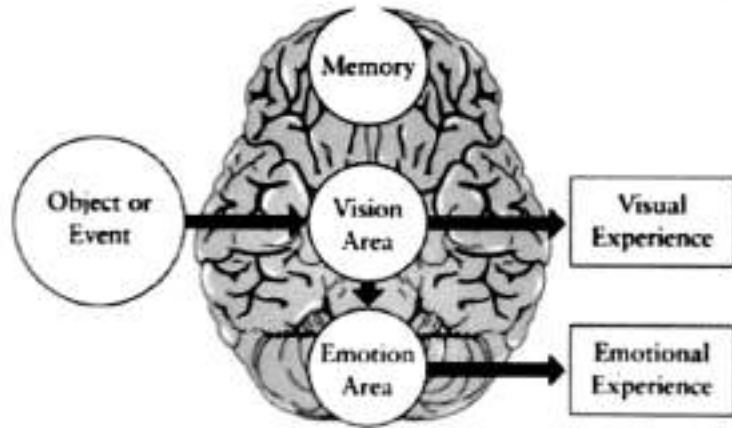
رسم رقم 10. إن الإدراك البصري (أعلى) يستمد المعلومات من الأجسام والأحداث في العالم، بينما المخيلة البصريّة (أسفل) تستقي معلوماتها من الذاكرة.



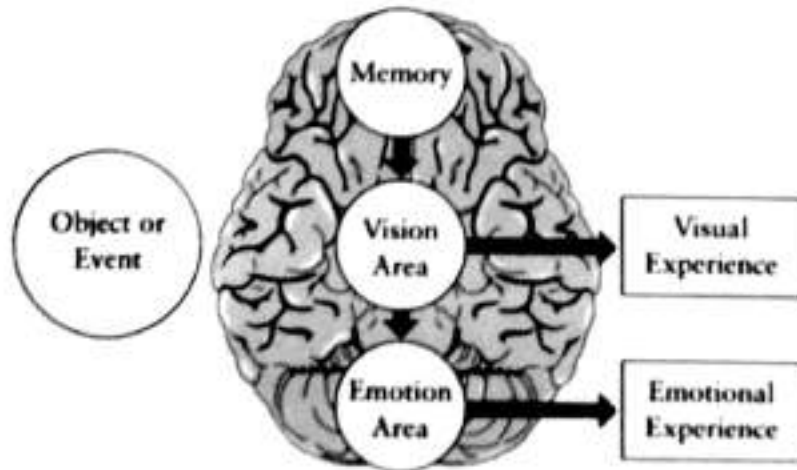
إن استخدام المنطقتين السمعية والبصرية لتنفيذ أعمال متخيلة هو شيء من الابتكار العبقري حقًا ويستحق التطور جائزة مايكروسوفت ويندوز على تثبيته داخل كل منا دون استئذاننا. لكن ما علاقة الرؤية والاستماع بأولئك الذين يعانون من الشره خلال عيد الشكر مثلنا- حسنا، على الأقل مثلي أنا؟ كما يبدو، فالعملية التخيلية التي تمكننا من اكتشاف شكل البطريق حتى عندما نكون محبوسين داخل خزانة، هي العملية ذاتها التي تمكننا من اكتشاف ما سيحمله لنا المستقبل بينما نكون مقيدين في الحاضر. فمذ اللحظة التي يسألك فيها أحدهم إلى أي مدى ترغب في رؤية شريكك في السرير صعبة ساعي البريد، تشعر بشيء ما. ومن المحتمل أنه شيء سيء ومثلما تستدعي صورة ذهنية عن البطريق ثم تتفحصه بصريًا من أجل الإجابة عن أسئلة تخض جناحيه، فأنت تستدعي صورة ذهنية عن الخيانة ثم تردّ الفعل عاطفياً عليها حتى تجيب عن أسئلة تخض مشاعرك في المستقبل (173). إن المناطق الدماغية التي تستجيب عاطفياً لأحداث واقعية تستجيب عاطفياً لأحداث خيالية أيضاً، وهو ما من المحتمل أن يجعل حدقتي عينيك تتسعان وضغط دمك يرتفع عندما أطلب منك أن تتخيل ذلك المثال المحدد (174). إن هذه طريقة ذكية للتنبؤ بمشاعر مستقبلية لأنّ كيفية شعورنا عندما نتخيل حدثاً ما عادة ما تكون إشارة جيدة لكيفية شعورنا عندما يقع ذلك الحدث ذاته. فإذا كانت الصور الذهنية التي تصوّر تسارع الأنفاس وأكياس الرسائل المتناثرة تستدعي وخزات آلام الغيرة ونوبات الغضب، عندها علينا أن نتخيل خيانة حقيقية قد تسبب تلك المشاعر بل بسرعة أكبر ومصداقية أكبر.

لا يستحقّ توضيح هذه الحقيقة شيئاً مشحوناً عاطفياً كالخيانة. فنحن كل يوم نقول أشياء من قبيل «تبدو لي البييتزا جيدة جداً»، ورغم المعنى الحرفي لتلك العبارة، فنحن لا نعلق على خصائص الموتزاريلا، بل نقول إنّنا عندما نتخيل أنفسنا نأكل البييتزا، نعيش شعوراً بسيطاً وجميلاً ونفسر هذا الشعور بصفته إشارة لشعور آخر أكبر وأجمل قد نعيشه فقط نخرج البييتزا من مخيّلنا وندشها داخل أفواهنا. عندما تقدّم لنا مضيئة صينية المقبلات المتكوّنة من

عنكبوت سوتي sautéed أو جندب مقرمش، لا نحتاج إلى مضغ أي منهما لنعرف إلى أي حد ستكون تجربة كريمة لأن مجزذ التفكير في أكل الحشرات يسبب لغالبية شعوب الغرب قشعريرة جزاء الشعور بالقرف، وحينها نخبرنا تلك القشعريرة أن ذلك الشيء لو حدث في الحقيقة فمن المحتمل أن يولد شعورا كاملا بالفتيان. إن المغزى من هذا أننا لا نأخذ عادة ورقة ونبدأ بوضع قائمة على نحو منطقي لمحاسن الأحداث المستقبلية التي نتأملها ومساوئها. بل نحن نتأملها عبر محاكاة تلك الأحداث الموجودة في مخيلتنا ثم نلاحظ استجاباتنا العاطفية لتلك المحاكاة. فمتلما ترى المخللة الأشياء مسبقا، فهي تشعر بها مسبقا أيضا (175).



رسم رقم 11. إن الشعور (أعلى) والشعور المسبق (أسفل) كلاهما يحصل على المعلومات من المنطقة البصرية، لكن المنطقة البصرية تستقي المعلومات من مصادر مختلفة.



قوة الحدس

إن الشعور المسبق يسمح لنا غالبا بأن نتوقع مشاعرنا بطريقة أفضل مما يفعل التفكير

المنطقي. ففي إحدى الدراسات، قدّم بعض الباحثين إلى عدد من المتطوعين استنساخاً للوحة انطباعية أو ملصق فكاهي عن صورة كرتونية لهز(176). ثم طلب من بعضهم، قبل أن يقرّروا ماذا يختارون، أن يفكروا بصورة منطقية في السبب الذي قد يدفعهم إلى الإعجاب بكلتا الصورتين أو النفور منهما (المفكرين). بينما أسجّحت آخرون على أن يختاروا بسرعة و«عن طريق الحدس» (غير المفكرين). يخبرنا المستشارون المهنيون والمستشارون الماليون دائماً أنه يجب علينا أن نفكر طويلاً وملياً إذا كنا نرغب في اتخاذ قرارات صائبة، لكن عندما اتّصل الباحثون بالمتطوعين لاحقاً وسألوهم إلى أي حدّ أحبوا تحفتهم الفنية الجديدة، كان المفكرون أقلّ شعوراً بالرضا. وبدلاً من اختيار الصورة التي جعلتهم يشعرون بالسعادة عندما تخيلوها معلقة في بيوتهم، تجاهلوا شعورهم المسبق واختاروا عوضاً عن ذلك الصور التي تمتلك الخصائص التي سيوافق عليها المستشار المهني والمستشار المالي (فالأخضر الزيتي في لوحة «موني» قد لا يتماشى مع الستائر، بينما رسم غاردفيلد قد يشير إلى الزائرين بأنني أملك روح الدعابة والظرف). صدّق غير المفكرين، من الناحية الأخرى، شعورهم المسبق: فتخيلوا الصورة على الجدار ولاحظوا كيفية شعورهم عند فعل ذلك وافترضوا أنه إذا كان تخيل الصورة على جدارهم قد منحهم شعوراً مريحاً، فمن المحتمل أن رؤيتها فعلياً على جدارهم ستمنحهم نفس الشعور. وكانوا على حقّ. مكّن تصديق غير المفكرين شعورهم المسبق من التنبؤ بالشعور بالرضا في المستقبل على نحو أكثر دقّة من المفكرين. وفي الحقيقة، عندما يُمنع الأشخاص من الشعور بعاطفة ما في الحاضر يصبحون عاجزين بشكل مؤقت عن التنبؤ بشعورهم في المستقبل(177).

لكنّ الشعور المسبق له حدود، فكيفية شعورنا عندما نتخيل شيئاً ما لا تدلنا دائماً الدلالة الكافية على كيفية شعورنا في المستقبل عندما نرى ذلك الشيء أو نسمعه أو نرتديه أو نملكه أو نفوده أو نأكله أو نقبله. مثلاً: لماذا تغمض عينيك عندما تريد تصوّر جسم ما ولماذا تضغط بأصابعك على أذنيك عندما ترغب في تذكّر لحن أغنية معينة؟ إنك تقوم بهذه الأشياء لأنّ على دماغك أن يستخدم قشرته البصريّة والسمعية لإنجاز أفعال تخيلية بصريّة وسمعية، وإذا كانت هذه المناطق مشغولة مسبقاً بما تنجزه من أدوار رئيسية لا سيما، رؤية أشياء وسماعها من العالم الواقعي من العالم الواقعي- فعندها لا يتسنى لها إجراء أفعال الخيال هذه(178). فأنت لا تستطيع تخيل بطريق عندما تكون مشغولاً بتفحص نعامة لأنّ البصر يستخدم أصلاً تلك الأجزاء من دماغك التي تحتاجها المخيلة. بعبارة أخرى، عندما نطلب من أدمغتنا أن تنظر إلى شيء حقيقي وشيء آخر خيالي في الآن ذاته، فهي تستجيب للطلب الأوّل وترفض الثاني. إذ تعتبر

الأدمغة أن إدراك الواقع، واجبها أولاً وقبل كل شيء، لذلك فطلبك استعارة القشرة البصرية لبرهة مرفوض بوضوح وإيجاز. وإذا لم يكن للدماغ مبدأ «الواقع يأتي أولاً» هذا، فستجد نفسك تواصل القيادة مخترقاً إشارة الضوء الأحمر إذا حدثت وكنت تفكر في الضوء الأخضر. إن المبدأ الذي يجعل تخيل البطريق صعباً أثناء مشاهدتنا النعامة هو المبدأ ذاته الذي يجعل تخيل الشهوة صعباً أثناء الشعور بالقرف وبالحب أثناء الشعور بالغضب، أو بالجوع أثناء الشعور بالشبع. إذا حطم صديق سيارتك ثم عرض عليك تعويضاً بأخذك إلى مباراة البايستبول الأسبوع المقبل، فسيكون دماغك مشغولاً جداً بحادث السيارة على نحو يجعله غير قادر على محاكاة استجابة عاطفية تجاه المباراة. فقد تطلب الأحداث المستقبلية الاطلاع على المناطق العاطفية من أدمغتنا، لكن غالباً ما يكون للأحداث الآتية الحق في العبور إليها.

حدود الشعور المسبق

لا يمكننا رؤية شيئين أو الشعور بهما في الآن ذاته، وللدماغ أولويات مشددة بشأن ما سيرى وما سيسمع أو ما سيشعر وما سيتجاهل وغالباً ما تُرفض مطالب المخيلة. فكلما النظامين الحسي والعاطفي ينفذ هذا المبدأ، ومع ذلك، يبدو أننا ندرك متى ترفض الأنظمة الحسية مطالب المخيلة لكننا نخفق في إدراك متى يقوم النظام العاطفي بذلك. فعلى سبيل المثال، إذا حاولنا تخيل بطريق أثناء النظر إلى نعامة، لن يسمح مبدأ الدماغ بذلك. نحن نفهم هذا، وهكذا لا نشعر بالاضطراب قط أو لا نخطئ في استنتاج أن الطائر الكبير ذا الرقبة الطويلة الذي نحن بصدده النظر إليه هو، في الحقيقة، البطريق الذي نحاول تخيله. إن التجربة البصرية التي تنتج عن سيل المعلومات التي تتبع من العالم تسمى: الرؤية أو الإبصار؛ أما التجربة البصرية التي تنتج عن سيل المعلومات التي تتبع من الذاكرة فتسمى صورة ذهنية؛ ورغم أن كلتا التجريبتين تنشأ في القشرة البصرية، فمن البديهي ألا نخلط بينهما (179) ومن السمات المميزة للتجربة البصرية أننا نستطيع غالباً معرفة إذا كانت نتاج شيء حقيقي أو متخيل. لكن ذلك لا يحدث مع التجربة العاطفية. فتلك التجربة التي تنتج عن سيل من المعلومات التي تنبثق من العالم تسمى شعوراً؛ أما التجربة العاطفية التي تنتج عن سيل من معلومات تنبثق من الذاكرة فتسمى شعوراً مسبقاً؛ ومع ذلك فالخلط بينهما يبدو أمراً شائعاً للغاية.

مثلاً، ورد في إحدى الدراسات أن بعض الباحثين اتصلوا هاتفياً بأشخاص في عدة مناطق من البلاد وسألوهم عن مدى شعورهم بالرضا حيال حياتهم (180). عندما تخيل الأشخاص، الذين يقطنون في مدن صادف وأن كان طقسها في ذلك اليوم جميلاً، حياتهم، قالوا إنها سعيدة نسبياً، لكن عندما تخيل الأشخاص، الذين يعيشون في مدن حدث أن كان طقسها في ذلك اليوم

سينا، حياتهم، قالوا إنها حياة تعيسة نسبيا. حاول هؤلاء الأشخاص الإجابة عن سؤال الباحث من خلال تخيل حياتهم ثم سؤال أنفسهم عن كيفية شعورهم عند القيام بذلك. لقد فرضت أدمغتهم مبدأ الواقع يأتي أولا وأصرت على التفاعل مع الطقس الحقيقي بدلا من الحيوانات المتخيلة. لكن يبدو أن هؤلاء الأشخاص لم يدركوا كون أدمغتهم هي من تقوم بذلك وهكذا فقد أخطؤوا في الاعتقاد بأن المشاعر التي تبتثق عن الواقع هي المشاعر المسبقة التي تولدها المخيلة.

وفي نفس السياق، ورد في دراسة أخرى أن مجموعة من الباحثين طلبوا من الأشخاص الذين يتمرنون في قاعة رياضة محلية أن يتنبؤوا بشعورهم لو ضلوا طريقهم أثناء تجوالهم في المرتفعات وكانوا مضطرين لقضاء الليلة في الغابة بلا أكل وشرب (181). وطلب منهم أن يتنبؤوا على وجه الخصوص إن كان شعورهم بالجوع أو العطش سيكون هو الأمر الأكثر سوءا. بعض الأشخاص تنبؤوا بها فور انتهائهم من التمرن على جهاز المشي (مجموعة العطشى) والبعض الآخر قاموا بعملية التنبؤ قبل التمرن على الجهاز (مجموعة غير العطشى). أثبتت النتائج أن 92 بالمائة من الأشخاص في المجموعة الأولى تنبؤوا بأن الشعور بالعطش سيكون أسوأ من الشعور بالجوع لو ضلوا طريقهم في الغابة، لكن 62 بالمائة فقط من الأشخاص في المجموعة الثانية تنبؤوا بالشئ نفسه. يبدو إذن أن الأشخاص الذين كانوا يشعرون بالعطش حاولوا الإجابة عن سؤال الباحث عبر تخيل أنهم ضلوا طريقهم في الغابة دون أكل ولا ماء ثم سألوا أنفسهم كيف كانوا سيشعرون لو حدث ذلك، لكن أدمغتهم فرضت مبدأ الواقع يأتي أولا وأصرت على الاستجابة للتمرين الحقيقي بدلا من التجوال المتخيل في المرتفعات. ولأن هؤلاء الأشخاص لم يدركوا أن أدمغتهم كانت تقوم بذلك، فقد خلطوا بين مشاعرهم الحالية ومشاعرهم المسبقة التي تنبؤوا بها.

من المحتمل أنك عشت اللغز ذاته عندما مررت بيوم مريع- حيث تبول الهز على السجاد وتبول الكلب على الهر وتعطلت آلة الغسيل وألغيت مباراة المصارعة وبثت مسرحية عوضا عن ذلك-وكنت بطبيعة الحال تشعر أنك في مزاج سيء. إذا حاولت في تلك اللحظة أن تتخيل مدى استمتاعك بلعب الورق مع أصدقائك في مساء اليوم التالي، فقد تخطى في إسقاط مشاعر تسبب فيها سوء سلوك حيوانات أليفة حقيقية وأجهزة حقيقية («أشعر بالانزعاج») على رفاقك المتخيلين («لا أعتقد أنني سأذهب لأن نيك يثير غضبي دائما»). في الواقع، إن من سمات الاكتئاب أن الأشخاص المصابين به عندما يفكرون في الأحداث المستقبلية من قبيل قضاء عطلة أو قضة حب أو أمسية في المدينة، لا يستطيعون تخيل أنهم سيحبونها كثيرا (182).

فتكون إجابتهم: «لا شكرا، سأظل هنا في العتمة». وهو ما يثير السأم لدى أصدقائهم من رؤيتهم يفرقون في اليأس، ومن إخبارهم بأن هذا سيمز وبأن الفجر سيزغ في آخر النفق وبأن الجميع سيحظى بحياة جيدة يوما ما. لكن من وجهة نظر المكتئب، يبدو كل ذلك اليأس منطقيًا لأنه يجد صعوبة في الشعور بالسعادة لدى تخيله المستقبل ومن ثمة، في الإيمان بأنه سيحظى بالسعادة غدا.

فنحن لا نستطيع أن نشعر بالارتياح إزاء مستقبل خيالي عندما نكون منشغلين بالشعور بالأسى في الحاضر الفعلي. لكن رغم ذلك، بدلا من إدراك أن هذا حدث نتيجة لمبدأ «الواقع يأتي أولا» الذي لا مناص منه، فنحن نخطئ في افتراض أن حدثا ما في المستقبل هو سبب التعاسة التي نشعر بها عندما نفكر فيه. فيبدو اضطرابنا جليا لأولئك الذين يقفون جانبا، لا علاقة لهم بما نشعر مرددين أشياء من قبيل «إنك تشعر بالإحباط الآن لأن أباك كان ثملا وسقط من الشرفة أو لأن أمك دخلت السجن بسبب ضربها أبيك، أو لأن شاحتك الصغيرة صودرت- لكن كل شيء سيبدو مختلفا الأسبوع المقبل وستتمنى لو أنك قررت اصطحابنا إلى الأوبرا». في وقت ما ندرك أن أصدقاءنا كانوا ربما على حق. ومع ذلك، عندما نحاول التغافل أو تجاهل حالة الكآبة تلك التي نعيشها أو وضعها جانبا ونتنبأ بشعورنا في يوم الغد، نشعر بأن ذلك يشبه إلى حد بعيد تخيل طعم حلوى المارشيلو بينما نحن بصدد مضغ الكبد(183). من الطبيعي تماما أن نتخيل المستقبل أولا ثم نفكر في شعورنا بعد ذلك، لكن لأن أدمغتنا مصرة على الاستجابة إلى الأحداث الحالية، فنحن نخطئ في استنتاج أننا سنشعر غدا كما نشعر اليوم.

إلى الأمام

ظللت أنتظر وقتا طويلا جدا حتى أعرض على أحدهم هذا الكاريكاتير (رسم رقم 12)، الذي قصصته من صحيفة سنة 1983 وعلقته على إحدى لوحات الإعلانات منذ ذلك الوقت. فهو ينفك يمنحني شعورا بالبهجة. ظلم من الإسفنج أن يتخيل دون حدود أن يتصور ما يرغب فيه لو كان العالم مفتوحا أمامه بكامل إمكاناته- فكان أغرب شيء استطاع تخيله هو أن يصبح أحد مفصليات الأرجل. لم يكن رشام الكاريكاتير يسخر من الإسفنج، بالطبع؛ بل منا نحن. فكل واحد منا عالق في مكان ما أو زمان ما أو ظرف ما وفي غالبية الأحيان تكون محاولتنا استخدام عقولنا لتجاوز تلك العقبات بلا جدوى، فنحن نشبه الإسفنج في اعتقادنا أننا نفكر خارج الصندوق فقط لأننا لا نستطيع إدراك حجم الصندوق حقا. إن المخيلة عاجزة عن تجاوز عقبات الحاضر بسهولة وأحد الأسباب يكمن في أنه عليها استعارة الآلية التي يمتلكها الإدراك. إن حقيقة أن على هاتين العمليتين أن تشتغلا بنفس النظام تعني أن نحتار أحيانا أي منهما بصد

الاشتغال. نحن نفترض أن ما نشعر به عند تخيلنا للمستقبل هو ما سنشعر به عندما نصل إلى هناك، لكن في الواقع، ما نشعر به ونحن نتخيل المستقبل هي غالبا ردة فعل على ما يحدث في الحاضر.

Animal Crackers



رسم رقم 12

إن تجزئة الوقت فيما بين الإدراك والتخيل هي أحد أسباب الحاضرة، لكنه ليس السبب الوحيد. فإذا كنت لا تزال في انتظار وصول قطارك إلى المحطة، أو إذا لم تكن مستعدًا بعد لإطفاء النور والخلود إلى النوم، أو إذا لم يحدجك العاملون بمقهى ستارياكس بنظرات الغضب بينما يمسحون الأرضية، فلنستعرض سببا آخر.

الفصل السابع

قنابل الزمن

«رغم ذلك لا تدع شفتيك تكتظان بالشبع البغيض،

بل جوع الشفتين مهما عشت في رغد عريض،

ثم اصبغهما بالشحوب والاحمرار، بشئى أنواع التغيير

فعشر قبلات قصار، كواحدة، وواحدة طويلة كعشرين

إن يوم الصيف يبدو ساعة، بل أقصر،

إن قضيانه في لعب ولهو كهذا».

شكسبير، فينوس وأدونيس

لا أحد سبق له أن شهد عبور سيارة تخييم طائرة «وينياجو» لكن الجميع شهد عبور الوقت. لماذا إذن تخيل الأولى رغم ذلك أسهل بكثير من تخيل الثانية؟ لأنه على عكس ما يبدو، يمكن لسيارة ترفيه بوزن عشرين ألف رطل أن تبلغ ارتفاعا بالقدر الكافي لنقلها جوا، وهكذا فلن يكون من الصعب علينا أن نتج صورة ذهنية عنها. إن موهبتنا الفذة في خلق صور ذهنية عن أشياء محسوسة هي أحد الأسباب التي تفسر سر عملنا بفعالية كبرى في العالم المادي (184). فإذا تخيلت مثلا حبة جريب فروت فوق الوعاء الدائري لثريد الشوفان ثم تخيلت أن الوعاء مال بعيدا عنك، فبإمكانك فعلا معاينة حبة الجريب فروت لدى سقوطها ورؤيتها تسقط نحوك إذا أملت الوعاء بسرعة وبعيدا عنك أكثر مما لو أملته ببطء. مثل هذا التخيل يمكنك من التفكير في الأشياء التي تتخيلها فتحل المشاكل المهمة في العالم الواقعي كأن تحصل على حبة جريب فروت متى شئت ذلك. لكن الزمن ليس حبة جريب فروت، فهو بلا لون ولا شكل ولا حجم ولا بنية، لا يمكن وخزه ولا تقشيريه ولا دفعه ولا طلاؤه ولا اختراقه. فالزمن ليس جسما بل شيء مجرد غير قابل للتخيل. لذلك يضطر صناع الأفلام لتجسيد مرور الوقت باعتماد بعض الحيل التي تتضمن أجساما مرئية مثل أوراق اليومية المتطايرة في مهب الريح أو الساعات الدائرة بسرعة الضوء. ومع ذلك، فالتنبؤ بمستقبلنا العاطفي يحتاج منا التفكير في مساحات واسعة من الزمن وحولها وعبرها. فإذا لم يكن بإمكاننا خلق صورة ذهنية عن مفهوم مجرد كمفهوم الزمن، كيف لنا إذن أن نفكر فيه؟

عندما يرغب الناس في التفكير بشيء مجرد، فهم يميلون إلى تخيل شيء محسوس يشبهه ثم يفكرون فيه بدلا من ذلك (185). فبالنسبة لمعظمنا، يمثل الفضاء الشيء المحسوس الذي يشبه الزمن (186) حيث تكشف الدراسات أن الناس في العالم بأسره يتخيلون الزمن كما لو أنه بعد مكاني، ولذلك فنحن نقول إن الماضي وراءنا والمستقبل أمامنا، وإنما نتجه نحو الشيخوخة ونعود بذاكرتنا إلى الطفولة، والأيام تمضي بنا مثلما قد تفعل مركبة التخييم الطائرة. نحن نفكر ونتكلم كما لو كنا فعلا نبتعد عن الأمس الموجود هناك في اتجاه غد يقع في الجهة المقابلة تماما، على بعد حوالي 180 درجة. عندما نرسم خطا زمنيا، يضع أولئك الذين يتكلمون الانجليزية الماضي على يسارهم ويضعه أولئك الذين يتكلمون العربية على يمينهم (187)، وأولئك الذين يتكلمون لغة الماندرين (الصينية) في الأسفل (188) لكننا جميعا، بقطع النظر عن لغتنا الأم، نضع الماضي في مكان ما - والمستقبل في مكان آخر. في الحقيقة، عندما نرغب في إيجاد حل لمشكلة تخض الزمن- مثلا: «إذا تناولت فطور الصباح قبل أن آخذ الكلب في نزهة لكن بعد أن قرأت الصحيفة، فأني من هذه الأشياء قمت بها أولا؟»- يتخيل معظمنا وضع الأشياء الثلاثة (فطور الصباح، الكلب، الصحيفة) في خط منظم ثم يتحقق من رؤية أي منها أبعد يسارا (أو يمينا أو نحو الأسفل، وذلك حسب اللغة التي نتكلمها). إن الاستدلال بواسطة المجاز طريقة عبقرية تمكنا من معالجة نقاط ضعفنا من خلال الاستفادة من نقاط قوتنا- وذلك باستخدام أشياء بإمكاننا تصورها من أجل التفكير بأشياء لا يمكن تصورها والتحدث عنها والاستدلال عليها.

لكن المجاز مع الأسف، قد يخدعنا مثلما قد يدلنا على الطريق وتقوم نزعتنا نحو تخيل الزمن كبعد مكاني بكلا هذين الشينين. مثلا، تخيل أنك تمكنت صحبة صديق لك من الحجز في مطعم مرموق بعد انتظار دام ثلاثة أشهر على قائمة الانتظار وأنكما بعد أن تصفحتما قائمة الطعام اكتشفتما أنكما ترغبان في تناول طبق الحجل المغطى بالواسابي. وبما أنكما تملكان الكياسة الاجتماعية اللازمة لتدركا أن طلب نفس الوجبة في مطعم رائع شيء سخيف يضاهاي تقريبا ارتداء قبعتين متطابقتين على شكل أذني فأر في حجرة الطعام الرئيسية، فقد قررتما بدلا من ذلك أن يطلب أحدهما الحجل بينما يطلب الآخر حساء لحم الغزال ثم تتقاسمان الطعام كما جرت العادة. لكنكما لم تقوما بذلك لتجنب اعتباركما سائحين على وجه الخطأ، بل لأنكما أيضا تؤمنان بأن التنوع ملح الحياة. في الحقيقة، لو شئنا قيس متعتكما بعد تناول الوجبة، فمن المحتمل أن نكتشف أنك وصديقك أكثر سعادة بتقاسم الطعام مفا لو طلب كل منكما طبق

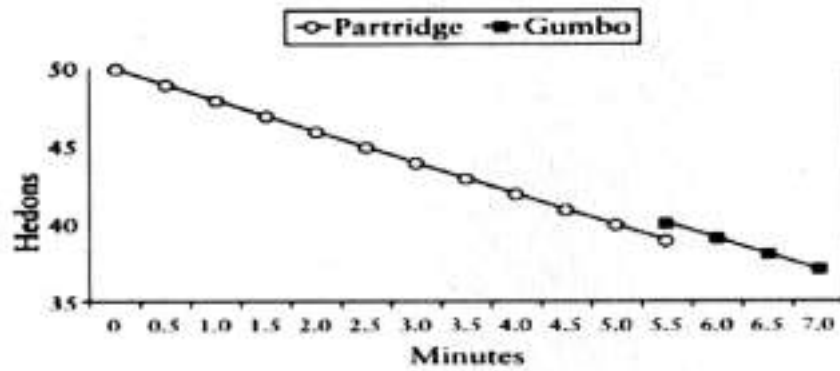
لكن سيكون من الغرابة أن يشمل هذا المشكل الزمن. تخيل أن مدير المطعم أعجب كثيرا بطعمك الراقى فدعاك (لكن للأسف، لم يدع صديقك، الذي يحتاج حقا إلى مظهر جديد) إلى العودة كل يوم إثنين من كل شهر من السنة المقبلة للاستمتاع بوجبة مجانية في أفضل طاولة لديه ولأن المطبخ قد يفتقر إلى بعض المكونات من حين إلى آخر، فقد طلب منك صاحب المطعم أن تقرّر الآن ما ترغب في تناوله في كل زيارة حتى يستعدّ تماما للاحتفاء بك بالأسلوب الذي سرعان ما ستعتاد عليه. تتفحص قائمة الطعام مرّة أخرى، فتجد على اللائحة لحم الأرنب لكنك لا تحبه وليس من اللائق كذلك أكل لحم العجل ولست مكرثا بأكل اللازانيا النباتية، لذلك تقرّر أن ثمة أربعة أطباق فحسب تؤجج شهيتك المتزايدة وهي لحم الحجل ولحم الغزال وسمك الدنيس الأسود وريزوتو السمك بالزعفران. من الواضح أن لحم الحجل هو المفضل لديك وأنت ترغب في طلب اثني عشر طبقا منه دون طلب أي شيء آخر، لكن ذلك سيدلّ على الفظاظة وعدم التهذيب وأكثر من ذلك ستفتقر إلى التنوع. لذلك طلبت من مدير المطعم أن يعدّ لك لحم الحجل كل شهرين وأن يملأ بقية الوجبات بالتساوي بين حساء لحم الغزال وسمك الدنيس والريزوتو. قد تكون أنيق الملبس، يا صديقي، لكن عندما يتعلّق الأمر بالأكل، فأنت في مأزق (189). درس الباحثون هذه التجربة عبر دعوة بعض المتطوّعين إلى المخبر لتناول وجبة خفيفة مرّة في الأسبوع لعدّة أسابيع متتالية (190). ثم طلب من بعضهم (الذين يختارون) أن يختاروا كل وجباتهم سلفا، وتماما مثلما فعلت أنت- اختاروا مقدارا متنوعا من الوجبات الصحية. بعد ذلك، طلب الباحثون من مجموعة جديدة من المتطوّعين أن يأتوا إلى المختبر مرّة في الأسبوع، عدّة أسابيع متتالية وأطعموا البعض منهم وجبتهم المفضّلة في كل مرّة (مجموعة عدم التنوع) والبعض الآخر وجبتهم المفضّلة في أغلب المناسبات وثاني وجبة مفضّلة لديهم في مناسبات أخرى (مجموعة التنوع). عندما قاسوا نسبة رضا المتطوّعين على مدى فترة الدراسة، اكتشفوا أن متطوّعي مجموعة عدم التنوع كانوا أكثر رضا من متطوّعي مجموعة التنوع. بعبارة أخرى، جعل التنوع الناس أقلّ سعادة لأكثر الآن، انتظروا لحظة- تفوح هنا رائحة شيء مريب ولا علاقة لسمك الدنيس بالأمر. كيف للتنوع أن يضفي طعما على الحياة عندما يجلس أحدهم صحبة صديق في مطعم فاخر بينما يصبح لعنة تلاحق أحدهم حينما يطلب وجبات خفيفة على مدار أسابيع متتالية؟

من بين قوانين الحياة الأشدّ قسوة أن الأشياء الرائعة هي رائعة روعة خاصة حينما تحدث للمرة الأولى لكن روعتها تتلاشى عند التكرار (191). قارني فقط بين أول مرة وآخر مرّة قال

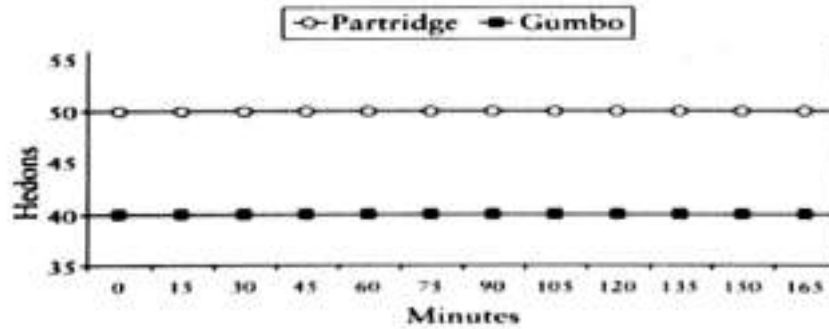
لك فيهما طفلك «ماما» أو قال لك شريكك «أحبك» وستعرفين قصدي تماما. عندما نمز بتجربة ما - كسماع سوناتا معينة أو نشاهد غروب الشمس من نافذة بعينها من حجرة محددة- مرارا، نشعر في التأقلم معها وتمنحنا التجربة متعة أقل في كل مرة. يسقى علماء النفس هذا التعود، ويسميه علماء الاقتصاد «تراجع الفائدة الهامشية»، بينما نسميه نحن الزواج. لكن البشر اكتشفوا وسيلتين تمكنهما من مجابهة هذه النزعة، هما الزمن والتنوع. فأحدى الطرق التي تتغلب على التعود هي زيادة تنوع تجارب الفرد (هاي حبيبتني، لدي فكرة مثيرة- دعينا نشاهد غروب الشمس من المطبخ هذه المرة)(192). ثفة طريقة أخرى للتغلب على التعود تتمثل في الزيادة من المدة الزمنية التي تفصل بين التجارب المتكررة. ففرع كؤوس الشمبانيا وتقبيل الشريك عندما تدق الساعة منتصف الليل تصبح عملية مضجرة إذا حدثت كل مساء، لكن لو نقوم بها ليلة رأس السنة ثم نترك سنة كاملة تمر قبل أن نفعلها من جديد، ستمنحنا التجربة باقة من البهجة اللامتناهية لأن سنة وقت طويل كفيلا بأن تختفي خلاله آثار التعود. إن المقصود هنا أن الزمن والتنوع طريقتان لتجنب التعود، وإذا حصلت على إحداها فلا حاجة لك بالأخرى. في الواقع عندما تكون الحلقات منفصلة بالزمن، لا يصبح التنوع بلا جدوى فقط- بل قد يكون في الحقيقة حتى مكلفا.

يمكنني أن أوضح هذه الحقيقة بدقة إذا سمحت لي بوضع بعض الافتراضات. أولا، تخيل أن باستطاعتنا استعمال آلة تسمى hedonemeter (مقياس المتعة) لقيس متعة الفرد بواسطة وحدات قيس السعادة hedons. لنبدأ بافتراض التفضيل: لنفترض أن أول قضة من لحم الحجل تمنحك، لنقل، خمسين وحدة سعادة، بينما أول قضة من لحم الغزال تمنحك أربعين وحدة، وهذا هو معنى أن تفضل لحم الحجل على لحم الغزال. ثانيا، نسبة التعود: لنفترض أننا بمجرد أخذ قضة من الوجبة، تمنحنا كل قضة تلي الأولى من نفس الوجبة، مثلا، كل عشر دقائق وحدة سعادة أقل من القضة التي سبقتها. أخيرا، نسبة الاستهلاك: لنفترض أنك تأكل عادة بوتيرة سرعة قضة واحدة كل ثلاثين ثانية. يظهر لك الرسم رقم 13 ما يصيب شعورك بالمتعة إذا قمنا بهذه الفرضيات عن التفضيل وعن نسبة التعود وعن نسبة الاستهلاك. كما ترون فإن أفضل طريقة للوصول إلى قدر أكبر من المتعة في هذه الحالة تحدث عن طريق البدء بتناول لحم الحجل ثم الانتقال إلى لحم الغزال بعد قضم عشر قضات (وهو ما يحدث بعد عشر دقائق). لماذا الانتقال؟ لأن القضة الحادية عشر للحجم الحجل (في الدقيقة 5.5) ستجلب لك، كما تشير الخطوط، تسعا وثلاثين وحدة من المتعة فحسب، بينما قضة من لحم الغزال الذي لم تكن قد تذوقته بعد ستمنحك أربعين وحدة. إذن فهذه هي النقطة المحددة من الوجبة التي عندها يجب عليك وعلى صديقك أن تتبادلا الأطباق والمقاعد(193). لكن الآن الق نظرة

على الرسم رقم 14 ولاحظ كيف تغيرت الأمور على نحو جذري لفا باعدنا بين فترات تذوق الطعام عن طريق تغيير نسبة استهلاكك. فحينما تتباعد قضماتك بمدة زمنية تتجاوز العشر دقائق (في هذه الحالة، خمس عشرة دقيقة) عندها يتوقف التعود عن الحدوث، مما يعني أن كل قضة هي بنفس لذة الأولى وقضة لحم الغزال أفضل حتى من قضة من لحم الحجل. بعبارة أخرى، إذا كان بإمكانك أن تأكل بالبطء اللازم فلن يكون التنوع أمرا ضروريا، بل سيكون بالفعل مكلفا لأن قضة من لحم الغزال ستمنحك دوما متعة أقل من قضة أخرى من لحم الحجل.



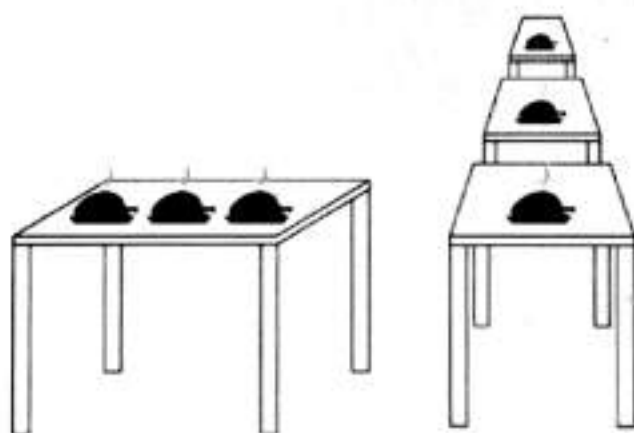
رسم رقم 13. يزيد التنوع من مقدار المتعة متى كان الاستهلاك أسرع.



رسم رقم 14. يقلص التنوع من مقدار المتعة متى كان الاستهلاك أبطأ.

الآن، عندما تجلس صعبة صديقك في المطعم المتخيل وتطلبان طبقين لتناولهما على نحو متزامن، فأنتما تعلمان بأنه لن يكون لديكما متسع من الوقت بين قضة وأخرى، لذلك تطلبان بعض التنوع لتضيفا نكهة على الأشياء. حسنا، هذا قرار صائب، لكن عندما طلب منك مدير المطعم أن تطلب سلسلة من الوجبات مقدما، طلبت التنوع أيضا. لماذا طلبت التنوع رغم أنه لديك متسع من الوقت؟ عليك أن تلوم الاستعارة المكانية (انظر الرسم رقم 15). لقد فكرت في

الأطباق التي تفصل بينها مدة زمنية من خلال تخيل أطباق تفصل بينها بعض البوصات على طاولة واحدة، لهذا افترضت أن ما هو صحيح بالنسبة إلى الأطباق التي يفصل بينها الفضاء يعد صحيحا بالنسبة إلى الأطباق التي تفصل بينها مسافة زمنية وحينما تفصل بين الأطباق مسافة، فمن المنطقي تماما البحث على التنوع. في النهاية، من ذا الذي يرغب في الجلوس على طاولة عليها إثنا عشر طبقا متماثلا من لحم الحجل؟ نحن نرغب في رؤية عذة عينات من أطباق مختلفة وأطباق مشكلة من المقبلات المتكوّنة من قطع اللحم الصغيرة وفواكه البحر وبوفي بكل المأكولات التي تستطيع تناولها لأننا نرغب في -وعلينا أن نكون كذلك- التنوع ضمن الخيارات التي سنجزئها في فترة واحدة. تكمن المشكلة في أنه عندما نفكر من خلال الاستعارة بائنتي عشرة وجبة متتالية خلال إثني عشر شهرا متتاليا كما لو كان إثني عشر طبقا مرتباً على طاولة ممتدة أمامنا، فنحن نخطأ في التعامل مع الخيارات المتتالية كما لو كانت خيارات متزامنة، وهذا خطأ لأنّ هناك وقت أصلا بين البدائل المتعاقبة، وهكذا فالتنوع يجعل منها أقل متعة بدلا من العكس.



رسم رقم 15. الاستهلاك المتزامن (على اليسار) والاستهلاك المتعاقب (على اليمين).

البدء الآن

من الصعب تخيل الزمن، لذلك نحن نتخيله أحيانا بعدا مكانيا وفي بعض الأحيان الأخرى لا نتخيله مطلقا. مثلا، حين نتخيل أحداثا مستقبلية، نتصنّف صورنا الذهنية، الأشخاص والأماكن والكلمات والأفعال التي لها علاقة بتلك الأحداث، لكنها نادرا ما نتصنّف إشارة واضحة إلى الزمن الذي تكلم خلاله الأشخاص وتصرفوا في تلك الأماكن. فعندما نتخيل أننا نكتشف خيانة شريكنا ليلة رأس السنة، لا تختلف صورنا الذهنية كثيرا عن تلك ونحن نكتشف الخيانة في عيد البوريم (Purim) أو عيد الهالووين أو عيد الفصح. في الحقيقة، تتغير الصورة الذهنية عن إيجاد

زوجك/تك في السرير صعبة ساعي البريد ليلة رأس السنة جذرنا عندما تضع الحلاق مكان زوجك/تك، أو المحادثة مكان السرير، لكنها بالكاد تتغير عندما تعوض ليلة رأس السنة ب عيد الشكر. في الواقع، من المستحيل تقريبا تعويض الأمرين لأنه لا شيء، مع الأسف، سيتغير في الصورة الذهنية. إذ أننا نستطيع تفحص صورة ذهنية ورؤية من يفعل ماذا وأين، لكن ليس متى يفعلونه. عموما، الصور الذهنية لا تتأثر بالزمن (194) atemporal.

فكيف إذن نقرّر كيف سيكون شعورنا إزاء الأشياء التي ستحدث في المستقبل؟ الإجابة هي أننا نميل إلى تخيل كيفية شعورنا لو حدثت تلك الأشياء الآن، ثم بعد ذلك نأخذ في الاعتبار حقيقة أن الآن ولاحقا ليسا نفس الشيء بالضبط. مثلا، سل مراهقا ذا ميول جنسية طبيعية كيف سيشعر لو ظهرت أمام بيته الآن إحدى فانات Budweiser تتوّد إليه وهي مرتدية بيكيني وبحاجة ماسة إلى جلسة تدليك. ستكون ردة فعله واضحة، سيبتسم وستشع عيناه وسيقلص بؤبؤ عينيه وستحمز وجنتاه وستستجيب بقية الأجهزة لديه استجابة طبيعية. الآن لو سألت مراهقا آخر نفس السؤال بالتحديد معوضا عبارة الآن بـ بعد خمسين سنة، سوف تلاحظ نفس ردة الفعل الأولية تقريبا. في الحقيقة، بإمكانك لبرهة حتى أن ترتاب في أن المراهق الثاني يركّز تماما على الصورة التي في ذهنه للآلة حافية القدمين بشفتيها الممتلئتين والقرمزيتين دون أن يدرك فكرة أن هذا الحدث الخيالي من المفترض أن يحدث بعد نصف قرن من الآن. لكن، إمنحه بعض الوقت- لنقل بعض منات الأجزاء من الثانية وستلاحظ، بمرور منات الأجزاء من الثانية تلك، أن الحماس الذي انتابه في البداية تلاشى عندما فكّر في تاريخ الحدث المتخيل وأدرك أن للذكور المراهقين مجموعة من الاحتياجات بينما لأجدادهم احتياجات أخرى واستنتج على نحو صحيح أن الظهور البرقي للحورية المغرية من المحتمل ألا يكون مثيرا في سنواته الذهبية كما سيكون في حاضره الطافح بهرمونات الذكورة. إن لاندفاعه الأول ثم تراجعه إثرها عن ذلك دلالة هائلة إذ يحيل إلى فكرة أنه عندما طلب منه تخيل حدث في المستقبل، شرع يتخيل الحدث كما لو كان يدور في الحاضر وعندها فقط خطر له أن الحدث سيقع في المستقبل، أي عندما سيكون التقدم في السن قد أثر في بصره وشهوته الجنسية.

الآن، ما أهمية هذا؟ في نهاية التحليل، على أية حال، أدرك المراهق أن الآن لا تعني خمسة عقود من الآن، من ذا الذي قد يابه إذن إذا كان فكّر في ذلك بعد أن سلبت لُبه الصورة الذهنية لفتاة الإعلانات المصطنعة هذه. أنا من يهتم بذلك وأنت كذلك ينبغي عليك أن تهتم. فمن خلال تخيله أن الحدث يقع الآن ثم تصحيح ذلك بإدراكه أنه في الواقع سيحدث لاحقا، استخدم المراهق طريقة مألوفة للتقييم لكنها تؤدي حتما إلى ارتكاب الأخطاء (195). وحتى نفهم

طبيعة هذا الخطأ، لنلقي نظرة على دراسة ظلب فيها من بعض المتطوعين أن يخفّوا عدد الدول الإفريقية التي تنتمي إلى منظمة الأمم المتحدة (196). وبدلاً من الإجابة عن السؤال مباشرة، ظلب من المتطوعين أن يقوموا ببعض التقييمات باستخدام نظرية الاندفاع ثم التراجع، فظلب من بعضهم أن يجيبوا، كم سيكون العدد، لو كان أكثر أو أقل من عشرة وظلبت من البعض الآخر الإجابة عن ذلك، لو كان أكثر أو أقل من سئتين. بعبارة أخرى، فُح المتطوعون نقطة بداية عشوائية وظلب منهم تصحيحها حتى يبلغوا نقطة نهاية ملائمة- تماماً مثل المراهق الذي استخدم صورة امرأة جميلة في اللحظة الحاضرة نقطة بداية لحكمه (أنا متحمس للغاية!) ثم صححها ليصل إلى نقطة نهاية حكمه (لكن بما أنني سأكون في سن السادسة والسبعين عندما يحدث كل ذلك، فمن المحتمل ألا أكون بقدر الحماس الذي أنا عليه الآن).

إن الإشكال المتعلق بنظرية الإدلاء بالأحكام هذه، يكمن في أن نقاط البداية تؤثر بشكل عميق في نقاط النهاية. فالمتطوعون الذين بدؤوا بعشرة خفّوا أن هناك ما يقارب خمسة وعشرين بلداً إفريقياً في منظمة الأمم المتحدة، بينما المتطوعون الذين بدؤوا بستين خفّوا أن عدد البلدان يقارب خمسا وأربعين. لماذا اختلفت الإجابات هكذا؟ لأن المتطوعين شرعوا في أداء مهمتهم بسؤال أنفسهم إذا كان من المحتمل أن نقطة البداية هي الإجابة الصحيحة ثم أدركوا أن ذلك غير ممكن وانتقلوا ببطء نحو إجابة أكثر منطقية (لا يمكن أن يكون عشرة هو الرقم الصحيح. ماذا عن إثني عشر؟ كلا، لازال العدد منخفضاً جداً. أربعة عشرة؟ ربما خمس وعشرون؟) (197). لكن مع الأسف، تحتاج هذه العملية إلى الوقت والانتباه، لذلك فقد أصاب التعب المجموعة التي انطلقت برقم عشرة والمجموعة التي انطلقت برقم سئتين وتوقفوا عن ذلك قبل أن يلتقوا في المنتصف وهو ليس بأمر غريب كل الغرابة. فإذا سألت طفلاً أن يبدأ العد من الصفر وطفلاً آخر أن يعدّ نزولاً من المليون، ثق جداً في كونهما عندما يشعران أخيراً بالإرهاق ويتوقفان عن ذلك وينطلقان بحثاً عن البيض لرميه على باب مرآبك، سيكونان قد بلغا أرقاماً مختلفة للغاية ومن ثمة فنقاط البداية مهمة لأننا غالباً ما ننتهي إلى مكان قريب من النقطة التي انطلقنا منها.

عندما يتنبأ الناس بمشاعرهم في المستقبل وهم يتخيلون حدثاً قد يقع في المستقبل، كما لو أنه يقع في الحاضر. ثم يتفظنون إلى الزمن الفعلي لذلك الحدث، فهم يرتكبون الخطأ ذاته. مثلاً، في إحدى الدراسات، ظلب من بعض المتطوعين أن يتنبؤوا بدرجة استمتاعهم بتناول القليل من سباغيتي بولونيز صباح اليوم التالي أو ظهيرة اليوم التالي (198). كان البعض منهم جائعاً عند تنبؤهم، والبعض الآخر لم يكن كذلك. عندما تنبأ المتطوعون في ظروف مثالية، تنبؤوا

بأنهم سيستمعون بالسباغيتي في الظهيرة أكثر من استمتاعهم بها في الصباح، وكان لشعورهم بالجوع أثر طفيف على تنبؤاتهم بينما تنبأ البعض الآخر من المتطوعين في ظروف أقل مثالية، تحديدا أثناء اضطلاعهم بمهمة أخرى في الوقت ذاته وهي تحديد النغمات الموسيقية. أثبت البحث أن إنجاز مهمة تزامنا مع مهمة أخرى كهذه، يجعل الناس قريبين جدا من نقطة انطلاقهم. وبالفعل، لفا تنبأ المتطوعون أثناء تحديدهم النغمات الموسيقية، تنبؤوا بأنهم قد يرغبون في تناول السباغيتي في الصباح أو في الظهيرة على حد سواء. بالإضافة إلى أن شعورهم بالجوع كان له تأثير بالغ في تنبؤاتهم، فتوقع المتطوعون أنهم يرغبون في تناول السباغيتي في اليوم الموالي (بصرف النظر عن وقت الأكل) بينما توقع المتطوعون الذين يشعرون بالشبع أنهم لن يرغبوا في تناولها في اليوم الموالي (بصرف النظر عن وقت الأكل). إن هذا النمط من النتائج يشير إلى أن كل المتطوعين تنبؤوا عن طريق نظرية الاندفاع ثم التراجع: فتخيلوا في البداية درجة استمتاعهم بتناول السباغيتي في الحاضر («يم») إذا كانوا جائعين و«يع!» إذا كانوا يشعرون بالشبع) واستخدموا هذا الشعور المسبق نقطة انطلاق لتنبؤهم بمتع يوم الغد. ثم، مثلما صرح المراهق المفترض حكمه حين تفكيره المحتمل في أن يكون إعجابه الحالي بتلك الفتاة المغناج والرشيقة مختلفا بعد خمسين سنة، صرح المتطوعون كذلك أحكامهم بعد اعتبارهم الفترة من النهار التي سيتناولون أثناءها السباغيتي (ستكون السباغيتي على العشاء رائعة وماذا عن تناولها مع فطور الصباح؟ يع!). لكن المتطوعين الذين تنبؤوا تزامنا مع تحديدهم النغمات الموسيقية كانوا عاجزين عن تصحيح أحكامهم، وبذلك، كانت نقطة النهاية لديهم قريبة جدا من نقطة الانطلاق. فانطلاقنا عادة من مشاعرنا الحالية أثناء محاولتنا التنبؤ بمشاعرنا في المستقبل، يجعلنا نتوقع أن يكون شعورنا بالمستقبل أكثر شبها بالحاضر مما سيكون عليه فعليا(199).

أقرب إلى اللاشيء

إذا لم تكن لديك مواهب خاصة أو عاهات مثيرة للاهتمام لكثك لازلت تكن رغبة خفية في الدخول لسجلات غينيس العالمية، فهناك ما يمكنك أن تجزبه: إذهب إلى مكتب رئيسك في العمل صباح يوم الاثنين وقل له: «لقد بدأت العمل في هذه الشركة منذ فترة، وأعتقد أن أدائي كان ممتازا وأرغب في خصم خمسة عشر بالمائة من راتبي...رغم أنه يمكنني أن أقبل بعشرة بالمائة إذا كان هذا كل ما تستطيع الشركة خصمه الآن». سيثير هذا اهتمام العاملين في غينيس لأن التاريخ الطويل والجذلي للعلاقات في العمل، لم يشهد أبدا طلب أي كان خصما من راتبه. في الحقيقة يكره الناس أن يخصم من رواتبهم، لكن البحث يشير إلى أن السبب الذي يجعلهم

يكرهون الخصم من الأجر ليس له علاقة وثيقة بجزء الأجر بل له تمام الصلة بجزء الخصم. مثلا، عندما طلب من بعض الأشخاص إن كانوا يفضلون الحصول على عمل ويتقاضون \$ 30.000 في السنة الأولى و\$ 40.000 في السنة الثانية و\$ 50.000 في السنة الثالثة أو على عمل يتقاضون فيه \$ 60.000 في السنة الأولى ثم \$ 50.000 في السنة الثانية ثم \$ 40.000 في السنة الثالثة، بوجه عام كانوا يفضلون العمل الذي ترتفع فيه أجورهم من سنة إلى أخرى، رغم أنهم سيحصلون على مال أقل على مدار السنوات الثلاث (200). هذا أمر مثير للفضول. لماذا يكون الناس مستعدين لتخفيض دخلهم الإجمالي في سبيل تجنب التعرض لتجربة الخصم من الأجر؟

المقارنة بالماضي

إذا غفوت ذات ليلة وسط صخب التلفاز بينما أيقظك في ليلة أخرى وقع خطوة واحدة، فأنت تعرف الإجابة مسبقا. إن الدماغ البشري لا يتأثر تحديدا بالحجم المطلق للتحفيز، بل يتأثر على نحو استثنائي بالاختلافات والتغيرات - أي بالحجم النسبي للتحفيز. لو وضعت، على سبيل المثال، عصا على عينيك وطلبت منك أن تمسك بيدك قطعة خشبية، فهل يمكنك أن تعرف إذا كنت قد وضعت فوقها علبة من العلكة أم لا؟ الإجابة الصحيحة هي: «هذا يعتمد على شيء آخر» والشيء الذي تعتمد عليه الإجابة هو وزن قطعة الخشب. فإذا كانت قطعة الخشب تزن أوقية واحدة، فستلاحظ فورا الزيادة في الوزن التي تقدر بـ 500% عندما أضيف علبة علكة تزن خمس أواق، لكن إذا كانت القطعة الخشبية تزن عشرة أرطال، فعندها لن تلاحظ أبدا الزيادة بـ 0.3% في الوزن. ليس ثمة إجابة عن سؤال: «هل يمكن للناس أن يلاحظوا خمس أواق؟ لأن الأدمغة لا تلاحظ الأواقي بل التغيرات والاختلافات في الأواقي وينطبق الأمر ذاته على الخاصية المادية لجسم ما. إن تأثرنا بالأحجام النسبية بدلا من المطلقة ليس مقتصرًا على الخاصيات المادية مثل الوزن واللمعان والكمية. بل يمتد إلى الخاصيات الذاتية كذلك، مثل القيمة والطيبة والاستحقاق (201). مثلا: سيكون معظمنا مستعدًا لقطع المدينة من أجل توفير \$ 50 عند شراء جهاز راديو ثمنه \$ 100 لكن ليس لشراء سيارة تقدر بـ \$ 100.000 لأن \$ 50 تبدو ثروة عندما نشترى جهاز راديو (واو! الغرض من ذلك هو شراء نفس الجهاز بنصف الثمن!) لكنه مبلغ زهيد مقارنة بالمبلغ الذي سندفعه لشراء سيارة (يبدو الأمر مثل قطع المدينة بأسرها للحصول فقط على هذه السيارة من أجل توفير 1 من 20% من ثمنها) (202).

سوف يستغرب علماء الاقتصاد هذا السلوك وسيصححون لك ذلك الاعتقاد عبر إخبارك بأن حسابك البنكي لا يحتوي إلا على مبالغ من الدولارات الخالصة لا على «نسب مائوية».

وإذا كان من المجدي عبور البلدة من أجل توفير 50 \$، عندها لا يهم ما الغرض الذي وفرت في سبيله ذلك المبلغ لأنك عندما تنفق تلك الدولارات على الغاز أو أغراض البقالة، فهي لن تعرف مصدرها (203). غير أن هذه الحجج الاقتصادية لا تلقى أذانا صاغية لدى البشر لأنهم لا يفكرون في الدولارات بشكل مطلق بل نسبي، وخمسون دولارا بالنسبة إليهم لا تمثل القليل أو الكثير من الدولارات إلا بالاعتماد على نسبتها وهذا ما يجعل الأشخاص الذين لا يخشون سواء احتفظ صندوق استثماراتهم الموحدة، بـ 0.5% أو 0.6% من استثماراتهم، لكنهم ينفقون رغم ذلك ساعات في تصفح صحيفة يوم الأحد بحثا عن قسيمة توفر لهم 40% من مبلغ أنبوب معجون أسنان. إن المسوقين والسياسيين وآخرين يعلمون مدى هوسنا بنسبية المقادير ويستغلون ذلك باستمرار. مثلا، تتمثل إحدى الخدع القديمة في أن يطلب من أحدهم دفع ثمن خيالي «هلا أتيت إلى لقائنا الذي سيتم يوم الجمعة القادم حول موضوع إنقاذ الدببة ثم تنضم إلينا يوم السبت في مسيرة احتجاج في حديقة الحيوانات؟» قبل أن يطلب منه دفع مبلغ صغير «حسنا إذن، هلا ساهمت على الأقل بخمسة دولارات لفائدة منظمنا؟». تثبت الدراسات أن الناس أكثر ميلا إلى قبول دفع مبلغ صغير بعد التفكير مليا في الثمن الأكبر لأن ذلك يجعل الثمن الصغير يبدو محتملا (204).

وبما أن القيمة الذاتية للبضاعة تتسم بالنسبية، فهي تتنقل وتتغير اعتمادا على الشيء الذي تتم مقارنتها به. مثلا، أنا أتوقف كل صباح في طريقي إلى العمل عند مقهى ستاريكس في الحي وأناول النادل 1.89 \$ الذي يناولني بدوره مقدار عشرين أوقية من القهوة الجيدة. لا فكرة لدي كم يكلف ستاريكس إعداد هذه القهوة، ولا لماذا اختاروا هذا المبلغ المحدد مقابل ذلك، لكنني أعلم أنني إذا توقفت ذات صباح واكتشفت أن ثمن القهوة قفز فجأة إلى 2.89 \$، سأقوم فوراً بأحد هذين الأمرين: إما أن أقارن الثمن الجديد بالثمن الذي كنت أدفعه وأستنتج أن القهوة في ستاريكس أصبحت باهظة جدا، وأقتني «ثيرموسا» وأشرع في إعداد قهوتي في البيت؛ أو أن أقارن بين الثمن الجديد للقهوة وبقيّة الأشياء التي يمكنني اقتناؤها بالمبلغ المالي ذاته (مثلا: قلمان لبيديان أو غصن من البامبو الاصطناعي بطول اثنين وثلاثين بوصة أو 1/100 من مجموعة الأقراص المدمجة العشرين المتضمنة لظهور مايلز ديفس في حفلات الجاز في مونتورون) وأستنتج أن القهوة في ستاريكس صفقة رابحة. نظريا بإمكانني أن أقارن بين الوضعيتين، فأيهما سأنجز؟

كلنا نعرف الإجابة عن هذا: سأنجز الأسهل. فعندما أكتشف أن ثمن كوب القهوة أصبح بـ 2.89 \$، فمن الأسهل عليّ بكثير أن أتذكر الثمن الذي دفعته مقابل القهوة في اليوم الفارط من

تخيل كل تلك الأشياء الأخرى التي قد أبتاعها بأموالي (205). ولأنّ تذكّر الماضي أسهل بكثير بالنسبة إليّ من خلق إمكانيات جديدة، فسأميل إلى مقارنة الحاضر بالماضي حتى عندما يكون من الأجدر أن نقارنه بالممكن. وهذا في الواقع ما عليّ القيام به بما أنّ سعر القهوة في اليوم أو الأسبوع الفارطين أو في أيّ وقت خلال إدارة الرئيس الأمريكي هو وفر ليس أمراً مهتماً. فأنا الآن، أملك دولارات في المطلق لأنفقها والسؤال الوحيد الذي سأحتاج إلى الإجابة عنه هو كيف أنفقها حتى أحقق أقصى قدر من الشعور بالرضا. إذا تسبّب حظّ عالمي على البرّ في ارتفاع سعر القهوة بشكل صاروخي إلى حدود 10.000 \$ بالنسبة إلى سعر الكوب الواحد، فالسؤال الوحيد الذي وجب عليّ طرحه على نفسي عندها هو: «ما الذي يمكنني فعله أيضاً بعشرة آلاف دولار ويمنحني شعوراً بالرضا أكثر أو أقل من كوب قهوة؟» فإذا كانت الإجابة «أكثر»، عندها عليّ أن أواصل طريقي، أما إذا كانت الإجابة «أقل»، حينئذ عليّ التوقف لاقتناء كوب من القهوة ومعها محاسبته بيده سوّظ.

إنّ الفكرة القائلة بأنّ تذكّر الماضي أسهل بكثير من خلق الممكن يجعلنا نأخذ العديد من القرارات الغريبة. يميل الناس مثلاً إلى شراء رحلة منظّمة انخفض سعرها من 600 \$ إلى 500 \$ أكثر من ميلهم إلى شراء رحلة أخرى متطابقة لها لكنّ سعرها أصبح 400 \$ بعد أن كان 300 \$ في اليوم الفارط (206). لأنّه من الأسهل علينا مقارنة ثمن رحلة منظّمة بسعرها السابق أكثر من مقارنته بأشياء أخرى قد نشترها، وهكذا ينتهي بنا الأمر إلى تفضيل صفقات خاسرة أصبحت مناسبة على صفقات أخرى رائعة بعد أن كانت مدهشة. تقودنا النزعة ذاتها إلى معاملة بضائع لديها «ماض مشهود» بصورة مختلفة عن تلك التي لا تملك ذلك الماضي. مثلاً، تخيل أنّك تملك ورقة نقدية بقيمة 20 \$ وفي محفظتك تذكرة لدخول حفلة بقيمة 20 \$، إنن فأنت تملك ورقتين نقديتين بقيمة 20 \$ في محفظة نقودك، لكنك تدرك لدى وصولك إلى الحفلة أنّك أضعت إحدى الورقتين في طريقك إلى هناك. فهل ستشترى تذكرة للحفلة؟ سيقول جلّ الناس: لا (207). الآن تخيل أنّك تملك ورقتين بقيمة 20 \$ في محفظة نقودك بدلاً من ورقة بقيمة 20 \$ وتذكرة بقيمة 20 \$، ولدى وصولك إلى الحفلة اكتشفت أنّك أضعت إحدى الورقتين في الطريق إلى هناك. فهل ستشترى تذكرة للحفلة؟ سيقول جلّ الناس: نعم، فالأمر لا يستحقّ عالم منطق لفهم أنّ المثالين متطابقان بكلّ الطرق ذات الأهمية: ففي كلتا الحالتين أضعت قطعة ورق بقيمة 20 \$ (تذكرة أو ورقة نقدية)، وفي كلتا الحالتين أيضاً عليك الآن أن تقرّر إذا كنت ستنفق بقية ما في محفظتك من مال على الحفلة. ومع ذلك، فإنّ إصرارنا العنيد على المقارنة بين الماضي والحاضر يقودنا إلى التفكير بطريقة مختلفة بخصوص هاتين الحالتين المتعادلتين

تفكيراً علمياً. عندما نضيق ورقة نقدية بقيمة 20 \$ ثم نفكر في اقتناء تذكرة للحفلة لأول مرة، فالحفلة لا ماضي لها، وهكذا فنحن نقارن مقارنة سليمة بين ثمن مشاهدة الحفلة وإمكانات أخرى (هل علي إنفاق عشرين دولاراً لمشاهدة الحفلة؟، أم علي شراء قفازات جلد القرش؟) لكن حينما نفقد تذكرة سبق أن اشتريناها ونفكر في «تعويضها»، يصبح للحفلة ماضٍ، وهكذا نقارن السعر الحالي لمشاهدة الحفلة (40 \$) بسعرها السابق (20 \$) وبنتابنا النفور من مشاهدة عرض تضاعف سعره فجأة.

المقارنة بالممكن

نحن نرتكب الأخطاء عندما نقارن أمراً ما بالماضي بدلاً من مقارنته بما هو ممكن الحدوث الممكن لكن حتى المقارنة بالممكن لا تمنعنا من أن نرتكب الأخطاء أيضاً. مثلاً، إذا كنت تشبهني، فلا بد أن غرفتك عبارة عن مستودع صغير فيه سلع طويلة الأمد بين مقاعد ومصابيح وأجهزة ستيريو وأجهزة تلفاز ومن المحتمل أنك بحثت في عديد المتاجر قبل أن تشتري هذه الأشياء، ومن المحتمل أيضاً أنك قارنت بين تلك التي اشتريتها في النهاية ببعض الخيارات الأخرى - مصابيح أخرى في الكاتالوغ ذاته ومقاعد أخرى في صالة العرض، أجهزة ستيريو أخرى على الرف ذاته وأجهزة تلفاز أخرى في المول نفسه. وبدلاً من أن تقرّر إن كنت ستنفق المال أم لا، كنت تقرر كيف ستنفق ذلك المال، وكل الطرق الممكنة لإنفاق أموالك كانت هناك معروضة أمامك من قبيل أناس لطفاء يرغبون في الحصول عليها. هؤلاء الناس اللطفاء ساعدوك لتجاوز ميلك الطبيعي نحو المقارنة بالماضي (هل هذا التلفاز أفضل بكثير من تلفازي القديم حقاً؟) انطلاقاً من جعل المقارنة بالممكن أمراً يسيراً جداً بالنسبة إليك (عندما تراهم جنباً إلى جنباً في المتجر، تبدو لك صورة الباناسونيك أشد وضوحاً من صورة الصوني). لسوء الحظ، كلنا نؤخذ بسهولة بمقارنة تلك الأشياء الموجودة جنباً إلى جنب، وهو ما يدفع بتجار التفصيل إلى العمل جاهدين على ضمان قيامنا بذلك.

مثلاً، لا يحب الناس عموماً شراء السلع الأعلى ثمناً في صنف من الأصناف، فيحسن تجار التفصيل شراءاتهم من خلال تخزين بعض السلع باهظة الثمن التي لا يشتريها أحد في الواقع («أوه! يا الهي! تباع القنينة الواحدة من النبيذ من نوع Château Haut-Brion 1982 Pessac-Léognan بخمس مائة دولاراً») لكن تجعل مقارنتها بسلع أخرى أقل ثمناً من أسعار هذه السلع تبدو منخفضة («سوف أكتفي فقط بشراء زجاجة نبيذ من نوع زنفانديل (عنب كاليفورنيا) zinfandel التي يقدر ثمنها بستين دولاراً!») (208). يجلب وكلاء العقارات عديمو الأخلاق الزبائن إلى أماكن متداعية تقع بين صالون تدليك وبيت مهالك قبل جلبهم

إلى البيوت العادية التي يتمنون في الواقع بيعها، لأن الأماكن المتداوية تجعل من البيوت العادية تبدو استثنائية («أوه، أنظر، حبيبي، ليس ثمة إبر صنوبر على العشب!») (209). إن مقارنة أشياء بأخرى يمكن أن تتأثر بوجود إمكانات مبالغ فيها من قبيل النبيذ باهظ الثمن والبيوت المتداوية، لكنها قد تتأثر كذلك بإضافة مزيد من الإمكانيات المتطابقة مع تلك التي نحن بصدد التفكير باقتنائها. في إحدى الدراسات، مثلا، قرأ بعض الأطباء عن نوع من أنواع الأدوية Medication X ثم سئلوا إذا كانوا سيصفون هذا الدواء لمريض يعاني من هشاشة العظام (210)، فاعتبروا بوضوح أن الدواء ناجح، لأن 28% منهم فقط اختاروا عدم وصفه. لكن عندما سُئلت مجموعة أخرى عن وصف هذا الدواء أو نوع آخر Medication Y ذي نجاعة مماثلة لما يوصف لمريض يعاني من نفس المرض، اختار 48% منهم عدم وصف أي منهما. يبدو أن إضافة نوع آخر من الدواء بنفس النجاعة إلى قائمة الممكنات جعل عملية الاختيار بين نوعي الدواء أمرا صعبا على الأطباء، مما قاد الكثير منهم إلى عدم التوصية بأي نوع منهما. فإذا وجدت نفسك يوما ما في وضعية تجعلك تقول: «يصعب علي الاختيار بين هذين الفيلمين لذلك سأبقى في البيت وأشهد الإعادة عوضا عن ذلك»، فأنت تعرف لماذا ارتكب الأطباء ذلك الخطأ (211).

من أسوأ ما ينجز عن مقارنة أشياء مجانية لأشياء أخرى أنها تقودنا إلى إيلاء أهمية لأي صفة تميز الممكنات التي نقارنها ببعضها البعض (212). قد أكون قضيت بعضا من أتعس الساعات في حياتي في المتاجر التي كنت أنوي زيارتها لربع ساعة فقط. فقد كنت أتوقّف عند المول وأنا في طريقي إلى التنزه، أركن السيارة، أسرع إلى الداخل وأتوقّع الخروج بعد دقائق بكاميرا رقمية صغيرة وأنيقة أدها في جيبي، لكنني عندما أصل إلى عالم (Wacky Bob) وافي بوب الضخم والعماق للكاميرات، أجد نفسي قبالة مجموعة واسعة ومذهلة من الكاميرات الرقمية الصغيرة والأنيقة بمزايا وصفات متباينة، فأخذ بعضا من تلك المزايا بعين الاعتبار حتى لو كان ثمة كاميرا واحدة معروضة هناك («إنّ هذه خفيفة بما يكفي لتناسب جيب قميصي، إذا يمكنني حملها معي في كل مكان») وبعض المزايا الأخرى لم أكن لأفكر فيها أبدا لو لم تستدع اهتمامي. (تمتاز كاميرا أولمبيس بفلاش يعذل من الصورة خلافا لكاميرا نيكون، لكن بالمناسبة ما معنى ذلك؟) فالمقارنة بين عدة كاميرات مصفوفة الواحدة تلو الأخرى تجعلني أفكر في كل ما يميز بينها، وهو ما يجعلني في نهاية المطاف أفكر في تلك المميزات التي لا أهتمّ بها في الحقيقة لكنها تبين الاختلاف بين كاميرا وأخرى (213) مثلا، ما هي الميزة التي قد تهتمّ بها عند شرائك قاموسا جديدا؟ في إحدى الدراسات، أتيحت فرصة لمجموعة من الأشخاص أن يقدموا عروضاً

لاقتناء قاموس في حالة مثالية، يتكوّن من عشرة آلاف كلمة، وكان أن قدّموا في المعدل سعرا يقدر بـ 24 \$(214). بينما أتاحت الفرصة لمجموعة أخرى من الأشخاص أن يقدّموا عروضاً لشراء قاموس بغلاف ممزّق، يحتوي على عشرين ألف كلمة، وفي المعدل كان السعر المقترح يقدر بـ 20 \$، لكن عندما ضُحّ لمجموعة ثالثة من الأشخاص بالمقارنة بين القاموسين الواحد بالآخر، قدّموا 19 \$ ثمناً للقاموس السليم و 27 \$ مقابل القاموس الضخم والممزّق. يبدو أن الناس يهتمون بحالة غلاف القاموس، لكنهم لا يهتمون بعدد الكلمات التي يحتوي عليها إلا إذا لفت انتباههم إلى تلك الصفة من خلال مقارنته مع قاموس آخر.

المقارنة والحاضرة

الآن، دعونا نخطو خطوة إلى الوراء ونسأل عما تعنيه كل هذه الحقائق المتعلقة بالمقارنة بالنسبة إلى قدرتنا على تخيل مشاعرنا في المستقبل. الحقائق هي التالية: (أ) تُحدّد قيمة الشيء من خلال مقارنته بشيء آخر؛ (ب) ثقة أكثر من نوع مقارنة يمكننا إجراؤه في أية حالة؛ (ج) قد نتمنّ شيئاً ما أكثر من غيره حينما ننجز نوعاً معيناً من المقارنة أكثر مما نفعل حين نقارن مقارنة من نوع مختلف. تشير هذه الحقائق إلى أننا لو أردنا توقّع كيف سيجعلنا شيء ما نشعر في المستقبل، علينا أن نفكر بنوع المقارنة التي سنعتمدها في المستقبل وليس نوع المقارنة التي حدث أن أنجزناها في الزمن الحاضر. للأسف، نحن نقارن دون حتى أن ندرك ذلك («يا رجل، لقد ارتفع سعر تلك القهوة!» أو «لن أدفع سعراً مضاعفاً من أجل مشاهدة هذه الحفلة!»)، لذلك نادراً ما نفكر في حقيقة أن تلك المقارنات التي نجريها الآن قد لا نجريها لاحقاً (215). طلب، مثلاً، من بعض المتطوّعين أن يجلسوا إلى طاولة ويتنبؤوا بمقدار المتعة التي سيشعرون بها عند تناول رقائق البطاطس بعد دقائق (216). فرأى بعضهم كيساً من رقائق البطاطس ولوحاً من الشوكولا على الطاولة، ورأى البعض الآخر كيساً من الرقائق وعلبة سردين. فهل لوجود هذا الأكل الدخيل على الطاولة تأثير في تنبؤات المتطوّعين؟ طبعاً أنت واثق من أن ذلك ما سيحدث. قارن المتطوّعون بين رقائق البطاطس والأكل الدخيل، وتوقعوا أنهم سيرغبون في أكل الرقائق عندما قارنوا بينها وبين علبة السردين أكثر مما فعلوا عندما قارنوا بينها وبين الشوكولا، لكنهم كانوا مخطئين. لأنّ علبة السردين ولوح الشوكولا لم يؤثرا أي تأثير على متعة المتطوّعين بأكل الرقائق لدى تناولهم إيّاها. فعلى أية حال، عندما يملأ أي أحد فمه برقائق البطاطس المالحة والدهنية والمقلية، تنعدم أية أهمية لوجود أي أكل آخر صادف أن كان موجوداً على الطاولة - تماماً مثلما لا وجود لأية أهمية تتعلّق بالشخص الذي كان من المحتمل أن تمارس معه الحب أثناء ممارستك إيّاه مع شخص آخر. ما لا يدركه المتطوّعون، أن المقارنات

التي قاموا بها أثناء تخيلهم لتناول قطعة من رقائق البطاطس («طبعاً، رقائق البطاطس لذيذة... لكن الشوكولا أفضل بكثير») ليست المقارنات ذاتها التي قد يقومون بها أثناء التهامهم إياها فعلاً.

يملك معظمنا تجارب شبيهة بهذه، فنحن نقارن بين السقاعات الأنيقة وتلك الضخمة والشبيهة بالصندوق ونلاحظ الفرق في الصوت ثم نشترى مكبرات الصوت الضخمة. غير أن الفرق في الصوت، مع الأسف، لا نلاحظه بعد ذلك أبداً، لأننا عندما نأخذ الضخمة منها إلى البيت لا نقارن صوتها بصوت أحد مكبرات الصوت التي استمعنا إليها قبل أسبوع في المتجر، بل نلاحظ أن شكلها الصندوقي المربع لا يتماشى مع بقية الديكور الأنيق والمميز للبيت. أو عندما نسافر إلى فرنسا ونلتقي شخصين من بلدنا وفورا يصبحان رفاقنا في كل الجولات لأن ذينك الشخصين اللذين ينتميان إلى مسقط رأسنا، مقارنة بكل أولئك الفرنسيين الذين يكرهوننا عندما لا نحاول تكلم لغتهم ويكرهوننا أكثر عندما نحاول، يبدوان ودودين ومثيرين للاهتمام بشكل استثنائي. فنبتهج للعثور على صديقين جديدين ونتوقع أننا سنحبهما في المستقبل بنفس قدر محبتنا لهما اليوم. لكن عندما نلتقي بهما على العشاء بعد شهر من عودتنا إلى الوطن، نكتشف فجأة أنهما على العكس مما كنا نعتقد مملآن وباردان مقارنة بأصدقائنا الاعتياديين وأنا في الواقع نزدريهما بقدر ازدرائنا الفرنسيين. إن خطأنا لا يكمن في أننا جبننا باريس رفقة شخصين مملين من نفس بلدنا إنما في إخفاقنا في إدراك أن المقارنة التي كنا نقوم بها في الحاضر («ليزا ووارتر أكثر لطفاً من النادل في مطعم لو غران كولبير Le Grand Colbert بكثير») ليست هي المقارنة التي قد نقوم بها في المستقبل («ليزا ووالتر ليسا لطيفين مثل ريببكا ودان»). نفس هذا المبدأ يفسر لماذا نحب أشياء جديدة عند ابتياعها ثم نكف عن حبها بعد ذلك بفترة قصيرة. عندما نشرع في التسوق من أجل زوج من النظارات الجديدة، فنحن نقارن زوج النظارات العصرية والأنيقة في المتجر مقارنة بطبيعة تلك القديمة والبالية المرشوقة على أنوفنا، فنشترى النظارات الجديدة ونحتفظ بالقديمة في أحد الأدراج، لكن بعد أيام قليلة من وضعنا لنظاراتنا الجديدة، نكف عن مقارنتها بالنظارات القديمة ويتلاشى شعورنا بالسعادة التي أنتجتها المقارنة آنذاك.

إن فكرة قيامنا بمختلف المقارنات في أوقات مختلفة -دون إدراكنا ذلك- يساعد مع ذلك في شرح بعض الألغاز الغامضة. على سبيل المثال أثبت علماء الاقتصاد وعلماء النفس أن الناس يتوقعون أن فقدانهم دولاراً واحداً سوف يؤثر فيهم أكثر من كسب دولار، وهو ما يجعل أغلبنا قد يرفض رهانا يمنحنا حظاً يقدر بـ 85% لمضاعفة مذكرات حياتنا و15% لخسارتها (217).

إن احتمال ربح ضخم لا يعوّض احتمال خسارة ضخمة لأننا نعتقد أن الخسارات أشد من المكاسب ذات نفس القدر. لكن بقطع النظر عما إذا اعتبرنا أن شيئاً ما يمثل ربحاً أو خسارة، فغالبا ما يعتمد ذلك على المقارنات التي نقوم بها. على سبيل المثال، كم يقدر ثمن سيارة من نوع مازدا مياتا لعام 1993؟ بالنسبة إلى شركة التأمين، الإجابة الصحيحة لهذه السنة هي حوالي 2.000 \$. لكن، كوني مالك تلك السيارة، فأنا أضمن لك أنك إذا أردت شراء سيارتي الصغيرة والجميلة بكل خدوشها الرائعة وخشخشات المزعجة مقابل 2.000 \$ فقط، عليك أولاً أن تجزّب انتزاع مفاتيحها من بين يديّ الباردتين والميتتين. لكن من وجهة نظرك أنت فألفا دولار لا تساوي السيارة والمفاتيح فحسب بل عليّ أن أعطيك معها دراجة هوائية وآلة جزّ عشب واشتراكاً أبدياً لمجلة *ني أتلانتيك الشهرية The Atlantic*. فما هو السبب الذي يجعلنا نختلف حول تقدير قيمة السيارة يا ترى؟ لأنك ستفكر في شأن الصفقة ربحاً محتملاً («مقارنة بشعوري الآن، إلى أي حد سأكون سعيداً إذا حصلت على السيارة؟») بينما أنا سأفكر في شأنها خسارة محتملة («مقارنة بما أشعر به الآن، أي قدر من السعادة سينتابني إذا خسرت هذه السيارة؟») (218)، فأنا أرغب في أن يتم تعويضي عما أتوقع أن يكون خسارة فادحة، لكنك لا ترغب في تعويضي لأنك تتوقع مكسباً أقل، غير أنك تخفق في إدراك أنك بمجرد امتلاكك السيارة، فالإطار المرجعي الذي من خلاله حكمت سوف يتغير وسوف تقوم بنفس المقارنة التي أقوم بها أنا الآن وأنّ تلك السيارة سوف تكون جديرة بكلّ فلس دفعته مقابلها. وما سأخفق أنا في إدراكه أنني بمجرد أن أتخلّى عن ملكيتي لتلك لسيارة، سيتغير كذلك الإطار المرجعي الذي أتحرّك من خلاله وسأقارن المقارنة ذاتها التي تنجزها أنت الآن، وسأكون سعيداً بالصفقة لأنّي، في النهاية، لم أكن لأدفع 2.000 \$ قُطّ مقابل سيارة شبيهة بتلك التي بعثها للتوّ. إنّ سبب عدم اتّفاقنا على السعر وتشكيكنا بهدوء في نزاهة الآخر ومسؤوليته، هو أنّ لا أحد منا يدرك أنّ نوع المقارنات التي نقوم بها تلقائياً بصفتنا زبائن أو بانعين ليست أنواع المقارنات ذاتها التي سنقوم بها على نحو تلقائي بمجرد أن نصبح مالكين أو مالكين سابقين (219). باختصار، إنّ للمقارنات التي نقوم بها تأثيراً عميقاً في أحاسيسنا وعند إخفاقنا في إدراك أنّ المقارنات التي نقوم بها اليوم ليست المقارنات ذاتها التي سنقوم بها غداً، فمن المتوقّع أن نستهيّن بحجم الاختلاف الذي ستكون عليه أحاسيسنا في المستقبل.

إلى الأمام

يستخدم المؤرّخون كلمة *الحاضرة* لوصف تلك النزعة نحو تقييم شخصيات تاريخية استناداً إلى معايير معاصرة. لكن على الرغم من ازديادنا كلّنا العنصرية *racism* والتمييز بين

الجنسین sexism، إلا أن هذه الممارسات الهمجية لم تُعتبر جرائم أخلاقية إلا مؤخرًا، وهكذا فقد كان اتهام توماس جيفرسون لامتلاكه العبيد أو سيغموند فرويد من أجل استغلاله وتعجرفه مع النساء، يشبه بعض الشيء إيقاف أحدهم اليوم من أجل القيادة دون وضع حزام الأمان في سنة 1923، ومع ذلك فإن الرغبة في رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر هو شعور ملح. فكما أشار رئيس الجمعية التاريخية الأمريكية، «لا تدعي الحاضرة وجود حل جاهز؛ فقد اتضح أنه من الصعوبة البالغة بمكان أن ننفذ من الحداثة» (220). لكن ما يبعث على السرور أن معظمنا ليسوا مؤرخين وهكذا فليس علينا أن نقلق بشأن العثور على ذلك المنفذ. أما الشيء في الأمر فيمكن في أننا جميعا كائنات مستقبلية والحاضرة تصبح مشكلة كبرى عندما يتطلع الناس إلى الأمام بدلا من النظر إلى الخلف. ولأن التنبؤات بالمستقبل تحدث في الحاضر، فهي حتما تتأثر به. إن الطريقة التي نشعر بها الآن بالضبط («أنا جائع جدا») والطريقة التي نفكر بها الآن بالضبط («تبدو مكبرات الصوت الكبيرة أفضل من الصغيرة») تمارس تأثيرا قويا في الشكل الذي نعتقد سيكون عليه شعورنا لاحقا. ولأن الزمن هو ذلك المفهوم الغامض، فنحن ننزع إلى تخيل المستقبل كما لو كان الحاضر مع بعض التحريف، وحينئذ فإن غدنا الفتحيل يشبه قليلا نسخة محزفة عن اليوم. إن واقعية اللحظة شديدة الوضوح والقوة إلى حد يجعلها تقبض على الخيال في مدار ضيق يصعب الإفلات منه تماما. تحدث الحاضرة لأننا نخفق في إدراك أن ذواتنا المستقبلية لن ترى العالم على نفس الشاكلة التي تراه عليها الآن ومثلما نحن على وشك أن نرى، فهذا العجز الجوهرى عن تقمص وجهة نظر الشخص الذي سيتعرض لما سيحدث بقية حياتنا هو المشكلة الأكثر فداحة التي قد يواجهها كائن مستقبلي.

الجزء الخامس

العقلنة

«العقلنة هي السلوك الذي يجعل شيئا ما يبدو عقلانيا أو لا عقلانيا»

الفصل الثامن

الجنة اللامعة

لا يوجد شيء جيد أو شيء سيء، التفكير هو ما يجعل الأشياء كذلك.

شكسبير، هامليت أمير دانمارك

دعك من اليوغا ودعك من شطف الدهون ودعك كذلك من مكملات الأعشاب التي تعدك بتحسين ذاكرتك وتعديل مزاجك وتنحيف خصرك واستعادة شعرك وجعل لحظات ممارستك للحب أطول. إذا أردت أن تكون سعيدا، جرب طريقة أخرى قادرة على تحويلك من الأحمق حاذ الطباع الذي يتقاضى أجرا زهيدا على عمله إلى الفرد عميق الامتلاء والمستنير الذي طالما رغبت في أن تكون هو وإذا لم تصدقني، ألق نظرة فقط على شهادة بعض الأشخاص الذين جربوا تلك الطريقة:

• «أشعر أنني بحال أفضل جسديا وماليا وذهنيا وتقريبا في كل جوانب حياتي الأخرى». (ج. ر. من تكساس)

• «كانت تجربة عظيمة!». (م.ب من لويزيانا)

• «لم أكن أقدر الآخرين تقريبا كما أفعل الآن». (س.ر من كاليفورنيا)

من يكون هؤلاء الحرفاء القانعين، وما هي الطريقة الخارقة التي يتحدثون كلهم عنها؟ أدلى جيم رايت، الناطق السابق باسم مجلس النواب الأمريكي، بتصريحه بعد ارتكابه لتسع وستين خرقا أخلاقيا وأجبر على الاستقالة بشكل مخز. أما موريز بيكام وهو سجين سابق، فقد أدلى بتصريحه عقب إطلاق سراحه من سجن ولاية لويزيانا حيث قضى سبعا وثلاثين سنة من أجل الدفاع عن نفسه ضد الجماعة المتعصبة الملقبة بكو كلاكس كلان Ku Klux Klansmen الذين أطلقوا عليه النار. أخيرا جاء تصريح كريستوفر ريفي، النجم بطل فيلم سوبرمان الوسيم، إثر حادث وقع له أثناء ممارسته لرياضة الفروسية أصابه بشلل كامل ابتداء من عنقه حتى أسفل جسده وتركه غير قادر على التنفس إلا بواسطة جهاز التنفس الاصطناعي. فما هي العبرة من القصة؟ إذا شئت أن تكون سعيدا وحكيما وبصحة جيدة، دعك من حبوب الفيتامين المقوية وعمليات التجميل وجرب بدلا من ذلك الإذلال على الملأ والمكوث في السجن دون وجه حق والإصابة بشلل كامل.

حسن، هل من المفترض حقا أن نصدق أن الأشخاص الذين فقدوا وظيفتهم وحرمتهم وحقهم

في التنقل تحسنت حياتهم تحسنا ما بعد المآسي التي أصابتهم؟ إذا خطر لك ذلك بوصفه احتمالا مستبعدا، حسنا اطمئن! لست وحدك، فعلى امتداد قرن على الأقل، افترض علماء النفس أنه لا بد للأحداث المريعة -كموت عزيز أو التعرض لجريمة عنف- أن تخلف أثرا قويا ومدمرا ودائما على أولئك الذين عاشوا تلك المحن(221)، فظلت هذه الفرضية مغروسة بعمق في تصوّرنا التقليدي إلى حد أن الأشخاص الذين لا يعتبرون عن ردّة فعل تعكس ألما حادا كهؤلاء يُشخصون أحيانا كونهم يعانون من حالة مرضية تعرف بـ«انعدام الحزن». لكن الدراسات الأخيرة أشارت إلى أن التصوّر الجمعي خاطئ وأن انعدام الحزن أمر عادي جدا وأن غالبية الناس يُظهرون قدرة على الصمود أمام الصدمة النفسية تبعث على الاستغراب وهو عكس ما ظلّ علماء النفس طوال قرن من الزمن يردّدونه من أننا تلك الزهرة الهشة. إن فقدان أحد الأبوين أو الزوجين عادة ما يسبب الحزن، بل هو حدث مأساوي، وسيكون من الخطأ ادعاء عكس ذلك، لكن الحقيقة أنه بينما يظلّ معظم الأشخاص المكولومين يعيشون الحزن لفترة من الزمن، يصاب القليل منهم فقط بكآبة مزمنة أما أغلبهم فيعيشون نسبيا مستويات منخفضة من الشعور بالأسى مدة قصيرة نسبيا(222). رغم أن أكثر من نصف الأمريكيين يعيشون نوعا من الصدمات كالإغتصاب أو الاعتداء الجسدي أو الكوارث الطبيعية خلال حياتهم، إلا أن نسبة قليلة فقط منهم تتطور لديهم الصدمة إلى مرض ما بعد الصدمة أو يكونون في حاجة للإعانة من شخص متخصص(223) ومثلما أشار مجموعة من الباحثين: «القدرة على الصمود هي غالبا النتيجة التي تلاحظ على النحو الأكثر شيوعا عقب التعرّض لصدمة محتملة»(224). فعلا، تشير الدراسات التي أنجزت حول أولئك الذين ينجون من صدمات كبيرة بأن الأغلبية العظمى منهم يتعافون وبأن جزءا هاما منهم يزعمون أن حياتهم تحسنت بفضل التجربة(225).

أعلم، أعلم أن هذا يبدو أشبه بعنوان أغنية كانثري على نحو مريب، لكن الفكرة هي أن معظم الناس يبلون بلاء حسنا عندما تكون الأمور على غاية من السوء.

إذا كانت القدرة على الصمود أمرا شائعا، فلماذا إذن تثير مثل هذه الإحصائيات الدهشة؟ ولماذا يجد معظمنا صعوبة في تصديق أننا نستطيع اعتبار قضاء عمر كامل وراء القضبان «تجربة عظيمة»(226)، وفي إدراك أن الشلل «فرصة فريدة من نوعها» قد تفتح أمام حياتنا «طريقا جديدا»(227)؟ لماذا يحزك معظمنا رأسهم غير مصدقين عندما يقول لنا رياضي مز بسنوات مريرة من العلاج الكيميائي: «لم أكن لأغير شيئا»(228)، أو عندما يقول موسيقار أصيب بإعاقة دائمة: «إذا كنت أملك إعادة كل شيء من البداية، لأردت أن يحدث بنفس

الطريقة» (229)، أو عندما يخبرنا المصابون بشلل كامل أو نصفي بأنهم سعداء للغاية بقدر سعادة الآخرين؟ (230) إن مزاعم الناس الذين مزوا بمثل هذه الأحداث في حياتهم تبدو غريبة في الحقيقة بالنسبة إلى البعض منا الذين يتخيلون هذه الأحداث فقط - ومع ذلك، من نكون نحن لنجادل الأشخاص الذين خاضوا تلك التجارب حقاً؟

في الحقيقة، إن الأحداث السلبية تؤثر فينا، لكنها عموماً لا تؤثر بقدر كبير أو طالما أننا لا نتوقع منها ذلك (231). عندما يُطلب من الناس أن يتوقعوا شعورهم لدى خسارتهم وظيفتهم أو حبيبهم أو خسارة مرشحهم لانتخابات مهفة أو خسارة فريقهم مباراة مهفة أو إذا أفسدوا مقابلة أو أخفقوا في امتحان أو فشلوا في مسابقة، كثيراً ما يببالغون في تقدير شعورهم بالضيق ومدة استمرار ذلك الشعور (232). فالأشخاص الذين يتمتعون بصحة جيدة مستعدون لدفع الكثير مقابل تجنب أن يصبحوا ذوي عاهات أكثر من استعداد ذوي العاهات للدفع من أجل استعادة سلامة جسدكم لأن الأشخاص السليمين يقللون من درجة سعادة ذوي العاهات (233). فكما أشار مجموعة من الباحثين، «إن المرضى الذين يعانون من أمراض مزمنة وعاهات يقدرّون عموماً قيمة حياتهم على حالة صحية معينة بدرجة أعلى من المرضى المفترضين والذين يتخيلون أنفسهم على تلك الحالة الصحية» (234). في الواقع، يتخيل الأشخاص الأصحاء أن 83 حالة مرضية تُعدّ «أسوأ من الموت»، بينما الأشخاص الذين يعانون فعلاً من تلك الأمراض نادراً ما يُقدّمون على الانتحار (235). فإذا كانت الأحداث السلبية لا تنال منا مثلما نتوقع، فلماذا نتنبأ بذلك إذن؟ وإذا كانت الأحزان والمصائب تستطيع أن تختبئ في ثوب نغم، فلماذا تبدو حقيقية هكذا؟ إن الإجابة تكمن في أن العقل البشري يميل إلى الاستفادة من الالتباس - وإذا بدت لك تلك العبارة غاية في الالتباس، تابع القراءة فقط ودعني أشرح لك ذلك.

كف عن إزعاج الناس

إن الشيء الوحيد الذي يفوق صعوبة العثور على إبرة في كومة قش هو العثور على إبرة في كومة إبر. فعندما يكون جسم ما محاط بأجسام شبيهة به، فمن الطبيعي أن يتماهى معها. أما إذا كان محاطاً بأجسام مختلفة فعادة ما يتميز عنها. انظر إلى الرسم رقم 16. لو كانت لديك ساعة توقيف بحساب آلاف الأجزاء من الثانية، ستكتشف أن بإمكانك تحديد موقع حرف O في مجموعة الصفوف العلوية (حيث تحيط به الأرقام) تحديداً أسرع قليلاً من إمكانية تحديد موقعه في مجموعة الصفوف السفلية (حيث تحيط به حروف أخرى) وهو أمر منطقي لأن

العثور على حرف وسط حروف أخرى أصعب من العثور عليه وسط أرقام، لكن لو طلبت منك أن تبحث عن «صفر» بدلا من «حرف 0» لكنت أسرع في العثور عليه في الصفوف السفلية بدلا من تلك التي في الأعلى (236). الآن، يعتقد معظمنا أن قدرة حسيّة أساسية كالقدرة على البصر تُشرح بصورة جيدة من خلال أسلاك مقلة العين وإذا أردت فهم هذه القدرة، عليك أن تبذل جهدا للتعزّف على الإضاءة وعلى التباين وعلى القضبان وعلى المخاريط والأعصاب البصرية وعلى الشبكية وما شابه ذلك. لكن بمجرد معرفتك بكل ما يتعلّق بالخصائص الماديّة لمجموعة الصفوف الموجودة في الأسفل في الرسم رقم 16 وكل ما يتعلّق ببنية العين البشرية، لن يكون بوسعك بعد شرح سبب العثور على شخص على الدائرة بشكل أسرع في حالة دون أخرى إلا إذا عرفت أيضا ما الذي عُثِرَ عليه الدائرة لذلك الشخص.

1	5	9	3	1	5	4	4	2	9
6	8	4	2	1	6	2	2	3	3
9	2	7	6	9	7	5	5	1	1
5	3	7	2	7	6	2	7	8	9
3	7	5	9	6	8	8	2	9	8
4	8	3	1	2	1	6	8	1	8
4	3	4	2	3	9	1	7	0	9
6	2	4	1	8	6	7	5	2	3
7	6	4	2	9	6	5	4	4	5
9	5	2	3	6	7	8	4	5	3

L	G	V	C	L	G	E	E	P	V
I	T	E	P	L	I	P	P	C	C
V	Q	R	I	V	R	G	G	L	L
G	C	R	P	R	I	P	R	T	V
C	R	G	V	I	T	T	P	V	T
E	T	C	L	P	L	I	T	L	T
E	C	E	P	C	V	L	R	O	V
I	P	E	L	T	I	R	G	P	C
R	I	E	P	V	I	G	E	E	G
V	G	Q	C	I	R	T	E	G	C

رسم رقم 16

إنّ المعاني إذن مهقّة حتى بالنسبة إلى أكثر العمليات النفسية جوهريّة ورغم أنّ هذا يبدو بديهيا تماما بالنسبة إلى أشخاص عقلانيين مثلك ومثلي، إلا أنّ الجهل بهذه الحقيقة البديهية ألقى بعلماء النفس في عملية بحث عقيمة دامت ما يناهز الثلاثين سنة ولم تؤدّ نسبيا إلا إلى بضع نتائج فحسب. حذد علماء النفس التجريبيون، لفترة طويلة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بتحديد التوقيت الذي يتطلّبه ركض الفئران داخل المتاهات ولاحظوا سلوك الحمام وهو ينقر المفاتيح لأنهم كانوا يعتقدون أنّ الطريقة المثلى لفهم السلوك تكون بواسطة تحديد

العلاقة بين الحافز واستجابة الكائن الحي لذلك الحافز. من خلال قياس ما يفعله الكائن بعناية أمام حافز مادي كالضوء أو الصوت أو قطعة طعام، كان علماء النفس يأملون في تطوير علم يربط بين المثيرات الملحوظة والسلوك الملحوظ دون استخدام لمفاهيم ملتبسة ومبهما مثل المعنى لربطهما ببعضهما البعض. لكن هذا المشروع الساذج كان مع الأسف محكوما بالفشل منذ البداية، فرغم أن الفرن والحمام قد تستجيب للمثيرات كما هي معروضة في العالم، إلا أن الأشخاص يستجيبون للمثيرات كما هي ممثلة في أذهانهم. إذ أن المثيرات الموضوعية في العالم تخلق مثيرات ذاتية في الذهن وهذه المثيرات الذاتية هي ما يستجيب لها الناس. فعلى سبيل المثال، يمثل الحرفان الموجودان وسط الكلمتين في الرسم رقم 17، مثيرين متماثلين على مستوى الشكل (صدقوني، لقد قصصتهما وألصقتهما بنفسني) ومع ذلك، يستجيب معظم المتحدثين باللغة الانجليزية لهما بصورة مختلفة - ويرونهما بصورة مختلفة، وينطقونهما على نحو مختلف ويتذكرونهما كذلك على نحو مختلف - وذلك لأن إحداهما تمثل حرف H والأخرى تمثل حرف A. في الواقع، قد يكون من الأنسب قول إن واحدة هي حرف H والأخرى حرف A لأن تطابق الخريشات الحبرية ليس له أية علاقة بكيفية تشكلها موضوعيا بل بكيفية تأويلنا لها ذاتيا. خظان عموديان يربط بينهما خط عرضي يعينان شيئا عندما يحيط بهما حرفا T و E بينما يصبح لهما معنى آخر عندما يحيط بهما حرفا C و T، وأحد الأشياء التي تميزنا عن الجرذان والحمام أننا نستجيب لمعاني هذه المثيرات وليس للمثيرات في حد ذاتها، وهذا هو ما يجعل والدي يفلت من فعلته عندما يلقبني ب: «الحشرة» بينما لا تستطيع أنت ذلك.

THE CAT

رسم رقم 17. الشكل الموجود في منتصف الكلمة يحمل معنيين مختلفين في سياقين مختلفين.

رفع اللبس عن الأشياء

إن غالبية المثيرات ملتبسة - أي أنها قد تحمل أكثر من معنى - والسؤال الأهم هنا هو كيف نرفع ذلك اللبس عنها - أي كيف نعرف أي معنى من المعاني العديدة لحافز ما يمكننا استخلاصه بناء على الحالة. أثبت البحث أن للسياق والتواتر والحدثة على وجه الخصوص أهمية في هذا

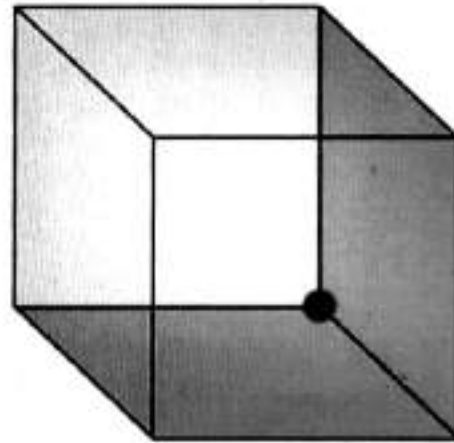
• لننظر في السياق. لكلمة *بنك* معنيان إثنان في اللغة الانجليزية: «مكان يحتفظ فيه بالمال» و«اليابسة على كلا ضفتي النهر». لكن من المستحيل أن نسيء فهم جمل ك «The boat ran into the bank» اصطدم القارب بالضفة» أو «The robber ran into the bank» هرع اللص إلى داخل البنك» وذلك لأن كلمتي *boat* (قارب) و *robber* ثوْفُران السياق الذي يخبرنا أي من المعنيين لكلمة *bank* علينا استخلاصه في كلتا الحالتين.

• لننظر في التواتر. توْفُر لنا المرات السابقة التي صادفنا فيها حافزا ما معلومات تجعلنا نعرف أي معنى من معانيه ينبغي علينا أن نتبئ. مثلا، قد يُؤوَل موظف القروض في البنك هذه الجملة «Don't run into the bank» (لا تصطدم بالضفة) تحذيرا من كيفية التجوُل داخل مكان عمله وليس نصيحة لتسيير القوارب لأن موظف القروض في الأيام العادية، يسمع كلمة *بنك bank* وهي تُستخدم على نحو أكثر تواتر في معناها المالي من معناها البحري.

• لننظر الآن في الجِدَّة. حتى البخار من المحتمل أن يُؤوَل جملة «Don't run into the bank» (لا تصطدم بالضفة) إيحاء بمؤسسة مالية بدلا من حافة نهر إذا كان قد رأى مؤخرا إعلانا عن صناديق الإيداع الآمن ولازال يحتفظ بالمعنى المالي لكلمة *bank* حيا في ذهنه. في الحقيقة، أراهنك أن الجملة القائلة: «He put a check in the box» («وضع علامة في الصندوق») تجعلك تستدعي لذهنك صورة شخص يضع قطعة ورقية في وعاء وليس صورة ذهنية عن شخص يضع علامة في استبيان وذلك بسبب حديثي المستمر عن البنوك في هذه الفقرة. (أنا أيضا مستعد لأخفن أن تأويلك لعنوان هذا المقطع من هذا الفصل يعتمد على ما إذا كنت قد أزعجت أحدهم مؤخرا بشكل أو بآخر أكثر من إمكانية أن يكون ذلك الشخص هو الذي أزعجك).

خلافا للجرذان والحمام، فنحن إذن نستجيب للمعاني - والسياق والتواتر والحدائثة هي ثلاثة عوامل تحدد أيًا من المعاني سنستخلص عندما يعترضنا حافز فيه التباس. لكن ثقة عامل آخر على نفس الدرجة من الأهمية البالغة. إذ لكل منا رغبات، مثل الجرذان والحمام، وأمنيات واحتياجات، فنحن لسنا مجزء متفرجين على العالم بل مستثمرين فيه وغالبا ما نفضّل أن يكون للأشياء التي تحفزنا معنى دون معنى آخر. انظر مثلا صورة الصندوق في الرسم رقم 18. هذا الجسم (الذي يسمى مكعب نيكر وقد سُمي على اسم عالم البلوريات السويسري الذي اكتشفه في سنة 1832) ملتبس بطبيعته ويمكن أن تثبت ذلك لنفسك بمجرد التحديق فيه لبضع ثوان. في البداية، يبدو الصندوق منتصبا على أحد جانبيه فتشعر أنك تنظر إلى صندوق على الجهة

المقابلة لك وتوجد النقطة داخل الصندوق في ذلك المكان حيث يلتقي فيه الجانبان الخلفي والسفلي. لكن لو حدقت مطوّلاً، يتغير الرسم فجأة ويبدو الصندوق منتصباً على قاعدته، وتشعر أنك تنظر من الأعلى إلى أسفل صندوق تحتك. أما النقطة فتبدو عالقة في الركن الأيمن العلوي من الصندوق. ولأنّ الرسم يمكن أن يُفسّر بطريقتين متساويتين في المغزى، ينتقل دماغك بسرعة جيئة وذهاباً بينهما، حتى تشعر في النهاية بالدوار وتفشل في تأويل الرسم. لكن ماذا لو كان أحد هذين المعنيين أفضل من الآخر؟ أي ماذا لو فضّلت أحد تفسيري هذا الجسم؟ أظهرت التجارب أنه عندما يكافأ الأشخاص على رؤيتهم للصندوق من الجهة المقابلة لهم أو أسفلهم، يشرع التأويل الذين كوفنوا لأجله في «البروز» بصورة أكثر تواتراً و«يتمسك» الدماغ بذلك التأويل ولا يحيد عنه (237). بعبارة أخرى، عندما يكون دماغك حزاً في تأويل حافظ ما بأكثر من طريقة، فهو يميل إلى تأويله بالطريقة التي يرغب بها، أي أن الخيارات التي تفضلها تؤثر في تأويلاتك للحافز بالطريقة ذاتها التي يؤثر بها السياق والتواتر والجدة.



رسم رقم 18. إذا حدقت في مكعب نيكر، سيظهر كما لو أنه يغير وجهته.

لا تتوقّف هذه الظاهرة عند تأويل الرسوم الغريبة. لماذا تعتبر نفسك شخصاً موهوباً مثلاً؟ (هيا، اعترف بذلك. أنت تعلم أنك تفعل.) للإجابة عن هذا السؤال، طلب فريق من الباحثين من بعض المتطوعين (القائمين بالتعريف) أن يكتبوا تعريفاً لكلمة موهوب ثم أن يخفّنوا ما الموهبة التي يملكونها مستخدمين ذلك التعريف دليلاً (238). ثم غرض على مجموعة أخرى من المتطوعين (غير القائمين بالتعريف) التعريفات التي كتبتها المجموعة الأولى وطلب منهم أيضاً أن يخفّنوا الموهبة التي يملكونها مستخدمين تلك التعريفات دليلاً، فكانت النتيجة مثيرة للاهتمام، حيث صنّف القائمون بالتعريف أنفسهم على أنهم أكثر موهبة من الذين لم يكتبوا تعريفاً. لأنّ المتطوعين الذين كتبوا التعريف فُنحوا الحرية لتعريف كلمة موهوب بالطريقة

التي رغبوا فيها، فقد عزفوها كما رغبوا تماما- لا سيما على أساس النشاط الذي يتفوقون فيه («أعتقد أن الموهبة تشير عادة إلى أي إنجاز فني استثنائي مثل اللوحة التي فرغت منها للتو» أو «الموهبة تعني مهارة ولدت بها كأن تكون أكثر قوة من الآخرين. هلا ألقيت بك أرضا الآن؟»). لقد كان بوسع المتطوعين الذين كتبوا تعريفا وضع معايير للموهبة، فلم يكن من قبيل الصدفة إذن أنهم استجابوا لتلك المعايير. من بين الأسباب التي تجعلنا نعتبر أنفسنا موهوبين وودودين وعقلاء ونتحلّى ببعد النظر أن الدماغ البشري يستخدم بصورة طبيعية الالتباس في كل كلمة ليحقق رغبته، تماما مثلما حدث مع تأويل مكعب نيكر.

رفع اللبس عن التجربة

لا شك في أن الكلمات والجمل والأشكال ليست أكثر المصادر ثراء لما تمكننا الاستفادة منه من الالباسات، بل التجارب المعقدة والمتنوعة ومتعددة الأبعاد التي تشكل لوحة كولاج collage تصوّر الحياة البشرية لأي كان. فإذا كان لمكعب نيكر تأويلان وللموهبة أربعة عشر تأويلا محتملا، فلمفادرة البلد أو المرض أو الحصول على وظيفة لدى خدمة البريد الأمريكية منات بل وآلاف التأويلات المحتملة. إن الأشياء التي تحدث لنا -كالزواج أو تربية طفل أو الحصول على وظيفة أو الاستقالة من الكونغرس أو الدخول إلى السجن أو الشلل- أكثر تعقيدا من خريشة قلم حبري أو مكعب ملقن. يحدث ذلك التعقيد الكثير من الغموض والالتباس المتاح من أجل الاستفادة منه، ولا يستحق الأمر كثيرا من العناء. فعلى سبيل المثال، ورد في إحدى الدراسات أنه قيل لمجموعة من المتطوعين إنهم سيأكلون آيس كريم لذيذا لكنه غير صحي (أكلو الآيس كريم) ومن مجموعة أخرى إنهم سيأكلون طبقا من الكرنب الطازج لاذع الطعم لكنه صحي (أكلو الكرنب)(239). طلب الباحثون من المتطوعين قبل أن يتناولوا فعليا ذلك الأكل، تحديد مدى التشابه بين عدد من المأكولات، بما في ذلك الآيس كريم والكرنب ولحم الخنزير المعلب Spam (الذي يعتبره الجميع بغيض الطعم وغير صحي). أثبتت النتائج أن أكلي الآيس كريم اعتبروا أن ثمة تشابها بين اللحم المعلب والكرنب أكثر من الآيس كريم. لماذا؟ لسبب غريب، فقد كان أكلوا الآيس كريم يفكرون في الأكل على أساس الطعم - وخلافا للكرنب و Spam، الآيس كريم طعمه لذيذ. في المقابل اعتبر أكلوا الكرنب أن اللحم المعلب Spam يشبه الآيس كريم أكثر من شبهه بالكرنب. لماذا؟ لسبب غريب أيضا، فأكلوا الكرنب قيموا الأكل على أساس منافعه للصحة - وخلافا للكرنب، يعتبر الآيس كريم واللحم المعلب أكلتين غير صحيتين. إن السبب الغريب ليس غريبا تماما، فمثلما يظهر مكعب نيكر على الجهة المقابلة لك وأسفلك في الآن ذاته، الآيس كريم أيضا لذيذ ويسبب السمنة والكرنب صحي وبغيض في نفس

الوقت. يقفز دماغك ودماعي بسهولة جيئة وذهابا بين هذه الطرق المختلفة للتفكير في الأكل لمجرد قراءة تنا عنه. إنما لو كنا نستعد لأكل أحد تلك المأكولات، سيقوم دماغنا آليا باستغلال الالتباس الذي يميز هوية ذلك الأكل ويمكننا من التفكير فيه على النحو الذي يسرنا (حلوى شهية أو خضراوات صحية) بدلا من ذلك الذي لا يسرنا (حلوى تسبب السمنة أو خضراوات بغيضة). وبفجرذ أن تصبح تجربتنا المحتملة تجربة فعلية - أي بمجرد أن نستفيد من المتعة التي ستمنحها إيها تلك التجربة- تنشغل أدمغتنا بالعثور على طرق للتفكير في التجربة يمكننا من تميميها. بما أن التجارب ملتبسة بطبيعتها، يصبح العثور على «رؤية ايجابية» نحو تجربة ما أمرا بسيطا كالعثور على «رؤية» مكعب نيكير «من الأسفل» وقد أثبت البحث أن معظم الناس يفعلون هذا بشكل جيد وفي أحيان كثيرة. فالزبائن يقيمون أجهزة المطبخ بصورة أكثر ايجابية بعد شرائها(240) ويقيم الباحثون عن وظيفة وظائفهم على نحو أكثر ايجابية إثر حصولهم عليها(241) ويقيم تلاميذ الثانوية الكليات على نحو أكثر ايجابية إثر التحاقهم بها(242) ويقيم المقامرون في حلبة السباق خيولهم بشكل أكثر ايجابية عندما يغادرون شباك الرهان أكثر مما يفعلون عند اقترابهم منه(243) ويقيم الناخبون مرشحيهم على نحو أكثر ايجابية لدى خروجهم من حجرة الاقتراع مما يفعلون لدى ولوجهم إليها(244). سواء أ كانت آلة لتحميمص الخبز أو شركة أو جامعة أو حصانا أو عضو مجلس الشيوخ، كلها أشياء رائعة ومدهشة لكن عندما نمتلكها تتحول على الفور إلى أشياء أكثر روعة وإدهاشا. تشير دراسات كهذه إلى أن الناس بارعون جدا في العثور على طريقة ايجابية لرؤية الأشياء بمجرد أن تصبح تلك الأشياء ملكا لهم.

التلاعب بالحقائق

في رواية فولتير الكلاسيكية كانديد، يعتقد د. بانغلوس أنه يعيش في أفضل العوالم الممكنة. يقول: «من الواضح أن الأشياء لا تستطيع أن تكون على صورة أخرى عدا تلك التي هي عليها؛ فبما أن كل الأشياء وجدت من أجل غاية معينة، لا بد أنها خلقت لأفضل غاية. مثلا، جعلت الأنوف لترتكز عليها النظارات لذلك نحن نضع النظارات ووجدت السيقان، كما بوسع أي كان أن يرى، من أجل البنطلون ولهذا نحن نرتدي البنطلونات وجعلت الصخور لبناء القصور لهذا يملك اللورد قصرا رائعا لأنه ينبغي على البارون الأعظم في الإقليم أن يملك أروع قصر. وبما أن الخنازير خلقت لشؤكل، فنحن نأكلها طوال السنة. إذن، فكل من يقول إن كل شيء على ما يرام، أحمق، إذ عليه أن يقول إن كل شيء في أفضل صورة»(245).

يبدو أن البحث الذي بينته حتى الآن يشير إلى فكرة أن البشر مفرطون في التفاؤل إلى حد بعيد. ثقة سبل كثيرة للتفكير في التجربة أكثر من توفر التجارب في حد ذاتها والبشر خلاقون بشكل استثنائي إذا ما تعلق الأمر بالعثور على أفضل السبل الممكنة. لكن، إذا كان هذا صحيحا، لماذا إذن لا نتجول بعيون متسعة وابتسامات بلهاء، ونحن نحمد الله على أعجوبة البواسير ومعجزة الأصهار؟ لأن الدماغ قد يكون ساذجا لكنه ليس صيدا سهلا. إن العالم على هذا النحو، ونتمنى لو كان على ذلك النحو، وتجربتنا عن العالم -أي كيف نراه ونتذكره ونتخيله- هي مزيج من الحقيقة المطلقة والوهم المريح. لا نستطيع الاستغناء عن أي منهما. إذا كنا سنختبر العالم كما هو تماما، سنكون مكتئبين إلى حد يجعلنا عاجزين عن النهوض من السرير صباحا، لكن إذا كنا سنختبر العالم كما نريده أن يكون تماما، سنكون واهمين إلى حد الغباء.

قد نرى العالم عبر نظارات وردية، لكن النظارات الوردية ليست معتمدة ولا شفافة. لا يمكنها أن تكون معتمدة لأننا بحاجة إلى رؤية العالم بوضوح بما يكفي لنشارك فيه - لنقود الهليكوبتر ونحصد الحبوب ولنطعم الرضع وكل تلك الأشياء التي تحتاج التدييات القيام بها حتى نبقي على قيد الحياة ونحقق الازدهار، لكن لا يمكنها أن تكون شفافة أيضا لأننا بحاجة إلى المسحة الوردية لحثنا على تصميم الهليكوبتر («أنا واثق أن هذا الشيء سيطيروا») وعلى زراعة الحبوب («سيكون المحصول وافرا هذه السنة») وعلى تحمل الرضع («يا له من رضيع بهيج!»). لا يمكننا الاستغناء عن الحقيقة ولا عن الوهم، فلكل منهما غاية وكل منهما يفرض حدودا على تأثير الآخر وتجربتنا في العالم هي التوافق الخلاق الذي يحققه هذان المتنافسان القويان (246). بدلا من اعتبار الناس مفرطين في التفاؤل، علينا إذا أن نعتبر أنهم يملكون جهاز مناعة نفسي يذافع عن العقل أمام التعاسة على نحو شبيه إلى حد كبير بالجهاز المناعي الجسدي الذي يذافع على الجسد أمام المرض (247). إن هذه الاستعارة مناسبة على نحو فريد. على سبيل المثال، ينبغي على جهاز المناعة الجسدي أن يحقق توازنا بين حاجتين متنافسين: الحاجة إلى التعرف على أية هجومات دخيلة من قبل الفيروسات والبكتيريا وتدميرها والحاجة إلى التعرف على خلايا الجسم واحترامها. فإذا كان جهاز مناعة الجسم يعاني من قصور في النشاط، فإنه يفشل في الدفاع عن الجسم ضد الطفيليات الدقيقة مما يؤدي إلى إصابتنا بالالتهابات. أما إذا كان جهاز المناعة مفرط النشاط، فهو يهاجم خلايا الجسم عن طريق الخطأ ويستهدفها، مما يؤدي إلى إصابتنا بمرض المناعة الذاتية autoimmune disease. فدور جهاز المناعة الجسدي السليم يكمن في تحقيق التوازن بين الاحتياجات المتنافسة والعثور على طريقة للدفاع عنا دفاعا جيدا - لكن ليس جيدا للغاية.

قياسا على ذلك، عندما نجابه ألم الرفض والفقدان وسوء الحظ والإخفاق، لا ينبغي على جهاز المناعة النفسي أن يفرط في الدفاع عنا («أنا شخص مثالي والجميع ضدي») ولا أن يدافع عنا بالشكل الكافي («أنا شخص فاشل وعلي أن أكون ميتا»). يقوم جهاز المناعة النفسي السليم بتحقيق توازن يمكننا من الشعور على نحو جيد كافٍ لمجابهة الوضعية التي نعيشها ومن الشعور على نحو سيء كافٍ للتصرف حيال ذلك («أجل، لقد كان أداء ردينا. أشعر أنني تافه بسبب ذلك لكنني أملك الثقة اللازمة لأمنح نفسي فرصة ثانية»). نحن بحاجة إلى من يدافع عنا -لا أن نكون عاجزين عن الدفاع عن أنفسنا أو أن نتخذ موقفا دفاعيا- وهكذا تبحت عقولنا بصورة طبيعية عن أفضل طريقة تنظر بها للأمور بينما تصز في الآن ذاته على أن تكون وجهات النظر تلك شديدة الوثوق على نحو معقول بالوقائع. من أجل هذا يبحث الناس عن فرص للتفكير في أنفسهم بإيجابية لكنهم يرفضون بانتظام الفرص السانحة للتفكير في أنفسهم التفكير الإيجابي على نحو غير واقعي (248). مثلا، يطالب طلبة الجامعة برفقاء سكن جدد إذا كانت نظرة شركائهم الحاليين في الغرفة ايجابية لكنهم يطالبون بنفس الشيء إذا كان شركاؤهم الحاليون في الغرفة يغالون في نظرتهم الايجابية إليهم أكثر مما يستحقون (249). لا أحد يرغب في أن يُخدع حتى لو كان ذلك مصدرا للمتعة. للحفاظ على توازن دقيق بين الحقيقة والوهم، نسعى إلى النظر بإيجابية إلى تجاربنا، غير أننا لا نسمح لأنفسنا بتبني تلك النظرة إلا إذا كانت ذات مصداقية. فما الذي يجعل نظرة ما تتسم بالمصداقية إذن؟

العثور على الحقائق

يثق معظمنا في ما يخبرنا به العلماء لعلمنا بأنهم يصلون إلى استنتاجاتهم من خلال جمع الحقائق وتحليلها. فإذا سألك أحدهم لماذا تعتقد أن التدخين مضر بالصحة ورياضة الهرولة مفيدة أو أن الأرض دائرية الشكل والمجرة مسطحة أو أن الخلايا صغيرة والجزئيات أصغر فستشير إلى الحقائق. قد تحتاج إلى شرح أنك لا تعرف الحقائق التي تشير إليها بصورة شخصية، لكنك تعرف أن حزمة من الأشخاص الجديين الذين كانوا يضعون مآزر المختبر الطبية في مرحلة ما من الماضي، خرجوا ورصدوا العالم بواسطة السفاعات الطبية والتليسكوبات والمجاهر وكتبوا ما رصده وحللوها ما كتبوا ثم أخبرونا عن أفكارهم حول الغذاء وعن علم الكونيات وعن البيولوجيا. يتسم العلماء بالمصداقية لأنهم يبنون استنتاجاتهم على ملاحظاتهم ومنذ أن تفوق التجريبيون على الدغمانيين وأصبحوا ملوك الطب الإغريقي القديم، صار الغربيون يبجلون الاستنتاجات إذا استندت إلى الأشياء التي بوسعهم رؤيتها تبجيلا خاضا. ليس من الغريب إذن، أن نعتبر أن وجهات نظرنا الخاصة تتسم بالمصداقية إذا استندت إلى الحقائق

المرصودة وليس عندما تستند إلى الأمنيات أو الرغبات أو الأوهام. قد نرغب في تصديق أن الجميع يحبنا وأنا سنعيش إلى الأبد وأن أسهم الشركات في مجال التكنولوجيا المتقدمة تستعد للعودة بقوة. قد يبدو من الملائم جدا لو كان بإمكاننا الضغط على زر صغير أسفل الجمجمة فنصدق فوراً ما أردناه أن يكون صحيحاً. لكن التصديق لا يعمل بهذه الطريقة، فعلى امتداد فترة التطور الإنساني، طور الدماغ والعين علاقة تعاقدية، وافق الدماغ بناء عليها على أن يصدق ما تراه العين وعلى ألا يصدق ما تنكره تلك العين. فإذا كان علينا إذن أن نصدق شيئاً ما، عليه أن يكون مدعوماً من طرف الحقائق، أو على الأقل لا يتعارض معها على نحو صارخ.

إذا كانت وجهات نظرنا لا تُقبل إلا إذا اتُسمت بالمصادقية، وإذا كانت لا تُسم بالمصادقية إلا إذا كانت مستندة إلى حقائق، كيف لنا إذا أن نتمكن من النظر إلى أنفسنا وإلى تجاربنا على نحو إيجابي؟ كيف ننجح في اعتبار أنفسنا سائقين عظماء وعاشقين موهوبين وطهاة رانعين في حين أن الحقائق في حياتنا تحتوي على موكب بانس من السيارات المعطوبة وشركاء يانسين وسوفلي فاشل. الإجابة بسيطة: نتلاعب بالحقائق. ثقة أساليب مختلفة لجمع الحقائق وتأويلها وتحليلها وغالباً ما تؤدي تلك الأساليب المختلفة إلى استنتاجات مختلفة، ولهذا لا يتفق العلماء بشأن مخاطر الاحتباس الحراري ومزايا اقتصاد العرض والحكمة وراء الحميات الغذائية منخفضة الكربوهيدرات. يتعامل العلماء البارعون مع هذا التعقيد باختيار الأساليب التي يعتبرونها الأكثر ملائمة ثم قبول الاستنتاجات التي تنتجها هذه الأساليب بقطع النظر عما يمكن أن تكون عليه تلك الاستنتاجات. أما العلماء الفاشلون فيستغلون هذا التعقيد في اختيار تلك الأساليب التي من المحتمل أن تنتج الاستنتاجات التي يفضلونها اختياراً خاصاً. وتسمح لهم حينها بالحصول على الاستنتاجات التي يفضلونها عبر الحقائق الداعمة لها. تشير عقود من البحث إلى أن معظمنا يملك ما يعادل درجة متطورة من العلم الفاسد متى تعلّق الأمر بجمع الحقائق عن أنفسنا وتجاربنا وتحليلها.

انظر مثلاً في مسألة العينات. لا يستطيع العلماء مراقبة كل بكتيريا أو كل مُذئب أو كل حمامة أو كل شخص، لذلك يدرسون عينات صغيرة مستمدة من هذه المجموعات. من بين القواعد الجوهرية للعلم الجيد والحس السليم أن هذه العينة ينبغي أن تكون مستمدة من جميع أجزاء المجموعة إذا أردنا لها أن تخبرنا عن تلك المجموعة. فليس ثمة غاية حقيقية من إجراء استطلاع للرأي إذا كنت ستدعو الجمهوريين المسجلين من مقاطعة أورانج بكاليفورنيا أو الأعضاء التنفيذيين للمنظمات التي تجابه الأناركيين ومع ذلك، فهذا ما نقوم به تقريباً عندما نبحث عن حقائق لها تأثير في الاستنتاجات التي نحبها (250). فعلى سبيل المثال، عندما

قيل لمجموعة من المتطوعين في إحدى الدراسات أنهم تحضلوا على نتائج ضعيفة في اختبار تقييم الذكاء ثم منحوا فرصة للاطلاع على المقالات الصحفية حول تلك الاختبارات، قضا وقتا أطول في قراءة المقالات التي تشكك في وجهة مثل تلك الاختبارات من الوقت الذي خصصه لقراءة المقالات التي تعتمدها بصفها اختبارات ذات وجهة (251). وعندما منح أحد المشرفين تقييما مبهرًا لمجموعة من المتطوعين، كانوا مهتمين أكثر بقراءة المعلومات المرجعية التي تمدح كفاءة المشرف وفطنته من قراءة المعلومات التي تشكك فيهما (252). فمن خلال التحكّم في عينة المعلومات التي غرّضت عليهم، تحكّم هؤلاء الأشخاص بصورة غير مباشرة بالاستنتاجات التي استخلصوها.

لعلك فعلت نفس الأمر أيضا. مثلا، إذا حدث ذات مرّة أن اقتنيت سيارة، فلا بد أنك لاحظت بعد أن حسمت أمرك بشراء هوندا بدلا من طويوتا، أنك سرعان ما شرعت في التركيز على الإعلانات المتعلقة بالهوندا في الصحف الأسبوعية وفي تصفّح الإعلانات السابقة المتعلقة بالمسابقة (253) وإذا لاحظ صديق لك هذا وسألك عنه، فمن المحتمل أنك شرحت له بأنك ببساطة أكثر اهتماما بمعرفة كل ما يتعلّق بالسيارة التي اخترتها من تلك التي لم تخترها. لكن اختيارك هنا كلمة معرفة اختيار غريب لأنّ تلك الكلمة تشير عادة إلى اكتساب متوازن للمعرفة، وهذا النوع من المعرفة الذي يتحصّل عليه أي شخص من خلال قراءة إعلانات الهوندا فقط يثسم بالاختلال إلى حدّ بعيد. ذلك أنّ الإعلانات تتضمّن معلومات حول مزايا المنتجات التي تصفها وليس حول العيوب. وهكذا فسيكون لبحثك عن معرفة جديدة فائدة جانبية تتمثل في ضمان أنك منغمس في تلك المعلومات -دون غيرها- التي تؤكّد حكمة قرارك.

نحن لا ننتقي المعلومات المفضّلة من المجالات فحسب، بل ننتقيها من الذاكرة أيضا. في إحدى الدراسات مثلا، غرّضت على مجموعة من المتطوعين أدلة تبين أن المنفتحين يحصلون على رواتب أعلى وترقيات أكثر من الانطوائيين (مجموعة المنفتحين الناجحين) وغرّضت على متطوعين آخرين أدلة تبين العكس (مجموعة الانطوائيين الناجحين) (254). عندما طلب من المتطوعين تذكّر سلوك محدد من الماضي لتساعد في تحديد إن كانوا منفتحين أو انطوائيين، نزع المتطوعون في مجموعة المنفتحين الناجحين إلى تذكّر تلك المرّة التي توجّهوا فيها بمنتهى الصفاقة إلى شخص غريب تماما وقدموا أنفسهم. أما المتطوعون في مجموعة الانطوائيين الناجحين، على العكس منهم، نزعوا إلى تذكّر تلك المرّة التي رأوا فيها شخصا يحبونه لكنهم كانوا خجولين جدًا إلى حدّ أنهم لم يسلموا عليه.

لا شك أنّ أكثر مصادر المعلومات ثراء عن حكمة قراراتنا ومدى قدراتنا والفوران الذي لا

يمكن مقاومته لشخصياتنا المتدفقة يكمن في الآخرين - لا في الذكريات ولا في إعلانات المجلات. إن ميلنا نحو انتقاء المعلومات التي تدعم الاستنتاجات التي نحدها هي معلومات قوية على وجه الخصوص حينما يتعلق الأمر باختيارنا للرفقة التي نحتفظ بها. لعلك لاحظت أن لا أحد، دون استثناء، يختار أصدقاءه وأحباءه عشوائياً. على العكس من ذلك، نحن ننفق ساعات ودولارات لا تحصى ولا تعد في ترتيب حياتنا بعناية لضمان أننا محاطون بأشخاص يحبوننا وأشخاص يشبهوننا. ليس من الغريب إذن، أننا عندما نلتجئ إلى الأشخاص الذين نعرفهم طلباً للنصيحة أو الرأي، فهم يميلون إلى تأكيد الاستنتاجات التي نحدها - سواء لأنهم يقاسموننا تلك الاستنتاجات أم لأنهم لا يرغبون في جرح مشاعرنا بإخبارنا بعكس ذلك (255) وإذا فشل الأشخاص الذين في حياتنا من حين لآخر في إخبارنا بما نرغب في سماعه، فنحن نملك بعض الأساليب الذكية التي تساعدنا في ذلك.

تكشف الدراسات، مثلاً، أن الأشخاص الذين لديهم ميل لطرح أسئلة مصقمة بدهاء من أجل التحكم في الأجوبة التي يتلقونها (256) فسؤال مثل: «هل أنا أفضل حبيب حظيت به على الإطلاق؟» سؤال خطير لأن لديه إجابة واحدة بوسعها أن تجعلنا سعداء كل السعادة، لكن سؤالاً كـ: «ما هو أفضل شيء يعجبك في ممارسة الحب معي؟» سؤال بارع لأن لديه إجابة واحدة فقط يمكن أن تجعلنا بؤساء كل البؤس. تثبت الدراسات أن الناس يميلون بالفطرة إلى طرح الأسئلة التي من المرجح أن تنتزع الأجوبة التي يرغبون في سماعها وعندما يسمعون تلك الأجوبة، يميلون إلى تصديق دوافع الآخرين لقوله. وهو ما يجعل «أخبرني أنك تحبني» يظل طلباً شائعاً (257). باختصار، نحن نستمذ ما يدعم استنتاجاتنا المحبذة من خلال الاستماع إلى الكلمات التي نضعها في أفواه الأشخاص المنتقين مسبقاً نظراً لاستعدادهم لقول ما نرغب في سماعه.

أما ما يجعل الأمور تزداد سوءاً هو أن معظمنا يملك أساليب تدفع بالآخرين لتأكيد استنتاجاتنا المفضلة دون حتى أن نشركهم في الحوار. لننظر في الآتي: ليس علينا أن نركن السيارة بمحاذاة الرصيف ونحن معصوبو العينين ولا أن نجعل عشرة آلاف شابة يشعرن بالنشوة من قبلة واحدة أو أن نعد *pâte feuilletée* بطعم آسر يجعل الشعب الفرنسي بأكمله يتخلى فوراً عن مطبخه الوطني ويؤذي قسماً الولاء لمطبخنا، حتى نكون سائقي سيارات أو عشاقاً أو طهاة عظماء، بل علينا ببساطة أن نركن السيارة ونقبل ونخبز أفضل من معظم الأشخاص الآخرين. كيف نعرف إلى أي حد يبلي معظم الأشخاص الآخرين في ذلك البلاء الحسن؟ بالطبع ننظر حولنا لكن من أجل التأكد أن ما نراه هو ما نرغب في رؤيته، علينا أن ننظر إلى الأشياء

حولنا على نحو انتقائي (258). خضع، في إحدى الدراسات مثلا، عدد من المتطوعين إلى اختبار ظاهرنا يقيس حساسيتهم الاجتماعية ثم قيل لهم إنهم أخفقوا في الإجابة عن معظم الأسئلة (259). عندما فُكّن هؤلاء المتطوعين من إلقاء نظرة على نتائج اختبار أشخاص آخرين كان أداؤهم أفضل منهم أو أسوأ، تجاهلوا اختبارات الأشخاص الذين حققوا نتائج أفضل منهم وفي المقابل أمضوا وقتهم في الاطلاع على اختبارات الأشخاص الذين حققوا نتائج أسوأ من نتائجهم. فالحصول على علامة C - ليس أمرا سيئا إذا قارنا أنفسنا حصريا بأولئك الذين أحرزوا علامة D.

هذا الميل إلى البحث عن معلومات تخض أولئك الذين أداؤهم أسوأ منك يتجلى خاصة عندما يكون الرهان عاليا. فالأشخاص الذين يعانون من أمراض خطيرة مثل السرطان من شأنهم أن يقارنوا أنفسهم بأولئك الذين في وضع صحي أسوأ منهم (260) وهو ما يفسر لماذا يدعي 96% من مرضى السرطان في إحدى الدراسات أنهم في صحة أفضل من معدل مرضى السرطان (261). وإذا لم نستطع العثور على أداؤهم أسوأ من أدائنا، بإمكاننا الانطلاق في خلقهم. أتاحت الفرصة لمجموعة من المتطوعين، بعد أن خضعوا لاختبار، لتقديم بعض الإشارات التي قد تساعد أداء أحد الأصدقاء أو تعيقه في الاختبار ذاته (262) ورغم أن المتطوعين ساعدوا أصدقاءهم عندما وُصف الاختبار بأنه لعبة، إلا أنهم عملوا على إعاقتهم بقوة عندما وُصف الاختبار بأنه معيار مهم للقدرة الفكرية. يبدو إذن أنه حينما لا يكون لأصدقائنا استعداد للحصول على المرتبة الأخيرة حتى نتمتع بالمرتبة الأولى، فنحن ندفع بهم بوذ نحو الاتجاه المناسب وحالما نفسد أداءهم ونضمن فشلهم، يصبحون المعيار المثالي للمقارنة. خلاصة القول، أنه قد يكون للدماغ والعين علاقة تعاقدية على أساسها يوافق الدماغ على تصديق ما تراه العين، لكن العين في المقابل توافق على البحث عما يرغب الدماغ فيه.

تحذي الحقائق

سواء أ اخترنا المعلومات أم مصادر تلك المعلومات، فقدرتنا على التلاعب بالحقائق التي نواجهها تساعدنا في تأسيس وجهات نظر ايجابية وذات مصداقية في الآن ذاته. بالطبع، إذا حدث ذات مرة أن ناقشت مباراة كرة قدم أو مناظرة سياسية أو نشرة أخبار الساعة السادسة مع أحد من الجهة المقابلة، فلا بد أنك لاحظت أن الأشخاص حتى عندما يوجهون حقائق تتعارض مع الاستنتاجات التي يحبذونها، لديهم قدرة على تجاهلها أو نسيانها أو النظر إليها بصورة مغايرة عنا جميعا. فعندما يشاهد تلاميذ دارتماوث أو برينستن مباراة كرة القدم ذاتها،

تدعي كلتا المجموعتين من التلاميذ أن الوقائع تثبت بوضوح أن فريق المدرسة الآخر هو المسؤول عن السلوك غير الرياضي (263). وعندما يشاهد الديمقراطيون والجمهوريون نفس المناظرة السياسية على التلفاز، تزعم كلتا المجموعتين من المشاهدين أن الوقائع تثبت بوضوح أن مرشحهم هو الفائز (264). وعندما يرى المشاهدون الموالون لإسرائيل وأولئك الموالون للعرب عينات من التغطية الإخبارية للشرق الأوسط، يدعي أنصار كل جهة أن الوقائع تثبت بوضوح أن الإعلام منحاز إلى الطرف الآخر (265). لكن مع الأسف، الشيء الوحيد الذي تثبته بوضوح هذه الحقائق أن الناس يميلون إلى رؤية ما يرغبون في رؤيته.

ومع ذلك ثقة، حتما، مآت تكون فيها الحقائق القاسية بديهية بشكل يجعلنا عاجزين عن تجاهلها. فعندما يتم اكتشاف أن ظهير الدفاع يضع قبضات حديدية أو عندما يعترف مرشحنا باختلاسه على القناة الوطنية، نجد صعوبة في التغاضي عن مثل تلك الحقائق أو نسيانها، فكيف نفلح في الحفاظ على نتيجة مفضلة عندما لا تساعدنا تلك الحقائق التي لم نتفطن إليها في ذلك؟ رغم أن كلمة حقيقة تشير إلى شيء غير قابل للدحض، إلا أن الحقائق هي في الواقع ليست سوى تخمينات استوفت معايير الإثبات لكن إذا وضعنا معايير عالية بما يكفي، فلا يمكن عندها إثبات أي شيء بما في ذلك «حقيقة» وجودنا. أما إذا كانت المعايير منخفضة بما يكفي، فكل الأشياء صحيحة بنفس القدر. وبما أن العدمية وما بعد الحداثة فلسفتان غير مقنعتين، فنحن نميل إلى وضع معيار الإثبات في مكان ما في المنتصف. لا أحد يستطيع القول بالتحديد أين ينبغي أن يوضع ذلك المعيار، لكن ثمة شيء نعرفه وهو أننا أينما وضعناه، علينا أن نحافظ عليه في نفس المكان عندما نقيم الحقائق التي نفضلها وتلك التي ليست في صالحنا. سيكون من الجائر أن تكون الامتحانات التي يقدمها الأساتذة إلى التلاميذ الذين يحبونهم أسهل من تلك التي يقدمونها للتلاميذ الذين يكرهونهم وأن يفرض المشرعون الفدراليون على المنتجات الأجنبية فحص سلامة أكثر صرامة من ذلك المفروض على المنتجات المحلية أو أن يصز القضاء على أن يصدر محامي الدفاع أحكاما أفضل من المدعي العام.

ومع ذلك، فإن هذا النوع من المعاملة غير المتكافئة هي تلك التي نتعامل بها مع الحقائق التي تؤكد أو تنفي الاستنتاجات التي في صالحنا. طلب من بعض المتطوعين في إحدى الدراسات أن يقيموا بحثين علميين عن مدى نجاعة عقوبة الإعدام وسيلة للردع (266). ففرضت عليهم دراسة بحث استخدمت «تقنية ما بين الولايات» (التي تتضمن مقارنة نسب الجرائم في الولايات التي تعتمد عقوبة الإعدام بنسب جرائم الولايات التي لا تعتمد) ودراسة بحثية أخرى استخدمت «تقنية داخل الولايات» (والتي تتضمن مقارنة نسب الجرائم لولاية واحدة قبل أن

شذعت عقوبة الإعدام أو حضرتها). اعتبر نصف المتطوعين أن خلاصة الدراسة بين الولايات تتمثل في أن عقوبة الإعدام كانت ناجعة أما دراسة داخل الولايات فقد خلصت إلى عكس ذلك. بالنسبة إلى النصف الثاني من المتطوعين فالنتائج معكوسة. بينت النتائج أن المتطوعين فضلوا كل أسلوب أدى إلى الاستنتاج الذي يثبت إيديولوجياتهم السياسية الشخصية. حينما أنتجت تقنية داخل الولايات استنتاجا ليس في صالح المتطوعين أدركوا فوراً أن المقارنات داخل الولايات بلا جدوى لأن وجود عوامل مثل الشغل والدخل تتغير مع مرور الزمن وهكذا فنسب الجريمة في عقد واحد (كالثمانينيات) لا يمكن مقارنتها بنسب الجريمة في عقد آخر (كالتسعينات). لكن عندما أدت تقنية ما بين الولايات إلى استنتاجات ليست في صالحهم، أدرك المتطوعون على الفور أن المقارنات التي حدثت بين الولايات بلا فائدة لأن وجود عوامل مثل الشغل والدخل تتغير بتغير الجغرافيا وهكذا لا تمكن مقارنة نسب الجريمة في مكان ما بالنسب في مكان آخر (267). من الواضح أن المتطوعين رفعوا المعيار المنهجي عالياً أمام الدراسات التي تنفي النتائج التي يحبذونها. هذا الأسلوب ذاته يمكننا من التحلي بنظرة إيجابية وذات مصداقية لأنفسنا وتجارينا والحفاظ عليها. على سبيل المثال، أبلغ بعض المتطوعين في إحدى الدراسات بأن أداءهم في اختبار الحساسية الاجتماعية كان جيداً جداً بينما قيل للبعض الآخر إن أداءهم كان سيئاً للغاية. ثم طلب منهم أن يقيموا تقريرين علميين - أحدهما يشير إلى أن الاختبار دقيق والآخر يعتبر التقرير باطلاً (268) وكانت النتيجة أن المتطوعين الذين كان لديهم أداء جيداً اعتقدوا أن الدراسات التي وردت في التقرير الدقيق استخدمت نظريات علمية أكثر صحة من الدراسات التي وردت في التقرير الباطل، لكن المتطوعين الذين كان أداءهم سيئاً رأوا العكس تماماً.

عندما لا تكون الحقائق في صالح الاستنتاجات التي نحبذها، فنحن نقوم بتفحصها بعناية ونخضعها لتحليل أكثر صرامة. كما أننا نحتاج إلى قدر أكبر منها. مثلاً، كم من المعلومات سنحتاج قبل أن تستنتج أن أحدهم كان ذكياً؟ هل ستكون سجلات المدرسة الثانوية كافية؟ هل سيكون اختبار تقييم الذكاء كافياً؟ هل ستحتاج إلى معرفة رأي المدرسين والموظفين فيه؟ طلب من بعض المتطوعين تقييم درجة ذكاء شخص آخر وكانوا بحاجة إلى أدلة هامة قبل أن يستخلصوا إذا كان الشخص ذكياً أم لا. لكن ما يثير الاهتمام أنهم كانوا بحاجة إلى قدر أكبر من الأدلة عما إذا كان الشخص مزعجاً أكثر مما لو كان شخصاً مرحاً، طيباً وودوداً (269). عندما نرغب في الاعتقاد أن شخصاً من الأشخاص ذكياً، عندها رسالة توصية واحدة ستكون كافية؛ لكن عندما لا نرغب في الاعتقاد في ذلك، فقد نطلب ملفاً سميكاً كاملاً من السجلات والنصوص

يحدث الشيء ذاته تماما عندما نرغب في الاعتقاد أولا نرغب في شيء يتعلق بنا. لنسق مثلا هنا، ورد في إحدى الدراسات أن مجموعة من المتطوعين ذعيت للخضوع لاختبار طبي من المفترض أن يكشف لهم عفا إذا كانوا يعانون من مرض نقص إنزيم الذي من شأنه أن يعرضهم إلى اضطرابات البنكرياس (270). وضع المتطوعون بعضا من لعابهم على شريط ورقة عادية ادعى الباحثون كذبا أنه شريط اختبار طبي. ثم قيل لبعض المتطوعين (من كانت نتيجة اختبارهم ايجابية) إنه إذا تحوّل لون الشريط إلى الأخضر خلال عشر ثوان أو ستين ثانية، فهذا يعني أنهم مصابون بنقص إنزيم. في المقابل أبلغ بقية المتطوعين (من كانت نتيجة اختبارهم سلبية) أنه إذا تحوّل لون الشريط إلى اللون الأخضر خلال عشر ثوان أو ستين ثانية، فهذا يعني أنهم لا يعانون من نقص إنزيم. رغم أن الشريط كان مجرد قطعة من الورق، عندئذ لا يمكن أبدا أن يتحوّل إلى اللون الأخضر، إلا أن المتطوعين الذين كان اختبارهم سلبيا ظلوا ينتظرون لوقت أطول من ذوي الاختبار الايجابي قبل أن يقرروا نهايته، بعبارة أخرى منح المتطوعون شريط الاختبار الكثير من الوقت قبل أن يُثبت كونهم بخير وأقل وقت بكثير قبل أن يتأكدوا أنهم مرضى. من الواضح، أن إقناعنا بأننا أذكاء وأصحاء لا يتطلب وقتا طويلا، لكن إثبات العكس يستلزم الكثير من الحقائق. إننا لتساءل عفا إذا كانت الحقائق تمكّنا من تصديق النتائج التي نحبّها أو تفرض علينا أن نصدق النتائج التي لا نرغب فيها (271). لا عجب أنه من الصعب على النتائج غير المفضّلة لدينا أن تفي بمعيار الإثبات الأكثر صرامة هذا (272).

إلى الأمام

في شهر يوليو من سنة 2004، اتّخذ المجلس البلدي لمدينة مونزا بايطاليا خطوة غير مسبوقة في حظر أحواض الأسماك الذهبية. كان المنطق خلف ذلك أن الأسماك الذهبية يجب أن توضع في أكوابيوم مستطيل الشكل وليس في أحواض دائرية لأن «للسمكة المحفوظة في حوض نظرة مشوّهة عن الواقع وتعاني جزاء ذلك» (273). مثلما لم يذكر أبدا الغذاء الذي بلا طعم ولا ضجيج مضخّة الماء ولا القصور البلاستيكية الرديئة. كلاً، فالمشكلة كانت تكمن في أن الحوض الدائري يشوّه تجربته ساكنيه البصريّة وأن الأسماك الذهبية لديها الحق في رؤية العالم كما هو. لم يشر مستشارو مونزا الطبيين إلى أنه ينبغي على البشر التمتع بالحق ذاته أيضا، ربّما لأنهم يعلمون أن تصوراتنا المشوّهة عن الواقع لا يمكن أن تتبدّد بسهولة أو ربّما لأنهم أدركوا أن معاناتنا في وجودها أقل من معاناتنا في غيابها. إن التصورات المشوّهة التي نملكها عن الواقع يمكن أن تتحقّق نتيجة لالتباس تجارينا- أي أنه يمكن اعتبارها ذات مصداقية من نواح عدّة،

بعضها أكثر ايجابية من الأخرى. وحتى نضمن مصداقية تصوراتنا، تقبل أدمغتنا ما تراه أعيننا وحتى نضمن أن تكون تصوراتنا ايجابية، تبحث أعيننا عما ترغب فيه أدمغتنا. يُمثل هذا التواطؤ بين هذين العضوين نقطة الارتكاز التي تخلق لنا توازنا بين الواقع القاسي والوهم المريح. ما علاقة هذا إذن بتنبؤ عواطفنا بالمستقبل؟ مثلما سنرى، قد نعيش في تلك النقطة بين الواقع والوهم، لكن معظمنا لا وعي لديه بموقعه.

الفصل التاسع بمنأى عن الواقع

بظهري لأحمي بطني؛ بذكائي لأحمي جيلي؛

بكتماني لأحمي شرفي؛ بقناعي لأحمي جمالي

شكسبير، ترويلوس وكريسيدا

قد يكون ألبرت أنشتاين أعظم عبقرى في القرن العشرين، لكن القليل من الأشخاص يعلمون أنه كان على مسافة قريبة جدًا من فقدان مكانته المرموقة لصالح حصان. كان ويلهيلم فون أوستن مدرسًا متقاعدًا، عندما ادعى سنة 1891 أن حصانه، الذي سقاه كليفر هانس، يستطيع الإجابة عن أسئلة تتعلق بالأحداث الراهنة وبالرياضيات وعدد من المواضيع الأخرى عبر الخبط بحافره الأمامي على الأرض. على سبيل المثال، عندما يطلب أوستن من كليفر هانس أن يضيف ثلاثة إلى خمسة، ينتظر الحصان حتى ينهي سيده طرح السؤال، ثم يضرب الأرض بحافره ثمان مرات ثم يتوقف. وأحيانًا يكتب أوستن السؤال على بطاقة، عوضًا عن طرحه، ويرفعها لكليفر هانس ليقرأها، فيبدو أنه يفهم اللغة المكتوبة تمامًا مثلما يفهم الكلام المنطوق. طبعًا، لا يقدم كليفر هانس إجابة صحيحة عن كل سؤال لكنه يقدم أداة أفضل بكثير من كل من لديه حوافر، وعروضه أمام الجمهور كانت بديعة وسرعان ما أصبح محظ حديث برلين. لكن في سنة 1904، أرسل مدير معهد برلين لعلم النفس تلميذه أوسكار بفونجست ليدرس المسألة بعناية أكبر. فلاحظ بفونجست أن احتمال تقديم كليفر هانس لإجابة خاطئة عندما يكون أوستن واقفا وراء الحصان أكبر من احتمال حدوث ذلك عندما يقف أمامه أو عندما يكون أوستن نفسه لا يعرف الإجابة عن السؤال الذي طرح على الحصان. كان بفونجست قادرًا، في سلسلة من التجارب، على إثبات أن كليفر هانس تمكنه القراءة فعلاً-لكن ما كان تمكنه قراءته ه لغة أوستن الجسدية. فعندما ينحني أوستن قليلاً، يشرع كليفر هانس في خبط حافره وعندما يقف أوستن مستقيماً أو يميل برأسه بعض الشيء أو يرفع أحد حاجبيه قليلاً، يكف كليفر هانس عن ذلك. بعبارة أخرى، كان أوستن يشير إلى كليفر هانس أن يبدأ الخبط ويكف عن ذلك في اللحظات المناسبة تحديداً لخلق وهم الحس السليم.

لم يكن كليفر هانس عبقرى، وفي المقابل لم يكن أوستن مخادعاً. في الحقيقة، لقد قضى سنوات يتحدث بصبر إلى حصانه عن الرياضيات وشؤون العالم، فضدم كثيراً ودُعر لدى اكتشافه أنه كان يخدع نفسه والآخرين. كان الخداع متقناً وفعالاً، لكن ارتكابه لم يكن مقصوداً،

وفي هذا لم يكن أوستن حالة فريدة. فعندما نقتصر على الحقائق التي نحبها ونلاحظها ونتذكرها ونحللها وفق معيار إثبات منخفض، فنحن لسنا أكثر وعياً من أوستن بقيامنا بتلك الحيلة. قد نشير إلى الأساليب التي يقوم من خلالها جهاز المناعة النفسي بوظائفه كـ«التكثيك» أو «الاستراتيجيا»، لكن هذه المفردات -بما لها من دلالات حتمية على التخطيط والتعمد- لا ينبغي أن تجعلنا نفكر بالناس كونهم مخادعين ومتلاعبين يحاولون عن قصد إنتاج تصورات ايجابية عن تجربتهم الخاصة. على العكس من ذلك، يشير الباحثون إلى أن الناس عادةً يجهلون الأسباب التي تدفعهم إلى فعل ما يفعلونه (274)، لكنهم عندما يُسألون عن السبب، يجيبون فوراً (275). على سبيل المثال، عندما يشاهد بعض المتطوعين شاشة الكمبيوتر حيث تظهر بعض الكلمات لبعض أجزاء من الثانية، لا يدركون أنهم رأوا الكلمات ولا يقدرّون على تخمين أي الكلمات رأوا. لكنهم يتأثرون بها، فلما تبرز كلمة عدائي، يحكم المتطوعون على الآخرين بسلبية (276) وحينما تبرز كلمة مسنّ، يمشي المتطوعون ببطء (277) وعندما تبرز كلمة غبي، يقدم المتطوعون أداءً ضعيفاً في الاختبار (278). عندما طلب من هؤلاء المتطوعين لاحقاً أن يشرحوا لماذا حكموا ومشوا بتلك الطريقة وأحرزوا تلك النتيجة، حدث شيان اثنان: أولاً، لم يعرفوا السبب وثانياً لم يقولوا «لا نعرف». بل سرعان ما قيمت أدمغتهم تلك الحقائق التي كانوا على وعي بها («لقد مشيت مشياً بطيئاً») واستخلصوا الأنواع نفسها من الاستنتاجات المقنعة عن أنفسهم التي قد يستخلصها كل ناضر إليهم («أنا متعب»)، رغم أنها استنتاجات خاطئة (279).

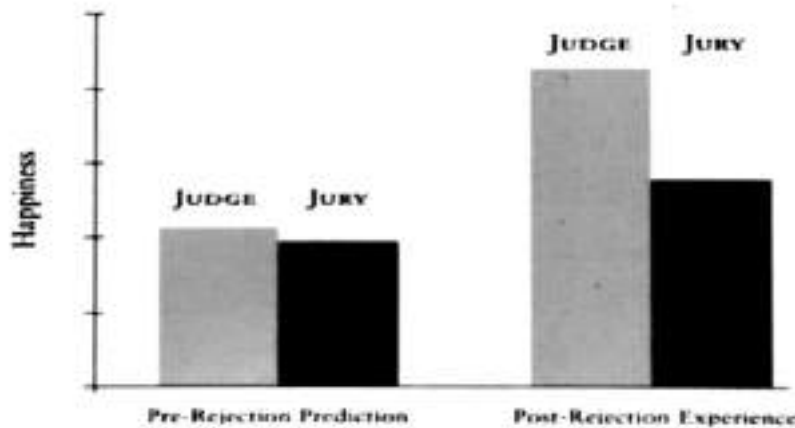
عندما نتلاعب بالحقائق، نحن كذلك لا نعي سبب قيامنا بذلك، وقد تبين أن هذا أمر جيد لأن المحاولات المتعمدة لإنتاج تصورات ايجابية («لا بد أنه ثقة شيء جيد يتعلّق بالإفلاس، ولن أغادر هذا المقعد حتى أكتشفه») تحمل بذور تفككها في داخلها. استمع مجموعة من المتطوعين إلى مقطوعة سترافينسكي الموسيقية «طقوس الربيع» (280) وطلب من بعضهم أن يصفوا إلى الموسيقى والبعض الآخر أن يصفوا إلى الموسيقى بينما يحاولون تمثّل حالة من السعادة وهم في حالة وعي. لدى انتهاء الاستراحة الموسيقية، كان المتطوعون الذين حاولوا أن يكونوا سعداء في مزاج أسوأ من المتطوعين الذين استمعوا إلى الموسيقى فحسب. لماذا؟ ثقة سببان. أولاً: قد يكون بوسعنا إنتاج تصورات ايجابية عن تجاربنا الخاصة بشكل متعمد لو أغمضنا أعيننا وجلسنا جلسة هادئة دون أن نقوم بأي شيء آخر (281). لكن البحث أثبت أنه لو حدث أي شيء شتت انتباهنا بعض الشيء، فستؤثر تلك المحاولات المتعمدة فينا بشكل عكسي وسينتهي الأمر بنا ونحن نشعر بشكل أكثر سوءاً من ذي قبل (282). ثانياً: إن المحاولات

المقصودة للتلاعب بالحقائق شفاة جدا إلى حد أنها تجعلنا نشعر بالوضاعة. بالتأكيد، نحن نرغب في تصديق أننا أفضل دون خطيبنا الذي تركنا في ليلة الزفاف، وسرعان ما سنشعر بأننا أفضل عندما نبدأ باكتشاف الحقائق التي تدعم هذا الاستنتاج («لم تكن مناسبة لي أبدا، أليس كذلك يا ماما؟»)، لكن لا بد أن نشعر بأن الطريقة التي اكتشفنا من خلالها تلك الحقائق كانت بمثابة الاكتشاف لا الحيلة. فلو رأينا أنفسنا ونحن نتلاعب بالحقائق («إننا صفت السؤال بهذا الشكل بالضبط ولم أسأل أحدا عدا أمي، فسأحظى بفرصة جيدة جدا لتأكيد الاستنتاج المحبذ لدي»)، عندها ستكشف الخدعة وستتحقق صفة مخدوع بصفة مهجور على قائمة الصفات البائسة). وحتى تكون التصورات الايجابية ذات مصداقية، لا بد أن تستند إلى حقائق توصلنا إليها بصدق ولن يتحقق ذلك إلا عند التلاعب بالحقائق دون وعي ثم عند استهلاكها بوعي، كأن يكون العشاء في غرفة الطعام والطاهي في القبو. إن فائدة كل هذا التلاعب غير الواعي تكمن في أن ذلك يوصلنا إلى نتائج ايجابية؛ لكن الثمن الذي ندفعه مقابل ذلك يتمثل في أنه يجعلنا غرباء عن أنفسنا. دعوني أبين لكم كيف يحدث هذا.

التشوف إلى استعادة الماضي

حسب معرفتي، لم يقم أحد بدراسة منهجية حول الأشخاص الذين تخلى عنهم خطيب جبان ليلة زفافهم، لكنني مستعد للمراهنة بقينية نبيذ أنك إذا جمعت عينة سليمة من العرائس والعريسان اللذين على وشك الزواج وسألتهم إذا كانوا سيصفون الحادثة كـ: «أسوأ ما حصل لي» أو كـ: «أفضل ما حدث لي»، سيقز أكثرهم بالوصف الثاني. وسأراهن على صندوق كامل من ذلك النبيذ أنك إذا عثرت على عينة من الأشخاص الذين لم يسبق لهم أن عاشوا تلك التجربة قط وطلبت منهم أن يتنبؤوا: بأي واحدة من كل تجاربهم المحتملة في المستقبل من المرجح أن يسترجعوا ما جرى معهم في الماضي كـ: «أفضل ما حدث لي على الإطلاق»، فلا أحد منهم سيقول: مثلا: «أن يهجروني أحدهم». فالتعزز للهجر، مثل الكثير من الأشياء، يعتبر أشد إيلاما إذا تخيلنا حدوثه في المستقبل وأكثر إيجابية عندما يكون جزءا من الماضي. وحينما نتأمل فكرة أن يتخلى عنا أحد ما بتلك الطريقة، عادة ما نتج التصور الأكثر فظاعة للتجربة؛ لكن حالما نعيش ذلك الألم والشعور بالإهانة في الواقع أمام عائلتنا وأصدقائنا وباعة الزهور، تشرع أدمغتنا في البحث عن تصور أقل فظاعة -وكما رأينا، فالدماغ البشري زيون ذكي. لكن أدمغتنا تبحث عن تلك التصورات بشكل لا واع، لذلك نميل إلى عدم الإدراك بأنها تقوم بذلك أصلا، ونفترض بارتياح أن التصور الفظيع الذي سيكون لدينا عندما نتطلع إلى الحدث في المستقبل هو التصور ذاته الذي سيكون لدينا عندما نلقي نظرة على ذلك الحدث في الماضي. باختصار، نحن لا ندرك أن تصوراتنا ستتغير لأننا عادة غير مدركين للأساليب التي تغيرها.

قد تجعل هذه الحقيقة الأمر أكثر صعوبة حينما يتعلّق بالتنبؤ بمستقبلنا العاطفي. في إحدى الدراسات، أُتيحت الفرصة لعدد من المتطوّعين أن يتقدّموا لوظيفة براتب جيد لا يتضمّن شيئا عدا تذوق الآيس كريم واختراع أسماء مضحكة له (283). تطلّبت إجراءات الطلب أن يجري المتطوّع مقابلة أمام الكاميرا وأبلغ بعض المتطوّعين أن مقابلتهم سيرها حُكْم يتمتّع بالسلطة التقديرية في تقرير إن كان سيحصل على الوظيفة أم لا (مجموعة الحكيم)، أما بقية المتطوّعين فقد أعلموا بأن مقابلتهم ستطلع عليها لجنة تحكيم، سيصوّت أعضاؤها على قرار توظيفهم (مجموعة لجنة الحكيم). قيل لمجموعة لجنة الحكيم إن حصولهم على الوظيفة يتوقّف على تصويت عضو واحد فقط - وهكذا فإنّ الظرف الوحيد الذي قد يحول دون توظيفهم هو أن يصوّت الأعضاء بالإجماع على رفضهم. أجرى كل المتطوّعين إنز المقابلة وتنبؤوا جميعا بشعورهم إذا لم يحصلوا على الوظيفة. بعد بضع دقائق، ظهر الباحث في الحجرة وشرح لهم بنبرة اعتذار أن الحُكْم ولجنة الحكيم، بعد مداوات دقيقة، قرروا أن المتطوّع لم يكن مناسباً تماماً للوظيفة، ثم سأل الباحث المتطوّعين بعد ذلك أن يصفوا شعورهم.



رسم رقم 19. كان شعور المتطوّعين بالسعادة لدى رفضهم من قبّل حكيم متقلّب المزاج أكبر من سعادتهم برفضهم بالإجماع من قبّل لجنة تحكيم (أنظر الشرائط على اليمين)، غير أنه لم يكن بوسعهم توقّع تلك اللحظات قبل وقوعها (أنظر الشرائط على اليسار).

تظهر نتائج الدراسة في الرسم رقم 19، كما تظهر الشرائط التي على اليسار، توقّع المتطوّعون في المجموعتين أن يشعروا بنفس القدر من السعادة. فعلى أية حال يشبه الرفض لكلمة على الأنف ونحن نتوقّع أن تؤلمنا سواء أ كان من سدد لنا تلك اللكمة حكماً أو لجنة تحكيم أو عصابة من الحاخامات الأورثودوكس. ومع ذلك، وكما تشير الشرائط على اليمين، كانت اللكمات أكثر إيلاماً عندما سددتها لجنة تحكيم. لماذا؟ تخيل أنك تقدّمت لطلب وظيفة عارض/ة أزياء

مايوهات، وهو ما يتطلب منك أن ترتدي زياً ضيقاً وتعرضه جيئة وذهاباً أمام شخص أبه يرتدي بدلة بقيمة ثلاثة دولارات ويرمقك بنظرة حادة، إذا نظر الأبله إليك وحزك رأسه قائلاً: «أسف، لكك لا تصلح للعمل عارض/ة»، قد تشعر بالسوء لدقيقة أو دقيقتين، لكنه ذلك النوع من الرفض الذي يحدث بين الأشخاص ويتعرض له الجميع من حين إلى آخر، وبعد بعض الدقائق، يتجاوزه معظمنا ونواصل حياتنا بشكل عادي. فسرعان ما نقوم بهذا لأن جهاز مناعتنا النفسي لا يجد مشقة في العنور على طرق يستغل من خلالها التباس التجربة ويخفف من وطأتها: «لم يكن الرجل منتبهاً إلى حركاتي الاستثنائية على المنصة» أو «إنه واحد من أولئك الأشخاص غريب الأطوار الذين يفضلون الطول على الوزن»، أو «هل من المفترض أن أحصل على نصيحة تخض الموضة من رجل يرتدي بدلة كلك؟».

الآن تخيل أنك ستعرض ذلك اللباس الضيق أمام غرفة مليئة بالناس بعضهم رجال وبعضهم نساء وبعضهم مسنون وبعضهم شباب- وكلهم يرمقونك ويحزكون رؤوسهم بانسجام. من المحتمل أن تشعر بالسوء، بالسوء فعلاً، وبالإهانة وبالأنى وبالاضطراب. قد تسرع في النزول من المنصة وأنت تشعر بحرارة في أذنك وجفاف في حنجرتك ودمع في عينيك. فأن ترفضك مجموعة كبرى ومتنوعة من الأشخاص تمثل تجربة محبطة لأنها تجربة لا لبس فيها وحينئذ من الصعب على جهاز المناعة النفسي أن يعثر على طريقة ايجابية وذات مصداقية لمعالجتها. من السهل تعليق فشلك على غرابة أطوار الحكم، لكن الأشد صعوبة هو تعليق فشلك على لجنة تحكيم بأكملها صوّتت ضدك بالإجماع، فمزاعم كـ: «لم يمعن أربعة وتسعون شخصاً النظر إلى استعراضى على المنصة في اللحظة ذاتها» لا تتمتع بمصداقية، وعلى نحو مماثل، من الأسهل على المتطوعين في هذه الدراسة إلقاء اللوم في رفضهم على حكم غريب الأطوار من إلقائه على لجنة من الحكام، وهو ما يسبب شعورهم بالسوء عندما ترفضهم لجنة تحكيم كاملة.

الآن، قد يبدو كل هذا واضحاً على نحو مؤلم بالنسبة إليك وأنت تتأمل نتائج هذه الدراسة من موقعك المريح على أريكتك الوثيرة، لكن دعني أشير إلى أن الأمر لا يكون واضحاً على نحو مؤلم إلا إذا وجه أحدهم ذلك الأذى نحوك أنت. في الحقيقة، إذا كان الأمر حقاً بديهاً على نحو مؤلم، لماذا إذن عجزت زمرة من المتطوعين عن التنبؤ بحدوث ذلك قبل بضع دقائق فقط من حدوثه؟ لماذا لم يدرك المتطوعون أنهم سيقومون بإلقاء اللوم على الحكم أكثر من لجنة التحكيم؟ إن السبب يكمن، باختصار شديد، في أنه عندما طلب من المتطوعين التنبؤ بردود أفعالهم العاطفية تجاه الرفض، تخيلوا تأثيره الحاد فيهم ولم يمشوا أبعد من ذلك في تخيل إمكانية أن تخفف أدمغتهم من حدة ذلك التأثير. فضلاً عن أنهم لم يدركوا أن بإمكانهم التخفيف من معاناتهم عبر إلقاء اللوم على من تسببوا فيها ولم يخطر ببالهم أنه سيكون بوسعهم فعل

ذلك إذا كان المسؤول شخصا واحدا أكثر مما لو كانت مجموعة كاملة. أكدت دراسات أخرى هذا الاستنتاج العام، فالناس مثلا يتوقعون أنهم سيشعرون بالسوء ذاته سواء أ كان الحادث المأساوي نتيجة للإهمال البشري أم نتاج سوء الحظ، لكنهم في الحقيقة يشعرون شعورا أسوأ عندما يكون الأمر مجرد سوء حظ(284).

إن الجهل بأجهزة مناعتنا النفسية يجعلنا نتوقع على نحو خاطئ الظروف التي سنلقي بناء عليها باللوم على الآخرين، لكنها تجعلنا كذلك نخطئ في توقع الظروف التي ستدفع بنا إلى لوم أنفسنا(285). من يستطيع أن ينسى ذلك المشهد السينمائي في نهاية سنة 1942 من فيلم كازابلانكا عندما كان هامفري بوغار وإنغريد بورغمان يقفان على مدرج الإقلاع بينما كانت إنغريد غير قادرة على اتخاذ قرار هل تبقى في كازابلانكا مع الرجل الذي تحب أو تصعد إلى الطائرة وترحل مع زوجها؟ التفت بوغي لبيرغمان قائلاً: «في داخلنا، كلانا يعلم أن مكانك مع فيكتور. أنت جزء من عمله، والشيء الذي يعطيه دفعا كي يستمر. إذا أقلعت تلك الطائرة وأنت لست معه، فستندمين. ربما ليس اليوم وربما ليس غدا. لكن سرعان ما ستندمين وحتى آخر يوم من حياتك»(286).

إن هذا الجزء الصغير من الميلودراما هو واحد من بين أكثر المشاهد خلودا في تاريخ السينما -ليس لأن أداءه كان رائعا أو لأنه كُتب بشكل جيد بل لأننا جميعا نمزّ بذلك الموقف من حين إلى آخر. إن الخيارات الأكثر مفصلية في حياتنا- سواء أ نوبنا الزواج أم إنجاب الأطفال أو شراء منزل أو الحصول على وظيفة أو الهجرة إلى بلد آخر- غالبا ما تتشكل عبر كيفية تخيلنا الندم في المستقبل. (أوه كلاً، لم أفكر في إنجاب طفل!). الندم شعور نحسه عندما نلوم أنفسنا على النتائج المؤسفة التي كان من الممكن تفاديها لو تصرفنا على نحو مغاير في الماضي، ولأن ذلك الشعور بلا شك شعور مؤلم، فسلوكنا في الحاضر يكون غالبا مُصمماً على نحو يجعلنا نتحاشاه(287). في الحقيقة، لدى معظمنا أساليب عدة تمكّننا من تحاشي تلك التجربة. على سبيل المثال، سنشعر بالندم إذا علمنا بوجود بدائل لخياراتنا أكثر مما نشعر به لو لم يكن لدينا تلك البدائل(288). وعند قبولنا بنصيحة سيئة أكثر مما لو رفضنا نصيحة مفيدة(289)، وعندما تكون خياراتنا السيئة غير مألوفة أكثر مما لو كانت تقليدية(290)، وعندما نفشل بفارق ضئيل أكثر مما لو فشلنا بفارق واسع(291).

لكن هذه الأساليب تكون أحيانا خاطئة. لنأمل هذا السيناريو: تخيل أنك تملك أسهما في شركة لنسفها شركة A. خلال السنة الفارطة فكرت في نقل أسهمك إلى الشركة B ثم عدلت

عن ذلك والآن اكتشفت أنك كنت ستجني \$ 1.200 أكثر لو حوّلت أسهمك إلى الشركة B. تخيل أيضا أن لديك أسهما في الشركة C وخلال السنة الماضية، حوّلت أسهمك إلى الشركة D والآن اكتشفت أنك كنت ستربح \$1.200 لو حافظت على أسهمك في الشركة C. فأني من هذين الخطأين قد يسبب لك شعورا بالندم؟ تثبت الدراسات أن تسعة من عشرة أشخاص يتوقّعون أنهم سيشعرون بالندم لو تصرّفوا بغباء ونقلوا أسهمهم أكثر مما لو فشلوا في نقلها، لأنّ معظم الناس يظنون أنهم سيندمون على الفعل الأحمق أكثر من التّقاعس الأحمق عن القيام بالفعل (292). لكنّ الدراسات تبين أيضا أن تسعة من عشرة مخطنون في هذا الاعتقاد. في الحقيقة، وعلى المدى البعيد، يبدو أنّ الأشخاص من كلّ الأعمار ومن كلّ الخلفيات يندمون على أفعال قاموا بها، وهو ما يفسّر لماذا أكثر الأفعال التي يندم عليها الناس شيوعا هي عدم الذهاب إلى الكلية وعدم اقتناص الفرص التجاريّة المربحة وعدم قضاء ما يكفي من الوقت مع العائلة والأصدقاء (293).

لكن لماذا يندم الناس على التّقاعس عن إنجاز الفعل أكثر من إنجازه؟ يكمن أحد الأسباب في أنّ جهاز المناعة النفسي يجد صعوبة أكبر في تصنيع تصوّرات ايجابية وذات مصداقية لعدم إنجاز الفعل أكثر من الفعل (294). عندما تجعلنا أفعالنا نقبل بطلب زواج تقدّم به شخص أصبح لاحقا قاتلا بواسطة استخدام فأس يمكننا أن نواسي أنفسنا من خلال التفكير في كلّ الأشياء التي تعلّمناها من التجربة («جمع الفؤوس ليست هواية صحيّة»). لكن عندما يجعلنا عدم القيام بالفعل نرفض طلب زواج من شخص أصبح لاحقا نجم سينما، لا يمكننا موااساة أنفسنا بالتفكير بكلّ الأشياء التي تعلّمناها من التجربة لأننا.....حسنا، لم نتعلّم شيئا. تبدو المفارقة جليّة هنا: فعدم إدراكنا مدى قدرة جهاز مناعتنا النفسي على تبرير الإفراط في الشجاعة أكثر من الإفراط في الجبن، يجعلنا نحمي أنفسنا من اتّخاذ القرار الخاطئ حينما نرتكب المزيد من الحماقات. فمتلما يتذكّر طلبة الشاشة الفضية، أذى تحذير بوغارت لبرغمان بشأن إمكانيّة ندمها في المستقبل، إلى صعودها على الطائرة والطيران بعيدا مع زوجها. لو بقيت مع بوغي في كازابلانكا، ربّما كانت ستكون على ما يرام، قد لا يحدث ذلك بشكل فوري، لكن سرعان ما سيحدث وبقية حياتها.

محفّزات صغيرة

دفعت الشعوب المتحضّرة ثمنا باهظا حتى تتعلم أنّ مجموعة من الأفراد الجائرين قد يسبّبون موتا وخرابا أكثر من جيش غاز. فإذا أطلق عدوُّ منات الطائرات والصواريخ على الولايات المتحدة الأمريكيّة، من المحتمّ ألاّ تصل أيّ منها إلى هدفها، ذلك أنّ عملية هجومية

بذلك الحجم ستدفع بالأجهزة الدفاعية الأمريكية إلى التحرك، والتي من المفترض أنها قادرة على القضاء على ذلك الخطر. في المقابل، إذا بعث العدو سبعة أشخاص بسرًا وفضافة وقبعات بيسبول، قد يبلغ أولئك الرجال أهدافهم ويفجرون القنابل ويطلقون السموم ويختطفون طائرات يستهدفون بها مباني عالية. إن للإرهاب استراتيجيا تقوم على فكرة أن أفضل هجوم هو ذلك الذي يفشل في تحفيز أفضل دفاع وأن الغارات محدودة النطاق من المحتمل ألا تؤدي إلى إطلاق أجراس الإنذار كما تفعل الغارات التي تحدث على نطاق واسع. رغم أنه من الممكن تصميم جهاز دفاعي يواجه حتى أصغر خطر (مثلا: إقامة سياج مكهرب على الحدود أو استعمال المراقبة الالكترونية أو عمليات البحث العشوائية) إلا أن مثل تلك الأجهزة باهظة التكلفة من ناحية الموارد اللازمة لتشغيلها وعدد الإنذارات الكاذبة التي تسببها. إن إعداد جهاز كذاك الجهاز أمر مبالغ فيه، فكي يكون جهاز الدفاع ناجعا، عليه أن يواجه الأخطار؛ لكن حتى يكون عمليا، عليه ألا يواجه إلا تلك المخاطر التي تتخطى عتبة الخطر- أي أن التهديدات التي لا ترقى إلى عتبة الخطر قد يكون لها قوة تدميرية لا تتناسب مع حجمها الضئيل. فعلى عكس الأخطار الكبرى، يمكن للأخطار الصغرى أن تتسلل خارج نطاق مراقبة الرادار.

حافز التجارب الحادة

إن جهاز المناعة النفسي هو جهاز دفاعي ويخضع لنفس المبدأ. عندما تسبب لنا التجارب التي نمر بها التعاسة، يتلاعب جهازنا المناعي بالحقائق ويلقي اللوم على شيء آخر حتى يمنحنا تصوورا أكثر ايجابية، غير أنه لا يفعل هذا في كل مرة نشعر فيها بوخز الألم أو الغيرة أو الغضب أو الإحباط. تُعد تجارب الزواج الفاشلة وفقدان الوظيفة من أكبر الهجمات التي تهز سعادتنا والتي تحفز دفاعات جهاز مناعتنا النفسي. لكن هذه الدفاعات لا تثيرها الأقلام المكسورة أو أصابع القدم لدى اصطدامها بشيء ما أو المصاعد البطيئة. قد تكون الأقلام المكسورة شيئا يثير الانزعاج لكنها لا تشكل تهديدا خطيرا لسلامتنا النفسية ومن ثمة فهي لا تحفز دفاعاتنا النفسية. إن المفارقة التي تنتج عن هذه الحقيقة تكمن في أن تحقيق تصوّر إيجابي عن تجربة سيئة يكون أحيانا أكثر صعوبة من تحقيق ذلك التصوّر الإيجابي عن تجربة سيئة جدا.

على سبيل المثال، دعي بعض المتطوعين، وكانوا تلاميذ، إلى الانضمام إلى ناد خارج نطاق المناهج الدراسية وكان من طقوس البداية أن يتلقوا ثلاث صدمات كهربائية (295)، فكانت التجربة بالنسبة إلى البعض منهم فظيعة لأن الصدمات التي تلقوها كانت قوية جدا (مجموعة البداية القاسية)، بينما كانت التجربة بالنسبة للمجموعة الأخرى مزعجة على نحو طفيف لأن

الصدمة التي تلقوها كانت خفيفة نسبياً. (مجموعة البداية الخفيفة) ورغم أنكم قد تتوقعون نفور الناس من كل ما يتعلق بالألم الجسدي، إلا أن المتطوعين في مجموعة البداية القاسية في الواقع أحبوا النادي أكثر. ذلك أنهم عندما تعرّضوا لقدر كبير من الألم، حفّزت شدة ألمهم أجهزتهم الدفاعية التي شرعت بدورها على الفور في العمل على مساعدتهم في خلق تصوّر ذهني إيجابي وذي مصداقية عن تجربتهم. ليس من السهل العثور على ذلك التصرّو لكنه أمر ممكن. مثلاً، الألم الجسدي شيء قاس («أوه يا إلهي، إنّ هذا مؤلم حقاً!»)، لكنه ليس قاسياً تماماً إذا كان مصدر الألم شيئاً ذا قيمة كبيرة («لكنني سأنضم إلى مجموعة نخبوية من أشخاص مميزين»). وفعلاً، يبيّن البحث أنّ الأشخاص عندما يتعرّضون لصدمة كهربائية، يشعرون بقدر أقل من الألم حينما يعتقدون أنهم يعانون في سبيل شيء ذي قيمة (296). فالصدمة شديدة القوة مؤلمة بما يكفي لتحفيز الدفاعات النفسية للمتطوعين، خلافاً للصدمة الخفيفة. عندئذ يمنح المتطوعون النادي قيمة أكبر عندما تكون البداية أشدّ إيلاًماً (297). إذا استطعت أن تغفر لزوجتك ارتكابها إساءة فظيعة لكنك لازلت تشعر بالحنق بسبب اصطدام سيارتك بباب المرآب أو بسبب أثر الجوارب المتسخة على الدرج، فقد مررت بهذه المفارقة.

خلافاً للألم الطفيف، فإنّ المعاناة الشديدة تحفّز العملية ذاتها التي تزيلها، وقد تؤنّي هذه الحقيقة غير المتوقعة إلى صعوبة توقّع عواطفنا في المستقبل. على سبيل المثال: أيهما أسوأ بالنسبة إليك، أن يشتمك صديقك أو يشتم ابن عمك؟ مهما كان مقدار حنك لابن عمك، فلا بد أنّك تحبّ نفسك أكثر، ومن ثقة فمن المحتمل أن تعتبر أنه من الأسوأ أن تُوجه تلك الإساءة إليك. وأنت على حق، ستكون أسوأ. لكن ذلك يحدث في البداية فحسب. فإذا كان الألم الشديد، لا الخفيف، يحفّز جهاز المناعة النفسي لديك، عندها من المحتمل أنّك، بمرور الوقت، إذا كانت تلك الإساءة موجهة ضدك («نعتتني فيليبسيا بالصبي الغبي... لكنها أحياناً تضحكني») ستكون أكثر ميلاً إلى خلق تصوّر إيجابي ممّا لو كانت موجهة ضد ابن عمك («نعتت فيليبسيا ابن عمي بالغبي... حسناً إنها على حق، بالطبع، لكنه لم يكن لطيفاً منها قول ذلك»). تكمن المفارقة هنا في أنّك قد تشعر في النهاية بأنك أفضل عندما تكون ضحية إساءة ممّا لو كنت شاهداً عليها.

لقد تحققت إحدى الدراسات من مدى صحة هذه الفرضية حيث خضع متطوعان لاختبار الشخصية ثم تلقى أحدهما تقييماً من أحد علماء النفس (298). كان التقييم مهنيّاً وتفصيلياً وسلبيّاً إلى أبعد حد، فكان يتضمّن جملاً ك: «ليس لديك ما يكفي من الخصال التي تميزك عن الآخرين» و«إنّ الناس يحبونك بالأساس لأنك لا تنافسهم في الكفاءة». قرأ كلا المتطوعين التقييم ثم عبّرا عن مدى إعجابهما بما كتب عالم النفس. لكن من المفارقة أنّ المتطوع الذي كان

ضحية التقييم السلبي أعجب بعالم النفس أكثر من المتطوع الذي كان مجرد شاهد على ذلك. لماذا؟ لأن الشاهد كان منزعجا («يا رجل، انْ ما حدث للمتطوع الآخر أمر فظيع») غير أن ذلك لم يسبب له الإحباط وبذلك فإن جهاز مناعته النفسي لم يفعل شيئا للتخفيف من أحاسيسه السلبية الطفيفة. لكن الضحية كان محبطا («يا إلهي، هذه شهادة بأني فاشل!»)، وهكذا فقد شرع دماغه فوراً في البحث عن تصوّر إيجابي عن لتجربة («لكن الآن بعد أن فكّرت في الأمر، لا يمكن لذلك الاختبار إلا أن يقدم لمحة صغيرة عن شخصيتي المعقدة، لذلك أشك في وجاهته»). الآن، الاستنتاج المهم هو الآتي: عندما طلب من مجموعة جديدة من المتطوعين أن يتوقعوا إلى أي مدى سيعجبون بعالم النفس ذاك، توقعوا أن إعجابهم به سيكون أقل درجة إذا كانوا ضحايا لتقييمه مفا لو كانوا مجرد شهود. يبدو أن الأشخاص لا يدركون حقيقة أن قدراتهم الدفاعية يحفزها الألم الشديد أكثر من ذلك الألم الطفيف. وبالتالي فهم يسيئون توقع ردود أفعالهم العاطفية تجاه مختلف درجات المصائب.

حتمية الحافز

إن المعاناة الشديدة هي دافع من الدوافع التي تحفز قدراتنا الدفاعية على النشاط وبالتالي تؤثر في تجارنا بطرق لا نستبقها. لكن ثقة دوافع أخرى. مثلا: ما الذي يجعلنا نسامح أشقاءنا قيامهم بسلوك لا نغفر للآخرين ارتكابه؟ ولماذا لا نشعر بالاضطراب عندما يقوم الرئيس بشيء سيجعلنا نمتنع عن التصويت له طالما قام به قبل الانتخابات؟ ولماذا نتغافل عن تأخير أحد الموظفين تأخيرا مستمرا ونرفض في المقابل توظيف شخص يبحث عن عمل جاء للمقابلة متأخرا بعشر دقائق؟ هناك احتمال أن رابط الدم أكبر من أي رابط آخر وأن الأزمات تجعلنا نلتف حول زعماء بلداننا السياسيين، وأن الانطباع الأول أكثر أهمية. لكن الاحتمال الآخر يتمثل في أننا أكثر ميلا إلى خلق تصوّر إيجابي عن الأشياء التي لا نجد لها جوابا من تلك الأشياء الأخرى (299)، فالأصدقاء يأتون ويذهبون وتغيير المرشحين أمر بسيط كتغيير الجوارب، لكن الأشقاء والرؤساء ملك لنا، في السزاء والضراء، ولا نستطيع القيام بشيء حيال ذلك بمجرد ولادتهم أو انتخابهم. عندما لا تكون التجربة التي نحظى بها هي التجربة التي نرغب فيها، تكون ردة فعلنا أولا إما بالمغادرة أو العثور على تجربة مختلفة، وهذا ما يجعلنا نعيد سيارات بعد أن كنا قد استأجرناها، لأننا لم نقنع بها ونلغي حجوزات قمنا بها صحبة أشخاص في فنادق رديئة ونكف عن التجول رفقة أشخاص يضعون أصابعهم في أنوفهم أمام الناس. ولا نهت عن طرق تغيير نظرتنا للتجربة إلا عند عجزنا عن تغيير التجربة ذاتها. لذلك نحن نحب سياراتنا العتيقة والحجرة التي نملكها في بيت العائلة لسنوات والعلم شيلدن رغم ولعه باستكشاف أنفه. فلا نعثر

على الضوء في آخر النفق إلا إذا اضطررنا لذلك، وهو ما يفسر أن الناس يشعرون بسعادة أكبر عندما تكشف الاختبارات الجينية عن عدم إصابتهم بخلل جيني خطير، بينما لا يشعرون بنفس القدر من السعادة عندما لا تكون نتيجة الاختبارات حاسمة (300). ببساطة، نحن لا نستطيع تقبل أي شيء طالما لم يكن مصيرنا الحتمي الذي لا مناص منه ولا أمل في تغييره.

تحفّز الظروف الحتمية والنهائية والتي لا مناص منها جهاز المناعة النفسي، لكنّ الناس لا يدركون دائما، مثلما يحدث مع الشعور بالألم الشديدة، أن هذا سيحدث. على سبيل المثال، سجّل مجموعة من طلبة الجامعة في دورة لتعلّم التصوير بالأبيض والأسود (301). التقط كل طالب مجموعة من الصور لأشخاص وأماكن تعنيهم شخصيا ثم أخذوا درسا خاصا. في هذا الدرس، استغرق المدرّس ساعة أو ساعتين يبين فيهما للطلبة كيفية طباعة أفضل صورتين لديهم وعندما جفّت الصور المطبوعة وأصبحت جاهزة، قال لهم إن بإمكان الطالب الاحتفاظ بإحدى الصورتين فقط لكنّ الأخرى ستحفظ في ملف نموذجي عن عمل الطالب. ثم أبلغ بعض الطلبة (فريق الأمر الذي لا مناص منه) بأنهم حالما ينتقون صورة للاحتفاظ بها، لن يُسمح لهم بتغيير رأيهم، أما البعض الآخر (فريق الأمر القابل للتغيير) فقد قيل لهم إنهم حالما ينتقون صورة للاحتفاظ بها، سيكون أمامهم عدّة أيام لتغيير رأيهم- وإذا حدث ذلك، سيستبدل المدرّس بكلّ سرور تلك الصورة بالصورة التي خفظت في الملف. اختار الطلبة وأخذوا إحدى الصورتين إلى البيت. بعد عدّة أيام، أجاب الطلبة على استبيان يسألهم عن (من بين أشياء أخرى) مدى إعجابهم بصورهم. أظهرت النتائج أن طلبة الفريق الثاني كانوا أقلّ إعجابا بصورتهم من طلبة الفريق الأول. ومن المثير للاهتمام، أنه عندما طلب من فريق جديد من الطلبة أن يتوقّعوا إلى أي مدى سيعجبون بصورهم لو أتيحت لهم الفرصة أو لم تتح لتغيير آرائهم، توقّعوا أن توفّر المجال لتغيير آرائهم لن يكون له أي أثر يذكر في اقتناعهم بالصورة. إذا يبدو أن الظروف الحتمية تحفّز القدرات الدفاعية النفسية التي تمكّنا من خلق تصوّرات إيجابية لتلك الظروف، لكننا لا نستبق وقوع ذلك.

إنّ فشلنا في استباق أن الحتمية ستحفّز أجهزة مناعتنا النفسية (وبذلك نضمن سعادتنا وشعورنا بالرضا) يمكن أن يقودنا إلى ارتكاب أخطاء مؤلمة. على سبيل المثال: عندما سُئل فريق جديد من طلبة التصوير الشمسي عفا إذا كانوا يفضلون أن تتاح لهم الفرصة لتغيير آرائهم عن أي من الصورتين يرغبون في الاحتفاظ بها، أو لا يفضلون، فضلت الأغلبية الواسعة أن تحصل على تلك الفرصة- أي أن الأغلبية الواسعة من الطلبة يفضلون التسجيل في دورة للتصوير الشمسي حيث سيكونون غير راضين في النهاية عن الصورة التي سينتجونها. لماذا

يحبذ الشخص أن يكون أقل شعورا بالرضا؟ لا أحد يحبذ ذلك، بالطبع، لكن من الواضح أن معظم الناس يفضلون التمتع بحرّية أكبر. بالفعل، عندما نشعر أن حريتنا في اتخاذ القرار بشأن شيء ما أو في تغيير رأينا إثر اتخاذ قرار ما تصبح مهددة، نشعر بدافع قوي لترسيخها (302) وهو ما يجعل تجار التفصيل يهذون أحيانا حريتك في اقتناء منتجاتهم من خلال ادعاء أن «المخزون محدود» أو «عليك أن تمرّر الطلب الليلة ابتداء من منتصف الليل» (303). إن هوسنا بحريتنا يقودنا إلى التردد على المحلات الباهظة التي تمكّنا من إعادة البضاعة بدلا من حضور المزادات العلنية التي لا تسمح لنا بذلك، وأن نؤجر السيارات بهامش ربح مشط بدلا من شرائها بسعر رخيص وهلمّ جر.

يستعدّ معظمنا لدفع قسط تأمين اليوم مقابل أن نحظى بفرصة تغيير رأينا غدا، وهو أمر يبدو منطقيا أحيانا. فقضاء بعض الأيام في تجريب قيادة سيارة حمراء مكشوفة من نوع رودستر كافية لجعلنا نعرف الكثير عن امتلاك واحدة ومن ثمة، فمن الحكمة أحيانا دفع مبلغ بسيط مقابل عقد ينض على فترة قصيرة لاسترداد الأموال، لكن إذا كان للإبقاء على خياراتنا مفتوحة مزايا، فله ثمن أيضا. سيارات رودستر عادة ما تكون ضيقة، وبينما سيجد المالك الملتزم طرقا ايجابية للنظر إلى تلك الحقيقة («واو! إنها تبدو كطائرة مقاتلة!»)، خلافا للمشتري الذي يتضنّ غمده بندا يسمح له بالتراجع عن العقد («هذه السيارة صغيرة جدا. ربما عليّ إعادتها»). فالمالكون الملتزمون يهتمون بمزايا السيارة ويتغافلون عن عيوبها، وهكذا يتلاعبون بالحقائق لتلبية قدر كبير من الشعور بالرضا، لكن المشتري الذي مازال بإمكانه التملّص (والذي لم تحفّز قدراته الدفاعية بعد) من المحتمل أن يقيم السيارة الجديدة بعين ناقدة أكثر من غيره ويولي عيوبها اهتماما أكبر بينما يحاول أن يقزّر ما إذا كان سيحتفظ بها أم لا. إن مزايا الحرّية و ثمنها واضحان- لكنهما للأسف، ليسا واضحين بنفس القدر: فقد لا نجد عناء في توقّع المزايا التي قد توفّرها الحرّية، لكن يبدو أننا غافلون عن السعادة التي يمكن أن تقوّضها (304).

اختلاق التفاسير

إذا حدث لك يومٌ أن تقيأت أحشاءك إثر تناولك طبق «الشيلي كون كارني» chilli con carne وشعرت أنك غير قادر على أكله مجددا لسنوات، فلا بد أن لديك فكرة جيدة عن ذباب الفاكهة. كلاً، إن ذباب الفاكهة لا يأكل الشيلي (الفلفل الأحمر الحار) ولا يتقيأ. لكنه يربط أفضل تجاربه وأسوأها بالظروف المحيطة بها وتلك التي تسبق حدوثها. أعرض مثلا رائحة حذاء التنيس على ذبابة الفاكهة ثم اجعلها تتعرض لصدمة كهربائية خفيفة وستتحاشى بقية حياتها القصيرة الأماكن التي تفوح برائحة أحذية التنيس. إن القدرة على ربط المتعة والألم بظروف

حدوثها بالغة الأهمية إلى حد أن الطبيعة قامت بوضع تلك المقدرة في كل مخلوقاتنا ابتداء من «الدروسوفيل ميلانوغاستر» *Drosophila melanogaster* (ذبابة الفاكهة) إلى إيفان بافلوف.

لكن، إذا كانت تلك القدرة ضرورية لمخلوقات مثلنا، فمن المؤكد أنها ليست كافية لأن نوع المعرفة التي تمنحها محدود جدا. فإذا لم يكن أي كائن قادرا على أكثر من ربط تجارب معينة بظروف معينة، فلن يستطيع إلا أن يتعلم درسا صغيرا جدا، لا سيما البحث عن تلك الظروف تحديدا في المستقبل أو تجنبها. فقد تُعلم الصدمة التي تقع في وقت محدد ذبابة الفاكهة أن تتجنب رائحة حذاء التنيس، لكنها لن تتعلمها تجنب رائحة حذاء الثلج ولا أحذية الباليه ولا أحذية مانولو بلانيك (Manolo Blanik) ولا رائحة عالم مسلح بمسدس كهربائي مصغر. حتى نحقق أقصى قدر من السعادة وأقل قدر من الألم، علينا أن نكون قادرين على الربط بين تجاربنا والظروف التي تؤدي إليها، لكن علينا كذلك أن نكون قادرين على شرح كيفية إنتاج تلك الظروف تلك التجارب وسببه. فإذا شعرنا بالغثيان إثر دوران عجلة فريس (Ferris Wheel) لعدة مرات وفسرنا ذلك باختلال في التوازن، عندها سنتجنب عجلة فريس في المستقبل - تماما مثلما تفعل ذبابة الفاكهة. لكن خلافا لذبابة الفاكهة، نحن نتجنب أشياء لا علاقة لها بتجربة الغثيان التي مررنا بها (كالقفز بالحبال أو الإبحار بالمراكب الشراعية) ولا نتجنب بعض الأشياء التي لها علاقة بشعورنا بالغثيان (كموسيقى آلة الأرغن اليدوي أو المهرجين). خلافا للربط البسيط الذي نقوم به بين شيء ما والشعور الذي يسببه لنا، يمكننا العثور على تفسير من التعرف على بعض الجوانب المحددة لظرف ما (كالدوران) باعتباره سببا لشعورنا وجوانب أخرى (كالموسيقى) بوصفها أمرا لا صلة له بذلك الظرف. ومن خلال قيامنا بهذا، نتعلم من تقيننا أكثر مما قد نتعلمه ذبابة الفاكهة.

تمكنا التفاسير من الاستفادة من تجاربنا، لكنها تغير كذلك طبيعة تلك التجارب. مثلما رأينا، عندما تكون التجارب سيئة، ننتقل فورا إلى شرحها بطرق تجعلنا نشعر أننا أفضل («لم أحصل على الوظيفة لأن الحكم كان منحازا ضد الأشخاص الذين يتقيؤون على عجلة فريس») وبالفعل، أظهرت الدراسات أن مجرّد شرح حدث سيء قد يخفّف من حدّته. على سبيل المثال، يمكن أن تؤدي الكتابة عن الصدمة -كموت شخص نحبه أو اعتداء جسدي- إلى تحسّن مدهش في الرفاه الشخصي والسلامة الجسدية (مثلا، زيارات أقل إلى الطبيب وتحسّن في إنتاج الأجسام المضادة للفيروسات)(305). فضلا عن أن الأشخاص الذين يحققون أقصى فائدة من تمارين الكتابة هذه هم أولئك الذين احتوت كتاباتهم على شرح دلالة الصدمة(306).

لكن تلك التفسير تحسن تأثير الأحداث السارة تحسينها أثر الأحداث المؤلمة. مثلا، تطوع عدد من الطلبة لإجراء دراسة حيث كانوا يعتقدون أنهم في غرفة دردشة عبر الانترنت مع طلبة من جامعات أخرى (307). لكنهم في الواقع، كانوا يتواصلون مع برنامج حاسوب معقد يحاكي وجود طلبة آخرين. بعد أن زود الطلبة الزائفون الطالب الحقيقي بمعلومات تخضهم («مرحبا، أنا ايفا، وأنا أرغب في القيام بالعمل التطوعي»)، تظاهر الباحث بأنه يطلب من الطلبة الزائفين أن يحدوا الأشخاص في غرفة الدردشة الذين أحبهم أكثر من غيرهم وأن يكتبوا فقرة يشرحون فيها السبب ثم يرسلونها إلى ذلك الشخص. خلال بعض الدقائق، حدث شيء بارز، فقد تلقى الطالب الحقيقي ايميلات من كل من الطلبة الزائفين تشير إلى كونهم يحبون الطالب الحقيقي أكثر من غيره! على سبيل المثال، تقول رسالة زائفة: «شعرت أن شيئا ما حدث بيننا عندما قرأت أجوبتك. من المؤسف أننا لسنا في نفس المدرسة!» ثم ورد في رسالة أخرى: «أتمنى لو كنت أستطيع التحدث إليك وجها لوجه لكنت... سألتك إذا كنت تحب الذهاب إلى البحر (أحب التزلج على الماء) وإذا كنت تحب الطعام الايطالي (إنه المفضل لدي).

الآن هنا تكمن الخدعة: تلقى بعض من الطلبة الحقيقيين (الفريق المزود بالمعلومات) ايميل يمكنهم من معرفة من من الطلبة الزائفين كتب كل الرسائل، أما البعض الآخر (الفريق الذي لم يزود بالمعلومات) تلقى ايميلات حيث محيت المعلومة التي تكشف عن هوية المرسل منها. بعبارة أخرى، تلقى كل طالب حقيقي نفس الايميل بالتحديد الذي يشير إلى أنهم استحوذوا على قلوب الأشخاص المزيفين وعقولهم في غرفة الدردشة، لكن الطلبة الحقيقيين فقط في الفريق المزود بالمعلومات، من علموا من من الأفراد المزيفين كتب كل رسالة من الرسائل. وعلى هذا الأساس، فهم من كان بوسعهم تبرير حطهم الجيد («إن ايفا تقدر مبادئي لأن كلينا عضو في منظمة «الموئل من أجل البشرية» ومن المنطقي أن تذكر كارينا الطعام الايطالي»)، على خلاف الطلبة الحقيقيين في الفريق الذي تنقصه المعلومات («ثمة من يقدر مبادئي... أتساءل من يكون؟ وما الذي قد يجعل أيا كان يتحدث عن الطعام الايطالي؟») قاس الباحثون درجة سعادة الطلبة الحقيقيين بعد تلقيهم مباشرة لهذه الرسائل ثم كذلك بعد خمس عشرة دقيقة. إذا كان لديك معجب سري، ستفهم إذن لماذا ظل الطلبة الحقيقيون في الفريق الذي تنقصه المعلومات يشعرون بالنشوة بينما سرعان ما تلاشت حالة السعادة لدى الطلبة المنتمين إلى الفريق الذي لديه المعلومات.

تملك الأحداث الغامضة ميزتين تضمان وتطيلان تأثيرها العاطفي. أولا تباغتنا هذه الأحداث بصفتها أحداثا نادرة وغير اعتيادية (308). إذا أخبرتك أنني وشقيقي وشقيقتي كلنا ولدنا

في نفس اليوم، فقد تعتبر ذلك حدثا نادرا وغير اعتيادي. لكن حالما أشرح لك أننا ثلاثة توائم، فسوف لن يبدو لك الأمر كذلك بشكل بارز. في الواقع، تقريبا أي شرح كنت أقدمه (كنت أعني بـ «نفس اليوم» أننا ولدنا جميعا يوم الخميس» أو «كلنا ولدنا بعملية قيصرية، لذلك ضبط والداي توقيت مولدنا بشكل يجعلهما يحصلان على أقصى قدر من فوائد الضرائب»). سيؤني إلى التقليل من الاندهاش بتلك المصادفة ويجعل وقوع الحدث يبدو أكثر احتمالا. تسمح لنا التفاسير بفهم كيفية وقوع حدث ما وسببه، وهو ما يسمح لنا على الفور بتصوّر كيف ولماذا قد يحدث من جديد. في الحقيقة، كلما قلنا إن شيئا ما لا يمكن أن يحدث - مثلا، قراءة الأفكار أو التحليق أو القانون الذي يحدّ من سلطة أصحاب المناصب - عادة ما نعني به فقط أننا لا نملك طريقة لشرحه إذا ما حدث. تبدو الأحداث التي يتعذّر علينا تفسيرها نادرة، والأحداث النادرة عادة ما يكون لها تأثير عاطفي أكبر من الأحداث المألوفة، فنحن نصاب بالرهبة أمام الكسوف الشمسي لكن شروق الشمس لا يثير لدينا سوى الإعجاب رغم حقيقة أنه المنظر الأكثر سحرا إلى حد بعيد.

السبب الثاني الذي يجعل للأحداث التي يصعب علينا تفسيرها تأثيرا عاطفيا مفرطا يكمن في أنه من المرجح أن نطلّ نفكر في تلك الأحداث بالذات. يشرح الناس الأحداث تلقائيا (309) وتبين الدراسات أن الناس عندما لا يكملون الأشياء التي شرعوا فيها، فمن المرجح أن يفكروا تفكيراً خاصاً في أعمالهم غير المنجزة وتذكرها (310). حالما نشرح حدثا ما، سيمكّننا ذلك من طيه مثل ثياب غسلت للتوّ، ووضعه في درج الذاكرة، والمضي نحو الحدث الموالي؛ لكن إذا كان ثمة حدث يأبى الشرح، يصبح لغزا أو أحجية - وإذا كان ثمة شيء نعرفه جميعا عن الأحاجي الغامضة، فهو أنها عادة ما تأبى البقاء في خلفيّة عقولنا. غالبا ما يستفيد صناع الأفلام والروائيون من هذه الحقيقة من خلال وضع نهايات غامضة لسردياتهم وتظهر الدراسات أنه من المحتمل أن يطلّ الأشخاص يفكّرون بفيلم من الأفلام عندما لا يكون بوسعهم تفسير ما حدث للشخصية الرئيسية. وإذا ما أحبوا الفيلم، يجعلهم ذلك الجزء من اللغز سعداء وقتا أطول (311).

يجزّد الشرح الأحداث من أثرها العاطفي لأنه يجعلها تبدو محتملة ويجعلنا نكف عن التفكير فيها. ومن الغريب، أنه ليس على أي شرح أن يشرح أي شيء حتى يحقق هذا الأثر - بل هو في حاجة إلى أن يبدو كما لو أنه يفعل ذلك فحسب. على سبيل المثال، ورد في إحدى الدراسات أن باحثا دنا من بعض طلبة الجامعة في مكتبة الجامعة وسلمهم واحدة من بطاقتين تلتصق بها قطعة معدنية من فئة دولار واحد، ثم ابتعد. من المحتمل أنك توافق على أن هذا حدث

يثير الفضول ويحتاج إلى شرح. فكما يُظهر الرسم رقم عشرون، تدل البطاقتان على أن الباحث عضو في منظمة «سمايل سوسايتي Smile Society»، التي كانت مكزسة للقيام بـ«مواقف عشوائية من اللطف». لكن البطاقة الثانية تحتوي على جملتين إضافيتين- «من نكون نحن؟» و«لم نفعل هذا؟» هاتان الجملتان الفارغتان لا تضيفان أية معلومة جديدة، بالطبع، لكنهما جعلتا الطلبة يشعرون كما لو أن الحدث الغامض قد سُرح. («أه، الآن فهمت لماذا قَدّم لي دولارا!»). بعد خمس دقائق تقريبا، اقترب من الطالب باحث آخر وادعى أنه ينجز مشروع تخرّج عن أفكار المجتمع ومشاعره». طلب الباحث من الطالب أن يجيب على استبيان يتضمن مجموعة من الأسئلة، كان أحدها «ما مدى ايجابية شعورك أو سلبيته الآن؟» أظهرت الأجوبة أن أولئك الطلبة الذين تسلّموا البطاقة التي تتضمن الجملتين اللتين تقدّمان شرحا مزيفا، أحسوا بسعادة أقل من أولئك الذين تحضّلوا على البطاقة الخالية من الجملتين. من الواضح أنه حتى الشرح الزائف يمكن أن يجعلنا نؤاري الذاكرة حدثا ما بعيدا ونمضي نحو الذي يليه.



رسم رقم 20

يمكن لعدم اليقين أن يحفظ لنا سعادتنا أو يطيل أمدّها، حينئذ يمكننا أن نتوقع أن الأشخاص يثفنونها. لكن في الواقع، العكس هو الأمر السائد عموما. عندما سنلت مجموعة جديدة من الطلبة أي من البطاقتين اللتين تظهران في الرسم رقم 20 يمكن أن تجعلهما أكثر سعادة، اختار

75 بالمائة البطاقة التي تحتوي على شرح بلا معنى. وبشكل مماثل، حينما سُئلت مجموعة من الطلبة إذا كانوا يفضلون التعزف على هوية الطلبة الزائفين الذين كانوا قد كتبوا كل المعلومات المتوهجة في دراسة غرفة الدردشة على الانترنت أو عدم التعزف عليهم، اختار 100 بالمائة أن يتعزفوا على هويتهم. في كلتا الحالتين إذن، اختار الطلبة اليقين على عدم اليقين- رغم الحقيقة التي بينت أن الوضوح واليقين في كلتا الحالتين، تقلصان من الشعور بالسعادة. أشار الشاعر جو كيتس أنه بينما الكتاب «قادرين على العيش داخل حالات اللايقين والألغاز والشكوك دون الركض المحموم خلف الحقيقة والعقل»، إلا أن بقيتنا «غير قادرين على أن يقنعوا بنصف-المعرفة» (312). قد تميزنا رغبتنا المستمرة في شرح كل شيء يحدث عن ذهاب الفاكهة شرحا جيدا، لكنها قد تفسد مع ذلك متعتنا.

إلى الأمام

إن العين والدماع متآمران، ومثل كل المؤامرات التي تحدث، فإن مؤامرتيها يتم التفاوض بشأنها خلف الأبواب المغلقة، في الحجرة الخلفية، خارج إدراكنا. ولأننا لا ندرك أننا بنينا تصورا إيجابيا لتجربتنا الحالية، فنحن لا ندرك أننا سنقوم بذلك مجددا في المستقبل. إن سذاجتنا لا تدفع بنا إلى المبالغة في تقدير شدة الألم في مواجهة محن المستقبل ومدة استغراقه فحسب، لكنها تقودنا كذلك إلى اتخاذ خطوات قد تُحبط تلك المؤامرة. فنحن أكثر ميلا نحو خلق تصور إيجابي وذي مصداقية عن الفعل من خلق نفس التصور عن عدم الفعل وعن التجربة المؤلمة أكثر من التجربة المزعجة وعن وضعيَّة بغيضة لا يمكننا تجنبها أكثر من تجربة يمكننا تجنبها. ومع ذلك، نادرا ما نفضل الفعل على عدم الفعل، أو الألم على الانزعاج، أو الالتزام على الحرية. إن الآليات التي نعتمدها في خلق تصوراتنا الايجابية عديدة: نحن نولي المعلومات التي في صالحنا اهتماما أكبر، ونحيط أنفسنا بأولئك الذين يوفرون لنا تلك المعلومات ونقبل بها بصورة عمياء. تسهل هذه النزعة علينا شرح التجارب البغيضة بأساليب تعفيينا من المسؤولية وتجعلنا نشعر بتحسن. إن الثمن الذي ندفعه مقابل رغبتنا الجامحة في لشرح يتمثل في أننا غالبا ما نفسد تجاربنا السازة من خلال إضفاء معنى عليها.

تشمل جولة التخيل التي قمنا بها مساحة شاسعة انطلاقا من الواقعية إلى الحاضرة وصولا إلى العقلنة. من الواقعية إلى الحاضرة إلى العقلنة- لذلك فقبل المضي نحو وجهتنا الأخيرة، قد يكون من المفيد أن نحدد موقعنا على الخارطة الكبيرة. لقد رأينا مدى صعوبة توقع ردود أفعالنا العاطفية تجاه أحداث المستقبل على نحو دقيق لأنه من الصعب تخيلها بنفس الشاكلة التي ستحدث بها وتخيل كيف سنفكر فيها حال حدوثها. في هذا الكتاب، قارنت التخيل

بالرؤية والذاكرة، وحاولت إقناعك بأن التنبؤ بالمستقبل شأنه شأن الرؤية واستقراء الماضي يقبل الخطأ، فضعف الرؤية يمكن أن يُعالج بواسطة النظارات وضعف الذاكرة يمكن أن يُعالج من خلال كتابة مذكرات الماضي- لكن ماذا عن ضعف التنبؤ بالمستقبل؟ فلا وجود لنظارات يمكن أن تجعل من رؤيتنا للغد أكثر حدة ولا دفاتر عن الأشياء القادمة. فهل بوسعنا إيجاد علاج لمشاكل التنبؤ؟ مثلما نحن على وشك أن نرى، أجل يمكننا ذلك، لكننا عموماً نختار الإحجام عن ذلك الفعل.

الجزء السادس قابلية الإصلاح

«قابلية الإصلاح: القدرة على التصحيح والتعديل والتحسين»

الفصل العاشر

لا يلدغ المرء من جحر مزتين

ها هو الاختبار يكذب أقوالكم!

شكسبير، سيمبلين

شهد العقد الأخير سيلا من الكتب التي تتحدث عن التبرز. عندما تزحف حفيدتي البالغة من العمر سنتين حتى تستقر في حضني، عادة ما تجلب معها حزمة سميكة من الكتب المصوّرة التي تحتوي على تفاصيل هامة عن معجزة التبرز وأسرار الجهاز الهولي التناسلي. بعض الكتب تعرض وصفا مفضلا عن علم التشريح لدى الأطفال؛ وبعض الكتب الأخرى لا تعرض إلا القليل من الرسوم لأطفال سعداء يقرفصون ثم يقفون ثم ينظفون أنفسهم. ورغم الاختلافات العديدة بينها، إلا أن كل الكتب تعبر عن نفس الرسالة: البالغون لا يتبرزون في سراويلهم الداخلية، لكن إذا فعلتم، فلا تقلقوا كثيرا بشأن ذلك. يبدو أن حفيدتي تجد هذه الرسالة مطمئنة وكذلك ملهمة. لقد فهمت أنه ثمة طريقة صحيحة للتبرز وأخرى خاطئة، ورغم أننا لازلنا لا نتوقع منها التبرز بالطريقة الصحيحة بعد، إلا أننا نريدها أن تلاحظ أن أغلب الأشخاص حولها تعلموا التبرز بالطريقة الصحيحة، وهو ما يشير إلى أنها هي أيضا تستطيع تعلم ذلك بقليل من التدريب وبعض التوجيه.

وكما اتضح، فإن فوائد التدريب والتوجيه لا تقتصر على هذه المهارة على وجه الخصوص. في الواقع، إن التدريب والتوجيه وسيلتان نتعلم من خلالهما كل شيء نعرفه. كما أن المعرفتين المباشرة وغير المباشرة هما نوعا المعرفة المتوفرتان دون سواهما ومهما كان الأمر الذي نتمكن منه سواء أكان التبرز أو الطبخ أو الاستثمار أو التزلج، دائما ما يكون ذلك التمكّن نتاجا للتجربة المباشرة و/أو الاستماع إلى أولئك الذين كانت لديهم تجربة مباشرة. يتبرز الرضع في حفاظاتهم لأنهم مبتدئون ولأنهم لا يستطيعون الاستفادة من الدروس التي قد يمنحها لهم ذوو الخبرة، ولأن الرضع تعوزهم المعرفة المباشرة وغير المباشرة لبروتوكول استخدام المراض، فنحن نتوقع أن تفوح منهم رائحة نتنة. لكننا نتوقع أيضا أن تظهر الآثار التصحيحية للتدريب والتوجيه خلال سنوات معدودة وأن تأخذ التجربة والتعلم مكان البراءة وأن تختفي أخطاء التبرز بالكامل. لماذا إذن لا ينسحب هذا التحليل على كل أنواع الأخطاء؟ فكلنا نملك تجربة مباشرة مع الأشياء التي تجعلنا سعداء أو لا تجعلنا كذلك، وكلنا نملك أصدقاء ومعالجين وسائقي سيارات أجرة ومضيفي برامج حوارية يخبروننا عن أشياء ستجعلنا سعداء أو عن

أشياء لن تجعلنا كذلك. ومع ذلك، ورغم كل هذا التدريب وكل هذا التوجيه، غالباً ما يصل بحثنا عن السعادة إلى فوضى تفوح منها رائحة نتنة. نحن نتوقع أن تجعلنا السيارة القادمة والمنزل القادم والترقية القادمة سعداء حتى لو لم يجعلنا كل هؤلاء كذلك وحتى لو يظل الآخرون يخبروننا بأن تلك الأشياء القادمة لن تجلب لنا السعادة. لم لا نتعلم تجنب هذه الأخطاء بالأسلوب ذاته الذي تعلمنا به تجنب الحفظات المبتلة؟ فإذا كان بإمكان التدريب والتوجيه أن يعلمنا كيف نحافظ على حفاظاتنا جافة، لماذا إذن لا يعلمنا توقع عواطفنا في المستقبل؟

المواقف الأقل احتمالاً

للتقدم في السنّ مزايا كثيرة، لكن لا أحد يعلمها. نغفو ونستيقظ في جميع المواقف الخاطئة ونتجنب طعاماً أكثر مما نأكل ونتناول حبوباً تساعدنا في تذكر أي حبوب أخرى علينا أن نأخذ. في الواقع، إن الشيء الجيد الوحيد للتقدم في السنّ هو أنّ الشباب يضطرون من حين إلى آخر إلى التراجع إلى الخلف وتأمل ثروة التجربة التي نملكها بإعجاب. هم يعتبرون تجربتنا نوعاً من الثروة لأنهم يفترضون أنها ستمكّننا من تجنب ارتكاب الخطأ مرتين - لكنّ هذا يحدث أحياناً. ثقة بعض التجارب فقط لا يكررها من يملك منها ثروة فاحشة، يخطر ببالي مثلاً تحميم هز أثناء ترشف شراب النعناع المسكر، لأسباب أفضل ألا أناقشها الآن. في المقابل، ثقة أخطاء كثيرة يبدو أننا نحن، ذوي الخبرة نرتكبها مراراً وتكراراً. فنحن نتزوج على نحو غريب، من شخص يشبه الشخص الذي تطلقنا منه، ونحضر الاجتماعات العائلية السنوية رغم أننا نأخذ القرار كل سنة بالآ نعود قَطّ ونضبط نفقاتنا الشهرية بعناية لكننا نسقط مزة أخرى في الإفلاس التام قبل حلول تاريخ الراتب الموالي. يبدو أنه من الصعب شرح هذا النكوص المتكرر. ففي نهاية الأمر، ألا يجدر بنا التعلّم من تجاربنا الخاصة؟ لا شك في أنّ للمخيلة عيوبها، وقد لا يكون ثقة مناص من توقع كيف ستجعلنا أحداث المستقبل نشعر على نحو خاطئ عندما لا نكون قد مررنا بتلك التجارب من قبل. لكن بمجزد أن نتزوج بمدير منهمك في عمله، يقضي ساعات في العمل أكثر من الساعات التي يقضيها في البيت وبمجزد أن نحضر لقاءً عائلياً تتشاجر خلاله العفات والخالات مع الأعمام والأخوال الذين يفعلون ما بوسعهم للإساءة لأبنائهم، وبمجزد أن نقضي بعض الأيام العجاف ما بين تاريخ حصولنا على راتبين في اكتساب معرفة عميقة عن الأرض والفاصوليا، ألا يجدر بنا عندها أن نكون قادرين على تخيل هذه الأحداث بدرجة معقولة من الدقة فنأخذ حينها خطوات لتحاشي حدوثها في المستقبل؟

أجل يجدر بنا ذلك ونحن نقوم بذلك فعلاً، لكن ليس بالقدر الذي قد تتوقعونه. فنحن نحاول تكرار تلك التجارب التي نتذكرها بمتعة وفخر ونحاول تجنب تكرار تلك التي نتذكرها بحرج

وندم (313)، لكن المأزق يكمن في كوننا غالبا ما لا نتذكرها على النحو الصحيح فتذكر تجربة يشبه إلى حد بعيد فتح درج واسترجاع قصة حفظت بعيدا في اليوم ذاته الذي كتبت فيه. لكن ذلك الشعور يمثل، مثلما رأينا في الفصول السابقة، أحد أوهاام دماغنا الأكثر تعقيدا. فذاكرتنا ليست كاتباً مطيعاً تحتفظ بنسخة عن كل تجاربنا، بل هي محرر معقد يحذف أجزاء مهمة من تجربة من التجارب ويحفظها ثم يستخدمها لإعادة كتابة القصة في كل مرة نطلب إعادة قراءتها. إن أسلوب القرض والحفظ يعمل جيداً عادة لأن المحرر عادة ما يملك حساً مرهفاً يمكنه من معرفة أي الأجزاء جوهرية وأيها يمكن التخلص منه. من أجل هذا السبب، فنحن نتذكر كيف كان العريس يبدو عندما قبل العروس لكن لا نذكر أي الأصابع دشت الفتاة التي كانت تحمل الزهور في أنفها عندما حدث ذلك. لكن مع الأسف، مثلما تملك الذاكرة تلك المهارة القوية في التحرير، فلديها كذلك بعض الصفات الشاذة التي تجعلها تحذف الماضي وهو ما يؤدي بنا إلى تخيل المستقبل على نحو خاطئ.

على سبيل المثال، قد تُستخدم كلمة بأربعة أحرف وقد لا تفعل، لكنني واثق أنك لم تعد الأحرف قط. خمن إذن: هل الكلمات في اللغة الانجليزية التي تحتوي على أربعة أحرف وتبدأ بحرف الكاف (k-1's) أكثر من الكلمات التي تتضمن حرف الكاف K كحرف ثالث (k-3's) أو أقل. إذا كنت مثل غالبية الأشخاص، فلا بد أنك خففت أن (k-1's) تفوق (k-3's) عدداً (314). قد تكون أجبت عن هذا السؤال من خلال تفحص ذاكرتك سريعاً («اممم، هناك kite, kilt, kale...»)، ولأنه كان من الأسهل عليك تذكر k-1's من تذكر k-3's، فقد افترضت أن عدد الكلمات من النوع الأول لا بد أنه يفوق عدد الكلمات من النوع الثاني وهو عادة استنتاج جيد، ففي النهاية، يمكنك تذكر الفيلة (elephants) التي تملك أربعة أرجل (e-4's) أكثر من تلك التي تملك ستة أرجل (e-6's) لأنك رأيت (e-4's) أكثر من (e-6's) ورأيت (e-4's) أكثر من (e-6's) لأنه ثقة (e-4's) أكثر من (e-6's). إذن فالعدد الفعلي للفيلة التي تملك أربعة أرجل (e-4's) في العالم يحدد عدد المرات التي صادفتها بها، وتواتر مصادفتك لها يحدد سهولة تذكرك لتلك المرات.

لكن المنطق الذي يساعدك جداً عندما يتعلق الأمر بالفيلة يخدمك مع الأسف بشكل سيء للغاية متى تعلق الأمر بالكلمات. من الأسهل فعلاً تذكر (k-1's) من تذكر (k-3's)، لكن ليس لأنك صادفت الكلمات الأولى أكثر من الثانية، بل لأن تذكر الكلمات التي تبدأ بحرف k أمراً أكثر سهولة. ذلك أنه من الأسهل تذكر الحرف الأول من أية كلمة من تذكر الحرف الثالث. فقوماميسنا الذهنية مرتبة إلى حد ما حسب الحروف الأبجدية، مثل قاموس ويبستر (Webster) بحد ذاته، ومن ثقة، فليس بإمكاننا «العثور» بسهولة على كلمة في ذاكرتنا بواسطة حرف آخر عدا الحرف

الأول. الفكرة إذن أنه ثفة (k-3's) أكثر من (k-1's) في اللغة الإنجليزية، لكن بما أنه من الأسهل تذكر الكلمات التي تبدأ بحرف (k-1's) فالناس عادة ما يجيبون عن السؤال على نحو خاطئ. إن أحجية كلمة حرف الكاف The k-word تنجح لأننا نفترض بشكل طبيعي (لكنه خاطئ) بأن الأشياء التي تخطر على بالنا على نحو أكثر سهولة هي الأشياء التي نصادفها باستمرار.

إن ما ينطبق على الفيلة والكلمات يسري أيضا على التجارب (315). فمعظمنا يستطيع استحضار ذكريات عن ركوب دراجة هوائية استحضار أسهل من ذكريات عن امتطاء حيوان القطاس البري (Yak). عندئذ، فنحن نخلص على نحو صحيح إلى أننا امتطينا دراجات هوائية أكثر من القطاس البري في الماضي. إن هذا المنطق سليم ولا تنقصه سوى فكرة واحدة وهي أن تواتر مرورنا بالتجربة ليس هو المحدد الوحيد لسهولة تذكرنا لها. في الواقع، إن التجارب الأقل تواترا وغير الاعتيادية غالبا ما تكون الأكثر التصاقا بالذاكرة، وهذا ما يفسر لماذا يعرف الأمريكيون بالتحديد أين كانوا صباح الحادي عشر من أيلول من سنة 2001، وليس يوم العاشر من أيلول (316). إن حقيقة أن التجارب الأقل تواترا تقفز إلى الذهن بسهولة تقودنا إلى استخلاص بعض الاستنتاجات الغريبة. على سبيل المثال، طالما كان لدي انطباع، طوال حياتي، بأنني أميل إلى اختيار الطابور الأكثر بطئا في محل البقالة وأتني كلما تعبت من الانتظار في الطابور الأبطأ وانتقلت إلى طابور آخر، يبدأ الطابور الذي غادرته بالتحرك بشكل أسرع من الطابور الذي انتقلت إليه (317). الآن، إذا كان هذا صحيحا - أي إذا كان طالعي سيتناحقا أو ثفة سحر خبيث يطاردني أو أي شكل من أشكال القوى الميتافيزيقية الشريفة التي تجعل أي طابور ألتحق به يتباطأ - فلا بد إذن أنه ثفة شخص آخر في المقابل يشعر بأن شكلا من أشكال قوى الخير الميتافيزيقية تجعل من كل طابور ينضم إليه يسرع. لكن في نهاية المطاف، لا أحد يستطيع الانضمام إلى أبطأ طابور في كل مرة، أليس كذلك؟ ومع هذا، لا أحد ممن أعرفهم يشعر أنه يملك قوة لتسريع حركة الطوابير التي ينضم إليها. على العكس من ذلك، يبدو أن كل من أعرفهم يعتقدون، مثلي، بأنهم منجذبون على نحو حتمي إلى أبطأ طابور من الطوابير المحتملة وأن محاولاتهم المتفرقة لمعارضة مصيرهم تؤدي إلى تباطؤ الطابور الذي التحقوا به وتسريع حركة ذاك الذي تركوه فحسب. فلماذا يعتقدون هذا الاعتقاد؟

لأن الوقوف في طابور يتحرك بنسق سريع، أو حتى نسق معتدل، هو تجربة اعتيادية مضجرة لا نلاحظها أو نتذكرها، بل نقف هناك ونحن نشعر بالملل، نحقق في صحف الفضائح والإثارة المعروضة ونتأمل ألواح الشوكولا ونتساءل أي أحقق قرر أن البطاريات ذات الأحجام المتنوعة يجب أن تصلف بأعداد مختلفة من حرف A's بدلا من كلمات نستطيع تذكرها مثل

كبيرة، متوسطة وصغيرة. أثناء قيامنا بهذا، من النادر أن نلتفت إلى شريك حياتنا قائلين: «هل لاحظت كيف يتحرك هذا الطابور بشكل عادي؟ أعني، أنه ليس من المألوف أبدا أن أجد نفسي مضطرا لتدوين بعض الملاحظات حتى أثير اهتمام الآخرين بالقصة في لقاء لاحق». كلاً، إن تجارب الطوابير التي تبقى في ذاكرتنا هي تلك التي تتعلق بذلك الرجل الذي يرتدي قبعة ذات لون أحمر مشع والذي كان في الأصل يقف وراءنا قبل أن ينتقل إلى الطابور الآخر وينجح في الخروج من المتجر ويصعد إلى سيارته قبل أن نتمكن من بلوغ آلة تسجيل النقد لدفع الحساب لأن الجدة البطيئة التي أمامنا تلوح للموظف بمجموعة من الكوبونات وتجادل انتهاء تاريخ صلاحيتها. في الحقيقة هذا لا يحدث كثيرا، لكنه يظل عالقا بذاكرتنا، لذلك نحن نميل إلى الاعتقاد بأنه يحدث كثيرا.

إن الحقيقة القائلة إن التجربة الأقل احتمالا من أية تجربة أخرى هي التي من المرجح أن تبقى في الذاكرة أكثر من غيرها، يمكن أن تحظم قدرتنا على التنبؤ بتجارينا المستقبلية (318). مثلا، في إحدى الدراسات، طلب عدد من الباحثين من بعض المسافرين يوميا والذين كانوا ينتظرون مترو الأنفاق أن يتخيلوا شعورهم إذا فوّتوا قطارهم في ذلك اليوم (319). وقبل القيام بعملية التنبؤ تلك، طلب من بعض المسافرين (فريق أي ذكرى) تذكّر «مزة فاتك فيها القطار» ووصف ذلك ومن المسافرين الآخرين (فريق أسوأ ذكرى) تذكّر «أسوأ مزة فاتك فيها القطار» ووصف ذلك أيضا. فبينت النتائج أن مسافري فريق أي ذكرى تذكروا حادثة بنفس درجة فظاعة الحادثة التي تذكروها مسافرو فريق أسوأ ذكرى. بعبارة أخرى، عندما فكّر المسافرون في تفويت القطار، قفزت إلى أذهانهم أكثر حادثة مزعجة ومحبطة (كان بوسعي سماع القطار يصل فشرعت في الركض حتى ألحق به، لكنني تعثرت في الدرج واصطدمت ببائع المطرنيات وهكذا تأخرت بنصف ساعة عن مقابلة عمل ولّدي وصولي إلى هناك، كانوا قد وظّفوا شخصا آخر). إن جلّ حالات حادثة تفويت القطار اعتيادية وبالإمكان نسيانها، ومن ثقة عندما نفكر في تفويت القطار، فنحن نميل إلى تذكّر الحالات الأكثر استثنائية.

الآن، ما علاقة هذا بالتنبؤ بعواطفنا في المستقبل؟ إن الكلمات التي تبدأ بحرف الكاف K-1 سرعان ما تقفز إلى أذهاننا وذلك نتاج الطريقة التي صنفت بها قواميسنا الذهنية وليس لأنها كلمات شائعة، وذكريات الطوابير البطيئة للسوبر ماركت تخطر بسرعة على بالنا لأننا نوليها اهتماما خاضا عندما نكون عالقين بها وليس لأنها ذكريات شائعة. لكن لأننا لا ندرك الأسباب الحقيقية وراء قفز هذه الذكريات بسرعة إلى أذهاننا، فنحن نستنتج على نحو خاطئ أنها أكثر شيوعا مما هي عليه في الحقيقة. وعلى نحو مماثل أيضا، سرعان ما تخطر أحداث تفويت

القطار الأكثر فظاعة على بالنا وذلك ليس لأنها أحداث شائعة، بل لأنها نادرة الحدوث. لكن عدم إدراكنا الأسباب الحقيقية التي تجعل هذه الأحداث تقفز سريعا إلى أذهاننا، يدفع بنا إلى أن نخطن في الاستنتاج أنها أكثر شيوعا مما هي عليه في واقع الأمر. وبالفعل، عندما طلب من المسافرين أن يبتنبؤوا حول شعورهم إذا فوّتوا القطار في ذلك اليوم، توقّعوا بصورة خاطئة أن تكون التجربة أكثر إزعاجا ومدعاة للإحباط مما كان من المحتمل أن تكون.

إن هذه النزعة نحو تذكر الأمثلة غير الاعتيادية والاستناد إليها، هي أحد الأسباب التي تدفعنا في معظم الأحيان إلى تكرار الأخطاء. فعندما نفكر في العطلة التي قضيناها مع العائلة في السنة الفارطة، لا نستحضر عينة نزيهة من أمثلة تتعلق بجولتنا في إيداهو والتي دامت أسبوعين، بل الذكرى التي تقفز بسرعة وبصورة طبيعية إلى الذهن هي تلك التي حدثت ظهيرة يوم السبت الأول عندما أخذنا الأطفال في نزهة على ظهر الخيل وصعدنا إلى قمة التلال على ظهر جيادنا الذهبية البالومينو ووجدنا أنفسنا ننظر أسفل التلال إلى واد بديع يشق طريقه نحو الأفق كوشاح يعكس أشعة الشمس التي تلعب على سطحه. كان الهواء باردا والغابة هادئة. كّف الأطفال فجأة عن الشجار وظلّوا بلا حراك على خيولهم في ذهول وقال أحدهم بصوت ناعم: «واو»، وكان الجميع يبتسمون لبعضهم البعض، فظلت تلك اللحظة جلية في الذهن كأبرز ما حدث في العطلة. وهذا ما يفشر بروزها إلى الذهن فورا. لكن إذا اعتمدنا على هذه الذكرى عند التخطيط لعطلتنا المقبلة متغافلين عن حقيقة أنّ بقية الرحلة كانت عموما مخيبة للآمال، فقد نخاطر بأن نجد أنفسنا في السنة المقبلة في المخيم المكتظ ذاته، نتناول الساندويتش البائت ذاته ومعرّضين للسع النمل الشرس ذاته متسائلين كيف لم نتعلّم سوى القليل من زيارتنا السابقة. لأننا نميل إلى تذكّر أفضل الأوقات وأسوأ الأوقات بدلا من الأوقات الأكثر احتمالا، فتروية التجارب التي نملكها والتي تثير إعجاب الشباب، لا تعود دوما علينا بالفائدة.

كل شيء على ما يرام

نشب مؤخرا جدال بيني وبين زوجتي التي كانت تصرّ على أنني معجب بفيلم قائمة شندلر الآن، دعوني أوضح الأمر: هي لم تكن تصرّ على أنني سأعجب الفيلم أو أنه عليّ أن أعجب بالفيلم بل كانت تصرّ على أنني معجب بالفيلم، الذي شاهدناه معا سنة 1993. فاجأني ذلك واعتبرته تعسفا شديدا. ليس عليّ أن أكون محقّا بشأن العديد من الأشياء، لكن الشيء الوحيد الذي أصرّ على حقّي في أن أكون محقّا بشأنه هو الشيء الذي يثر إعجابي. وكما ظلت أخبر الجميع لأكثر من عقد كامل، أنا لا يعجبني فيلم قائمة شندلر. لكن زوجتي تقول إنني مخطئ وبصفتي عالقا أشعر أنني ملزم أخلاقيا بأن أختبر أي فرضية عني وأنا أشاهد الفيلم وأتناول

البوب كورن. لذلك استأجرنا فيلم قائمة شندلر وشاهدناه من جديد، فأثبتت نتائج الاختبار الذي قممت به أنها، على نحو لا لبس فيه، من كان على حق: لقد كان كلانا على حق. كنت مُحققًا لأنني كنت بالفعل منشدًا إلى الفيلم طوال المائتي دقيقة الأولى، لكنني كنت على حق لأن شينا مريعا حدث في النهاية، فبدلا من أن يتوقف المخرج سييلبرغ عند ذلك الحد من القصة، أضاف مشهدا ختاميا ظهر فيه الأشخاص الحقيقيون، الذين لعبت شخصيات الفيلم أدوارهم، على الشاشة وكزمووا بطل الفيلم. بدا لي ذلك المشهد دخيلا ومبالغا فيه ولا ضرورة له إلى حد جعلني أقول لزوجتي: «أوه، ما هذا الهراء»، ويبدو أنني قلته بصوت عالٍ سمع في كل أرجاء المسرح سنة 1993. كانت الـ 98 بالمائة الأولى من الفيلم رائعة أما الـ 2 بالمائة الأخيرة فكانت سخيفة، وتذكرت أنني لم أحب الفيلم لأنه (بالنسبة إلي) انتهى نهاية سيئة. الأمر الوحيد الغريب المتعلق بهذه الذكرى، أنني شاهدت العديد من الأفلام المربعة التي كانت نسبة روعتها أقل من 98 بالمائة بكثير وأتذكر أنني أعجبت ببعض منها كثيرا، لكن الاختلاف يكمن في أن الجزء السخيف من تلك الأفلام جاء في بدايتها أو في وسطها أو في مكان آخر عدا النهاية. لماذا إذن أحب أفلاما متوسطة الجودة بنهايات رائعة أكثر من أفلام شبه مثالية لكنها تنتهي نهاية سيئة؟ في النهاية، ألا يمنحني الفيلم شبه المثالي دقائق مؤثرة عاطفيا أكثر من الفيلم ذي الجودة المتوسطة؟

أجل، لكن يبدو أن ذلك ليس هو المهم. فكما رأينا، لا تخزن الذاكرة فيلما طويلا عن تجربتنا بكل تفاصيلها ومشاهدها بل نبذة ذات خصوصية محددة ومن بين الخصائص الغريبة للذاكرة، هوسها بالمشاهد الختامية (320). كلما سمعنا مجموعة من الأصوات أو قرأنا مجموعة من الرسائل أو رأينا مجموعة من الصور أو شمنا مجموعة من الروائح أو التقينا بمجموعة من الأشخاص، نظهر ميلا واضحا نحو تذكر الأشياء التي ترد في نهاية تلك المجموعات على نحو أفضل بكثير من تذكر الأشياء التي ترد في البداية أو في المنتصف (321)، وهكذا، عندما نلقي نظرة خلفية على المجموعة بأسرها، يتأثر انطباعنا تأثرا شديدا بالأشياء التي ترد في الختام (322).

يصبح هذا الميل أكثر حدة على نحو خاض عندما نلقي نظرة على تجارب المتعة والألم التي خضناها سابقا. على سبيل المثال، طلب من بعض المتطوعين غمس أيديهم في ماء بارد (وهو أمر مؤلم للغاية عادة ما يتم القيام به في المختبر لكنه لا يسبب الضرر) وفي الآن ذاته أستخدم مقياس رقمي لتقييم التصنيف لتقديم تقرير عن شعورهم بالألم في الإبان (323). أنجز كل متطوع تجربة قصيرة الأمد وأخرى طويلة الأمد. غمس المتطوعون أيديهم، أثناء التجربة

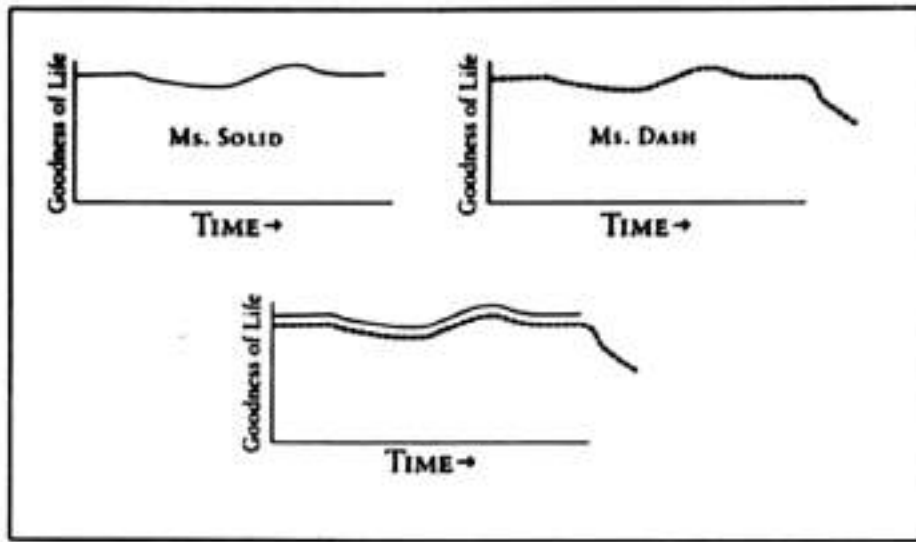
القصيرة، في حوض من الماء المحفوظ في درجة برودة تبلغ سبعة وخمسين فهرنهايت لمدة سئين ثانية. أما في التجربة الطويلة، فقد غمس المتطوعون أيديهم لتسعين ثانية في حوض مياه محفوظة في درجة برودة تبلغ سبعة وخمسين فهرنهايت خلال السئين ثانية الأولى، ثم تفت تدفنتها خلسة في حرارة أعلى قليلا تبلغ تسعة وخمسين درجة خلال الثلاثين ثانية المتبقية. إذن فقد دامت التجربة القصيرة ستين ثانية في درجة حرارة منخفضة والتجربة الطويلة دامت نفس المدة في حرارة منخفضة مع مدة ثلاثين ثانية إضافية في حرارة معتدلة، فأَي التجريبتين كانت أكثر إيلاما؟

حسنا، إن ذلك يعتمد على ما نعبه بكلمة إيلام. من الواضح أن التجربة الطويلة احتوت على عدد أكبر من لحظات الألم، وفعلا، كشفت التقارير الآتية للشعور بالألم المتعلقة بالمتطوعين أنهم أحسوا بالقدر ذاته من الألم خلال السئين ثانية الأولى في التجريبتين، لكن خلال الثلاثين ثانية الموالية حينما تركوا أيديهم في الماء (مثلما فعلوا في التجربة الطويلة) أحسوا بقدر من الألم أكبر مما عندما سحبوها (مثلما فعلوا في التجربة القصيرة). في المقابل، (أنا أسف لذلك) عندما طلب من المتطوعين لاحقا بأن يتذكروا تجربتهم ويقولوا أي التجريبتين كانت أكثر إيلاما، كانوا يميلون إلى القول إن التجربة القصيرة كانت أكثر إيلاما من الطويلة. رغم أن التجربة الطويلة تطلبت من المتطوعين أن يتحملوا 50 بالمائة إضافية في ماء شديد البرودة، إلا أن تلك التجربة انتهت بلمس ماء أكثر دفئا بعض الشيء وعلى هذا الأساس ظلّت عالقة في الذاكرة باعتبارها أقل التجريبتين إيلاما. إن هوس الذاكرة بالنهايات يفسر لماذا تظل النساء يذكرن المخاض بوصفها شيئا أقل إيلاما مما كان عليه في الحقيقة (324)، ولماذا الأزواج الذين توترت علاقتهم لا يتذكرون أنهم كانوا سعداء قظ منذ البداية (325). مثلما كتب شكسبير: «فالشمس الغاربة، ومقطع الموسيقى الأخير يظللان، مثل الطعم الأخير للحلوى، عالقان في الذاكرة أكثر من أشياء مضت وانقضت» (326).

إن الحقيقة القائلة إننا غالبا ما نقيم متعة تجربة معينة استنادا إلى نهايتها يمكن أن تقودنا إلى بعض الخيارات الغريبة. فعلى سبيل المثال، عندما سأل الباحثون الذين أجرؤا الدراسة المتعلقة بالماء البارد المتطوعين أي من التجريبتين يرغبون في تكرارها، اختار 69 بالمائة منهم التجربة الطويلة-أي، تلك التي انطوت على ثلاثين ثانية إضافية من الألم. لقد اختاروا تكرار التجربة الأطول لأن ما علق بذاكرتهم أنها أقل إيلاما من التجربة الأقصر. قد يكون من اليسير تنفيذ حكمة هذا الخيار- ففي نهاية المطاف، «مجمال المتعة» التي نحظى بها من عبر تجربة من التجارب هي نتاج جودة اللحظات التي تشكلها وحجمها، ومن الواضح أن هؤلاء المتطوعين لم

يفكروا في حجم المتعة (327). لكن في المقابل من الممكن الدفاع عن حكمة هذا الخيار بنفس السهولة، فنحن لا نمتطي الثور الميكانيكي أو نلتقط صورة مع نجم سينمائي وسيم لأن التجارب العابرة ممتعة بطبيعتها، بل لأننا نرغب في قضاء بقية سنوات حياتنا تغمرنا الذكريات السعيدة (لقد مكنت هناك لدقيقة كاملة!). إذا كنا نستطيع أن نستمتع مدة ساعات بذكرى تجربة دامت بعض الثواني فقط، وإذا كانت الذكريات تميل إلى الإفراط في التركيز على النهايات، فلماذا إذن لا نتحفل مزيدا من الألم من أجل الحصول على ذكرى أقل إيلا ما بعض الشيء؟ (328).

كلا هذين الموقفين منطقي وبإمكانكم التمسك بأحدهما. لكن المشكلة تكمن في تمسككم على الأرجح بكليهما معا. لننظر مثلا في دراسة ورد فيها أن مجموعة من المتطوعين قدمت لهم معلومات عن امرأة (سندعوها باسم السيدة داش) عاشت حياة في منتهى الروعة حتى بلغت سن الستين، حيث انتقلت حياتها في تلك النقطة من راحة إلى حياة مزرية (329). ثم، في سن الخامسة والستين، هلكت السيدة داش في حادث سيارة. فإلى أي حد عاشت حياة سعيدة (تلك التي يصفها الخط المتقطع في الرسم رقم 21)؟ على مقياس بتسع نقاط، منح المتطوعون حياة السيدة داش 5.7 نقاط. قيل لمجموعة أخرى من المتطوعين إن سيدة أخرى (سندعوها السيدة صوليد) قضت حياة غاية في الروعة إلى أن قتلت في حادث سيارة في سن الستين. فإلى أي حد كانت حياتها سعيدة (تلك التي يصورها الخط المتين في الرسم رقم 21)؟ أسند المتطوعون 6.5 نقطة لحياة السيدة صوليد. يبدو، إذن، أن هؤلاء المتطوعين يحبذون حياة راحة (حياة السيدة صوليد) على حياة أخرى راحة كذلك، لكن مع بعض السنوات الإضافية من الرضا فحسب (حياة السيدة داش). إذا أمعنت التفكير للحظة بهذا، فستدرك بأن هذه هي الطريقة ذاتها في التفكير التي أتبعها المتطوعون في الدراسة المتعلقة بالماء البارد. كانت حياة السيدة داش تحتوي على «متعة كاملة» أكثر من حياة السيدة صوليد، بينما انتهت حياة السيدة صوليد نهاية أفضل من السيدة داش، وكان المتطوعون أكثر انشغالا بنوعية نهاية الحياة من مجمل مقدار المتعة التي احتوت عليها تلك الحياة. لكن مهلا، عندما طلب من مجموعة ثالثة من المتطوعين أن يقارنوا الحياتين الواحدة بالأخرى (كما يمكنك أن ترى في الجزء السفلي من الرسم رقم 12)، لم يظهروا ذلك التفضيل. فعندما طلب من المتطوعين أن يفكروا في حياتي المرأتين تفكيكا متزامنا، صار الاختلاف في نوعية الحياتين بارزا ولم يعد المتطوعون على يقين من أنهم يفضلون أن يعيشوا باندفاع ويموتوا باكرا مخلفين جثة سعيدة. يبدو أن الصورة التي تنتهي عليها الحياة بالنسبة إلينا أكثر أهمية من مجمل مقدار المتعة التي نحصل عليها-لكن ذلك يظل صحيحا حتى نفكر في الأمر مليا.



رسم رقم 21. عندما كان التفكير فيهما منفصلا، اكتسبت الخطوط المنحنية أهمية، لكن عندما حصلت المقارنة بينهما على نحو مباشر، طول تلك الخطوط هو ما اكتسب أهمية.

الصورة التي لم تكن عليها

لو كنت في السن التي تسمح لك بالانتخاب عشية الثامن من تشرين الثاني سنة 1988، فمن المحتمل أن تكون في ذلك الوقت جالسا في البيت تشاهد نتائج السباق الرئاسي بين مايكل دوكاكيس وجورج بوش. وإذا عدت بذاكرتك إلى تلك الانتخابات ربما لا تزال تتذكر دعاية ويلى هورتن أو جملة «عضو مؤثر في الأتحاد الأمريكي للحريات المدنية ACLU»، أو الرذ الحاذ للويد بنتسن على دان كويلي: «أيها السيناتور، أنت لست جاك كينيدي». من المؤكد كذلك أنك تتذكر أنه عند فرز كل الأصوات، تبين أن الأمريكيين قزروا ألا يرسلوا ليبراليا من ماساتشوستس إلى البيت الأبيض. ورغم هزيمة دوكاكيس في الانتخابات إلا أنه فاز بعدد أكبر من الولايات الليبرالية ولأنا نتحدث عن الذاكرة، أريدك أن تغمض عينيك الآن. أغمض عينيك للحظة وحاول أن تتذكر شعورك بالتحديد عندما أعلن مذيع الأخبار أن دوكاكيس فاز بولاية كاليفورنيا. هل أصبت بخيبة أمل؟ أم كنت سعيدا؟ هل طرت فرحا؟ أم حركت رأسك أسفا؟ هل ذرفت دموع الفرح؟ أم دموع الحزن؟ هل قلت: «الحمد لله على نعمة اليسار» أو: «ما الذي توقعه من المثليين والمجانين؟». فإذا كنت تنتمي إلى الطرف الليبرالي من الطيف السياسي، فعلى الأرجح أنك كنت سعيدا عندما أعلن عن كاليفورنيا، أما إذا كنت تنتمي إلى الطرف المحافظ، فعلى الأرجح أنك تتذكر أنك كنت أقل سعادة. فإذا كان هذا ما تتذكرونه، دعوني، أيها الأصدقاء والإخوة المواطنين، أقف أمامكم لأعلن لكم أن ذاكرتكم خاطئة، لأن سكان كاليفورنيا صوتوا في سنة 1988 لصالح جورج هربرت واكر بوش.

لماذا من السهل جدًا ارتكاب مثل هذه حماقة؟ لأن الذاكرة عملية إعادة بناء تستخدم كل معلومة بحوزتها لبناء الصور التي تتبادر إلى الذهن عندما ننخرط في عملية تذكّر. إحدى هذه المعلومات هي حقيقة أن كاليفورنيا هي الولاية الليبرالية التي منحنا التأمل التجاوزي وطبق الميوسلي وموسيقى السيكاديليك روك وجيري براون الذي حكم الولاية وكان يلعب بـ Moonbeam، فمن المنطقي إذن أن يفوز مايكل دوكاكيس- مثل بيل كلنتون وآل غور وجون كيري- بالولاية بسهولة. لكن قبل أن يشرع سكان كاليفورنيا في التصويت لبيل كلنتون وآل غور وجون كيري، كانوا قد صوّتوا لأكبر عدد من المرات لجيرالد فورد ورونالد ريغن وريتشارد نيكسون، لكنك لا تستطيع تذكر تلك التفاصيل التافهة وغير المعروفة المتعلقة بالتاريخ السياسي ما لم تكن عالما سياسيا أو مدمنا مشاهدة «السي ان ان» أو تعيش في كاليفورنيا منذ زمن بعيد. لذلك استنتاجك منطقي لا سيما أن كاليفورنيا ولاية ليبرالية وبما أن دوكاكيس كان مرشحا ليبراليا، فلا بد أن سكان كاليفورنيا قد صوّتوا له. تماما مثلما يستخدم علماء الأنثروبولوجيا الحقائق (غثر على جمجمة طويلة وضيقة تعود إلى ثلاثة عشر ألف سنة قرب مكسيكو سيتي) والنظريات («الجماجم الطويلة والضيقة تدل على أصول أوروبية») للقيام بتخمينات عن أحداث تعود إلى الماضي («جاء القوقازيون إلى العالم الجديد منذ ألفي سنة خلت قبل أن يأخذ مكانهم المنغوليون»)، استخدم دماغك حقيقة أن («دوكاكيس كان ليبراليا») ونظريّة أن («سكان كاليفورنيا ليبراليون») ليخمن حدثا سابقا يتمثل في أن («سكان كاليفورنيا صوتوا لصالح دوكاكيس»). لكن مع الأسف، تخمينك كان خاطئا لأنك انطلقت من نظرية خاطئة.

إن أدمغتنا تستخدم الحقائق والنظريات لتخمن أحداثا ماضية، وبنفس الطريقة، تستخدم الحقائق والنظريات لتكهن كيف كانت مشاعرنا في الماضي (330). لكنّ المشاعر لا تترك وراءها حقائق من نفس النوع الذي تتركه الانتخابات الرئاسية والحضارات القديمة، لذلك لا بد لها من الاعتماد بشكل كبير على النظريات لتبني الذكريات المتعلقة بكيفية شعورنا في الماضي. عندما تكون تلك النظريات خاطئة، سيؤذي بنا ذلك إلى عدم استعادة ذكرياتنا على نحو صحيح. ففكر في كيف يمكن، مثلا، لفرضياتنا بخصوص شيء ما -لنقل، الجندر؟- أن تؤثر في ما ظل في ذاكرتنا من مشاعر عشناها في الماضي. يعتقد معظمنا أن الرجال أقل عاطفية من النساء («كانت تبكي ولم يكن يفعل»)، وأن للرجال والنساء ردود أفعال عاطفية مختلفة تجاه أحداث متشابهة («كان غاضبا، وكانت حزينة»)، وأن النساء يملن بشكل خاض إلى المشاعر السلبية، في فترات معينة من دورتهن الشهرية («كانت اليوم منفعة بعض الشيء، إن كنت تفهم ما أعنيه»). لكن، كما اتضح، ليس ثمة ما يكفي من القرائن التي تثبت صحة أي من هذه الاعتقادات- لكن ليس هذا هو المهم، بل الفكرة أن هذه الاعتقادات هي نظريات يمكن أن تؤثر في كيفية تذكّرنا مشاعرنا.

لتأهل ما يلي:

* ورد في إحدى الدراسات أنه طلب من بعض المتطوعين أن يتذكروا كيف كانوا يشعرون قبل بعض الأشهر، فتذكر الإناث والذكور من المتطوعين مشاعر بنفس درجة القوة (331). ثم طلب من مجموعة متطوعين آخرين أن يتذكروا كيف كان شعورهم قبل شهر من الآن، لكن قبل أن يفعلوا ذلك، طلب منهم أن يفكروا قليلا بالجنس. حينما حث المتطوعون على التفكير في الجنس، تذكرت المتطوعات الإناث أن مشاعرهن كانت أشد بينما تذكر المتطوعون الذكور أن شعورهم كان أقل قوة.

* ورد في إحدى الدراسات أيضا، أن مجموعة متطوعين من الإناث والذكور انضمت إلى فريقين رياضيين ولعبت مباراة ضد فريق مقابل (332). عبر بعض المتطوعون فورا عن المشاعر التي انتابتهم خلال المباراة بينما تذكر الآخرون مشاعرهم بعد أسبوع. لم تختلف الإناث عن الذكور في المشاعر التي عبروا عنها. لكن بعد أسبوع، كانت المشاعر التي عبرت عنها الإناث أنتوية على نحو نمطي (مثلا، التعاطف والشعور بالذنب) أما تلك التي عبر عنها الذكور فكانت ذكورية على نحو نمطي (مثلا، الغضب والكبرياء).

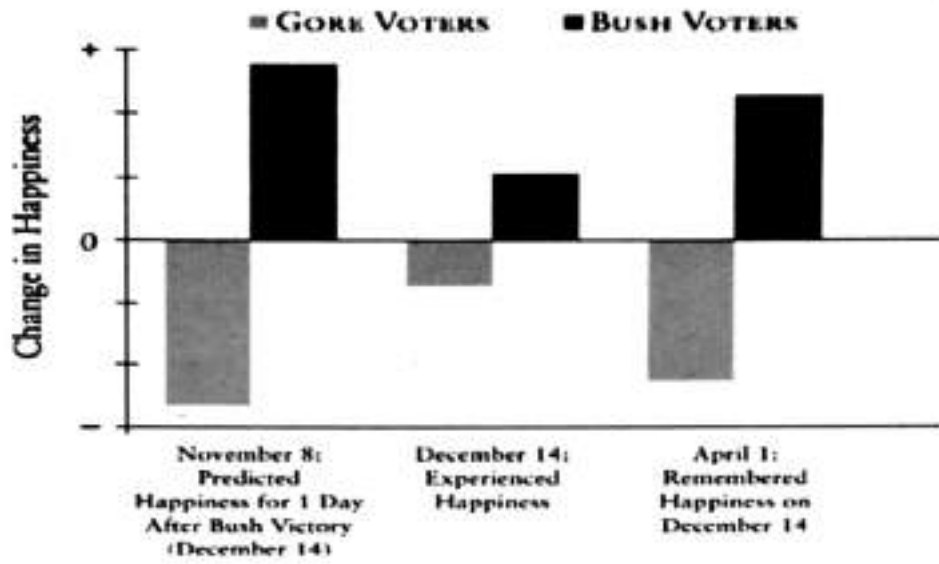
* في إحدى الدراسات الأخرى، كتبت بعض المتطوعات مذكراتهن وقيمن مشاعرهن بشكل يومي لمدة أربعة أو ستة أسابيع (333). فكشفت هذه التقييمات أن مشاعر النساء لا تختلف خلال مرحلة الدورة الشهرية. لكن، عندما طلب من النساء أن يعدن قراءة ما كتبن في دفتر المذكرات في يوم محدد وأن يتذكرن كيف كن يشعرن، تذكرن بأن مشاعر أكثر سلبية انتابتهن خلال فترة الحيض.

يبدو أن النظريات التي نملكها بشأن كيفية شعور الأشخاص من نفس جنسنا عادة ما تؤثر في تذكرنا شعورنا الحقيقي في الماضي. ليس الجنس إلا نظرية من النظريات التي تملك القدرة على تغيير ذكرياتنا. على سبيل المثال، لا تؤكد الثقافة الآسيوية أهمية السعادة الشخصية مقارنة بالثقافة الأوروبية وهكذا فالأمريكيون من أصول آسيوية يعتقدون أنهم عموما أقل سعادة من نظرائهم الأمريكيين من أصول أوروبية.

ورد في إحدى الدراسات أن مجموعة من المتطوعين حملوا حواسيب نقالة أينما ذهبوا لمدة أسبوع ودونوا كيفية شعورهم. وفي كل مرة كان الحاسوب يصدر طينا موزعا على فترات عشوائية طوال اليوم (334). أظهرت هذه التقارير أن الأمريكيين من أصول آسيوية كانوا أكثر سعادة إلى حد ما مقارنة بالمتطوعين الأمريكيين من أصول أوروبية، لكن عندما

طلب من المتطوعين أن يتذكروا كيف كانوا يشعرون في ذلك الأسبوع، قال الأمريكيون من أصول آسيوية إنهم كانوا أقل سعادة وليس العكس. في دراسة استخدمت منهجية مماثلة، قال متطوعون أمريكيون من أصول لاتينية وآخرون من أصول أوروبية إن شعورهم كان متطابقا إلى حد بعيد خلال أسبوع محدد، لكن الأمريكيين من أصول لاتينية تذكروا أنهم كانوا أكثر سعادة من الأمريكيين من أصول أوروبية (335). غير أن النظريات لا تنطوي جميعها على بعض السمات الثابتة للأشخاص، مثل الجندر والثقافة. أي من الطلبة، مثلا، يميل إلى الحصول على أعلى الدرجات في اختبار ما- أولئك الذين يقلقون بشأن العلامات أو أولئك الذين لا يفعلون؟ بصفتي أستاذا في الجامعة، يمكنني أن أخبرك بأن نظريتي الخاصة تتمثل في أن الطلبة الذين يساورهم القلق بعمق بشأن أدائهم يميلون إلى الدراسة أكثر من غيرهم ونتيجة لذلك يحصلون على درجات أعلى من زملائهم المتكاسلين. يبدو أن للطلبة نفس النظرية لأن البحث يبين أن الطلبة عندما يبلون البلاء الحسن في الاختبار، يتذكرون أنهم كانوا أكثر قلقا قبل الامتحان مما كانوا عليه في الواقع، وعندما يكون أدائهم في الامتحان سيئا، يتذكرون أنهم كانوا أقل قلقا قبل الامتحان مما كانوا عليه في الواقع (336).

إن الشعور الذي نتذكره يتطابق مع الشعور الذي نعتقد أنه انتابنا على نحو مؤكد. ومشكلة هذا الخطأ المتعلق بتأمل الماضي، تكمن في أنه قد يمنعنا من اكتشاف أخطائنا التي نرتكبها عند التنبؤ. لننظر في هذه الحالة التي تعلق بالانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة سنة 2000. اتجه الناخبون نحو صناديق الاقتراع يوم السابع من تشرين الثاني سنة 2000، ليقرروا من سيصبح الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة: جورج بوش أم آل غور، لكن سرعان ما اتضح أن النتيجة متقاربة للغاية بينهما وأنها تتطلب أسابيع ليحسم فيها. في اليوم الموالي، أي 8 تشرين الثاني، طلب باحثون من بعض المتطوعين أن يتوقعوا مدى سعادتهم في اليوم الذي ستحسم فيه النتيجة لفائدة مرشحهم المفضل أو ضده. يوم 13 من كانون الأول تنازل آل غور لفائدة جورج بوش، وفي اليوم الموالي، أي 14 كانون الأول، قاس الباحثون درجة السعادة الحقيقية للناخبين. بعد أربعة أشهر، أي في أبريل 2001، اتصل الباحثون بالناخبين من جديد وطلبوا منهم أن يتذكروا كيف كانوا يشعرون يوم 14 كانون الأول. كما يبين الرسم رقم 22، كشفت الدراسة ثلاثة أشياء.



رسم رقم 22. في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، توقع الأنصار أن يؤثر قرار المحكمة العليا تأثيراً شديداً على مدى السعادة التي سيشعرون بها بعد يوم واحد من إعلان القرار (الأعمدة على اليمين). في الواقع، كان للقرار تأثير أضعف بكثير في شعور الأنصار بالسعادة مما توقعوا أو تذكروا (الأعمدة في المنتصف).

أولاً، توقع الناخبون الموالون لغور بعد مرور يوم من الانتخابات، أن يكونوا محطمين وتوقع أنصار بوش أن يكونوا سعداء حدّ النشوة إذا ما أعلن في النهاية فوز جورج بوش. ثانياً، عندما أعلن جورج بوش أخيراً فائزاً، كان أنصار غور أقلّ تعاسة وأنصار بوش أقلّ سعادة مما كانوا يتوقعون (وهي نزعة سبق أن رأيتها في الفصول السابقة). أما الشيء الثالث والأكثر أهمية، فهو أنه بعد بعض الأشهر التي تلت نتيجة الانتخابات، تذكّر المتطوعون في كلتا المجموعتين أنهم كانوا يشعرون مثلما كانوا يتوقعون، وليس كما كانوا يشعرون فعلاً. يبدو إذن أن تذكر ما سبق والتنبؤ بما سيأتي لاحقاً يمكن أن يكونا شيئاً متناقضين تماماً رغم حقيقة أن لا هذا ولا ذاك يصفان تجربتنا الواقعية فعلاً (337)، فالنظريات التي تقودنا إلى توقع أن حدثاً ما سيجعلنا سعداء («إذا فاز بوش، سأنتشي سعادة») تقودنا أيضاً إلى تذكر أنها ستجعلنا كذلك («عندما فاز بوش كنت منتشياً سعادة»)، وهو ما يقضي على وجود أية قرينة على عدم دقتها. نحن نبالغ في توقع شعورنا بالسعادة في أعياد مولدنا (338)، ونقلل من حجم سعادتنا في صباحات يوم الاثنين (339)، ونقوم بهذه التوقعات المألوفة والمغلوبة في الآن ذاته مراراً وتكراراً، رغم عدم صحتها، وبهذا فإن عدم قدرتنا على تذكر كيف كنا نشعر حقاً هي أحد الأسباب التي تفسر سبب تحول ثروة التجارب التي نملكها إلى مصدر لفقرنا.

إلى الأمام

عندما طلب من مجموعة من الأشخاص تسمية غرض واحد قد يحاولون إنقاذه إذا نشب حريق في بيوتهم، كانت الإجابة الأكثر شيوعاً (مما أثار جزع كلب العائلة) هي «ألبوم صوري». فنحن لا نثمن فقط ذكرياتنا، بل نتماهى مع تلك الذكريات، ومع ذلك، كشفت البحوث أن الذاكرة لا تشبه ألبوم صور بقدر ما تشبه مجموعة لوحات انطباعية صقها فنان مارس حرته في اختيار موضوعه وكلما كان الموضوع أكثر التباساً، ازدادت حرية الفنان، وأضحت بعض المواضيع أكثر التباساً من التجربة العاطفية. إن ذاكرتنا المتعلقة بالأحداث العاطفية تتأثر على نحو مفرط بالحوادث غير الاعتيادية ولحظات النهاية وافتراضاتنا عن كيفية شعورنا في ذلك الوقت، كل هذه الأشياء تقوض قدرتنا على التعلّم من تجربتنا الخاصة. يبدو أن الممارسة لا تؤدي دائماً إلى الكمال، لكن لو عدت بذاكرتك لذاك الحديث عن التبرز، فستذكر أن الممارسة هي فقط إحدى الطريقتين اللتين نتعلّم من خلالهما. إذا لم تصلحنا الممارسة، فماذا عن التوجيه إذن؟

الفصل الحادي عشر نقل حي من المستقبل

وفقا لما علمته إياه العصور الغابرة لا بد أنه، بل هو بالفعل، بل لا يمكنه أن يكون إلا حكيما

شكسبير، ترويلوس وكريسيدا

في الفيلم الذي أخرجه ألفريد هيتشكوك سنة 1956 بعنوان الرجل الذي عرف أكثر من اللازم، غنت دوريس داي أغنية على إيقاع الفالس يقول مقطعها الأخير:

«حين كنت مجزّد طفلة في المدرسة

سألت معلمي، «ما الذي سأجزّبه؟

أعلي أن أرسّم الصور؟ أم علي أن أغني الأغاني؟»

وكان هذا جوابه الحكيم:

«*Que sera, sera*. مهما سيكون سيكون.

فالمستقبل ليس ملكنا لنراه. (340)» *Que sera, sera*

الآن، أنا لست أعارض كاتب كلمات الأغنية، ولا أملك سوى الذكريات الجميلة عن دوريس داي، لكنّ الفكرة أنّ هذا ليس جوابا حكيما بوجه خاص. فحين يطلب طفلا نصيحة إلى أي من ذينك النشاطين يثجّه، على المدرّس أن يقدم له أكثر من مجزّد كليشيه موسيقي. أجل، طبعا من الصعب رؤية المستقبل، لكننا جميعا سنسلك ذلك الطريق على أية حال ومثلما قد يكون التصوّر صعبا، علينا أيضا أن نثخذ بعض القرارات بشأن المستقبل الذي نطمح إليه وذلك الذي نريد تجنّب حدوثه. فإذا كنا عرضة لارتكاب الأخطاء حينما نحاول تخيل المستقبل، كيف علينا إذن أن نقزّر ماذا نفعل؟

حتى الطفل يعرف الجواب عن ذلك السؤال: علينا أن نسأل المعلم. من المزايا التي نملكها بصفتنا حيوانات اجتماعية وناطقة، أننا نستطيع الاستفادة من تجربة الآخرين بدلا من محاولة اكتشاف كل شيء بأنفسنا. تغلّب البشر، لملايين السنين، على جهلهم من خلال تقاسم جهد الاكتشاف ثم تمرير اكتشافاتهم إلى بعضهم البعض، وهذا ما يفسر لماذا يعلم الفتى الذي يوزع الصحف في بيتسبورغ عن الكون أكثر من غاليلو وأرسطو وليوناردو أو أي أحد آخر من أولئك المشاهير. كلنا استفدنا بشكل واسع من هذه الخبرة. لو كتبت كل شيء تعرفه ثم عدت

إلى القائمة ووضعت علامة إلى جانب الأشياء التي تعرفها من خلال شخص آخر، فستصاب باضطراب الحركة المتكررة لأن كل شيء تعرفه تقريبا، عرفته على نحو غير مباشر. هل كان يوري غاغارين أول رجل يسافر إلى الفضاء؟ هل كرواسون *croissant* كلمة فرنسية؟ هل عدد الصينيين يفوق عدد سكان داكوتا الشمالية؟ هل درهم وقاية خير من قنطار علاج؟ معظمنا يعرف الإجابات عن هذه الأسئلة رغم أن لا أحد منا شهد حقا إطلاق صاروخ فوستوك 1، أو راقب بنفسه تطوّر اللغة أو قام بعدّ سكان بيكين أو باسمارك على أصابع اليد أو أعد دراسة عشوائية بشكل كامل و«مزدوجة التعمية» عن الوقاية. بل نحن نعرف الأجوبة لأن أحدهم نقلها إلينا والنقل نوع من أنواع «الاستيعاب غير المباشر» (341) الذي يمكننا من اكتشاف العالم دون حتى مغادرة أرائكنا المريحة. إن السئة مليارات ساكن المرتبطين ببعضهم البعض والذين يغطون سطح الكوكب يمثلون تئينا يائني عشرة غينا وكل ما يرى من خلال زوج من العينين يمكن أن يصبح معلوماً بالنسبة إلى الوحش بأكمله خلال أشهر أو أيام أو حتى دقائق.

وحقيقة أنه بوسعنا تبادل تجاربنا فيما بيننا، ينبغي أن توفر حلاً بسيطاً للمسألة الجوهرية التي يتناولها هذا الكتاب باهتمام. أجل، إن قدرتنا على تخيل المستقبل لا تخلو من العيوب - لكن لا بأس، فنحن لسنا مضطربين لتخيل كيف يكون شعورنا إذا ما تزوجنا محامياً، أو انتقلنا للعيش في تكساس أو أكلنا حلزوناً. وإذا كان ثمة العديد من الأشخاص الذين قاموا بهذه الأشياء ويسعدهم للغاية أن يحدثونا عنها. المدرسون والجيران وزملاؤنا في العمل وأباؤنا والأصدقاء والأحبة والأطفال والأعمام والأخوال وأبناء العمومة والأخوال والممرنون وسواق التاكسي ونذل الحانات ومصقفو الشعر وأطباء الأسنان وأصحاب الإعلانات - كل واحد من هؤلاء لديه شيء يقوله عفا يشبه العيش في هذا المستقبل بدلا من ذلك، وفي كل لحظة بوسعنا أن نتأكد على نحو تام أن أحد هؤلاء الأشخاص عاش التجربة التي نحن بصدد تأملها فحسب. بما أننا ننتمي إلى تلك الشدييات التي تعرض الأشياء على الآخرين ثم تصفها، فكل منا يستطيع الحصول على معلومات تخض تقريبا أي تجربة كانت من تلك التي يمكننا تخيلها - والعديد من تلك التي ليس بوسعنا تخيلها. فمستشارو التوجيه يخبروننا عن أفضل المهن ويدلنا النقاد على أفضل المطاعم ووكلاء السفر عن أفضل العطل والأصدقاء عن أفضل وكلاء السفر. جميعنا محاطون بكتيبة من «عزيزتي أبي» (Dear Abbys) الذين يستطيعون سرد تجاربهم الخاصة بالتفصيل ومن خلال ذلك يدلوننا على المستقبل الأجدر بالحصول عليه.

نظرا لوفرة المستشارين والقنوات والمعلمين الروحيين والمرشدين ووسطاء الزواج والأقارب المتطفلين، قد نتوقع أن يحسن الناس اتخاذ القرارات المصيرية من قبيل أين سيعيشون وأين

سيعملون ومن سيتزوجون. ومع ذلك، ينتقل معدل الأمريكيين من مكان إلى آخر أكثر من ست مرات (342) ويغيرون وظائفهم أكثر من عشر مرات (343) ويتزوجون أكثر من مرة (344)، وهو ما يشير إلى أن معظمنا ينتقي العديد من الخيارات السيئة. فإذا كانت الإنسانية عبارة عن مكتبة حية من المعلومات حول كيفية شعور المرء عند القيام بشيء من الممكن القيام به، لماذا إنن يتخذ الأشخاص، الذين يملكون بطاقات تمكّنهم من الولوج إلى المكتبة، العديد من القرارات الخاطئة؟ ثقة احتمالان فحسب. يتمثل الأول في أن الكثير من النصائح التي نلقاها من الآخرين هي نصائح سيئة نتقبلها بغباء. أما الاحتمال الثاني فيتمثل في أن الكثير من النصائح التي نحصل عليها من الآخرين، نصائح جيدة نرفضها بغباء. فأأي الاحتمالين هو الأصح؟ هل نحسن الإصغاء عندما يتكلم الآخرون، أم أننا لا نصغي جيدا بما يكفي؟ مثلما سنرى، فالإجابة عن ذلك السؤال هي نعم.

جينات فائقة التكرّر

قال الفيلسوف برترند راسيل ذات مرة بأن الاعتقاد هو «أكثر الأشياء الذهنية التي نقوم بها» (345). قد يكون ذلك صحيحا، لكنه أيضا أكثر الأشياء التي نقوم بها اجتماعية. فمثلما نمزج جيناتنا في سعي لخلق أشخاص بوجوه تشبه وجوهنا، كذلك نمزج معتقداتنا في سعي لخلق أشخاص بعقول تشبه عقولنا. في كل مرة تقريبا نُخبر أي شخص بأي شيء، فنحن نحاول تغيير الطريقة التي تعمل بها أدمغة الأشخاص - نحاول تغيير الطريقة التي يرون بها العالم حتى تصبح نظرتهم له أشبه بنظرتنا. كل المقولات تقريبا - بداية من السامية منها («للرب خطة من أجلك») حتى الدنيوية («انعطف يسارا عند الضوء، سر لميلين وسترى الدانكن دونتس (Dunkin Donuts) على يمينك») - يقصد بها خلق تناغم بين معتقدات المستمع عن العالم ومعتقدات المتكلم. قد تنجح هذه المحاولات أحيانا وقد تفشل أحيانا أخرى، فما الذي يحدّد إنن إذا كان اعتقاد من المعتقدات سينتقل بنجاح من عقل إلى آخر أم لا؟

إنّ المبادئ التي تشرح لماذا تنتقل بعض الجينات على نحو أكثر نجاحا من جينات أخرى، تشرح أيضا سبب انتقال بعض الاعتقادات على نحو أكثر نجاحا من اعتقادات أخرى (346). تعلمنا بيولوجيا التطور أن أي جين يعزّز «وسائل الانتقال» الخاصة به سيكون مُمثلا بنسب متزايدة في صفوف السكان مع مرور الوقت. على سبيل المثال، تخيل أن جينا واحدا مسؤولا عن التطور المعقّد للدوائر العصبية التي تجعل من الأورجازم شعورا ممتعا للغاية. بالنسبة إلى الشخص الذي يملك هذا الجين، سيتمنحه الأورجازم، حسنا، شعورا بالنشوة. أما بالنسبة إلى الشخص الذي ينقصه هذا الجين، سيكون الأورجازم أشبه بالعطس - أي تشنجات جسدية

سريعة وصاخبة لا تعود على الشخص سوى بقدر ضئيل من المتعة. الآن، إذا أخذنا خمسين شخصا يتمتعون بصحة جيدة وبقدر كبير من الخصوبة ويملكون الجين وخمسين آخرين بنفس المواصفات لكنهم لا يملكون ذلك الجين، ونتركهم فوق كوكب ملانم للحياة لنحو مليون سنة، عندما نعود من المحتمل أن نجد عدد السكان يقدر بالآلاف أو الملايين، وجميعهم تقريبا يملكون ذلك الجين. لماذا؟ لأن الجين الذي يجعل الأورجازم شعورا ممتعا، سيميل إلى المرور من جيل إلى آخر بما أن الأشخاص الذين يستمتعون بالأورجازم يميلون ببساطة إلى القيام بالشيء الذي ينقل جيناتهم. إن المنطق وراء هذا صحيح إلى حد يجعله أمرا حتميا تقريبا وهو كالآتي: تميل الجينات إلى الانتقال من شخص إلى آخر عندما تدفعنا إلى القيام بالأشياء التي تساعد على نقلها. والأكثر من ذلك، حتى الجينات السيئة - تلك التي تجعلنا عرضة للسرطان أو لمرض القلب - يمكن أن تصبح جينات فائقة التكرار على سبيل المثال، إذا كان الجين الذي يجعل من لحظة الأورجازم لحظة ممتعة يتركنا عرضة أيضا إلى الإصابة بالتهاب المفاصل وتسوس الأسنان، فقد يظل ذلك الجين موجودا بنسب متزايدة لأن الأشخاص الذين يعانون من التهاب المفاصل وفقدوا أسنانهم ويحبون الأورجازم هم الذين من المرجح أن ينجبوا أطفالا أكثر من أولئك الذين يتميزون برشاقة وأسنانهم كاملة.

نفس هذا المبدأ يمكن أن يفسر انتقال الاعتقادات. فإذا كان لاعتقاد بعينه بعض الخصائص التي تسهل عملية انتقاله، فسوف تميل نسب متزايدة من الأذهان إلى الإيمان به. وكما اتضح، ثمة العديد من تلك الخصائص التي تزيد من نجاح انتقال اعتقاد ما، ومن أكثر تلك الخصائص وضوحا هي الدقة. عندما يخبرنا أحدهم أين نجد المرآب وسط المدينة أو كيف نخبز كعكة اسفنجية، نتبنى ذلك الاعتقاد ونمزره إلى الآخرين لأنه يساعدنا ويساعد أصدقاءنا في القيام بأشياء نرغب فيها مثل ركن السيارة أو خبز الكعك. كما قال أحد الفلاسفة: «لن تحرز القدرة على التواصل تطورا ما لم تكن إلى حد بعيد قادرة على نقل الاعتقادات الصحيحة» (347). تمنحنا الاعتقادات الدقيقة القوة وهو ما يجعل فهم الاستعداد الذي بواسطته تنتقل من ذهن إلى آخر أمرا سهلا.

من الصعب بعض الشيء فهم سبب انتقال الاعتقادات غير الدقيقة بسهولة من ذهن إلى آخر - لكنها تفعل. إن الاعتقادات الخاطئة، مثل الجينات السيئة، يمكن أن تصبح فائقة التكرار وثقة تجربة فكرية تصور كيفية حدوث هذا. تخيل مباراة بين فريقين، لكل فريق ألف لاعب، كل لاعب مرتبط ببقية أعضاء الفريق بواسطة هاتف والغاية من اللعبة أن يتقاسم كل فريق في ما بينه أقصى عدد ممكن من الاعتقادات الدقيقة. عندما يتلقى اللاعبون رسالة يعتقدون أنها

دقيقة، يتصلون بالأعضاء الآخرين للفريق ويمزرونها لهم. وعندما يتلقون رسالة يعتقدون أنها غير دقيقة، لا يفعلون. في نهاية اللعبة يصفر الحكم ويمنح نقطة عن كل اعتقاد دقيق ويحذف نقطة على كل اعتقاد خاطئ تقاسمه الفريق كله. الآن تأمل في مسابقة وقعت في يوم مشمس بين فريقين يسقى الأول فريق المثاليين (الذي ينقل أعضاؤه اعتقادات دقيقة) ويسقى الثاني فريق غير المثاليين (الذي ينقل أعضاؤه من حين إلى آخر اعتقادا غير دقيق). نحن نتوقع فوز فريق المثاليين، أليس كذلك؟

ليس ضرورياً. في الواقع، هناك ظروف خاصة سيتغلب فريق غير المثاليين وفقاً لها على الفريق الآخر. تخيل، مثلاً، ما الذي قد يحدث إذا أرسل أحد اللاعبين غير المثاليين الرسالة الخاطئة «الحديث بالهاتف ليل نهار سيجعلك في النهاية سعيداً جداً»، وتخيل أن بقية اللاعبين غير المثاليين من السذاجة بمكان ليصدقوا ذلك ويمزروا الرسالة إلى الآخرين. هذه الرسالة خاطئة وهي لذلك ستكلف اللاعبين غير المثاليين في النهاية نقطة، لكنها ستعوضهم عن ذلك حينما تبقئهم على الهاتف لوقت أطول مما يزيد في العدد الإجمالي للرسائل الدقيقة التي ينقلونها. في ظل الظروف المناسبة، سيفوق عدد مزايا الاعتقاد الخاطئ ما قد ينجز عنه من خسارة نقاط، لا سيما، أنه سيدفع باللاعبين إلى التصرف بطرق تزيد من احتمالات تقاسمهم اعتقادات دقيقة. إن العبرة التي نستخلصها من هذه اللعبة، أن الاعتقادات الخاطئة يمكن أن تنتشر في لعبة انتقال الاعتقاد، إذا قامت على نحو ما بتيسير «وسيلة الانتقال» الخاصة بها. في هذه الحالة، تتمثل وسيلة الانتقال في التواصل، لا في الجنس، ومن ثقة فإن أي اعتقاد يؤدي إلى مزيد من التواصل -حتى لو كان اعتقاداً خاطئاً- يحظى بفرصة جيدة للانتقال مراراً وتكراراً. إن الاعتقادات الخاطئة التي حدث أن أسست لمجتمعات مستقرة تشيع فيها لأن الأشخاص الذين يؤمنون بها يميلون إلى العيش في مجتمعات مستقرة توفر الوسائل التي بواسطتها تشيع تلك الاعتقادات الخاطئة.

يبدو البعض من حكمتنا الثقافية حول السعادة أشبه على نحو مريب بالاعتقاد الخاطئ القابل للتكرار. لتأمل المال مثلاً. إذا حاولت بيع أي شيء، فمن المحتمل أن تحاول بيعه مقابل أكبر قدر ممكن من المال، بينما الأشخاص الآخرون قد يحاولون شراءه مقابل أقل سعر ممكن، فكل الأطراف المشاركين في الصفقة يفترضون أنهم سيكونون في أفضل حال إذا حصلوا في النهاية على قدر أكبر من المال وهذا الافتراض هو حجر الأساس في سلوكنا الاقتصادي. ومع ذلك، فالحقائق العلمية التي تهز هذا السلوك أقل بكثير مما قد تتوقع. لقد أنفق علماء الاقتصاد وعلماء النفس عقوداً متتالية في دراسة العلاقة بين الثروة والسعادة، وخلصوا بشكل عام إلى أن الثروة تزيد من سعادة الإنسان عندما تنتشر الناس من الفقر المدقع وترفعهم إلى

الطبقة الوسطى فقط لكنها لا تفعل الكثير بعد ذلك لزيادة سعادتهم(348). إن الأمريكيين الذين يجنون 50.000 \$ سنويًا أكثر سعادة من أولئك الذي يجنون 10.000 \$ في السنة، لكن الأمريكيين الذين يجنون 5 ملايين في السنة ليسوا أكثر سعادة من أولئك الذين يجنون 100.000 \$ والناس الذين يقطنون البلدان الفقيرة أقل سعادة بكثير من الناس الذين يعيشون في البلدان متوسطة الثراء، لكن الناس الذين يعيشون في بلدان متوسطة الثراء ليسوا أقل سعادة بكثير من أولئك الذين يعيشون في بلدان فاحشة الثراء. يفسر علماء الاقتصاد ذلك بأن للثروة «انخفاض في الفائدة الهامشية»، وهي طريقة منمقة للقول بأنه من المؤلم الشعور بالجوع والبرد والمرض والتعب والخوف، لكن حالما وفرت المال اللازم لتجنيب كل هذه الأعباء، تصبح بقية أموالك مجرد كومة متزايدة من الورق عديم الفائدة(349).

حسنًا لقاتل أن يقول إنه حال حصولنا على قدر المال اللازم لتحقيق المتعة في الواقع، نترك العمل ونستمتع بذلك، أليس كذلك؟ ليس صحيحًا، فالناس في البلدان الثرية عموماً يعملون ساعات أطول ويبذلون جهداً أكبر ليجمعوا أموالاً أكثر من القدر الذي قد يوفر لهم المتعة(350). لكننا لا نجد هذه الحقيقة غريبة كما ينبغي علينا أن نفعل، فقد يتحسّر الفأر، في نهاية المطاف، للركض داخل متاهة ليحصل في نهايتها على مكافأة تتمثل في قطعة من الجبن، لكن بمجرد إشباع هذا الكائن لحاجته، فحتى جبن الستلتون اللذيذ لن يجعله يستجمع قوته ليحصل عليه وحالما نتناول القدر الذي يملأ بطوننا من البانكيك، لن نتطعم إلى المزيد منه، وبالتالي نكف عن شرائه والتهامه، لكن لا يبدو أن هذا الأمر ينطبق على المال. كما كتب آدم سميث، أبو الاقتصاد الحديث، سنة 1776: «إن الرغبة في الطعام محدودة لدى كل إنسان جزاء السعة المحدودة للمعدة البشرية؛ لكن لا يبدو أن الرغبة في الحصول على وسائل الراحة وزخرفة المباني واللباس والمعدات وأثاث البيوت نهاية أو حدود معينة»(351).

إذا كان الطعام والمال يكفان عن إسعادنا بمجرد حصولنا على ما يكفينا منهما، فلماذا إذن نستمر في حشو جيوبنا بينما لا نستمر في حشو أفواهنا؟ لآدم سميث إجابة عن هذا. لقد بدأ بالتسليم بما يرتاب فيه معظمنا أصلاً، وهو أن إنتاج الثروة لا يؤدي ضرورة إلى تحقيق السعادة الشخصية.

فيما يتعلّق بالسعادة الحقيقية، لا يقل [الفقراء] بأي حال من الأحوال عن أولئك الذين قد يبدون في مكانة أعلى منهم وحين يتعلّق الأمر بسلامة الجسد وراحة البال، تصبح كل مراتب الحياة متساوية والشحاذ الذي يتمدد تحت الشمس على جانب الطريق السريعة، يملك ذلك

الشعور بالأمان الذي يقا تل الملوك من أجله (352).

يبدو هذا جميلا، لكن إذا كان صحيحا، لا بد أننا جميعا في مأزق كبير، فإذا كان الملوك الأثرياء أكثر سعادة من المتسولين الفقراء، لماذا إذن يجدر بالمتسولين الفقراء أن يتوقفوا عن التمدد على جانب الطريق ويعملون ليصبحوا ملوكا أغنياء؟ إذا لم يرغب أحد في أن يصبح غنيا، فنحن نعاني إذن من مشكلة اقتصادية كبيرة، لأن الاقتصادات المتطورة تتطلب من الناس شراء سلع بعضهم البعض وخدماتهم واستهلاكها. واقتصاد السوق يتطلب أن يكون لدينا جوع أذلي للأشياء، وإذا كان الجميع قانعين بالأشياء التي يملكونها، سيتوقف الاقتصاد كليا. لكن إذا كانت هذه مشكلة اقتصادية كبرى، فهي ليست مشكلة شخصية كبرى. قد يستيقظ رئيس الاحتياطي الفدرالي كل صباح برغبة في القيام بما يحتاجه الاقتصاد، لكن معظمنا يستيقظ برغبة في القيام بما نحتاجه نحن، وهو ما يعني أن الحاجات الأساسية لاقتصاد حيوي ليست بالضرورة الحاجات الأساسية ذاتها لفرد سعيد. ما الذي يدفع الناس إذن للعمل جاهدين كل يوم للقيام بأشياء تلبي حاجات الاقتصاد وليس حاجاتهم؟ يعتقد سميث، شأنه شأن العديد من المفكرين، بأن الناس يريدون شيئا واحدا فقط - هو السعادة - ومن ثفة فالاقتصاد لا يزدهر ولا ينمو إلا إذا كان الناس يؤمنون، واهمين، بأن إنتاج الثروة سيجعلهم سعداء (353). ولن ينتج الناس بما يكفي من الإنتاج والشراء والاستهلاك لدعم اقتصاداتهم إلا إذا كانوا يؤمنون بهذا الاعتقاد الخاطئ.

إن الخيال يصور لذات الثروة والعظمة... بصفته شيئا عظيما جميلا، راقيا وبصفته يستحق بلوغه ما نتكبهه من عناء وقلق نغدقه في سبيلهما... إن هذا الوهم هو ما يحث على صناعة الجنس البشري ويحافظ عليه في حركة مستمرة وهو ما يدفعه إلى زراعة الأرض وتشبيد المنازل وتأسيس المدن ودول الكومنويلث واختراع وتحسين العلوم والفنون التي ترتقي بالحياة البشرية وتجعلها؛ والتي غيرت وجه الكوكب بأكمله وحولت الغابات الطبيعية الخشنة إلى سهول خصبة وساحرة وجعلت المحيط القاحل والجاف مصدرا جديدا للرزق وخلقت هذا التواصل المباشر مع مختلف أمم الأرض (354).

باختصار، لم يحقق إنتاج الثروة السعادة للأفراد، بل كان في خدمة احتياجات الاقتصاد التي خدمت احتياجات مجتمع مستقر خدم شبكة من انتشار اعتقادات واهمة عن السعادة والثروة.

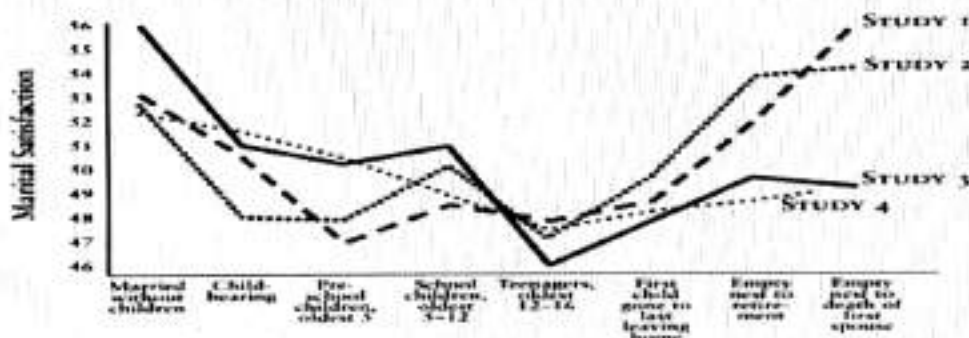
تزدهر الاقتصادات عندما يبذل الأفراد جهدا، لكن لأنهم سيبدلون جهدا بغية تحقيق سعادتهم الخاصة فقط، فمن الضروري أن يعتقدوا على نحو خاطئ أن الإنتاج والاستهلاك هما السبلان

المؤديان إلى الرفاه الشخصي. رغم أن كلمات من قبيل *واهم قد يبدو أنها تشير إلى نوع من المؤامرة الغامضة التي يقودها فريق صغير من الرجال الذين يرتدون بدلات داكنة، إلا أن لعبة انتقال-الاعتقاد تعلمنا أن عملية انتشار الاعتقادات الخاطئة لا تتطلب من أحد أن يحاول اقتراح عملية احتيال ضخمة تجاه شعوب بريئة. ليس هناك كوكبة من المتآمرين في الأعلى ولا محكمة سرية ولا متلاعب محترف بخطة ذكية لغرس عقائد والدعاية لها على نحو يهدف إلى خداعنا من أجل الاعتقاد في أن المال يمكن أن يحقق لنا الحب. بل هذا الاعتقاد الخاطئ على وجه الخصوص هو بمثابة اعتقاد قابل للتكرار بصورة فائقة لأن الإيمان به يدفعنا إلى التورط نفس الأنشطة المنجزة عنه (355).*

إن لعبة انتقال-الاعتقادات تفسر سبب تصديقنا لبعض الأشياء المتعلقة بالسعادة والتي هي ببساطة غير صحيحة. ومن بين الأمثلة على ذلك، بهجة الحصول على المال وكذلك بهجة إنجاب الأطفال وهو أمر يؤثر بعمق في عاطفتنا. فكل الثقافات البشرية تخبر أفرادها بأن إنجاب الأطفال سيجعلهم سعداء. عندما يفكر الناس بأطفالهم -سواء أ عبر تخيل أطفالهم المستقبليين أم عبر التفكير في أطفالهم الحاليين- فهم يميلون إلى استحضار صور ذهنية عن رضع يناغون ويبتسمون من مهودهم وأطفال صغار رائعين يركضون بفوضوية فوق العشب، وفتيان وسيمين وفتيات فائحات يعزفون على آلة الترومبيت والتوبا في فرقة المدرسة الموسيقية وطلبة جامعة ناجحين يقيمون حفلات زواج رائعة ويحصلون على وظائف في مستوى آمالهم وأحفاد مثاليين يمكن الحصول على حبهم بواسطة الحلوى. يعرف الآباء والأمهات المحتملين بأن عليهم أن يغيروا الحفظات وبأن يقوموا بأعمال المنزل وبأن المختضين في تقويم الأسنان سيذهبون في عطلة إلى جزيرة أروبا من مدخرات حياتهم لكنهم يفكرون عموماً في الأبوة على نحو سعيد، وهو ما يفسر لماذا يرتمون في أحضانها في نهاية المطاف. عندما يلقي الآباء والأمهات نظرة إلى الخلف على الأمومة أو الأبوة، يتذكرون أنهم كانوا يشعرون بما يتوقع أن يشعر به من يتطلعون إليها. قلّة من بيننا محضنون ضد هذه التأمّلات المبهجة. لدي ابن في سنّ التاسعة والعشرين، وأنا مقتنع تماماً بأنه أحد أهم منابع السعادة في حياتي وسيكون دائماً كذلك، ولم تتفوق عليه سوى حفيدة تبلغ من العمر سنتين أحبها بنفس القدر رغم معرفتي بأنها عندما تكبر ستطلب مني أن أمشي وراءها وأتظاهر بأننا لا علاقة لأحدنا بالآخر. عندما يُطلب من الناس أن يحدّدوا مصادر البهجة في حياتهم، يفعلون ما أفعله بالضبط: يشيرون إلى أطفالهم.

ورغم ذلك، لو قسنا درجة الرضا الحقيقية للأشخاص الذين لديهم أطفال، تظهر قصة مختلفة

تماما. كما يبين الرسم رقم 23، يبدأ الأزواج عموما سعداء في زواجهم ثم يصبحون تدريجيا أقل شعورا بالرضا على امتداد حياتهم معا، ولا يقتربون من المستويات الأصلية لشعورهم بالرضا إلا عندما يغادر أبنائهم البيت (356). رغم ما نقرؤه في الصحف الشعبية، إلا أن العارض الوحيد المعروف بـ «متلازمة العش الفارغ» هو زيادة الابتسام (357). ومن المثير للاهتمام، أن الرسم التوضيحي للرضا عن الحياة يصف النساء (المسؤولات بشكل رئيسي عن رعاية الأطفال) أفضل من الرجال (358). تبين دراسات أنجزت بعناية حول شعور النساء وهن يقمن بأنشطتهن اليومية، أنهن يشعرن بسعادة أقل أثناء رعايتهن أطفالهن مما يشعرن أثناء الأكل أو ممارسة الرياضة أو التسوق أو القيلولة أو مشاهدة التلفاز (359)، يبدو أن الاهتمام بالأطفال، لا يتفوق على الأعمال المنزلية إلا بنسبة بسيطة فقط.



رسم 23. كما تبين الدراسات الأربع المنفصلة في هذا الرسم البياني، ينخفض الشعور بالرضا خلال الزواج انخفاضا بينا بعد ولادة الطفل الأول ولا يرتفع إلا عندما يغادر آخر طفل البيت.

لا ينبغي لأي من هذه الأشياء أن تفاجئنا. يعرف كل الآباء والأمهات أن الأطفال يحتاجون إلى الكثير من العمل-الكثير من العمل المضي حقا- ورغم ما للأبوة من اللحظات المجزية الكثيرة، إلا أن الغالبية العظمى من اللحظات التي تمنحها تتضمن عملا مضجرا يؤثر شخصا يحتاجون عقودا من الزمن حتى يشعروا على مضض بالامتنان إزاء ما نقوم به من أجلهم. فإذا كانت الأبوة عملا شاقا هكذا، لماذا لدينا إذن مثل هذه النظرة الوردية عنها؟ أحد الأسباب أننا نتحدث بالهاتف دائما إلى أصحاب الأسهم في رأس مال المجتمع -أمهاتنا وأعمامنا وأخوانا ومدربينا الشخصيين- الذين ينقلون إلينا باستمرار الفكرة التي يعتقدون أنها صحيحة، غير أن ما يجعل عملية انتقالها ناجعة ليس دقتها. «الأطفال يحققون السعادة» فكرة قابلة للتكرار على نحو فائق. بيد أن شبكة انتقال-الاعتقاد التي تمثل جزءا منها لا يمكن أن تعمل دون وجود الأشخاص الذين ينقلونها باستمرار وبالتالي فإن الاعتقاد بأن الأطفال مصدر السعادة يصبح جزءا من

معرفتنا الثقافية لأن الاعتقاد في عكس ذلك يفكك نسيج أي مجتمع. في الواقع، إن الأشخاص الذين يعتقدون في أن الأطفال يجلبون البؤس واليأس -الذين توقّفوا حينئذ عن إنجابهم- قد يوقفون شبكة انتقال-الاعتقاد الخاصة بهم عن العمل خلال خمسين سنة، فيقضون عندها على الاعتقاد الذي قضى عليهم. يتمثل المذهب المسيحي الملقب «بالشيكرز» The Shakers في جماعة من المزارعين الطوباويين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر وضمّوا حوالي ستة آلاف عضو. كانوا يقبلون بالأطفال لكنهم يرفضون العمليّة الطبيعيّة التي تنتجهم وعلى مدار السنوات، تسبّب اعتقادهم الصارم في أهميّة العزوبة في التقليل من شبكتهم واليوم لم يعد هناك إلا عددا قليلا من المسنين من هذه الجماعة، لا ينقلون اعتقادهم في وجود يوم الحساب سوى لأنفسهم.

تُجهّز لعبة انتقال-الاعتقاد سلفاً حتى يتعين علينا تصديق أن الأطفال والمال يجلبان السعادة بقطع النظر عن صحة مثل هذه الاعتقادات، لكنّ هذا لا يعني أنه ينبغي علينا جميعاً ترك وظائفنا الآن وهجر عائلاتنا، بل هذا يعني أننا نعتقد في أننا نرتي الأطفال ونكسب أجورنا من أجل زيادة نصيبنا من السعادة، لكننا في الواقع نفعل هذه الأشياء لأسباب خارجة عن إرادتنا. فنحن غفد في شبكة اجتماعية تظهر وتختفي وفق منطق خاض بها، وهذا ما يجعلنا نستمر في الكد وفي المضاجعة وفي الاندهاش الذي يصيبنا عندما لا نعيش كل الفرحة الذي تنبأنا به على نحو ساذج.

أسطورة بصمات الأصابع

يخبرني أصدقائي بأنني أميل إلى الإشارة إلى المشاكل دون أن أجد حلاً لها، لكنهم لم يخبروني قط ماذا عليّ أن أفعل بشأن ذلك. في فصل تلو الآخر، قمت بتوضيح الطرق التي من خلالها تفشل المخيلة في تزويدنا بتنبؤات دقيقة عن مشاعرنا في المستقبل. لقد قلت إننا حين نتخيل المستقبل، نميل إلى سد الفراغ والتغافل عن مدى اختلافنا وعدم أخذ ذلك في الاعتبار عند التفكير في المستقبل بمجرد وصولنا إلى هناك. قلت أيضاً بأن لا التجربة الشخصية ولا المعرفة الثقافية تعوّض عيوب المخيلة. جعلتك تنغمس بعمق في النواقص والتحديات والأخطاء وأخطاء العقل البشري إلى حد جعلك تتساءل كيف ينجح أي أحد حتى في إعداد «توست». إذا كان هذا صحيحاً، قد يسعدك أن تعرف أنه ثمة طريقة بسيطة بواسطتها يمكن لأي كان القيام بتنبؤات غاية في الدقة عن كيفية شعورهم في المستقبل. لكنك قد تصاب بخيبة أمل إذا علمت بأن لا أحد، بصفة عامة، يرغب في استخدامها.

لماذا نعتمد على مخيلتنا أساساً؟ المخيلة هي الثقب الدودي للإنسان المسكين. فنحن لا نستطيع القيام بما نرغب حقاً في القيام به -لا سيما، السفر عبر الزمن وزيارة ذواتنا المستقبلية

ورؤية مدى سعادة هذه الذوات- وهكذا فنحن نتخيل المستقبل بدلا من الذهاب إلى هناك حقيقة. لكن إذا لم نكن قادرين على الانتقال عبر البعد الزمني، فبوسعنا السفر عبر الأبعاد المكانية، وثمة احتمالات قوية أن في مكان ما من تلك الأبعاد الثلاثة الأخرى هناك إنسان آخر يعيش حاليا الحدث المستقبلي الذي لا يسعنا إلا التفكير فيه فحسب. فنحن بالتأكيد، لسنا أول من فكر في الانتقال إلى سينسيناتي أو في الحصول على وظيفة في إدارة الفنادق أو على قطعة أخرى من فطيرة الروبارب أو في إقامة علاقة غرامية خارج إطار الزواج، وغالبا ما يكون أولئك الذين سبق لهم أن جزبوا هذه الأشياء مستعدين تماما لإخبارنا عنها. صحيح أن الناس عندما يخبروننا عن تجاربهم السابقة («ذاك الماء المثلج ليس باردا كثيرا حقًا» أو «أحب الاعتناء بابنتي») قد تجعل هفوات الذاكرة من شهادتهم شهادة غير موثوق بها، لكن عندما يخبرنا الناس عن تجاربهم الحالية («كيف أشعر الآن؟ أشعر كما لو أنني أسحب ذراعي خارج هذا الوعاء بالماء المجمد وأغمس رأس ابني المراهق داخله بدلا من ذلك!»، فهم يقدمون لنا نوعا من التقرير حول حالتهم الذاتية التي تعتبر المعيار الذهبي لمقاييس السعادة. إذا كنت تعتقد (كما أفعل) في أن الناس يستطيعون عموما التعبير عن مشاعرهم في اللحظة التي ظرح فيها السؤال عليهم، فمن بين الطرق التي يمكننا من خلالها التنبؤ بالمشاعر التي ستنتابنا في المستقبل إذن هي العثور على شخص مز بتلك التجربة التي نتأملها ومعرفة شعوره. فبدلا من تذكر تجربة سابقة لنا حتى نحفز تجربة مستقبلية، ربّما علينا ببساطة أن نطلب من أشخاص آخرين أن يتأملوا حالاتهم الداخلية. ربّما علينا أن نكف عن التذكر والتخيل تماما ونستخدم أشخاصا آخرين مستأجرين لذواتنا المستقبلية بدلا عنا.

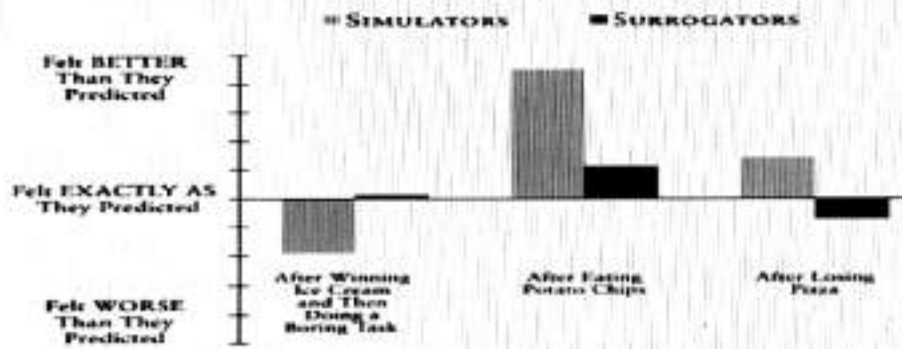
تبدو الفكرة بسيطة للغاية، وأشك في أن لديك اعتراض عليها كأن تقول مثلا: أجل لعل الأشخاص الآخرين يمرون حاليا بالأشياء ذاتها التي أنا بصدد تأملها فحسب، لكنني لا أستطيع استخدام تجارب الآخرين بصفقتها بدائل لتجاربتي لأن الآخرين ليسوا أنا. فكل إنسان فريد مثل بصمة أصابعه، ولن يساعدي كثيرا معرفة كيف يشعر الآخرون في الوضعية التي أواجهها. ما لم يكن أولئك الأشخاص نسخا مستنسخة مني قد مزوا بكل التجارب التي مررت بها، فلا بد أن ردود أفعالهم وردود أفعالي مختلفة. أنا شخص غريب الأطوار وبالتالي فعندما أؤسس كل تنبؤاتي بشكل ما على مخيلة متقلبة، أشعر أنني بحال أفضل مما لو أؤسسها على ما يقوله الأشخاص الذين تختلف أذواقهم وميولهم العاطفية والأشياء التي يفضلونها جذريا عني. إذا كان هذا هو اعتراضك، فهو إذا اعتراض جيد- جيد جدا إلى حد يجعله يتطلب خطوتين تفكيكه. أولا، دعني أثبت لك أن تجربة فرد انتقيناها عشوائيا يمكن أحيانا أن توفر قاعدة أفضل نؤسس عليها تنبؤك بتجربة مستقبلية أكثر مما تستطيع مخيلتك القيام به، ثم دعني أثبت لك

العثور على حل

للمخيلة ثلاثة عيوب، وإذا لم تكن تعرف هذا، ربما عليك إذن أن تقرأ هذا الكتاب عكسيا. وإذا كنت تعرف هذا، فلا بد أنك تعرف كذلك أن أول عيب للمخيلة هو نزعتها نحو ملء الفراغ والتغافل دون إعلامنا بذلك (وهو الأمر الذي اكتشفناه في الجزء الذي تناول مسألة الواقعية). لا أحد بإمكانه تخيل كل خاصية وكل تبعة من تبعات حدث مستقبلي، وهذا ما يترتب عنه أن علينا أن نأخذ البعض منها في الاعتبار ونفشل في أخذ البعض الآخر. تكمن المشكلة في أن الخصائص والتبعات التي نفشل في اعتبارها غالبا ما تكون مهمة جدا. قد تتذكر الدراسة التي ورد فيها أنه طلب من بعض طلبة الجامعة أن يتخيلوا شعورهم بعد أيام قليلة من مباراة فريق كرة القدم الخاص بهم في الجامعة ضد منافسهم الرئيسي (360) وكانت النتائج قد أثبتت أن الطلبة بالغوا في توقع المدة التي استغرقها الأثر العاطفي الذي خلّفته المباراة فيهم لأنهم حين حاولوا تخيل تجربتهم المستقبلية، كانوا يتخيلون أن فريقهم فاز بالمباراة («عندما تدق ساعة الصفر، سنقتحم أرضية الملعب وسيبدأ الجميع بالهتاف...») لكنهم أخفقوا في تخيل ما قد يفعلونه بعد ذلك («ثم سأذهب إلى البيت وسأستعدّ لامتحاناتي النهائية»). فشل الطلبة في تخيل كيف ستؤثر الأحداث التي وقعت بعد المباراة في سعادتهم لأنهم كانوا يركّزون على المباراة. إذن، ما الذي كان عليهم أن يفعلوا بدلا من ذلك؟

كان عليهم أن يتخلّوا عن التخيل نهائيا. دعونا نلقي نظرة على دراسة تضع بعض الأشخاص في مازق مشابه ثم ترغمهم على التخلي عن استخدام مخيلتهم. في هذه الدراسة، تحضّل فريق من المتطوعين (الناقلون) أولا على مكافأة لذيذة تتمثل في قسيمة شراء هدية من متجر محلي للآيس كريم- ثم قاموا بأداء مهمة طويلة ومملة حيث عدّوا وسجّلوا أشكالا هندسية ظهرت على شاشة حاسوب (361) ووصفوا شعورهم أثناء ذلك، ثم قيل لفريق آخر من المتطوعين إنهم سيتلقون جائزة وطلب منهم أن يقوموا بنفس العمل. كشف لبعض من هؤلاء المتطوعين الجدد (المحاكون) عن الجائزة وطلب منهم استخدام مخيلتهم لتوقع أحاسيسهم في المستقبل. بينما لم يتم إخبار المتطوعين الآخرين من الفريق (البدائل) عن الهدية لكن غرض عليهم، بدلا من ذلك، وُضف اختيار بعشوائية لأحد المخبرين، فكانت النتيجة أنهم لم يتمكنوا من استخدام مخيلتهم للتنبؤ بمشاعرهم في المستقبل، نظرا لعدم معرفتهم بالجائزة. بل، كان عليهم الاعتماد على وصف المخبر. حالما تنبأ جميع المتطوعين، تحضّلوا على الجائزة وقاموا بالمهمة الطويلة والمملة ووصفوا حقيقة مشاعرهم. كما تبين معظم الأشرطة على اليسار في الرسم رقم

24، لم يكن المحاكون سعداء بالقدر الذي كانوا يتوقعونه. لماذا؟ لأنهم فشلوا في تخيل الزوال السريع للشعور بالبهجة عند تلقي بطاقة الهدية إذا عقب ذلك القيام بمهمة طويلة ومملة. وهذا هو الخطأ الذي ارتكبه مشجعو فريق كره القدم بالجامعة بالضبط. لكن انظر الآن إلى النتائج التي تخض المتطوعين البدائل. كما ترى، لقد كانت تنبؤاتهم بسعادتهم في المستقبل دقيقة للغاية، حيث أنهم لم يكونوا على علم بأي نوع من الجوائز سيتلقون، غير أنهم كانوا يعرفون أن شخصا معيناً كان قد تلقى تلك الجائزة قبلهم وكان أقل سعادة في ختام المهمة المملة. لذلك لم يظهروا أي اهتمام واستنتجوا بطريقة منطقية أن شعورهم بالسعادة سيتضاءل في ختام المهمة المملة كذلك- وكانوا على حق!



رسم 24. تنبأ المتطوعون بمشاعرهم في المستقبل عندما علموا كيف شعر شخص آخر مز بالوضعية نفسها (المتطوعون البدائل) على نحو أكثر دقة مما فعلوا حين حاولوا تخيل كيف سيشعرون هم أنفسهم (المحاكون).

يتمثل العيب الثاني للمخيلة في نزعتها نحو إسقاط الحاضر على المستقبل (وهو ما اكتشفناه في القسم المتعلق بالحاضرة). عندما ترسم المخيلة صورة عن المستقبل، تسقط، بالضرورة، العديد من التفاصيل، وتعالج المخيلة هذه المشكلة من خلال سد الفراغات بواسطة تفاصيل تستعيرها من الحاضر. كل من ذهب للتسوق بمعدة فارغة، أو تعهد بالإقلاع عن التدخين بعد إطفاء سيجارة أو عرض الزواج بينما لا يزال على الضفة، يعرف أن كيفية شعورنا الآن يمكن أن تؤثر على نحو خاطئ في الكيفية التي نعتقد أننا سنشعر بها لاحقاً. وكما اتضح، يمكن لاستخدام البدائل أن يعالج هذا العيب أيضاً. في إحدى الدراسات، أكل فريق من المتطوعين (الناقلون) بعض رقائق البطاطس ووصفوا مدى استمتاعهم بها (362). ثم بعد ذلك، أطعم فريق جديد من المتطوعين بسكويتاً مملحاً ورقائق جبن بزبدة الفول السوداني ورقائق التورتيللا وخبز الميلبا المحمص، وهو ما جعلهم، كما يمكن لكم أن تخمنوا، متخمين ويشعرون بشهية ضئيلة نحو الأطعمة الخفيفة المالحة. ظلب بعد ذلك من هؤلاء المتطوعين

الفتخمين أن يتنبؤوا بمدى استمتاعهم بتناول أكلة محدّدة في اليوم الموالي. قيل لمجموعة من هؤلاء المتطوّعين (المحاكون) أنهم غدا سيأكلون رقائق البطاطس وطلب منهم استخدام مخيلتهم للتنبؤ بشعورهم بعد أكلها، بينما لم يتمّ إخبار المجموعة المتبقية من المتطوّعين المتخمين (البدائل) عن الأكل الذي سيتناولونه في اليوم الموالي بل غرض عليهم، بدلا من ذلك، وُصف لأحد المخبرين انثقي على نحو عشوائي. ولأنّ المتطوّعين البدائل لم يكونوا على معرفة بالأكل الذي سيتناولونه في الغد، لم يتمكنوا من استخدام مخيلتهم للتنبؤ باستمتاعهم به في المستقبل وهكذا كان عليهم الاعتماد على وصف المتطوّع في الفريق الآخر حالما قام جميع المتطوّعين بالتنبؤات، غادروا ثم عادوا في اليوم الموالي وأكلوا بعض رقائق البطاطس ووصفوا مدى استمتاعهم بها. كما تشير الأشرطة التي في المنتصف والتي يبينها الرسم رقم 24، استمتع المحاكون بأكل الرقائق أكثر مما كانوا يظنون. لماذا؟ لأنهم عندما تنبؤوا، كانت بطونهم مليئة بالبسكويت المملح ورقائق الجبن. لكن البدائل -الذين كانوا متخمين بالقدر نفسه عندما تنبؤوا- اعتمدوا على وصف شخص بمعدة فارغة، فكانت تنبؤاتهم أكثر دقة. من المهم الإشارة إلى أنّ البدائل تنبؤوا على نحو دقيق باستمتاعهم في المستقبل بتناول طعام ما رغم حقيقة أنهم لا يعرفون حتى ما هو!

العيب الثالث للمخيلة هو فشلها في إدراك أنّ الأشياء ستبدو مختلفة حال حدوثها - وعلى وجه خاص، أنّ الأشياء السيئة تبدو أفضل بكثير (وهو ما اكتشفناه في القسم المتعلّق بالعقلنة عندما نتخيل أننا فقدنا وظيفتنا)، مثلا، نتخيل التجربة المؤلمة («سيسير رئيسي في العمل نحو مكتبي ويغلق الباب خلفه...») دون أن نتخيل كيف سيعذل جهاز مناعتنا النفسي من معناها («سوف أدرك أنّ هذه كانت فرصة لترك مبيعات التفصيل والسعي وراء حرفتي الحقيقية كنجحات»). هل يمكن للاستبدال أن يعالج هذا العيب؟ حتى يتحقّقوا من ذلك ربّ الباحثون لمجموعة من الأشخاص تجربة مزعجة حيث قيل لمجموعة من المتطوّعين (الواصفون) أنّ الممتحن سيقوم بقرعة بقطعة نقدية، فإذا ظهر الرأس عند قذفها في الهواء، سيحصل المتطوّع على قسيمة شراء في مطعم بيتزا محلي. زميت القطعة النقدية لكن يا للأسف - ظهر الذيل ولم يحصل الواصفون، الذين وصفوا إثر ذلك كيف كان شعورهم، على شيء (363). بعدها، قيل لمجموعة جديدة من المتطوّعين عن لعبة رمي القطعة النقدية هذه وطلب منهم أن يتنبؤوا بشعورهم إذا ظهر الذيل في القطعة ولم يحصلوا على قسيمة شراء البيتزا وأخبر بعض من المتطوّعين (المحاكون) بالقيمة المالية على وجه التحديد لقسيمة الشراء، أمّا الآخرين (المستبدلون) فقد غرض عليهم تقرير لأحد الواصفين اختيار اختيارا عشوائيا. حال قيام المتطوّعين بتوقّعاتهم، زميت القطعة النقدية ولسوء الحظّ - ظهر الذيل. ثم وصف المتطوّعون

شعورهم وكما تبين الأشرطة في أقصى اليمين في الرسم رقم 24، فقد كان شعور المحاكين أفضل مما كانوا يتوقعون لو خسروا اللعبة. لماذا؟ لأن المحاكين لم يدركوا سرعة عقلنة الخسارة وسهولتها («تسبب البيتزا زيادة في الوزن كثيرا، كما أنني لا أحب ذاك المطعم أصلا»). لكنّ المستبدلين -الذين لم يكن لديهم شيء ينطلقون منه عدا تقرير شخص آخر اختير على نحو عشوائي- افترضوا أنهم لن يشعروا بالأسف الشديد بعد خسارتهم للبيتزا، وبالتالي قاموا بتنبؤات أكثر دقة.

رفض الحل

تشير الدراسات الثلاث إلى أنّ الأشخاص عندما يحرمون من المعلومة التي تحتاجها المخيلة فيضطّون إلى استخدام الآخرين كمستبدلين، فإنهم يقومون بتنبؤات دقيقة على نحو لافت للنظر بشأن مشاعرهم المستقبلية، التي تشير إلى أنّ أفضل طريقة للتنبؤ بمشاعرنا غدا هي معرفة كيف يشعر الآخرون اليوم (364). نظرا للقوة المذهلة لهذا الأسلوب البسيط، علينا أن نتوقع من الناس أن يبذلوا قصارى جهدهم لاستخدامه، لكنهم لا يفعلون. فعندما تمّ اخبرت مجموعة جديدة تماما من المتطوعين بالوضعيات الثلاث التي وصفتها للتوّ -الفوز بمكافأة وتناول طعام يجهلونه أو الفشل في الحصول على قسيمة شراء كهديّة- ثم سئلوا إذا كانوا سيفضلون التنبؤ بمشاعرهم المستقبلية استنادا إلى (أ) معلومة عن المكافأة وعن الطعام والقسيمة؛ أو (ب) معلومة عن كيفية شعور شخص تمّ اختياره على نحو عشوائي بعد أن فاز بها وتناولها أو خسرها، اختار كل المتطوعين تقريبا الفرضية الثانية ومن المحتمل أن تقوم بنفس الشيء إذا لم تر نتائج هذه الدراسات. فإذا عرضت عليك مثلا عشاء في أحد المطاعم إن كان بإمكانك أن تتوقع على نحو دقيق إلى أي حد ستستمتع بذلك، هل كنت ستترغب في الاطلاع على قائمة الطعام أو على رأي أحدهم تمّ اختياره عشوائيا اثر تناوله للعشاء؟ إذا كنت مثل معظم الناس، سوف ترغب في رؤية لائحة الطعام، وإذا كنت مثل معظم الناس، فستختار عشاءك بنفسك في النهاية. لماذا؟

لو كنت مثل معظم الناس، فأنت لا تدرك، مثل معظم الناس، بأنك تشبه معظم الناس. قدّم العلم الكثير من الحقائق عن الشخص العادي، وأحد تلك الحقائق الموثوقة أنّ الشخص العادي لا يرى نفسه عاديا، فأغلب الطلبة يرون أنهم أكثر ذكاء من الطالب العادي (365)، وأغلب مديري الأعمال يعتبرون أنفسهم أكثر كفاءة من مدير الأعمال العادي (366)، وأغلب لاعبي كرة القدم يعتبرون أنهم يملكون «حسا كرويا أكثر» من زملائهم في الفريق (367). تسعون بالمائة من

نكن مميزين بالطريقة التي نعرف بها أنفسنا مميزة، فنحن الأشخاص الوحيدون في العالم الذين نعرف ذاتنا من الداخل. نحن نعيش أفكارنا ومشاعرنا لكن علينا أن نستشف أن الآخرين يعيشون أفكارهم ومشاعرهم كذلك. كلنا نثق في أن خلف تلك الأعين وتلك الجماجم، يملك أصدقاؤنا وجيراننا تجارب ذاتية تشبه كثيرا تجاربنا، لكن تلك الثقة هي بمثابة إيمان راسخ وليست حقيقة ملموسة وبديهية كالتى تحتوي عليها تجاربنا الذاتية. فثقة فرق بين ممارسة الحب والقراءة عنه وهو نفس الفرق بين معرفتنا لحيواتنا الذهنية ومعرفتنا لحياة أي شخص آخر ولأننا نعرف أنفسنا والآخرين بوسائل مختلفة من ذلك القبيل، فنحن نجمع أنواعا وكميات مختلفة من المعلومات. عند كل استيقاظ نرصد تيارا من المشاعر والأفكار يتدفق عبر رؤوسنا، لكننا لا نرصد إلا كلمات الآخرين وأفعالهم، وحينما يكونون فقط بصحبتنا، وهكذا فإن أحد الأسباب التي تفسر سبب اعتبارنا أنفسنا مميزين إذن، هو معرفتنا إياها بتلك الطريقة المميزة.

يكمن السبب الثاني في أننا نستمتع بالتفكير في أنفسنا بصفاتنا أشخاصا مميزين، فنجد أن معظمنا يرغب في الاتفاق مع أقراننا، لكننا لا نرغب في ذلك تماما (378). فنحن نعتز بهويتنا المتفردة، وقد بين البحث أنه عندما يحدث شيء يجعل الناس يشعرون بأنهم متشابهون، سرعان ما تتعكر أمزجتهم ويحاولون النأي بأنفسهم عن الآخرين وتمييزها بشتى الطرق (379). فإذا ذهبت إلى حفلة ووجدت شخصا آخر يرتدي نفس الثوب أو ربطة العنق التي كنت ترتديها، ستعرف عندها كم هو أمر مزعج مقاسمة المكان مع توأم غير مرغوب فيه ينتقص وجوده المؤقت من شعورك بالتفرد. ليس من الغريب ميلنا إلى المغالاة في تقدير تفردنا، ذلك أننا نثقنه.

يتمثل السبب الثالث وراء ميلنا إلى المغالاة في تقدير تفردنا في نزوعنا إلى المغالاة في تقدير تفرد الآخرين. أي أننا نميل إلى الاعتقاد بأن الناس أكثر اختلافا عن بعضهم البعض مما هم عليه في الواقع. فلنكن صرحاء: جميع الناس يتشابهون في نواح بعينها ويختلفون في نواح أخرى. يهتم علماء النفس وعلماء الأحياء وعلماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع الذين يبحثون على قوانين كونية تميز السلوك البشري بنقاط التشابه بين البشر، لكن بقيتنا يهتمون أساسا بأوجه الاختلاف. تتضمن الحياة الاجتماعية انتقاء أفراد بعينهم ليكونوا شركاءنا الجنسيين وشركاءنا في العمل وشركاءنا في لعبة البولينغ الخ وتتطلب تلك المهمة تركيزنا على الأشياء التي تميز شخصا عن شخص آخر، لا على الأشياء التي يتقاسمها جميع الناس، وهو ما يجعل من المرجح أن يذكر صاحب الإعلان في إعلان الشخص حبه الباليه وليس حبه الأوكسجين. إن ميل الإنسان للتنفس يفسر بشكل كبير البعض من سلوك البشر على سبيل المثال لماذا يعيش الناس على اليابسة ويشعرون بالسوء في الأماكن الشاهقة ويملكون رثتين ويقاومون الاختناق

ويحبون الأشجار الخ ومن المؤكد أن ذلك يفسر هذه الأشياء أكثر مما يفعل ميل شخص ما إلى الباليه، لكنه لا يفعل شيئا لتمييز شخص عن شخص آخر ومن ثقة فإن الولوج بالهواء بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يقومون بالأعمال العادية لاختيار الآخرين من أجل التجارة أو الحديث أو المضاجعة، يعتبر شيئا بلا قيمة. إن أوجه التشابه بين البشر هائلة، لكننا لا نأبه لها كثيرا لأنها لا تساعدنا في القيام بما جننا من أجله إلى هذه الأرض، لا سيما، التمييز بين جاك وجيل وبين جيل وجيفر، وبهذا فأوجه التشابه هذه بين الأفراد تمثل مجرد خلفية لا تلفت الانتباه ببرز بوضوح من خلالها عدد من الاختلافات البسيطة نسبيا بين الأفراد.

إن قضاءنا وقتا طويلا في البحث عن هذه الاختلافات وفي حلها وفي التفكير فيها وتذكرها، يجعلنا نميل إلى المغالاة في تقدير حجمها وتواتر حدوثها، فنخلص عندئذ إلى أن الناس أكثر تنوعا مما هم عليه في الواقع. إذا أمضيت كامل اليوم في تصنيف العنب إلى أحجام وألوان وأنواع مختلفة، فستصبح أحد أولئك المهووسين بالعنب من المزعجين الذين لا يكفون عن الحديث عن الفويرقات في الطعم وعن التحوّلات المتعلقة بالنسيج وستدرك التنوع اللامتناهي للعنب وستنسى أن كل المعلومات المهمة حقا بشأن العنب تقريبا يمكن استخلاصها من الحقيقة البسيطة كونه عنبًا. إن اعتقادنا في تقلب الآخرين وفي تفرد الذات يتسم بأهمية بالغة متى تعلق الأمر بالمشاعر(380). فنتيجة كوننا نعيش المشاعر التي نمز بها لكننا نستشّف مشاعر الآخرين من خلال تفحص وجوههم والاستماع إلى أصواتهم، وغالبا ما يكون لدينا انطباع بأن الآخرين لا يعيشون مشاعرنا بنفس الشدة كما يحدث معنا، وهو ما يجعلنا نتوقّع أن يدرك الآخرين مشاعرنا حتى حينما لا ندرك مشاعرهم(381). إن هذا الحس بالتفرد العاطفي يبدأ باكرا. فعندما يُسأل الأطفال الذين يذهبون إلى الروضة كيف يشعرون ويشعر الآخرون في وضعيات متنوعة، يتوقعون أن يختبروا مشاعر فريدة من نوعها («سيكون يبلي حزينا لكنني لن أكون كذلك») ويقدمون أسباب فريدة كذلك لتلك المشاعر («سأقول لنفسني بأن الهامستر صعد إلى الجنة، لكنّ يبلي سيهكي فحسب»)(382) وعندما يقوم الكهول بنفس هذه الأنواع من التوقع، فهم يقومون بالشيء ذاته تماما(383).

إن اعتقادنا الخرافي في تقلب الأفراد وتفردهم يمثل السبب الرئيسي لرفضنا استخدام الآخرين بدائل لنا. فالاستبدال، في نهاية المطاف، لا يعتبر مفيدا إلا عندما يكون بوسعنا الاعتماد على بديل يستجيب لحدث من الأحداث تقريبا مثلما نفعل، أما إذا كنا نعتقد أن ردود أفعال الأشخاص العاطفية أكثر تنوعا مما هي عليه في الواقع، عندها سوف يبدو الاستبدال أقل نفعًا بالنسبة إلينا مما هو عليه في الحقيقة. بالطبع، تكمن المفارقة في أن الاستبدال طريقة

غير مكلفة وناجعة لتوقع مشاعر المرء في المستقبل، لكن نظرا لعدم إدراكنا لمدى تشابهنا، فإننا نرفض هذا الأسلوب الموثوق ونعتمد بدلا من ذلك على مخيلتنا رغم عيوبها واحتمال ارتكابها للخطأ.

إلى الأمام

رغم وجود الجزء wash في كلمة hogwash، الذي يدل على الماء، إلا أن كلمة hogwash تشير إلى إطفاء- وليس إلى تحميمها. فال Hogwash هو شيء تأكله الخنازير وتحببه وتحتاجه ويوفره المزارعون لأنها دونه حادة الطباع. لكن كلمة hogwash تشير كذلك إلى الأكاذيب التي يقولها الناس لبعضهم البعض. مثل بقايا الطعام التي يطعمها المزارعون خنازيرهم، فالهراء الذي يلقنا إياه أصدقائنا ومعلمونا وآبائنا يراد منه جعلنا سعداء؛ لكن خلافاً لك hogwash المتعلق بالصف الخنزيري، فال hogwash البشري لا يحقق دائما غايته وكما رأينا، لا يمكن للأفكار أن تنمو، إلا إذا حافظت على النظم الاجتماعية التي تسمح لها بالانتقال، ونظرا لكون الأفراد لا يشعرون عادة بأنه من واجبهم الشخصي الحفاظ على النظم الاجتماعية، فهذه الأفكار تتخفى في هيئة وصفات للسعادة الفردية. قد نتوقع أننا بعد قضاء بعض الوقت في هذا العالم، ستدحض تجاربنا هذه الأفكار، لكن الأمر لا يسير دائما على هذا النحو. فكي نتعلم من تجاربنا علينا أن نتذكرها، ولعدة أسباب، الذاكرة صديق خائن. قد تمكنا الممارسة والتوجيه من الانتقال من الحفظات إلى البناتيل، لكنهما ليستا كافيتين لتخرجنا من حاضرتنا وتدخلنا إلى مستقبلنا. ما يثير السخرية بشأن هذا المأزق أن المعلومة التي نحتاجها حتى نقوم بتنبؤات دقيقة لعواطفنا المستقبلية هي تحت أنوفنا مباشرة، لكن لا يبدو أننا ندرك رانحتها. لا يبدو من المنطقي دائما أن نكثر بما يقوله الناس عندما يكشفون عن اعتقاداتهم عن السعادة، لكن من المنطقي ملاحظة مدى سعادتهم في ظروف مختلفة. للأسف، نحن نعتقد أننا كائنات متفردة - وأذهاننا لا تشبه الآخرين- وبناء على ذلك فنحن غالبا ما نرفض الدروس التي تعلمنا إياها تجاربهم العاطفية.

خاتمة

قلبي يحدثني أن نجاحنا سيكون منقطع النظير.

شكسبير، الملك هنري السادس، الجزء الثالث

يُتخذ معظمنا على الأقل ثلاثة قرارات مهمة في حياته: أين نعيش، وماذا نفعل، ومع من نفعل ذلك، فنختار المدن والمناطق التي نسكنها، ونختار وظائفنا وهواياتنا، ونختار أزواجنا وأصدقاءنا ويعتبر اتخاذ هذه القرارات جزءا طبيعيا من مرحلة البلوغ للإنسان إلى حد أنه من السهل نسيان أننا من بين البشر الأوائل الذين اتخذنا تلك القرارات.

على مدى معظم فترة التاريخ المسجل، عاش الناس في المكان الذي ولدوا فيه وقاموا بالعمل الذي قام به آباؤهم وارتبطوا بأولئك الذي قاموا بالعمل ذاته. فينجز أبناء ميلر وسميث العمل الذي أنجزاه ثم يتزوج سميث وميلر الصغيران ممن اختير لهما وفي الوقت الذي خُدد لهما.

طالما كانت البنى الاجتماعية (كالأديان والطبقات الاجتماعية) والبنى المادية (كالجبال والمحيطات) أعظم الطغاة الذين حدّوا كيف وأين ومع من سيقضي الناس حياتهم، وهو ما لم يترك لمعظمهم سوى القليل من القرارات كي يتخذوها تجاه أنفسهم، غير أن الثورات الزراعية والصناعية والتكنولوجية غيرت كل ذلك وما نتج عن تغييرها من انفجار في الحرية الشخصية خلق مجموعة كبيرة من الخيارات والبدائل والاختيارات والقرارات المربكة التي لم يواجهها أسلافنا قط، ولأول مرة صارت سعادتنا بين أيدينا.

كيف لنا أن نتخذ هذه القرارات؟ سنة 1738، ادعى عالم موسوعي يدعى دانيال برنولي أنه يملك الإجابة، فاقترح أنه يمكن احتساب حكمة أي قرار من خلال ضرب احتمال أن يمنحنا القرار ما نريد في جدوى الحصول على ما نريد. وبكلمة جدوى، كان برنولي يعني شيئا مثل الخير أو المتعة (384). من السهل تنفيذ الجزء الأول من وصفة برنولي لأننا نستطيع في غالبية الظروف أن نفترض تقريبا احتمالات أن تقودنا اختياراتنا إلى حيث نريد. ما مدى احتمال ترقيةك إلى مدير عام إذا حصلت على وظيفة في IBM؟ وما مدى احتمال أن تقضي نهايات الأسبوع على الشاطئ إذا انتقلت إلى سانت بطرسبرغ؟ وما مدى احتمال اضطرارك لبيع دراجتك النارية لو تزوجت ب الويز؟ إن عملية احتساب مثل هذه الاحتمالات أمر بسيط للغاية، وهو ما يجعل شركات التأمين تحقق ثراء من خلال القيام بأكثر من مجرد تقدير احتمالية احتراق منزلك أو سرقة سيارتك أو وفاتك المبكرة. فبواسطة تحز صغير وقلم وممحاة جيدة، نستطيع عادة أن نقدر -على الأقل تقريبا- احتمال أن يقدم لنا أحد الخيارات ما نريد.

لكن المشكلة تكمن في أننا لا نستطيع أن نقدر بسهولة كيف سنشعر عندما نحصل عليه. لا يكمن نبوغ برنولي في حساباته الرياضية بل النفسية- أي في إدراكه أن ما نحصل عليه موضوعيا (الثروة) ليس هو ذاته ما نختبره ذاتيا لدى حصولنا عليه (الجدوى). ربما يمكن قياس الثروة من خلال عدّ الدولارات، لكن الجدوى ينبغي أن تقاس بواسطة احتساب مقدار الخير الذي يمكننا تحقيقه بواسطة تلك الدولارات (385). إن الثروة غير مهمة، بل الجدوى هي ما يهم، فنحن لا نهتمّ بالمال والترقيات والعطل التي نقضيها على الشاطئ في حد ذاتها؛ بل بالخير والمتعة اللذين تجلبهما لنا (وقد لا تفعل) أشكال الثروة هذه. فالخيارات التي تتسم بالحكمة هي تلك التي تضاعف من متعتنا، لا من دولاراتنا، وإذا كنا نأمل في القيام بخيارات حكيمة، يجدر بنا إذن أن نتوقع حجم المتعة التي ستحققها لنا تلك الدولارات. كان برلوني يعلم أن توقع حجم الثروة التي قد ينتجها خيار محدد أسهل بكثير من توقع مقدار الجدوى التي قد يحققها ذلك الخيار، لذلك ابتكر معادلة تحويل بسيطة كان يأمل في أن تمكن أي شخص من تحويل تقديرات الأولى إلى تقديرات الثانية. وكان يشير إلى أن كل دولار إضافي يمنح أقل قدرا من المتعة بعض الشيء من الدولار الذي يسبقه وأن الفرد يمكنه على ذلك الأساس أن يحسب المتعة التي سيحصلها له أي دولار ببساطة من خلال تعديل عدد الدولارات التي يملكها مسبقا.

لا ينبغي أن نستمذ قيمة أي غرض من سعره، بل من الجدوى التي سيعود بها علينا. يعتمد سعر غرض ما، والذي هو السعر ذاته بالنسبة إلى الجميع، على الغرض في حد ذاته فحسب؛ لكن الجدوى، تعتمد على الملابس الخاصة بالشخص القائم بالتقدير. وهكذا فلا شك أن تحقيق ربح يقدر بألف قطعة دوكة (عملة تجارية ذهبية) هو شيء أكثر دلالة بالنسبة إلى شخص مُعدم مما هو بالنسبة إلى رجل ثري رغم حصول كليهما على القدر ذاته (386).

أدرك برنولي على نحو صحيح أن الناس يتأثرون بالمقادير النسبية أكثر من تلك المطلقة وتهدف معادلته إلى أخذ هذه الحقيقة السيكولوجية الأساسية في الاعتبار، لكنه يعرف أيضا أن تحويل الثروة إلى الجدوى لم يكن بالسهولة التي تصوورها، وأنه ثقة حقائق نفسية أخرى تجاهلتها معادلته.

رغم أن الشخص المعدم يستفيد بوجه عام أكثر من الرجل الثري من ربح متكافئ، إلا أنه يمكن مع ذلك تصوّر أن سجيننا ثريا، مثلا، يملك ألفي قطعة دوكة لكنه يحتاج إلى ألفين إضافيين حتى يشتري حرّيته، سيضفي قيمة أعلى على ربح يقدر بألفي قطعة دوكة أكثر من رجل آخر يملك مالا أقل منه. رغم أنه يمكن تجميع أمثلة لا حصر لها من هذا النوع، إلا أنها تمثل

لقد كانت محاولة جيدة. فقد كان برنولي على حق في الاعتقاد في أن الدولار رقم مائة (أو القبلّة أو الكعكة أو النزهة في المرج رقم مائة) جميعها لا تجعلنا عموماً سعداء بقدر الدولار الأول، لكنه لم يكن مصيباً في الاعتقاد في أن هذا الأمر هو الشيء الوحيد الذي يفرّق بين الثروة والجدوى ومن ثمة فهو الشيء الوحيد الذي على المرء تصحيحه عندما يتوقّع تحقيق الجدوى من الثروة. وكما تبين، «فلاستثناءات التي لا حصر لها» والتي أهملها برنولي ليست نادرة إلى أبعد حد. هناك أشياء كثيرة عدا مقدار الحساب البنكي لشخص من الأشخاص يمكن أن يؤثر في مدى الجدوى التي يستمدّها من الدولار الموالي. على سبيل المثال، غالباً ما يثمن الناس الأشياء بعد امتلاكها أكثر مما يفعلون قبل ذلك، ويثمنون الأشياء عندما تكون وشيكة أكثر مما هي بعيدة وغالباً ما تؤذيهم الخسارات الصغيرة أكثر مما تفعل تلك الكبيرة، وغالباً ما يتخيلون أن ألم خسارة شيء ما أعظم من متعة الحصول عليه، وما إلى ذلك. إن العديد من الظواهر التي اهتم بها هذا الكتاب هي فقط بعض من تلك الاستثناءات غير النادرة جداً التي تجعل من مبدأ برنولي فكرة جميلة لكثيها فكرة مجرّدة وبلا فائدة. صحيح أنه يجدر بنا القيام باختيارات من خلال ضرب الاحتمالات في الفوائد، لكن كيف لنا أن نفعل هذا، ما دمنا عاجزين عن تقدير تلك الفوائد مسبقاً؟ تؤذي الظروف الموضوعية ذاتها إلى تنوع واسع في التجارب الذاتية على نحو يثير الانتباه، وبناء على ذلك فمن الصعب كثيراً توقّع حدوث تجارب ذاتية من خلال المعرفة المسبقة بظروفنا الموضوعية. كما أن الحقيقة المحزنة تتمثل في كون تحويل الثروة إلى منفعة أي، التنبؤ بكيفية شعورنا انطلاقاً من معرفتنا بما سنحصل عليه- ليس شبيهاً تماماً بتحويل أمتار إلى ساحات أو تحويل ألماني إلى ياباني. إن العلاقات البسيطة والشرعية التي تربط الأرقام بالأرقام والكلمات بالكلمات لا تربط ضرورة بين الأحداث الموضوعية والتجارب العاطفية.

فما الذي على القائم بالاختيار فعله إذن؟ دون معادلة للتنبؤ بالجدوى، نحن نميل إلى فعل ما فعله بنو جنسنا وهو التخيل. تتميز أدمغتنا ببنية فريدة من نوعها تمكّننا من نقل أنفسنا ذهنياً إلى الظروف المستقبلية ثم سؤال أنفسنا عن شعورها هناك. فبدلاً من احتساب الفوائد بدقة الرياضيات، نحن نتمثل الغد ونرى إلى أي حد سيلائمنا ذلك. إن قدرتنا على استشراف المستقبل وعيش الأحداث قبل وقوعها تمكّننا من التعلّم من أخطائنا دون ارتكابها ومن تقييم أفعالنا دون تنفيذها وهي أعظم هبة حبتنا بها الطبيعة ومع ذلك، بقدر ما يبدو هذا الأمر مثيراً للإعجاب، فإن قدرتنا على محاكاة الذوات المستقبلية وملابس المستقبل ليست مثالية على الإطلاق، فعندما نتخيل ملابس المستقبل، نسد فراغ التفاصيل التي لن تحدث حقاً ونغفل عن تلك

التي ستحدث وعندما نتخيل مشاعر المستقبل، نجد أنه من المستحيل تجاهل ما نشعر به الآن وإدراك كيف سنشعر بشأن الأشياء التي ستقع لاحقاً. لقد خلّم دانيال برنولي بعالم قد تمكّننا فيه معادلة بسيطة من تحديد مستقبلنا بمهارة وبعد نظر. لكن بعد النظر هبةً هسهةً تتركنا غالباً نعاني لنرى كيف سيبدو الحصول على هذا أو الذهاب إلى هناك أو القيام بذلك. لا توجد معادلة بسيطة للعثور على السعادة، لكن إذا لم تمكّننا أدمغتنا الضخمة من السير بخطى ثابتة نحو مستقبلنا، فهي تمكّننا على الأقل من فهم ما الذي يجعلنا نتعثّر.

Telegram:@mbooks90

ملاحظات

مقدمة

يحتوي جزء الملاحظات في هذا الكتاب على المراجع التي تحيل إلى البحث العلمي الذي يدعم المزاعم التي أوزنتها في النص وأحياناً تحتوي على بعض المعلومات الإضافية التي قد تكون مهمة لكنها ليست أساسية بالنسبة إلى النقاش. فإذا لم تكن تكثرث بالصادر، ولست مهتما بالأشياء غير الضرورية وتزعجك الكتب التي تجعلك تقلبها طوال الوقت، تأكد أن هذه الملاحظة هي الوحيدة ذات الأهمية في هذا الكتاب.

الفصل الأول: رحلة إلى زمن آخر

(1) W. A. Roberts, «Are Animals Stuck in Time?» *Psychological Bulletin* 128: 473–89 (2002).

(2) D. Dennett, *Kinds of Minds*. (New York: Basic Books, 1996).

(3) M. M. Haith, «The Development of Future Thinking as Essential for the Emergence of Skill in Planning.» in *The Developmental Psychology of Planning: Why, How, and When Do We Plan?*, ed. S. L. Friedman and E. K. Scholnick (Mahwah, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1997), 25–42.

(4) E. Bates, J. Elman, and P. Li, «Language In, On, and About Time.» in *The Development of Future Oriented Processes*, ed. M. M. Haith et al. (Chicago: University of Chicago Press, 1994).

(5) B. M. Hood et al., «Gravity Biases in a Nonhuman Primate?» *Developmental Science* 2: 35–41 (1999). See also; D. A. Washburn and D. M. Rumbaugh, «Comparative Assessment of Psychomotor Performance: Target Prediction by Humans and Macaques (*Macaca mulatta*).» *Journal of Experimental Psychology: General* 121: 305–12 (1992).

(6) M. Oakes and L. B. Cohen, «Infant Perception of a Causal Event.» *Cognitive Development* 5: 193–207 (1990).

انظر أيضا:

N. Wentworth and M. M. Haith, «Event-Specific Expectations of 2- and 3-Month-Old Infants.» *Developmental Psychology* 28: 842–50 (1992).

(7) C. M. Atance and D. K. O'Neill, «Planning in 3-Year-Olds: A Reflection of the Future Self?» in *The Self in Time: Developmental Perspectives*, ed. C. Moore and K. Lemmon

and J. B. Benson, «The Development of ;(Mahwah, N.J.: Lawrence Erlbaum, 2001) Planning: It's About Time,» in Friedman and Scholnick, *Developmental Psychology of Planning*

(8) رغم أن الأطفال يشرعون في الحديث عن المستقبل تقريبا في عمر الستين، فلا يبدو أنهم يفهمون معنى ذلك تماما قبل سن الرابعة. أنظر:

D. J. Povinelli and B. B. Simon, «Young Children's Understanding of Briefly Versus Extremely Delayed Images of the Self: Emergence of the Autobiographical Stance,» *Developmental Psychology* 34: 188–94 (1998); and K. Nelson, «Finding One's Self in Time,» in *The Self Across Psychology: Self-Recognition, Self-Awareness, and the Self Concept*, ed. J. G. Snodgrass and R. L. Thompson (New York: New York Academy of Sciences, 1997), 103–16.

(9) C. A. Banyas, «Evolution and Phylogenetic History of the Frontal Lobes,» in *The Human Frontal Lobes*, ed. B. L. Miller and J. L. Cummings (New York: Guilford Press, 1999), 83–106.

(10) يبدو أن فينس كان يأخذ معه القضيبي أينما ذهب إلى آخر حياته وربما كان مستمتعا أن مصيره هو وجمجمته معروضين في متحف وارن الأثروبولوجي بجامعة هارفارد

(11) أورد الكتاب الحدائيون حالة غيدج كقرينة على أهمية الفص الجبهني، لكن ليست هذه هي الطريقة التي فكر بها الناس بخصوص هذه الحادثة عند وقوعها. أنظر:

M. B. Macmillan, «A Wonderful Journey Through Skull and Brains: The Travels of Mr. Gage's Tamping Iron,» *Brain and Cognition* 5: 67–107 (1986).

(12) M. B. Macmillan, «Phineas Gage's Contribution to Brain Surgery,» *Journal of the History of the Neurosciences* 5: 56–77 (1996).

(13) S. M. Weingarten, «Psychosurgery,» in Miller and Cummings, *Human Frontal Lobes*, 446–60.

(14) D. R. Weinberger et al., «Neural Mechanisms of Future-Oriented Processes,» in Haith et al., *Development of Future Oriented Processes*, 221–42.

(15) J. M. Fuster, *The Prefrontal Cortex: Anatomy, Physiology, and Neuropsychology of the Frontal Lobe* (New York: Lippincott-Raven, 1997), 160–61.

(16) A. K. MacLeod and M. L. Cropley, «Anxiety, Depression, and the Anticipation of Future Positive and Negative Experiences,» *Journal of Abnormal Psychology* 105: 286–89

(1996)

(17) M. A. Wheeler, D. T. Stuss, and E. Tulving, «Toward a General Theory of Episodic Memory: The Frontal Lobes and Autonoetic Consciousness,» *Psychological Bulletin* 121: 331–54 (1997).

(18) F. T. Melges, «Identity and Temporal Perspective,» in *Cognitive Models of Psychological Time*, ed. R. A. Block (Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1990), 255–66.

(19) P. Faglioni, «The Frontal Lobes,» in *The Handbook of Clinical and Experimental Neuropsychology*, ed. G. Denes and L. Pizzamiglio (East Sussex, U.K.: Psychology Press, 1999), 525–69.

(20) J. M. Fuster, «Cognitive Functions of the Frontal Lobes,» in Miller and Cummings, *Human Frontal Lobes*, 187–95.

(21) E. Tulving, «Memory and Consciousness» *Canadian Psychology* 26: 1–12 (1985).

تم وصف الحالة باستفاضة تحت الاسم المستعار:

«K.C.» in E. Tulving et al., «Priming of Semantic Autobiographical Knowledge: A Case Study of Retrograde Amnesia,» *Brain and Cognition* 8: 3–20 (1988)

(22) Tulving, «Memory and Consciousness.»

(23) R. Dass, *Be Here Now* (New York: Crown, 1971).

(24) L. A. Jason et al., «Time Orientation: Past, Present, and Future Perceptions,» *Psychological Reports* 64: 1199–1205 (1989).

(25) E. Klinger and W. M. Cox, «Dimensions of Thought Flow in Everyday Life,» *Imagination, Cognition, and Personality* 72: 105–28 (1987–88); and E. Klinger, «On Living Tomorrow Today: The Quality of Inner Life as a Function of Goal Expectations,» in *Psychology of Future Orientation*, ed. Z. Zaleski (Lublin, Poland: Towarzystwo Naukowe KUL, 1994), 97–106

(26) J. L. Singer, *Daydreaming and Fantasy* (Oxford: Oxford University Press, 1981); E. Klinger, *Daydreaming: Using Waking Fantasy and Imagery for Self-Knowledge and Creativity* (Los Angeles: Tarcher, 1990); G. Oettingen, *Psychologie des Zukunftsdenkens* [On the Psychology of Future Thought] (Göttingen, Germany: Hogrefe, 1997).

(27) G. F. Loewenstein and D. Prelec, «Preferences for Sequences of Outcomes,» *Psychological Review* 100: 91–108 (1993).

انظر كذلك:

G. Loewenstein, «Anticipation and the Valuation of Delayed Consumption,» *Economy Journal* 97: 666–84 (1987); and J. Elster and G. F. Loewenstein, «Utility from Memory and Anticipation,» in *Choice Over Time*, ed. G. F. Loewenstein and J. Elster (New York: Russell Sage Foundation, 1992), 213–34.

(28) G. Oettingen and D. Mayer, «The Motivating Function of Thinking About the Future: Expectations Versus Fantasies,» *Journal of Personality and Social Psychology* 83: 1198–1212 (2002).

(29) A. Tversky and D. Kahneman, «Availability: A Heuristic for Judgment Frequency and Probability,» *Cognitive Psychology* 5: 207–32 (1973).

(30) N. Weinstein, «Unrealistic Optimism About Future Life Events,» *Journal of Personality and Social Psychology* 39: 806–20 (1980).

(31) P. Brickman, D. Coates, and R. J. Janoff-Bulman, «Lottery Winners and Accident Victims: Is Happiness Relative?,» *Journal of Personality and Social Psychology* 36: 917–27 (1978).

(32) E. C. Chang, K. Asakawa, and L. J. Sanna, «Cultural Variations in Optimistic and Pessimistic Bias: Do Easterners Really Expect the Worst and Westerners Really Expect the Best When Predicting Future Life Events?,» *Journal of Personality and Social Psychology* 81: 476–91 (2001).

(33) J. M. Burger and M. L. Palmer, «Changes in and Generalization of Unrealistic Optimism Following Experiences with Stressful Events: Reactions to the 1989 California Earthquake,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 18: 39–43 (1992).

(34) H. E. Stiegelis et al., «Cognitive Adaptation: A Comparison of Cancer Patients and Healthy References,» *British Journal of Health Psychology* 8: 303–18 (2003).

(35) A. Arntz, M. Van Eck, and P. J. de Jong, «Unpredictable Sudden Increases in Intensity of Pain and Acquired Fear,» *Journal of Psychophysiology* 6: 54–64 (1992).

(36) في ما يتعلق بالصدمات الكهربائية، قد يكون هذا الوقت المناسب لذكر أنه يتم القيام بتجارب نفسية

ك هذه وفقا للمبادئ الأخلاقية التي تضعها جمعية علم النفس الأمريكية، كما ينبغي المصادقة عليها من طرف اللجان الجامعية قبل تنفيذها ويكون أولئك الذين يشاركون في القيام بها طوعا، على إطلاع كامل بأي نوع من المخاطر التي قد تشكلها هذه الدراسة على صحتهم أو سعادتهم فضلا على منحهم الفرصة للانسحاب في أي وقت دون خشية من العقاب. إذا قُدمت معلومات خاطئة للأشخاص خلال التجربة، فسيتم إخبارهم بالحقيقة عند نهايتها. باختصار، نحن أشخاص غاية في اللطف.

(37) M. Miceli and C. Castelfranchi, «The Mind and the Future: The (Negative) Power of Expectations,» *Theory and Psychology* 12: 335–66 (2002).

(38) J. N. Norem, «Pessimism: Accentuating the Positive Possibilities,» in *Virtue, Vice, and Personality: The Complexity of Behavior*, ed. E. C. Chang and L. J. Sanna (Washington, D.C.: American Psychological Association, 2003), 91–104; J. K. Norem and N. Cantor, «Defensive Pessimism: Harnessing Anxiety as Motivation,» *Journal of Personality and Social Psychology* 51: 1208–17 (1986).

(39) A. Bandura, «Self-Efficacy: Toward a Unifying Theory of Behavioral Change,» *Psychological Review* 84: 191–215 (1977); and A. Bandura, «Self-Efficacy: Mechanism in Human Agency,» *American Psychologist* 37: 122–47 (1982).

(40) M. E. P. Seligman, *Helplessness: On Depression, Development, and Death* (San Francisco: Freeman, 1975).

(41) E. Langer and J. Rodin, «The Effect of Choice and Enhanced Personal Responsibility for the Aged: A Field Experiment in an Institutional Setting,» *Journal of Personality and Social Psychology* 34: 191–98 (1976); and J. Rodin and E. J. Langer, «Long-Term Effects of a Control-Relevant Intervention with the Institutional Aged,» *Journal of Personality and Social Psychology* 35: 897–902 (1977).

(42) R. Schulz and B. H. Hanusa, «Long-Term Effects of Control and Predictability-Enhancing Interventions: Findings and Ethical Issues,» *Journal of Personality and Social Psychology* 36: 1202–12 (1978).

(43) E. J. Langer, «The Illusion of Control,» *Journal of Personality and Social Psychology* 32: 311–28 (1975).

(44) المرجع ذاته.

(45) D. S. Dunn and T. D. Wilson, «When the Stakes Are High: A Limit to the Illusion of Control Effect,» *Social Cognition* 8: 305–23 (1991).

(46) L. H. Strickland, R. J. Lewicki, and A. M. Katz, «Temporal Orientation and Perceived Control as Determinants of Risk Taking,» *Journal of Experimental Social Psychology* 2: 143–51 (1966).

(47) Dunn and Wilson, «When the Stakes Are High.»

(48) S. Gollin et al., «The Illusion of Control Among Depressed Patients,» *Journal of Abnormal Psychology* 88: 454–57 (1979).

(49) L. B. Alloy and L. Y. Abramson, «Judgment of Contingency in Depressed and Nondepressed Students: Sadder but Wiser?» *Journal of Experimental Psychology: General* 108: 441–85 (1979).

وحتى تحصل على رأي مخالف أنظر:

D. Dunning and A. L. Story, «Depression, Realism and the Overconfidence Effect: Are the Sadder Wiser When Predicting Future Actions and Events?» *Journal of Personality and Social Psychology* 61: 521–32 (1991); and R. M. Msetfi et al., «Depressive Realism and Outcome Density Bias in Contingency Judgments: The Effect of the Context and Intertrial Interval,» *Journal of Experimental Psychology: General* 134: 10–22 (2005).

(50) S. E. Taylor and J. D. Brown, «Illusion and Well-Being: A Social- Psychological Perspective on Mental Health,» *Psychological Bulletin* 103: 193–210 (1988).

الفصل الثاني: الرؤية من هنا

(51) N. L. Segal, *Entwined Lives: Twins and What They Tell Us About Human Behavior* (New York: Dutton, 1999).

(52) N. Angier, «Joined for Life, and Living Life to the Full,» *New York Times*, 23 December 1997, F1.

(53) A. D. Dreger, «The Limits of Individuality: Ritual and Sacrifice in the Lives and Medical Treatment of Conjoined Twins,» *Studies in History and Philosophy of Biological and Biomedical Sciences* 29: 1–29 (1998).

(54) المرجع ذاته، منذ نشر ورقة البحث، سعى زوج من التوائم المتصقين على الأقل أن ينفصلوا وفقدوا حياتهم خلال العملية.

«A Lost Surgical Gamble,» *New York Times*, 9 July 2003, 20.

(55) J. R. Searle, *Mind, Language, and Society: Philosophy in the Real World* (New York: Basic Books, 1998).

(56) يمكن التعريف بالحالات الذاتية من خلال ما سبقها من حالات موضوعية أو حالات ذاتية أخرى لكن الشيء ذاته ينطبق على الأجسام المادية. إذا لم يكن بوسعنا أن نعزف بشيء مادي (الحلوى الخيطية) بواسطة الحالات الذاتية التي أحدثتها («إنها طرية ولزجة ومذاقها حلو») أو بواسطة شيء آخر مادي («إنها مصنوعة من شراب الذرة وشراب السكر ونكهة الفانيليا وبياض البيض»). فلن نستطيع التعريف به. فكل التعريفات تنم إما من خلال مقارنة الشيء الذي نرغب في التعريف به بأشياء من نفس الفئة الأنطولوجية (مثلا: مقارنة أشياء مادية بأشياء مادية) أو من خلال الربط بين خصائصه وبين أشياء من فئة أنطولوجية مختلفة (مثلا: مقارنة أشياء مادية بحالات ذاتية). لا أحد اكتشف طريقة تالفة إلى حد الآن.

(57) R. D. Lane et al., «Neuroanatomical Correlates of Pleasant and Unpleasant Emotion,» *Neuropsychologia* 35: 1437–44 (1997).

(58) C. Osgood, G. J. Suci, and P. H. Tannenbaum, *The Measurement of Meaning* (Urbana: University of Illinois Press, 1957).

يتمثل الاستنتاج النمطي في أن الكلمات تختلف عن بعضها البعض من خلال ثلاثة أبعاد: التقييم (جيد أو سيء)؛ النشاط (فاعل أو سلبي)؛ القوة (قوي أو ضعيف).

(59) T. Nagel, «What Is It Like to Be a Bat?» *Philosophical Review* 83: 435–50 (1974).

(60) See A. Pope, *Essay on Man, Epistle 4* (1744), in *The Complete Poetical Works of Alexander Pope*, ed. H. W. Boynton (New York: Houghton Mifflin, 1903).

11. S. Freud, *Civilization and Its Discontents*, vol. 1 of *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (1930; London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis, 1953), 75–76.

(61) S. Freud, *Civilization and Its Discontents*, vol. 1 of *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud* (1930; London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis, 1953), 75–76.

(62) B. Pascal, «Pensees,» in *Pensees*, ed. W. F. Trotter (1660; New York: Dutton, 1908).

(63) R. Nozick, *The Examined Life* (New York: Simon & Schuster, 1989), 102.

(64) J. S. Mill, «Utilitarianism» (1863), in *On Liberty, the Subjection of Women and Utilitarianism*, in *The Basic Writings of John Stuart Mill*, ed. D. E. Miller (New York: Modern Library, 2002).

(65) R. Nozick, *Anarchy, State, and Utopia* (New York: Basic Books, 1974).

(66) Nozick, *The Examined Life*, p. 111.

إن مسألة «ماكينية السعادة» لنوزيك شائعة لدى الأكاديميين الذين يشغلون عموماً في الأخذ بعين الاعتبار ثلاثة أشياء. أولاً، من قال أن لا أحد سيرغب في أن يكون متصلاً بالآلة؟ العالم مليء بالأشخاص الذي يرغبون في السعادة ولا يأبهون قيد أنملة سواء أ كان «الأمر يستحق العناء» أم لا. ثانياً، أولئك الذين يدعون بأنهم لن يوافقوا على ذلك قد يكونون متصلين أصلاً بالآلة. في النهاية، المشكلة أنك تنسى القرار الذي اتخذته سابقاً. ثالثاً، لا أحد يستطيع الإجابة على هذا السؤال حقاً لأنه يتطلب منهم تخيل حالة مستقبلية يجهلون فيها الشيء ذاته الذي يفكرون فيه.

See E. B. Royzman, K. W. Cassidy, and J. Baron, «I Know, You Know»: Epistemic Egocentrism in Children and Adults,» *Review of General Psychology* 7: 38–65(2003).

(67) D. M. MacMahon, «From the Happiness of Virtue to the Virtue of Happiness: 400 BC–AD 1780,» *Daedalus: Journal of the American Academy of Arts and Sciences* 133: 5–17 (2004).

(68) المرجع ذاته.

(69) للاطلاع على بعض المناقشات حول التمييز بين السعادة الروحية والعاطفية والتي تتخذ جميعها موقفا معارضا لموقفنا، انظر:

D. W. Hudson, *Happiness and the Limits of Satisfaction* (London: Rowman & Littlefield, 1996);
M. Kingwell, *Better Living: In Pursuit of Happiness from Plato to Prozac* (Toronto: Viking, 1998);
and E. Telfer, *Happiness* (New York: St. Martin's Press, 1980).

(70) N. Block, «Begging the Question Against Phenomenal Consciousness,» *Behavioral and Brain Sciences* 15: 205–6 (1992).

(71) J. W. Schooler and T. Y. Engstler-Schooler, «Verbal Overshadowing of Visual Memories: Some Things Are Better Left Unsaid,» *Cognitive Psychology* 22: 36–71 (1990.)

(72) G. W. McConkie and D. Zola, «Is Visual Information Integrated in Successive Fixations in Reading?,» *Perception and Psychophysics* 25: 221–24. (1979).

(73) D. J. Simons and D. T. Levin, «Change Blindness,» *Trends in Cognitive Sciences* 1: 261–67 (1997).

(74) M. R. Beck, B. L. Angelone, and D. T. Levin, «Knowledge About the Probability of Change Affects Change Detection Performance,» *Journal of Experimental Psychology*:

(75) D. J. Simons and D. T. Levin, «Failure to Detect Changes to People in a Real-World Interaction,» *Psychonomic Bulletin and Review* 5: 644–49 (1998).

(76) R. A. Rensink, J. K. O'Regan, and J. J. Clark, «To See or Not to See: The Need for Attention to Perceive Changes in Scenes,» *Psychological Science* 8: 368–73 (1997).

(77) «Hats Off to the Amazing Hondo,» www.hondomagic.com/html/a_little_magic.htm.

(78) B. Fischhoff, «Perceived Informativeness of Facts,» *Journal of Experimental Psychology: Human Perception and Performance* 3: 349–58 (1977).

(79) A. Parducci, *Happiness, Pleasure, and Judgment: The Contextual Theory and Its Applications* (Mahwah, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1995).

(80) E. Shackleton, *South* (1959; New York: Carroll & Graf, 1998), 192.

الفصل الثالث: النظر إلى الداخل من الخارج

(81) J. LeDoux, *The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life* (New York: Simon & Schuster, 1996).

(82) R. B. Zajonc, «Feeling and Thinking: Preferences Need No Inferences,» *American Psychologist* 35: 151–75 (1980); R. B. Zajonc, «On the Primacy of Affect,» *American Psychologist* 39: 117–23 (1984); and «Emotions,» in *The Handbook of Social Psychology*, ed. D. T. Gilbert, S. T. Fiske, and G. Lindzey, 4th ed., vol. 1 (New York: McGraw-Hill, 1998), 591–632.

(83) S. Schachter and J. Singer, «Cognitive, Social and Physiological Determinants of Emotional State,» *Psychological Review* 69: 379–99 (1962).

(84) D. G. Dutton and A. P. Aron, «Some Evidence for Heightened Sexual Attraction Under Conditions of High Anxiety,» *Journal of Personality and Social Psychology* 30: 510–17 (1974).

(85) من المهم أيضا أن نلاحظ أن مجرد التعريف بشعور ما يمكن أن يلفيه. انظر:

A. R. Hariri, S. Y. Bookheimer, and J. C. Mazziotta, «Modulating Emotional Response: Effects of a Neocortical Network on the Limbic System,» *NeuroReport* 11: 43–48 (2000); and M. D.

Lieberman et al., «Two Captains, One Ship: A Social Cognitive Neuroscience Approach to Disrupting Automatic Affective Processes» (unpublished manuscript, UCLA, 2003).

(86) G. Greene, *The End of the Affair* (New York: Viking Press, 1951), 29.

(87) R. A. Dienstbier and P. C. Munter, «Cheating as a Function of the Labeling of Natural Arousal,» *Journal of Personality and Social Psychology* 17: 208–13 (1971).

(88) M. P. Zanna and J. Cooper, «Dissonance and the Pill: An Attribution Approach to Studying the Arousal Properties of Dissonance,» *Journal of Personality and Social Psychology* 29: 703–9 (1974).

(89) D. C. Dennett, *Brainstorms: Philosophical Essays on Mind and Psychology* (Cambridge, Mass.: Bradford/MIT Press, 1981), 218.

(90) J. W. Schooler, «Re-representing Consciousness: Dissociations Between Consciousness and Meta-Consciousness,» *Trends in Cognitive Science* 6: 339–44 (2002).

(91) L. Weiskrantz, *Blindsight* (Oxford: Oxford University Press, 1986).

(92) A. Cowey and P. Stoerig, «The Neurobiology of Blindsight,» *Trends in Neuroscience* 14: 140–45 (1991).

(93) E. J. Vanman, M. E. Dawson, and P. A. Brennan, «Affective Reactions in the Blink of an Eye: Individual Differences in Subjective Experience and Physiological Responses to Emotional Stimuli,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 24: 994–1005 (1998).

(94) R. D. Lane et al., «Is Alexithymia the Emotional Equivalent of Blindsight?» *Biological Psychiatry* 42: 834–44 (1997).

(95) أشار عالم الاقتصاد فرانسيس ادجورث في القرن التاسع عشر إلى هذه الأداة لقياس السعادة. أنظر في:

F. Y. Edgeworth, *Mathematical Psychics: An Essay on the Application of Mathematics to the Moral Sciences* (London: Kegan Paul, 1881).

(96) N. Schwarz and F. Strack, «Reports of Subjective Well-Being: Judgmental Processes and Their Methodological Implications,» in *Well-Being: The Foundations of Hedonic Psychology*, ed. D. Kahneman, E. Diener, and N. Schwarz (New York: Russell Sage Foundation, 1999), 61–84; D. Kahneman, «Objective Happiness,» in *Well-Being*, 3–25.

(97) R. J. Larsen and B. L. Fredrickson, «Measurement Issues in Emotion Research,» in *Well-Being*, 40–60.

(98) M. Minsky, *The Society of Mind* (New York: Simon & Schuster, 1985); W. G. Lycan, «Homuncular Functionalism Meets PDP,» in *Philosophy and Connectionist Theory*, ed. W. Ramsey, S. P. Stich, and D. E. Rumelhart (Mahwah, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1991), 259–86.

(99) O. Jowett, *Plato: Protagoras*, facsimile ed. (New York: Prentice Hall, 1956).

الفصل الرابع: في النقطة العمياء من الذاكرة

(100) R. O. Boyer and H. M. Morais, *Labor's Untold Story* (New York: Cameron, 1955); P. Avrich, *The Haymarket Tragedy* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1984).

(101) E. Brayer, *George Eastman: A Biography* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996).

(102) R. Karniol and M. Ross, «The Motivational Impact of Temporal Focus: Thinking About the Future and the Past,» *Annual Review of Psychology* 47: 593 – 620 (1996); and B. A. Mellers, «Choice and the Relative Pleasure of Consequences,» *Psychological Bulletin* 126: 910–24 (2000).

(103) D. L. Schacter, *Searching for Memory: The Brain, the Mind and the Past* (New York: Basic Books, 1996).

(104) E. F. Loftus, D. G. Miller, and H. J. Burns, «Semantic Integration of Verbal Information into Visual Memory,» *Journal of Experimental Psychology: Human Learning and Memory* 4: 19–31 (1978).

(105) E. F. Loftus, «When a Lie Becomes Memory's Truth: Memory Distortion After Exposure to Misinformation,» *Current Directions in Psychological Sciences* 1: 121–23 (1992).

وللتعرف على وجهة نظر مخالفة انظر:

M. S. Zaragoza, M. McCloskey, and M. Jamis, «Misleading Postevent Information and Recall of the Original Event: Further Evidence Against the Memory Impairment Hypothesis,» *Journal of Experimental Psychology: Learning, Memory, and Cognition* 13: 36–44 (1987).

(106) M. K. Johnson and S. J. Sherman, «Constructing and Reconstructing the Past and

the Future in the Present,» in *Handbook of Motivation and Cognition: Foundations of Social Behavior*, ed. E. T. Higgins and R. M. Sorrentino, vol. 2 (New York: Guilford Press, 1990), 482–526; and M. K. Johnson and C. L. Raye, «Reality Monitoring,» *Psychological Review* 88: 67–85 (1981).

(107) J. Deese, «On the Predicted Occurrence of Particular Verbal Intrusions in Immediate Recall,» *Journal of Experimental Psychology* 58: 17–22 (1959).

(108) H. L. Roediger and K. B. McDermott, «Creating False Memories: Remembering Words Not Presented in Lists,» *Journal of Experimental Psychology: Learning, Memory, and Cognition* 21: 803–14 (1995).

(109) K. B. McDermott and H. L. Roediger, «Attempting to Avoid Illusory Memories: Robust False Recognition of Associates Persists Under Conditions of Explicit Warnings and Immediate Testing,» *Journal of Memory and Language* 39: 508–20 (1998).

(110) R. Warren, «Perceptual Restoration of Missing Speech Sounds,» *Science* 167: 392–93 (1970).

(111) A. G. Samuel, «A Further Examination of Attentional Effects in the Phonemic Restoration Illusion,» *Quarterly Journal of Experimental Psychology* 43A: 679–99 (1991).

(112) R. Warren, «Perceptual Restoration of Obliterated Sounds,» *Psychological Bulletin* 96: 371–83 (1984).

(113) L. F. Baum, *The Wonderful Wizard of Oz* (New York: G. M. Hill, 1900), 113–19.

(114) J. Locke, Book IV, *An Essay Concerning Human Understanding*, vol. 2 (1690; New York: Dover, 1959).

(115) I. Kant, *Critique of Pure Reason*, trans. N. K. Smith (1781; New York: St. Martin's Press, 1965), 93.

(116) W. Durant, *The Story of Philosophy* (New York: Simon & Schuster, 1926).

(117) A. Gopnik and J. W. Astington, «Children's Understanding of Representational Change and Its Relation to the Understanding of False Beliefs and the Appearance-Reality Distinction,» *Child Development* 59: 26–37 (1988); and H. Wimmer and J. Perner, «Beliefs About Beliefs: Representation and Constraining Function of Wrong Beliefs in Young

Children's Understanding of Deception,» *Cognition* 13: 103–28 (1983).

(118) J. Piaget, *The Child's Conception of the World* (London: Routledge & Kegan Paul, 1929), 166.

(119) B. Keysar et al., «Taking Perspective in Conversation: The Role of Mutual Knowledge in Comprehension,» *Psychological Science* 11: 32–38 (2000).

(120) D. T. Gilbert, «How Mental Systems Believe,» *American Psychologist* 46: 107–19 (1991).

(121) من المثير للانتباه أن القدرة على القيام بهذا تتزايد مع التقدم في السن لكنها تتقهقر في الشيخوخة.
أنظر:

C. Ligneau-Hervé and E. Mullet, «Perspective-Taking Judgments Among Young Adults, Middle-Aged, and Elderly People,» *Journal of Experimental Psychology: Applied* 11: 53–60 (2005).

(122) Piaget, *Child's Conception*, 124.

(123) G. A. Miller, «Trends and Debates in Cognitive Psychology,» *Cognition* 10: 215–25 (1981).

(124) D. T. Gilbert and T. D. Wilson, «Miswanting: Some Problems in the Forecasting of Future Affective States,» in *Feeling and Thinking: The Role of Affect in Social Cognition*, ed. J. Forgas (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), 178–97.

(125) D. Dunning et al., «The Overconfidence Effect in Social Prediction,» *Journal of Personality and Social Psychology* 58: 568–81 (1990); and R. Vallone et al., «Overconfident Predictions of Future Actions and Outcomes by Self and Others,» *Journal of Personality and Social Psychology* 58: 582–92 (1990).

(126) D. W. Griffin, D. Dunning, and L. Ross, «The Role of Construal Processes in Overconfident Predictions About the Self and Others,» *Journal of Personality and Social Psychology* 59: 1128–39 (1990).

(127) Kant, *Critique*, 93.

الفصل الخامس: فطارد الصمت

(128) A. C. Doyle, «Silver Blaze,» in *The Complete Sherlock Holmes* (1892; New York: Gramercy, 2002), 149.

(129) المرجع ذاته.

(130) R. S. Sainsbury and H. M. Jenkins, «Feature-Positive Effect in Discrimination Learning,» *Proceedings of the Annual Convention of the American Psychological Association* 2: 17–18 (1967).

(131) J. P. Newman, W. T. Wolff, and E. Hearst, «The Feature-Positive Effect in Adult Human Subjects,» *Journal of Experimental Psychology: Human Learning and Memory* 6: 630–50 (1980).

(132) H. M. Jenkins and W. C. Ward, «Judgment of Contingency Between Responses and Outcomes,» *Psychological Monographs* 79 (1965); P. C. Wason, «Reasoning About a Rule,» *Quarterly Journal of Experimental Psychology* 20: 273–81 (1968); and D. L. Hamilton and R. K. Gifford, «Illusory Correlation in Interpersonal Perception: A Cognitive Basis of Stereotypic Judgements,» *Journal of Experimental Social Psychology* 12: 392–407 (1976). See also J. Crocker, «Judgment of Covariation by Social Perceivers,» *Psychological Bulletin* 90: 272–92 (1981); L. B. Alloy and N. Tabachnik, «The Assessment of Covariation by Humans and Animals: The Joint Influence of Prior Expectations and Current Situational Information,» *Psychological Review* 91: 112–49 (1984).

(133) F. Bacon, *Novum organum*, ed. and trans. P. Urbach and J. Gibson (1620; Chicago: Open Court, 1994), 60.

(134) المرجع ذاته، 57.

(135) J. Klayman and Y. W. Ha, «Confirmation, Disconfirmation, and Information in Hypothesis-Testing,» *Psychological Review* 94: 211–28 (1987).

(136) A. Tversky, «Features of Similarity,» *Psychological Review* 84: 327–52 (1977).

(137) E. Shafir, «Choosing Versus Rejecting: Why Some Options Are Both Better and Worse Than Others,» *Memory & Cognition* 21: 546–56 (1993).

(138) T. D. Wilson et al., «Focalism: A Source of Durability Bias in Affective Forecasting,» *Journal of Personality and Social Psychology* 78: 821–36 (2000).

(139) وُصفت الدراسة في ورقة بحث وصفت كذلك بعض الدراسات الأخرى طلب فيها من أشخاص القيام

بتنبؤات عن كيفية شعورهم إذا:

(أ) انفجرت مركبة الفضاء كولومبيا وهلك كل رواد الفضاء على متنها

أو:

(ب) أطاحت الحرب الأمريكية على العراق بصدام حسين.

المخيف بشأن هذا الأمر هو أنه تم القيام بهذه الدراسات سنة 1998 - أي خمس سنوات قبل وقوع كلا هذين الحدثين فعلياً، صدق أو لا تصدق.

(140) D. A. Schkade and D. Kahneman, «Does Living in California Make People Happy? A Focusing Illusion in Judgments of Life Satisfaction,» *Psychological Science* 9: 340-46 (1998).

(141) قد يكون هذا أقل صحة إذا تعلق الأمر بأشخاص من ثقافات تؤكّد على التفكير الكلي . أنظر:

K. C. H. Lam et al., «Cultural Differences in Affective Forecasting: The Role of Focalism,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 31: 1296-309 (2005).

(142) P. Menzela et al., «The Role of Adaptation to Disability and Disease in Health State Valuation: A Preliminary Normative Analysis,» *Social Science & Medicine* 55: 2149-58 (2002).

(143) C. Turnbull, *The Forest People* (New York: Simon & Schuster, 1961), 222.

(144) Y. Trope and N. Liberman, «Temporal Construal,» *Psychological Review* 110: 403-21 (2003).

(145) R. R. Vallacher and D. M. Wegner, *A Theory of Action Identification* (Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1985), 61-88.

(146) N. Liberman and Y. Trope, «The Role of Feasibility and Desirability Considerations in Near and Distant Future Decisions: A Test of Temporal Construal Theory,» *Journal of Personality and Social Psychology* 75: 5-18 (1998).

(147) M. D. Robinson and G. L. Clore, «Episodic and Semantic Knowledge in Emotional Self-Report: Evidence for Two Judgment Processes,» *Journal of Personality and Social Psychology* 83: 198-215 (2002).

(148) T. Eyal et al., «The Pros and Cons of Temporally Near and Distant Action,» *Journal of Personality and Social Psychology* 86: 781–95 (2004).

(149) I. R. Newby-Clark and M. Ross, «Conceiving the Past and Future,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 29: 807–18 (2003); and M. Ross and I. R. Newby-Clark, «Construing the Past and Future,» *Social Cognition* 16: 133–50 (1998).

(150) N. Liberman, M. Sagristano, and Y. Trope, «The Effect of Temporal Distance on Level of Mental Construal,» *Journal of Experimental Social Psychology* 38: 523–34 (2002).

(151) G. Ainslie, «Specious Reward: A Behavioral Theory of Impulsiveness and Impulse Control,» *Psychological Bulletin* 82: 463–96 (1975); and G. Ainslie, *Picoeconomics: The Strategic Interaction of Successive Motivational States Within the Person* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

(152) كان أفلاطون أول كاتب لاحظ هذا الأمر وقد استخدم هذه الحقيقة ليدافع عن فكرة القياس الموضوعي للسعادة: «ألا تبدو لك نفس الأحجام كبيرة عندما تكون قريبة، وصغيرة من بعيد؟... الآن لنفترض أن السعادة تتمثل في القيام بالشيء الكبير أو اختياره وليس في القيام بالشيء الأصغر أو تجنبه، ماذا سيكون مبدأ انقاذ الحياة البشرية؟ أن يكون فن القياس هو مبدأ الانقاذ أم سلطة المظهر؟ أليس هذا الأخير هو فن الخداع الذي يجعلنا نتردد ونأخذ أشياء ونندم في نفس الوقت على أخرى في تصرفاتنا وفي اختيارنا للأشياء سواء كانت كبيرة أم صغيرة؟».

O. Jowett, *Plato: Protagoras*, facsimile ed. (New York: Prentice Hall, 1956).

(153) G. Loewenstein, «Anticipation and the Valuation of Delayed Consumption,» *Economy Journal* 97: 666–84 (1987).

(154) S. M. McClure et al., «The Grasshopper and the Ant: Separate Neural Systems Value Immediate and Delayed Monetary Rewards,» *Science* 306: 503–7 (2004).

(155) Doyle, *Complete Sherlock Holmes*, 147.

الفصل السادس: المستقبل الآن

(156) يبدو الجميع واثقاً أن كليفيين هو من قال ذلك في سنة 1895، لكنني لم أتمكن من العثور على المصدر لإثبات ذلك.

(157) S. A. Newcomb, *Side-Lights on Astronomy* (New York: Harper & Brothers, 1906), 355.

- (158) W. Wright, «Speech to the Aero Club of France,» in *The Papers of Wilbur and Orville Wright*, ed. M. McFarland (New York: McGraw-Hill, 1908), 934.
- (159) A. C. Clarke, *Profiles of the Future* (New York: Bantam, 1963), 14. By the way, Clarke defines «elderly» as somewhere between thirty and forty-five. Yikes!
- (160) G. R. Goethals and R. F. Reckman, «The Perception of Consistency in Attitudes,» *Journal of Experimental Social Psychology* 9: 491–501 (1973).
- (161) C. McFarland and M. Ross, «The Relation Between Current Impressions and Memories of Self and Dating Partners,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 13: 228–38 (1987).
- (162) M. A. Safer, L. J. Levine, and A. L. Drapalski, «Distortion in Memory for Emotions: The Contributions of Personality and Post-Event Knowledge,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 28: 1495–1507 (2002).
- (163) E. Eich et al., «Memory for Pain: Relation Between Past and Present Pain Intensity,» *Pain* 23: 375–80 (1985).
- (164) L. N. Collins et al., «Agreement Between Retrospective Accounts of Substance Use and Earlier Reported Substance Use,» *Applied Psychological Measurement* 9: 301–9 (1985); G. B. Markus, «Stability and Change in Political Attitudes: Observe, Recall, and «Explain,» *Political Behavior* 8: 21–44 (1986); D. Offer et al., «The Altering of Reported Experiences,» *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry* 39: 735–42 (2000).
- (165) M. A. Safer, G. A. Bonanno, and N. P. Field, ««It Was Never That Bad»: Biased Recall of Grief and Long-Term Adjustment to the Death of a Spouse,» *Memory* 9: 195–204 (2001).
- (166) For reviews, see M. Ross, «Relation of Implicit Theories to the Construction of Personal Histories,» *Psychological Review* 96: 341–57 (1989); L. J. Levine and M. A. Safer, «Sources of Bias in Memory for Emotions,» *Current Directions in Psychological Science* 11: 169–73 (2002).
- (167) L. J. Levine, «Reconstructing Memory for Emotions,» *Journal of Experimental Psychology: General* 126: 165–77 (1997).
- (168) G. F. Loewenstein, «Out of Control: Visceral Influences on Behavior,» *Organizational*

Behavior and Human Decision Processes 65: 272–92 (1996); G. F. Loewenstein, T. O'Donoghue, and M. Rabin, «Projection Bias in Predicting Future Utility,» *Quarterly Journal of Economics* 118: 1209–48 (2003); G. Loewenstein and E. Angner, «Predicting and Indulging Changing Preferences,» in *Time and Decision*, ed. G. Loewenstein, D. Read, and R. F. Baumeister (New York: Russell Sage Foundation, 2003), 351–91; L. van Boven, D. Dunning, and G. F. Loewenstein, «Egocentric Empathy Gaps Between Owners and Buyers: Misperceptions of the Endowment Effect,» *Journal of Personality and Social Psychology* 79: 66–76 (2000).

(169) R. E. Nisbett and D. E. Kanouse, «Obesity, Food Deprivation and Supermarket Shopping Behavior,» *Journal of Personality and Social Psychology* 12: 289–94 (1969); D. Read and B. van Leeuwen, «Predicting Hunger: The Effects of Appetite and Delay on Choice,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 76: 189–205 (1998).

(170) G. F. Loewenstein, D. Prelec, and C. Shatto, «Hot/Cold Intrapersonal Empathy Gaps and the Under-prediction of Curiosity» (unpublished manuscript, Carnegie-Mellon University 1998), cited in G. F. Loewenstein, «The Psychology of Curiosity: A Review and Reinterpretation,» *Psychological Bulletin* 116: 75–98 (1994).

(171) S. M. Kosslyn et al., «The Role of Area 17 in Visual Imagery: Convergent Evidence from PET and rTMS,» *Science* 284: 167–70 (1999).

(172) P. K. McGuire, G. M. S. Shah, and R. M. Murray, «Increased Blood Flow in Broca's Area During Auditory Hallucinations in Schizophrenia,» *Lancet* 342: 703–6 (1993).

(173) B. D. J. Kavanagh, J. Andrade, and J. May, «Imaginary Relish and Exquisite Torture: The Elaborated Intrusion Theory of Desire,» *Psychological Review* 112: 446–67 (2005).

(174) A. K. Anderson and E. A. Phelps, «Lesions of the Human Amygdala Impair Enhanced Perception of Emotionally Salient Events,» *Nature* 411: 305–9 (2001); E. A. Phelps et al., «Activation of the Left Amygdala to a Cognitive Representation of Fear,» *Nature Neuroscience* 4: 437–41 (2001); and H. C. Breiter et al., «Functional Imaging of Neural Responses to Expectancy and Experience of Monetary Gains and Losses,» *Neuron* 30 (2001).

(175) حسب ما أذكر، استخدمت كلمة الشعور المسبق أول مرة كعنوان لأغنية في اليوم أغاني بعنوان:

Prize, by Arto Lindsay. See also C. M. Atance and D. K. O'Neill, «Episodic Future Thinking,» *Trends in Cognitive Sciences* 5: 533–39 (2001).

(176) T. D. Wilson et al., «Introspecting About Reasons Can Reduce Post-Choice Satisfaction,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 19: 331–39 (1993). See

also T. D. Wilson and J. W. Schooler, «Thinking Too Much: Introspection Can Reduce the Quality of Preferences and Decisions,» *Journal of Personality and Social Psychology* 60: 181–92 (1991).

(177) C. N. DeWall and R. F. Baumeister, «Alone but Feeling No Pain: Effects of Social Exclusion on Physical Pain Tolerance and Pain Threshold, Affective Forecasting, and Interpersonal Empathy,» *Journal of Personality and Social Psychology* (in press).

(178) D. Reisberg et al., ««Enacted» Auditory Images Are Ambiguous; «Pure» Auditory Images Are Not,» *Quarterly Journal of Experimental Psychology: Human Experimental Psychology* 41: 619–41 (1989).

(179) استطاع علماء النفس البارعين تصميم ظروف غير اعتيادية توفر استثناءات لهذه القاعدة: أنظر:

C. W. Perky, «An Experimental Study of Imagination,» *American Journal of Psychology* 21: 422–52 (1910).

ومن الجدير بالذكر أيضا أننا لا نستطيع التمييز بين ما رأينا وما تخيلنا في الماضي في حين أنه بوسعنا التمييز غالبا بين ما نرى وتخيّل في الحاضر؛ أنظر:

M. K. Johnson and C. L. Raye, «Reality Monitoring,» *Psychological Review* 88: 67–85 (1981).

(180) N. Schwarz and G. L. Clore, «Mood, Misattribution, and Judgments of Well-Being: Informative and Directive Functions of Affective States,» *Journal of Personality and Social Psychology* 45: 513–23 (1983).

(181) L. van Boven and G. Loewenstein, «Social Projection of Transient Drive States,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 29: 1159–68 (2003).

(182) A. K. MacLeod and M. L. Cropley, «Anxiety, Depression, and the Anticipation of Future Positive and Negative Experiences,» *Journal of Abnormal Psychology* 105: 286–89 (1996).

(183) E. J. Johnson and A. Tversky, «Affect, Generalization, and the Perception of Risk,» *Journal of Personality and Social Psychology* 45: 20–31 (1983); and D. DeSteno et al., «Beyond Valence in the Perception of Likelihood: The Role of Emotion Specificity,» *Journal of Personality and Social Psychology* 78: 397–416 (2000).

الفصل السابع: قنابل الزمن

- (184) M. Hegarty, «Mechanical Reasoning by Mental Simulation,» *Trends in Cognitive Sciences* 8: 280–85 (2004).
- (185) G. Lakoff and M. Johnson, *Metaphors We Live By* (Chicago: University of Chicago Press, 1980).
- (186) D. Gentner, M. Imai, and L. Boroditsky, «As Time Goes By: Evidence for Two Systems in Processing Space Time Metaphors,» *Language and Cognitive Processes* 17: 537–65 (2002); and L. Boroditsky, «Metaphoric Structuring: Understanding Time Through Spatial Metaphors,» *Cognition* 75: 1–28 (2000).
- (187) B. Tversky, S. Kugelmass, and A. Winter, «Cross-Cultural and Developmental Trends in Graphic Productions,» *Cognitive Psychology* 23: 515–57 (1991).
- (188) L. Boroditsky, «Does Language Shape Thought? Mandarin and English Speakers' Conceptions of Time,» *Cognitive Psychology* 43: 1–22 (2001).
- (189) R. K. Ratner, B. E. Kahn, and D. Kahneman, «Choosing Less-Preferred Experiences for the Sake of Variety,» *Journal of Consumer Research* 26: 1–15 (1999).
- (190) D. Read and G. F. Loewenstein, «Diversification Bias: Explaining the Discrepancy in Variety Seeking Between Combined and Separated Choices,» *Journal of Experimental Psychology: Applied* 1: 34–49 (1995). See also I. Simonson, «The Effect of Purchase Quantity and Timing on Variety-Seeking Behavior,» *Journal of Marketing Research* 27: 150–62 (1990).
- (191) T. D. Wilson and D. T. Gilbert, «Making Sense: A Model of Affective Adaptation» (unpublished manuscript, University of Virginia, 2005).

(192) الانسان ليس الحيوان الوحيد الذي يحب التنوع. ظهرت تسمية تأثير كوليدج The Coolidge effect عندما كان الرئيس كلفن كوليدج وزوجته يقومان بجولة في المزرعة. أشار رئيس العمال إلى القدرة الجنسية لديه الفائز بالجائزة قائلا: «يمكن لهذا الديك أن يمارس الجنس طوال اليوم دون توقف». فقالت السيدة كوليدج: «حقا؟ أرجوك أخبر زوجي بهذا». التفت الرئيس إلى كبير العمال وسأله: «هل يضاجع الديك نفس الدجاجة في كل مرة؟». فقال كبير العمال: «كلا، دائما مع دجاجة مختلفة». فأجاب الرئيس: «حقا؟ أرجوك قل هذا لزوجتي». قد تكون القصة مختلفة لكن الظاهرة ليست كذلك. فالتديبات الذكور الذين يتزاوجون حد الانهاك يمكن حثهم على التزاوج مجددا لو كان ذلك مع أنثى جديدة؛ أنظر:

J. Wilson, R. Kuehn, and F. Beach, «Modifications in the Sexual Behavior of Male Rats Produced by Changing the Stimulus Female,» *Journal of Comparative and Physiological Psychology* 56: 636-44 (1963).

في الواقع، حتى الثيران التي تتم تربيتها ونجفح منيها بواسطة آلة تتطلب وقتاً أقل قبل القذف عندما يتم نقل الآلة التي أصبحت معادة عليها إلى مكان آخر.

E. B. Hale and J. O. Almquist, «Relation of Sexual Behavior to Germ Cell Output in Farm Animals,» *Journal of Dairy Science* 43: Supp., 145-67 (1960).

(193) من الجدير بالذكر أننا لو غيرنا افتراضاتنا (تحديداً الافتراض المألوف)، يمكن أن يكون تبادل الأطباق، في النقطة التي فقدنا فيها متعتنا بوجبتنا المفضلة بالضبط، استراتيجية ضعيفة لمضاعفة المتعة على المدى البعيد؛

R. J. Herrnstein, *The Matching Law: Papers in Psychology and Economics*, ed. H. Rachlin and D. I. Laibson (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1997).

(194) أريد أن أستغل هذه الفرصة لأشير إلى أنه على الرغم من تركيزي الظاهري على سعاة البريد الخائنين الذي يدل على روح دعاية الطفل التي لازلت أحتفظ بها، إلا أن المثال الذي أوردته مختلق تماماً ولا أنوي به الإساءة إلى العديد من سعاة البريد الرائعين والزوجات الرائعات الذين أعرفهم

(195) D. T. Gilbert, «Inferential Correction,» in *Heuristics and Biases: The Psychology of Intuitive Judgment*, ed. T. Gilovich, D. W. Griffin, and D. Kahneman (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), 167-84.

(196) A. Tversky and D. Kahneman, «Judgment Under Uncertainty: Heuristics and Biases,» *Science* 185: 1124-31 (1974).

(197) N. Epley and T. Gilovich, «Putting Adjustment Back in the Anchoring and Adjustment Heuristic: Differential Processing of Self-Generated and Experimenter-Provided Anchors,» *Psychological Science* 12: 391-96 (2001).

(198) D. T. Gilbert, M. J. Gill, and T. D. Wilson, «The Future Is Now: Temporal Correction in Affective Forecasting,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 88: 430-44 (2002).

(199) See also J. E. J. Ebert, «The Role of Cognitive Resources in the Valuation of Near and Far Future Events,» *Acta Psychologica* 108: 155-71 (2001). 17. G. F. Loewenstein and D. Prelec, «Preferences for Sequences of Outcomes,» *Psychological Review* 100: 91-108 (1993).

(200) G. F. Loewenstein and D. Prelec, «Preferences for Sequences of Outcomes,» *Psychological Review* 100: 91–108 (1993).

(201) D. Kahneman and A. Tversky, «Prospect Theory: An Analysis of Decision Under Risk,» *Econometrica* 47: 263–91 (1979).

(202) J. W. Pratt, D. A. Wise, and R. Zeckhauser, «Price Differences in Almost Competitive Markets,» *Quarterly Journal of Economics* 93: 189–211 (1979); A. Tversky and D. Kahneman, «The Framing of Decisions and the Psychology of Choice,» *Science* 211: 453–58 (1981); R. H. Thaler, «Toward a Positive Theory of Consumer Choice,» *Journal of Economic Behavior and Organization* 1: 39–60 (1980).

(203) R. H. Thaler, «Mental Accounting Matters,» *Journal of Behavioral Decision Making* 12: 183–206 (1999).

(204) R. B. Cialdini et al., «Reciprocal Concessions Procedure for Inducing Compliance: The Door-in-the-Face Technique,» *Journal of Personality and Social Psychology* 31: 206–15 (1975)

هناك بعض الجدل حول ما إذا كان هذا التأثير بسبب التناقض بين الطلبات الكبيرة والصغيرة. أنظر:

J. P. Dillard, «The Current Status of Research on Sequential-Request Compliance Techniques,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 17: 283–88 (1991).

(205) D. Kahneman and D. T. Miller, «Norm Theory: Comparing Reality to Its Alternatives,» *Psychological Review* 93: 136–53 (1986).

(206) O. E. Tykocinski and T. S. Pittman, «The Consequences of Doing Nothing: Inaction Inertia as Avoidance of Anticipated Counterfactual Regret,» *Journal of Personality and Social Psychology* 75: 607–16 (1998); and O. E. Tykocinski, T. S. Pittman, and E. E. Tuttle, «Inaction Inertia: Forgoing Future Benefits as a Result of an Initial Failure to Act,» *Journal of Personality and Social Psychology* 68: 793–803 (1995).

(207) D. Kahneman and A. Tversky, «Choices, Values, and Frames,» *American Psychologist* 39: 341–50 (1984).

(208) I. Simonson and A. Tversky, «Choice in Context: Tradeoff Contrast and Extremeness Aversion,» *Journal of Marketing Research* 29: 281–95 (1992).

(209) R. B. Cialdini, *Influence: Science and Practice* (Glenview, Ill.: Scott, Foresman,

(1985

(210) D. A. Redelmeier and E. Shafir, «Medical Decision Making in Situations That Offer Multiple Alternatives,» *JAMA: Journal of the American Medical Association* 273: 302–5 (1995).

(211) S. S. Iyengar and M. R. Lepper, «When Choice Is Demotivating: Can One Desire Too Much of a Good Thing?» *Journal of Personality and Social Psychology* 79: 995–1006 (2000); and B. Schwartz, «Self-Determination: The Tyranny of Freedom,» *American Psychologist* 55: 79–88 (2000).

(212) A. Tversky, S. Sattath, and P. Slovic, «Contingent Weighting in Judgment and Choice,» *Psychological Review* 95: 371–84 (1988).

(213) C. K. Hsee et al., «Preference Reversals Between Joint and Separate Evaluations of Options: A Review and Theoretical Analysis,» *Psychological Bulletin* 125: 576–90 (1999).

(214) C. Hsee, «The Evaluability Hypothesis: An Explanation for Preference Reversals Between Joint and Separate Evaluations of Alternatives,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 67: 247–57 (1996).

(215) J. R. Priester, U. M. Dholakia, and M. A. Fleming, «When and Why the Background Contrast Effect Emerges: Thought Engenders Meaning by Influencing the Perception of Applicability,» *Journal of Consumer Research* 31: 491–501 (2004).

(216) K. Myrseth, C. K. Morewedge, and D. T. Gilbert, unpublished raw data, Harvard University, 2004.

(217) D. Kahneman and A. Tversky, «Prospect Theory: An Analysis of Decision Under Risk,» *Econometrica* 47: 263–91 (1979); A. Tversky and D. Kahneman, «The Framing of Decisions and the Psychology of Choice,» *Science* 211: 453–58 (1981); and A. Tversky and D. Kahneman, «Loss Aversion in Riskless Choice: A Reference-Dependent Model,» *Quarterly Journal of Economics* 106: 1039–61 (1991).

(218) D. Kahneman, J. L. Knetsch, and R. H. Thaler, «Experimental Tests of the Endowment Effect and the Coase Theorem,» *Journal of Political Economy* 98: 1325–48 (1990); and D. Kahneman, J. Knetsch, and R. H. Thaler, «The Endowment Effect, Loss Aversion, and Status Quo Bias,» *Journal of Economic Perspectives* 5: 193–206 (1991).

(219) L. van Boven, D. Dunning, and G. F. Loewenstein, «Egocentric Empathy Gaps Between Owners and Buyers: Misperceptions of the Endowment Effect,» *Journal of Personality and Social Psychology* 79: 66–76 (2000); and Z. Carmon and D. Ariely, «Focusing on the Foregone: How Value Can Appear So Different to Buyers and Sellers,» *Journal of Consumer Research* 27: 360–70 (2000).

(220) L. Hunt, «Against Presentism,» *Perspectives* 40 (2002).

الفصل الثامن: اللجنة اللامعة

(221) C. B. Wortman and R. C. Silver, «The Myths of Coping with Loss,» *Journal of Consulting and Clinical Psychology* 57: 349–57 (1989); G. A. Bonanno, «Loss, Trauma, and Human Resilience: Have We Underestimated the Human Capacity to Thrive After Extremely Aversive Events?» *American Psychologist* 59: 20–28 (2004); and C. S. Carver, «Resilience and Thriving: Issues, Models, and Linkages,» *Journal of Social Issues* 54: 245–66 (1998).

(222) G. A. Bonanno and S. Kaltman, «Toward an Integrative Perspective on Bereavement,» *Psychological Bulletin* 125: 760–76 (1999); and G. A. Bonanno et al., «Resilience to Loss and Chronic Grief: A Prospective Study from Preloss to 18- Months Postloss,» *Journal of Personality and Social Psychology* 83: 1150–64 (2002).

(223) E. J. Ozer et al., «Predictors of Posttraumatic Stress Disorder and Symptoms in Adults: A Meta-analysis,» *Psychological Bulletin* 129: 52–73 (2003).

(224) G. A. Bonanno, C. Rennieke, and S. Dekel, «Self-Enhancement Among High-Exposure Survivors of the September 11th Terrorist Attack: Resilience or Social Maladjustment?» *Journal of Personality and Social Psychology* 88: 984–98 (2005).

(225) R. G. Tedeschi and L. G. Calhoun, «Posttraumatic Growth: Conceptual Foundations and Empirical Evidence,» *Psychological Inquiry* 15: 1–18 (2004); P. A. Linley and S. Joseph, «Positive Change Following Trauma and Adversity: A Review,» *Journal of Traumatic Stress* 17: 11–21 (2004); and C. S. Carver, «Resilience and Thriving: Issues, Models, and Linkages,» *Journal of Social Issues* 54: 245–66 (1998).

(226) K. Sack, «After 37 Years in Prison, Inmate Tastes Freedom,» *New York Times*, 11 January 1996, 18.

(227) C. Reeve, Ohio State University commencement speech, 13 June 2003.

(228) D. Becker, «Cycling Through Adversity: Ex-World Champ Stays on Cancer Comeback Course,» *USA Today*, 22 May 1998, 3C.

(229) R. G. Tedeschi and L. G. Calhoun, *Trauma and Transformation: Growing in the Aftermath of Suffering* (Sherman Oaks, Calif.: Sage, 1995), 1.

(230) R. Schulz and S. Decker, «Long-Term Adjustment to Physical Disability: The Role of Social Support, Perceived Control, and Self-Blame,» *Journal of Personality and Social Psychology* 48: 1162–72 (1985); C. B. Wortman and R. C. Silver, «Coping with Irrevocable Loss,» in *Cataclysms, Crises, and Catastrophes: Psychology in Action*, ed. G. R. VandenBos and B. K. Bryant (Washington, D.C.: American Psychological Association, 1987), 185–235; and P. Brickman, D. Coates, and R. J. Janoff-Bulman, «Lottery Winners and Accident Victims: Is Happiness Relative?» *Journal of Personality and Social Psychology* 36: 917–27 (1978).

(231) S. E. Taylor, «Adjustment to Threatening Events: A Theory of Cognitive Adaptation,» *American Psychologist* 38: 1161–73 (1983).

(232) D. T. Gilbert, E. Driver-Linn, and T. D. Wilson, «The Trouble with Vronsky: Impact Bias in the Forecasting of Future Affective States,» in *The Wisdom in Feeling: Psychological Processes in Emotional Intelligence*, ed. L. F. Barrett and P. Salovey (New York: Guilford Press, 2002), 114–43; and T. D. Wilson and D. T. Gilbert, «Affective Forecasting,» in *Advances in Experimental Social Psychology*, ed. M. Zanna, vol. 35 (New York: Elsevier, 2003).

(233) D. L. Sackett and G. W. Torrance, «The Utility of Different Health States as Perceived by the General Public,» *Journal of Chronic Disease* 31: 697–704 (1978); P. Dolan and D. Kahneman, «Interpretations of Utility and Their Implications for the Valuation of Health» (unpublished manuscript, Princeton University, 2005); and J. Riis et al., «Ignorance of Hedonic Adaptation to Hemo-Dialysis: A Study Using Ecological Momentary Assessment,» *Journal of Experimental Psychology: General* 134: 3–9 (2005).

(234) P. Menzela et al., «The Role of Adaptation to Disability and Disease in Health State Valuation: A Preliminary Normative Analysis,» *Social Science & Medicine* 55: 2149–58 (2002).

(235) P. Dolan, «Modelling Valuations for EuroQol Health States,» *Medical Care* 11: 1095–1108 (1997).

- (236) J. Jonides and H. Gleitman, «A Conceptual Category Effect in Visual Search: O as Letter or as Digit,» *Perception and Psychophysics* 12: 457–60 (1972).
- (237) C. M. Solley and J. F. Santos, «Perceptual Learning with Partial Verbal Reinforcement,» *Perceptual and Motor Skills* 8: 183–93 (1958); and E. D. Turner and W. Bevan, «Patterns of Experience and the Perceived Orientation of the Necker Cube,» *Journal of General Psychology* 70: 345–52 (1964).
- (238) D. Dunning, J. A. Meyerowitz, and A. D. Holzberg, «Ambiguity and Self-Evaluation: The Role of Idiosyncratic Trait Definitions in Self-Serving Assessments of Ability,» *Journal of Personality and Social Psychology* 57: 1–9 (1989).
- (239) C. K. Morewedge and D. T. Gilbert, unpublished raw data, Harvard University, 2004.
- (240) J. W. Brehm, «Post-decision Changes in Desirability of Alternatives,» *Journal of Abnormal and Social Psychology* 52: 384–89 (1956).
- (241) E. E. Lawler et al., «Job Choice and Post Decision Dissonance,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 13: 133–45 (1975).
- (242) S. Lyubomirsky and L. Ross, «Changes in Attractiveness of Elected, Rejected, and Precluded Alternatives: A Comparison of Happy and Unhappy Individuals,» *Journal of Personality and Social Psychology* 76: 988–1007 (1999).
- (243) R. E. Knox and J. A. Inkster, «Postdecision Dissonance at Post Time,» *Journal of Personality and Social Psychology* 8: 319–23 (1968).
- (244) O. J. Frenkel and A. N. Doob, «Post-decision Dissonance at the Polling Booth,» *Canadian Journal of Behavioural Science* 8: 347–50 (1976).
- (245) F. M. Voltaire, *Candide* (1759), chap. 1. I've never found an English translation that I like, so I've cobbled together my own. Pardon my French.
- (246) R. F. Baumeister, «The Optimal Margin of Illusion,» *Journal of Social and Clinical Psychology* 8: 176–89 (1989); S. E. Taylor, *Positive Illusions* (New York: Basic Books, 1989); S. E. Taylor and J. D. Brown, «Illusion and Well-Being: A Social-Psychological Perspective on Mental Health,» *Psychological Bulletin* 103: 193–210 (1988); Z. Kunda, «The Case for Motivated Reasoning,» *Psychological Bulletin* 108: 480–98 (1990); and T. Pyszczynski and J. Greenberg, «Toward an Integration of Cognitive and Motivational Perspectives on

Social Inference: A Biased Hypothesis-Testing Model,» in *Advances in Experimental Social Psychology*, ed. L. E. Berkowitz, vol. 20 (San Diego: Academic Press, 1987), 297–340.

(247) أطلق سيغموند فرويد وأنا فرويد على هذا الجهاز اسم «آليات دفاعية»، وكل عالم نفس تقريبا كتب عن ذلك الجهاز منحه اسما آخر. يمكن العثور على ملخص صدر مؤخرا عن أدبيات الدفاعات النفسية في:

D. L. Paulhus, B. Fridhandler, and S. Hayes, «Psychological Defense: Contemporary Theory and Research,» in *Handbook of Personality Psychology*, ed. R. Hogan, J. Johnson, and S. Briggs (San Diego: Academic Press, 1997), 543–79.

(248) W. B. Swann, B. W. Pelham, and D. S. Krull, «Agreeable Fancy or Disagreeable Truth? Reconciling Self-Enhancement and Self-Verification,» *Journal of Personality and Social Psychology* 57: 782–91 (1989); W. B. Swann, P. J. Rentfrow, and J. Guinn, «Self-Verification: The Search for Coherence,» in *Handbook of Self and Identity*, ed. M. Leary and J. Taguey (New York: Guilford Press, 2002), 367–83; and W. B. Swann, *Self-Traps: The Elusive Quest for Higher Self-Esteem* (New York: Freeman, 1996).

(249) W. B. Swann and B. W. Pelham, «Who Wants Out When the Going Gets Good? Psychological Investment and Preference for Self-Verifying College Roommates,» *Journal of Self and Identity* 1: 219–33 (2002).

(250) J. L. Freedman and D. O. Sears, «Selective Exposure,» in *Advances in Experimental Social Psychology*, ed. L. Berkowitz, vol. 2 (New York: Academic Press, 1965), 57–97; and D. Frey, «Recent Research on Selective Exposure to Information,» in *Advances in Experimental Social Psychology*, ed. L. Berkowitz, vol. 19 (New York: Academic Press, 1986), 41–80.

(251) D. Frey and D. Stahlberg, «Selection of Information After Receiving More or Less Reliable Self-Threatening Information,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 12: 434–41 (1986).

(252) B. Holton and T. Pyszczynski, «Biased Information Search in the Interpersonal Domain,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 15: 42–51 (1989).

(253) D. Ehrlich et al., «Postdecision Exposure to Relevant Information,» *Journal of Abnormal and Social Psychology* 54: 98–102 (1957).

(254) R. Sanitioso, Z. Kunda, and G. T. Fong, «Motivated Recruitment of Autobiographical Memories,» *Journal of Personality and Social Psychology* 59: 229–41 (1990).

(255) A. Tesser and S. Rosen, «Similarity of Objective Fate as a Determinant of the

Reluctance to Transmit Unpleasant Information: The MUM Effect,» *Journal of Personality and Social Psychology* 23: 46–53 (1972).

(256) M. Snyder and W. B. Swann, Jr., «Hypothesis Testing Processes in Social Interaction,» *Journal of Personality and Social Psychology* 36: 1202–12 (1978); and W. B. J. Swann, T. Giuliano, and D. M. Wegner, «Where Leading Questions Can Lead: The Power of Conjecture in Social Interaction,» *Journal of Personality and Social Psychology* 42: 1025–35 (1982).

(257) D. T. Gilbert and E. E. Jones, «Perceiver-Induced Constraint: Interpretations of Self-Generated Reality,» *Journal of Personality and Social Psychology* 50: 269–80 (1986).

(258) L. Festinger, «A Theory of Social Comparison Processes,» *Human Relations* 7: 117–40 (1954); A. Tesser, M. Millar, and J. Moore, «Some Affective Consequences of Social Comparison and Reflection Processes: The Pain and Pleasure of Being Close,» *Journal of Personality and Social Psychology* 54: 49–61 (1988); S. E. Taylor and M. Lobel, «Social Comparison Activity Under Threat: Downward Evaluation and Upward Contacts,» *Psychological Review* 96: 569–75 (1989); and T. A. Wills, «Downward Comparison Principles in Social Psychology,» *Psychological Bulletin* 90: 245–71 (1981).

(259) T. Pyszczynski, J. Greenberg, and J. LaPrelle, «Social Comparison After Success and Failure: Biased Search for Information Consistent with a Self-Servicing Conclusion,» *Journal of Experimental Social Psychology* 21: 195–211 (1985).

(260) J. V. Wood, S. E. Taylor, and R. R. Lichtman, «Social Comparison in Adjustment to Breast Cancer,» *Journal of Personality and Social Psychology* 49: 1169–83 (1985).

(261) S. E. Taylor et al., «Social Support, Support Groups, and the Cancer Patient,» *Journal of Consulting and Clinical Psychology* 54: 608–15 (1986).

(262) A. Tesser and J. Smith, «Some Effects of Task Relevance and Friendship on Helping: You Don't Always Help the One You Like,» *Journal of Experimental Social Psychology* 16: 582–90 (1980).

(263) A. H. Hastorf and H. Cantril, «They Saw a Game: A Case Study,» *Journal of Abnormal and Social Psychology* 49: 129–34 (1954).

(264) L. Sigelman and C. K. Sigelman, «Judgments of the Carter-Reagan Debate: The Eyes of the Beholders,» *Public Opinion Quarterly* 48: 624–28 (1984); R. K. Bothwell and J. C.

Brigham, «Selective Evaluation and Recall During the 1980 Reagan-Carter Debate,» *Journal of Applied Social Psychology* 13: 427-42 (1983); J. G. Payne et al., «Perceptions of the 1988 Presidential and Vice-Presidential Debates,» *American Behavioral Scientist* 32: 425-35 (1989); and G. D. Munro et al., «Biased Assimilation of Sociopolitical Arguments: Evaluating the 1996 U.S. Presidential Debate,» *Basic and Applied Social Psychology* 24: 15-26 (2002).

(265) R. P. Vallone, L. Ross, and M. R. Lepper, «The Hostile Media Phenomenon: Biased Perception and Perceptions of Media Bias in Coverage of the Beirut Massacre,» *Journal of Personality and Social Psychology* 49: 577-85 (1985).

(266) C. G. Lord, L. Ross, and M. R. Lepper, «Biased Assimilation and Attitude Polarization: The Effects of Prior Theories on Subsequently Considered Evidence,» *Journal of Personality and Social Psychology* 37: 2098-109 (1979).

(267) ليس من المريح القول بأن العلماء المعترف بهم والذين لازالوا تحت التدريب أظهروا النزعة ذاتها نحو تفضيل الوسائل التي أنتجت الاستنتاجات المحبذة. أنظر:

J. J. Koehler, «The Influence of Prior Beliefs on Scientific Judgments of Evidence Quality,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 56: 28-55 (1993).

(268) T. Pyszczynski, J. Greenberg, and K. Holt, «Maintaining Consistency Between Self-Serving Beliefs and Available Data: A Bias in Information Evaluation,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 11: 179-90 (1985).

(269) P. H. Ditto and D. F. Lopez, «Motivated Skepticism: Use of Differential Decision Criteria for Preferred and Nonpreferred Conclusions,» *Journal of Personality and Social Psychology* 63: 568-84 (1992).

(270) المرجع ذاته.

(271) T. Gilovich, *How We Know What Isn't So: The Fallibility of Human Reason in Everyday Life* (New York: Free Press, 1991).

(272) قد يكون لهذه النزعة تبعات كارثية. على سبيل المثال: سنة 2004، استنتجت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ أن السي اي اي زودت البيت الأبيض بمعلومات خاطئة عن أسلحة الدمار الشامل للعراق التي أذت بالولايات المتحدة لإجتياح العراق. حسب التقرير، «دفعت» نزعة التلاعب بالحقائق «بمحلي لجنة الاستخبارات وجامعي المعلومات والمديرين إلى تأويل قريبة غامضة كدليل حاسم على برنامج لأسلحة الدمار الشامل وكذلك تجاهل أو التقليل من القرينة الدالة على أن العراق لا ملك برامج لأسلحة دمار شامل نشيطة وواسعة النطاق.»

K. P. Shrader, «Report: War Rationale Based on CIA Error,» Associated Press, 9 July 2004.

(273) Agence-France-Presse, «Italy: City Wants Happier Goldfish,» *New York Times*, 24 July 2004, A5.

الفصل التاسع: بمنأى عن الواقع

(274) T. D. Wilson, *Strangers to Ourselves: Discovering the Adaptive Unconscious* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2002); and J. A. Bargh and T. L. Chartrand, «The Unbearable Automaticity of Being,» *American Psychologist* 54: 462–79 (1999).

(275) R. E. Nisbett and T. D. Wilson, «Telling More Than We Can Know: Verbal Reports on Mental Processes,» *Psychological Review* 84: 231–59 (1977); D. J. Bem, «Self-Perception Theory,» in *Advances in Experimental Social Psychology*, ed. L. Berkowitz, vol. 6 (New York: Academic Press, 1972), 1–62; M. S. Gazzaniga, *The Social Brain* (New York: Basic Books, 1985); and D. M. Wegner, *The Illusion of Conscious Will* (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2003).

(276) E. T. Higgins, W. S. Rholes, and C. R. Jones, «Category Accessibility and Impression Formation,» *Journal of Experimental Social Psychology* 13: 141–54 (1977).

(277) J. Bargh, M. Chen, and L. Burrows. «Automaticity of Social Behavior: Direct Effects of Trait Construct and Stereotype Activation on Action,» *Journal of Personality and Social Psychology* 71: 230–44 (1996).

(278) A. Dijksterhuis and A. van Knippenberg, «The Relation Between Perception and Behavior, or How to Win a Game of Trivial Pursuit,» *Journal of Personality and Social Psychology* 74: 865–77 (1998).

(279) Nisbett and Wilson, «Telling More Than We Can Know.»

(280) J. W. Schooler, D. Ariely, and G. Loewenstein, «The Pursuit and Assessment of Happiness Can Be Self-Defeating,» in *The Psychology of Economic Decisions: Rationality and Well-Being*, ed. I. Brocas and J. Carillo, vol. 1 (Oxford: Oxford University Press, 2003).

(281) K. N. Ochsner et al., «Rethinking Feelings: An fMRI Study of the Cognitive Regulation of Emotion,» *Journal of Cognitive Neuroscience* 14: 1215–29 (2002).

(282) D. M. Wegner, R. Erber, and S. Zanakos, «Ironic Processes in the Mental Control of

Mood and Mood-Related Thought,» *Journal of Personality and Social Psychology* 65: 1093–104 (1993); and D. M. Wegner, A. Broome, and S. J. Blumberg, «Ironic Effects of Trying to Relax Under Stress,» *Behaviour Research and Therapy* 35: 11–21 (1997).

(283) D. T. Gilbert et al., «Immune Neglect: A Source of Durability Bias in Affective Forecasting,» *Journal of Personality and Social Psychology* 75: 617–38 (1998).

(284) المرجع ذاته.

(285) D. T. Gilbert et al., «Looking Forward to Looking Backward: The Misprediction of Regret,» *Psychological Science* 15: 346–50 (2004).

(286) M. Curtiz, *Casablanca*, Warner Bros., 1942.

(287) T. Gilovich and V. H. Medvec, «The Experience of Regret: What When, and Why,» *Psychological Review* 102: 379–95 (1995); N. Roese, *If Only: How to Turn Regret into Opportunity* (New York: Random House 2004); G. Loomes and R. Sugden, «Regret Theory: An Alternative Theory of Rational Choice Under Uncertainty,» *Economic Journal* 92: 805–24 (1982); and D. Bell, «Regret in Decision Making Under Uncertainty,» *Operations Research* 20: 961–81 (1982).

(288) I. Ritov and J. Baron, «Outcome Knowledge, Regret, and Omission Bias,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 64: 119–27 (1995); I. Ritov and J. Baron, «Probability of Regret: Anticipation of Uncertainty Resolution in Choice: Outcome Knowledge, Regret, and Omission Bias,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 66: 228–36 (1996); and M. Zeelenberg, «Anticipated Regret, Expected Feedback and Behavioral Decision Making,» *Journal of Behavioral Decision Making* 12: 93–106 (1999).

(289) M. T. Crawford et al., «Reactance, Compliance, and Anticipated Regret,» *Journal of Experimental Social Psychology* 38: 56–63 (2002).

(290) I. Simonson, «The Influence of Anticipating Regret and Responsibility on Purchase Decisions,» *Journal of Consumer Research* 19: 105–18 (1992).

(291) V. H. Medvec, S. F. Madey, and T. Gilovich, «When Less Is More: Counterfactual Thinking and Satisfaction Among Olympic Medalists,» *Journal of Personality and Social Psychology* 69: 603–10 (1995); and D. Kahneman and A. Tversky, «Variants of Uncertainty,» *Cognition* 11: 143–57 (1982).

- (292) D. Kahneman and A. Tversky, «The Psychology of Preferences,» *Scientific American* 246: 160–73 (1982).
- (293) Gilovich and Medvec, «The Experience of Regret.»
- (294) T. Gilovich, V. H. Medvec, and S. Chen, «Omission, Commission, and Dissonance Reduction: Overcoming Regret in the Monty Hall Problem,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 21: 182–90 (1995).
- (295) H. B. Gerard and G. C. Mathewson, «The Effects of Severity of Initiation on Liking for a Group: A Replication,» *Journal of Experimental Social Psychology* 2:278–87 (1966)
- (296) P. G. Zimbardo, «Control of Pain Motivation by Cognitive Dissonance,» *Science* 151: 217–19 (1966).
- (297) See also E. Aronson and J. Mills, «The Effect of Severity of Initiation on Liking for a Group,» *Journal of Abnormal and Social Psychology* 59: 177–81 (1958); J. L. Freedman, «Long-Term Behavioral Effects of Cognitive Dissonance,» *Journal of Experimental Social Psychology* 1: 145–55 (1965); D. R. Shaffer and C. Hendrick, «Effects of Actual Effort and Anticipated Effort on Task Enhancement,» *Journal of Experimental Social Psychology* 7: 435–47 (1971); H. R. Arkes and C. Blumer, «The Psychology of Sunk Cost,» *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 35: 124–40 (1985); and J. T. Jost et al. «Social Inequality and the Reduction of Ideological Dissonance on Behalf of the System: Evidence of Enhanced System Justification Among the Disadvantaged,» *European Journal of Social Psychology* 33: 13–36 (2003).
- (298) D. T. Gilbert et al., «The Peculiar Longevity of Things Not So Bad,» *Psychological Science* 15: 14–19 (2004).
- (299) D. Frey et al., «Re-evaluation of Decision Alternatives Dependent upon the Reversibility of a Decision and the Passage of Time,» *European Journal of Social Psychology* 14: 447–50 (1984); and D. Frey, «Reversible and Irreversible Decisions: Preference for Consonant Information as a Function of Attractiveness of Decision Alternatives,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 7: 621–26 (1981).
- (300) S. Wiggins et al., «The Psychological Consequences of Predictive Testing for Huntington's Disease,» *New England Journal of Medicine* 327: 1401–5 (1992).
- (301) D. T. Gilbert, and J. E. J. Ebert, «Decisions and Revisions: The Affective Forecasting

of Changeable Outcomes,» *Journal of Personality and Social Psychology* 82: 503–14 (2002).

(302) J. W. Brehm, *A Theory of Psychological Reactance* (New York: Academic Press, 1966).

(303) R. B. Cialdini, *Influence: Science and Practice* (Glenview, Ill.: Scott, Foresman, 1985).

(304) S. S. Iyengar and M. R. Lepper, «When Choice Is Demotivating: Can One Desire Too Much of a Good Thing?» *Journal of Personality and Social Psychology* 79: 995–1006 (2000); and B. Schwartz, «Self-Determination: The Tyranny of Freedom,» *American Psychologist* 55: 79–88 (2000).

(305) J. W. Pennebaker, «Writing About Emotional Experiences as a Therapeutic Process,» *Psychological Science* 8: 162–66 (1997).

(306) J. W. Pennebaker, T. J. Mayne, and M. E. Francis, «Linguistic Predictors of Adaptive Bereavement,» *Journal of Personality and Social Psychology* 72: 863–71 (1997).

(307) T. D. Wilson et al., «The Pleasures of Uncertainty: Prolonging Positive Moods in Ways People Do Not Anticipate,» *Journal of Personality and Social Psychology* 88: 5–21 (2005).

(308) B. Fischhoff, «Hindsight \neq foresight: The Effects of Outcome Knowledge on Judgment Under Uncertainty,» *Journal of Experimental Psychology: Human Perception and Performance* 1: 288–99 (1975); and C. A. Anderson, M. R. Lepper, and L. Ross, «Perseverance of Social Theories: The Role of Explanation in the Persistence of Discredited Information,» *Journal of Personality and Social Psychology* 39: 1037–49 (1980).

(309) B. Weiner, ««Spontaneous» Causal Thinking,» *Psychological Bulletin* 97: 74–84 (1985); and R. R. Hassin, J. A. Bargh, and J. S. Uleman, «Spontaneous Causal Inferences,» *Journal of Experimental Social Psychology* 38: 515–22 (2002).

(310) B. Zeigarnik, «Das Behalten erledigter und unerledigter Handlungen,» *Psychologische Forschung* 9: 1–85 (1927); and G. W. Boguslavsky, «Interruption and Learning,» *Psychological Review* 58: 248–55 (1951).

(311) Wilson et al., «Pleasures of Uncertainty.»

(312) J. Keats, letter to Richard Woodhouse, 27 October 1881, in *Selected Poems and Letters by John Keats*, ed. D. Bush (Boston: Houghton Mifflin, 1959).

الفصل العاشر: لا يُلدغ المؤمن من جحر مزتين

(313) D. Wirtz et al., «What to Do on Spring Break? The Role of Predicted, On-line, and Remembered Experience in Future Choice,» *Psychological Science* 14: 520–24 (2003); and S. Bluck et al., «A Tale of Three Functions: The Self-Reported Use of Autobiographical Memory,» *Social Cognition* 23: 91–117 (2005).

(314) A. Tversky and D. Kahneman, «Availability: A Heuristic for Judgment Frequency and Probability,» *Cognitive Psychology* 5: 207–32 (1973).

(315) L. J. Sanna and N. Schwarz, «Integrating Temporal Biases: The Interplay of Focal Thoughts and Accessibility Experiences,» *Psychological Science* 15: 474–81 (2004).

(316) R. Brown and J. Kulik, «Flashbulb Memories,» *Cognition* 5: 73–99 (1977); and P. H. Blaney, «Affect and Memory: A Review,» *Psychological Bulletin* 99: 229–46 (1986).

(317) D. T. Miller and B. R. Taylor, «Counterfactual Thought, Regret and Superstition: How to Avoid Kicking Yourself,» in *What Might Have Been: The Social Psychology of Counterfactual Thinking*, ed. N. J. Roese and J. M. Olson (Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum, 1995), 305–31; and J. Kruger, D. Wirtz, and D. T. Miller, «Counterfactual Thinking and the First Instinct Fallacy,» *Journal of Personality and Social Psychology* 88: 725–35 (2005).

(318) R. Buehler and C. McFarland, «Intensity Bias in Affective Forecasting: The Role of Temporal Focus,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 27: 1480–93 (2001).

(319) C. K. Morewedge, D. T. Gilbert, and T. D. Wilson, «The Least Likely of Times: How Memory for Past Events Biases the Prediction of Future Events,» *Psychological Science* 16: 626–30 (2005).

(320) B. L. Fredrickson and D. Kahneman, «Duration Neglect in Retrospective Evaluations of Affective Episodes,» *Journal of Personality and Social Psychology* 65: 45–55 (1993); and D. Ariely and Z. Carmon, «Summary Assessment of Experiences: The Whole Is Different from the Sum of Its Parts,» in *Time and Decision*, ed. G. Loewenstein, D. Read, and R. F. Baumeister (New York: Russell Sage Foundation, 2003), 323–49.

- (321) W. M. Lepley, «Retention as a Function of Serial Position,» *Psychological Bulletin* 32: 730 (1935); B. B. Murdock, «The Serial Position Effect of Free Recall,» *Journal of Experimental Psychology* 64: 482–88 (1962); and T. L. White and M. Treisman, «A Comparison of the Encoding of Content and Order in Olfactory Memory and in Memory for Visually Presented Verbal Materials,» *British Journal of Psychology* 88: 459–72 (1997).
- (322) N. H. Anderson, «Serial Position Curves in Impression Formation,» *Journal of Experimental Psychology* 97: 8–12 (1973).
- (323) D. Kahneman et al., «When More Pain Is Preferred to Less: Adding a Better Ending,» *Psychological Science* 4: 401–5 (1993).
- (324) J. J. Christensen-Szalanski, «Discount Functions and the Measurement of Patients' Values: Women's Decisions During Childbirth,» *Medical Decision Making* 4: 47–58 (1984).
- (325) D. Holmberg and J. G. Holmes, «Reconstruction of Relationship Memories: A Mental Models Approach,» in *Autobiographical Memory and the Validity of Retrospective Reports*, ed. N. Schwarz and N. Sudman (New York: Springer-Verlag, 1994), 267–88; and C. McFarland and M. Ross, «The Relation Between Current Impressions and Memories of Self and Dating Partners,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 13: 228–38 (1987).
- (326) William Shakespeare, *King Richard II*, act 2, scene 1 (1594–96; London: Penguin Classics, 1981).
- (327) D. Kahneman, «Objective Happiness,» in *Well-Being: The Foundations of Hedonic Psychology*, ed. D. Kahneman, E. Diener, and N. Schwarz (New York: Russell Sage Foundation, 1999), 3–25.
- (328) See «Well-Being and Time,» in J. D. Velleman, *The Possibility of Practical Reason* (Oxford: Oxford University Press, 2000).
- (329) E. Diener, D. Wirtz, and S. Oishi, «End Effects of Rated Quality of Life: The James Dean Effect,» *Psychological Science* 12: 124–28 (2001).
- (330) M. D. Robinson and G. L. Clore, «Belief and Feeling: Evidence for an Accessibility Model of Emotional Self-Report,» *Psychological Bulletin* 128: 934 – 60 (2002); and L. J. Levine and M. A. Safer, «Sources of Bias in Memory for Emotions,» *Current Directions in Psychological Science* 11: 169–73 (2002).

- (331) M. D. Robinson and G. L. Clore, «Episodic and Semantic Knowledge in Emotional Self-Report: Evidence for Two Judgment Processes,» *Journal of Personality and Social Psychology* 83: 198–215 (2002).
- (332) M. D. Robinson, J. T. Johnson, and S. A. Shields, «The Gender Heuristic and the Database: Factors Affecting the Perception of Gender-Related Differences in the Experience and Display of Emotions,» *Basic and Applied Social Psychology* 20: 206–19 (1998).
- (333) C. McFarland, M. Ross, and N. DeCourville, «Women's Theories of Menstruation and Biases in Recall of Menstrual Symptoms,» *Journal of Personality and Social Psychology* 57: 522–31 (1981).
- (334) S. Oishi, «The Experiencing and Remembering of Well-Being: A Cross-Cultural Analysis,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 28: 1398–1406 (2002).
- (335) C. N. Scollon et al., «Emotions Across Cultures and Methods,» *Journal of Cross-Cultural Psychology* 35: 304–26 (2004).
- (336) M. A. Safer, L. J. Levine, and A. L. Drapalski, «Distortion in Memory for Emotions: The Contributions of Personality and Post-Event Knowledge,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 28: 1495–1507 (2002); and S. A. Dewhurst and M. A. Marlborough, «Memory Bias in the Recall of Pre-exam Anxiety: The Influence of Self-Enhancement,» *Applied Cognitive Psychology* 17: 695–702 (2003).
- (337) T. R. Mitchell et al., «Temporal Adjustments in the Evaluation of Events: The «Rosy View,»» *Journal of Experimental Social Psychology* 33: 421–48 (1997).
- (338) T. D. Wilson et al., «Preferences as Expectation-Driven Inferences: Effects of Affective Expectations on Affective Experience,» *Journal of Personality and Social Psychology* 56: 519–30 (1989).
- (339) A. A. Stone et al., «Prospective and Cross-Sectional Mood Reports Offer No Evidence of a «Blue Monday» Phenomenon,» *Journal of Personality and Social Psychology* 49: 129–34 (1985).

الفصل الحادي عشر: نقل حي من المستقبل

(340) J. Livingston and R. Evans, «Whatever Will Be, Will Be (Que Sera, Sera)» (1955).

(341) W. V. Quine and J. S. Ullian, *The Web of Belief*, 2nd ed. (New York: Random House, 1978), 51.

(342) انتقل نصف الأمريكيين للعيش في مكان آخر في فترة السنوات الخمس بين 1995 و2000، مما يشير إلى أن معدل الأمريكيين ينتقلون للعيش في مكان آخر تقريبا كل عشر سنوات؛

B. Berkner and C. S. Faber, *Geographical Mobility, 1995 to 2000*: (Washington, D.C.: U.S. Bureau of the Census, 2003).

(343) اشتغل معدل مواليد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية تقريبا في عشر وظائف بين سن الثامنة عشر والسادسة والثلاثين وهو ما يشير إلى أن معدل الأمريكيين يشغلون هذا العدد من الوظائف في حياتهم.

Bureau of Labor Statistics, *Number of Jobs Held, Labor Market Activity, and Earnings Growth Among Younger Baby Boomers: Results from More Than Two Decades of a Longitudinal Survey*, Bureau of Labor Statistics news release (Washington, D.C.: U.S. Department of Labor, 2002).

(344) يتوقع مكتب الاحصاء بالولايات المتحدة الأمريكية أن 10 بالمائة من الأمريكيين لن يتزوجوا في السنوات القادمة، 60 بالمائة سيتزوجون مرة واحدة فقط و30 بالمائة سيتزوجون على الأقل مرتين.

R. M. Kreider and J. M. Fields, *Number, Timing, and Duration of Marriages and Divorces, 1996* (Washington, D.C.: U.S. Bureau of the Census, 2002).

(345) B. Russell, *The Analysis of Mind* (New York: Macmillan, 1921), 231.

(346) يشير عالم الأحياء ريتشارد دوكينز إلى هذه الإعتقادات بوصفها ميمات.

See R. J. Dawkins, *The Selfish Gene* (Oxford: Oxford University Press, 1976). See also S. Blackmore, *The Meme Machine* (Oxford: Oxford University Press, 2000).

(347) D. C. Dennett, *Brainstorms: Philosophical Essays on Mind and Psychology* (Cambridge, Mass.: Bradford/MIT Press, 1981), 18.

(348) R. Layard, *Happiness: Lessons from a New Science* (New York: Penguin, 2005); E. Diener and M. E. P. Seligman, «Beyond Money: Toward an Economy of Well-Being,» *Psychological Science in the Public Interest* 5: 1-31 (2004); B. S. Frey and A. Stutzer, *Happiness and Economics: How the Economy and Institutions Affect Human Well-Being* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2002); R. A. Easterlin, «Income and Happiness: Towards a Unified Theory,» *Economic Journal* 111: 465-84 (2001); and D. G. Blanchflower and A. J. Oswald, «Well-Being over Time in Britain and the USA,» *Journal of Public*

(349) يتباطأ تأثير انخفاض الفائدة الهامشية عندما ننفق أموالنا على الأشياء التي يكون تكيفنا معها أقل احتمالاً.

See T. Scitovsky, *The Joyless Economy: The Psychology of Human Satisfaction* (Oxford: Oxford University Press, 1976); L. Van Boven and T. Gilovich, «To Do or to Have? That Is the Question,» *Journal of Personality and Social Psychology* 85: 1193–202 (2003); and R. H. Frank, «How Not to Buy Happiness,» *Daedalus: Journal of the American Academy of Arts and Sciences* 133: 69–79 (2004). Not all economists believe in decreasing marginal utility: R. A. Easterlin, «Diminishing Marginal Utility of Income? Caveat Emptor,» *Social Indicators Research* 70: 243–326 (2005).

(350) J. D. Graaf et al., *Affluenza: The All-Consuming Epidemic* (New York: Berrett-Koehler, 2002); D. Myers, *The American Paradox: Spiritual Hunger in an Age of Plenty* (New Haven: Yale University Press, 2000); R. H. Frank, *Luxury Fever* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 2000); J. B. Schor, *The Overspent American: Why We Want What We Don't Need* (New York: Perennial, 1999); and P. L. Wachtel, *Poverty of Affluence: A Psychological Portrait of the American Way of Life* (New York: Free Press, 1983).

(351) Adam Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* (1776), book 1 (New York: Modern Library, 1994).

(352) Adam Smith, *The Theory of Moral Sentiments* (1759; Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

(353) N. Ashraf, C. Camerer, and G. Loewenstein, «Adam Smith, Behavioral Economist,» *Journal of Economic Perspectives* 19: 131–45 (2005).

(354) Smith, *The Theory of Moral Sentiments*.

(355) ذهب بعض المفكرين إلى أن الناس في المجتمعات ظلوا على نحو دوري يعتبرون أن المال لا يشتري السعادة ثم نسيوا هذا الدرس بعد مرور جيل كامل.

See A. O. Hirschman, *Shifting Involvements: Private Interest and Public Action* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1982).

(356) C. Walker, «Some Variations in Marital Satisfaction,» in *Equalities and Inequalities in Family Life*, ed. R. Chester and J. Peel (London: Academic Press, 1977), 127–39.

- (357) D. Myers, *The Pursuit of Happiness: Discovering the Pathway to Fulfillment, Well-Being, and Enduring Personal Joy* (New York: Avon, 1992), 71.
- (358) J. A. Feeney, «Attachment Styles, Communication Patterns and Satisfaction Across the Life Cycle of Marriage,» *Personal Relationships* 1: 333–48 (1994).
- (359) D. Kahneman et al., «A Survey Method for Characterizing Daily Life Experience: The Day Reconstruction Method,» *Science* 306: 1776–80 (2004).
- (360) T. D. Wilson et al., «Focalism: A Source of Durability Bias in Affective Forecasting,» *Journal of Personality and Social Psychology* 78: 821–36 (2000).
- (361) R. J. Norwick, D. T. Gilbert, and T. D. Wilson, «Surrogation: An Antidote for Errors in Affective Forecasting» (unpublished manuscript, Harvard University, 2005).
- (362) المرجع ذاته.
- (363) المرجع ذاته.
- (364) هذه أفضل طريقة لتوقع سلوكنا في المستقبل أيضا. مثلا: يبالغ الأشخاص في تقدير احتمالية قيامهم بعمل خيري لكنهم يحسبون تقدير احتمالية قيام الآخرين بالشيء ذاته. هذا يشير إلى أننا لو شئنا تأسيس توقعات سلوكنا الخاص على ما نراه لدى الآخرين، سنكون بالفي الدقة.
- See N. Epley and D. Dunning, «Feeling «Holier Than Thou»: Are Self-Serving Assessments Produced by Errors in Self- or Social Prediction?» *Journal of Personality and Social Psychology* 79: 861–75 (2000).
- (365) R. C. Wylie, *The Self-Concept: Theory and Research on Selected Topics*, vol. 2 (Lincoln: University of Nebraska Press, 1979).
- (366) L. Larwood and W. Whittaker, «Managerial Myopia: Self-Serving Biases in Organizational Planning,» *Journal of Applied Psychology* 62: 194–98 (1977).
- (367) R. B. Felson, «Ambiguity and Bias in the Self-Concept,» *Social Psychology Quarterly* 44: 64–69.
- (368) D. Walton and J. Bathurst, «An Exploration of the Perceptions of the Average Driver's Speed Compared to Perceived Driver Safety and Driving Skill,» *Accident Analysis and Prevention* 30: 821–30 (1998).

- (369) P. Cross, «Not Can but Will College Teachers Be Improved?» *New Directions for Higher Education* 17: 1–15 (1977).
- (370) E. Pronin, D. Y. Lin, and L. Ross, «The Bias Blind Spot: Perceptions of Bias in Self Versus Others,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 28: 369–81 (2002).
- (371) J. Kruger, «Lake Wobegon Be Gone! The «Below-Average Effect» and the Egocentric Nature of Comparative Ability Judgments,» *Journal of Personality and Social Psychology* 77: 221–32 (1999).
- (372) J. T. Johnson et al., «The «Barnum Effect» Revisited: Cognitive and Motivational Factors in the Acceptance of Personality Descriptions,» *Journal of Personality and Social Psychology* 49: 1378–91 (1985).
- (373) Kruger, «Lake Wobegon Be Gone!»
- (374) E. E. Jones and R. E. Nisbett, «The Actor and the Observer: Divergent Perceptions of the Causes of Behavior,» in *Attribution: Perceiving the Causes of Behavior*, ed. E. E. Jones et al. (Morristown, N.J.: General Learning Press, 1972); and R. E. Nisbett and E. Borgida, «Attribution and the Psychology of Prediction,» *Journal of Personality and Social Psychology* 32: 932–43 (1975).
- (375) D. T. Miller and C. McFarland, «Pluralistic Ignorance: When Similarity Is Interpreted as Dissimilarity,» *Journal of Personality and Social Psychology* 53: 298–305 (1987).
- (376) D. T. Miller and L. D. Nelson, «Seeing Approach Motivation in the Avoidance Behavior of Others: Implications for an Understanding of Pluralistic Ignorance,» *Journal of Personality and Social Psychology* 83: 1066–75 (2002).
- (377) C. R. Snyder and H. L. Fromkin, «Abnormality as a Positive Characteristic: The Development and Validation of a Scale Measuring Need for Uniqueness,» *Journal of Abnormal Psychology* 86: 518–27 (1977).
- (378) M. B. Brewer, «The Social Self: On Being the Same and Different at the Same Time,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 17: 475–82 (1991).
- (379) H. L. Fromkin, «Effects of Experimentally Aroused Feelings of Undistinctiveness Upon Valuation of Scarce and Novel Experiences,» *Journal of Personality and Social Psychology* 16: 521–29 (1970); and H. L. Fromkin, «Feelings of Interpersonal

Undistinctiveness: An Unpleasant Affective State,» *Journal of Experimental Research in Personality* 6: 178–85 (1972).

(380) R. Karniol, T. Eylon, and S. Rish, «Predicting Your Own and Others» Thoughts and Feelings: More Like a Stranger Than a Friend,» *European Journal of Social Psychology* 27: 301–11 (1997); J. T. Johnson, «The Heart on the Sleeve and the Secret Self: Estimations of Hidden Emotion in Self and Acquaintances,» *Journal of Personality* 55: 563–82 (1987); and R. Karniol, «Egocentrism Versus Protocentrism: The Status of Self in Social Prediction,» *Psychological Review* 110: 564–80 (2003).

(381) C. L. Barr and R. E. Kleck, «Self-Other Perception of the Intensity of Facial Expressions of Emotion: Do We Know What We Show?» *Journal of Personality and Social Psychology* 68: 608–18 (1995).

(382) R. Karniol and L. Koren, «How Would You Feel? Children's Inferences Regarding Their Own and Others Affective Reactions,» *Cognitive Development* 2: 271–78 (1987).

(383) C. McFarland and D. T. Miller, «Judgments of Self-Other Similarity: Just Like Other People, Only More So,» *Personality and Social Psychology Bulletin* 16: 475–84 (1990).

خاتمة

(384) في الواقع، إن ما كان يعنيه برنولي بكلمة جدوى غامض بعض الشيء لأنه لم يقيم بتعريفها ودام النقاش حول معنى هذا المصطلح لثلاثة قرون ونصف. كان المستخدمون الأوائل لهذا المصطلح يتحدثون بوضوح حول قدرة البضائع في تحفيز تجارب ذاتية إيجابية لدى أولئك الذين يستهلكونها. على سبيل المثال: عزف عالم الإقتصاد فرديناندو غاليري بأنها: «قدرة الشيء على تحقيق السعادة لنا»:

(F. Galiani, *Della moneta [On money]* [1750]).

وعزفها الفيلسوف جيريمي بنتن في سنة 1789 بأنها «تلك الخاصية في أي شيء التي من خلالها تحقق فائدة، مكسباً، متعة، خيراً، أو سعادة»:

(J. Bentham, in *An Introduction to the Principles of Morals and Legislation*, ed. J. H. Burns and H. L. A. Hart [1789; Oxford: Oxford University Press, 1996])

نأى معظم علماء الإقتصاد المعاصرون بأنفسهم عن هذه التعريفات - ليس لأنهم يملكون تعريفات أفضل لكن لأنهم لا يرغبون في الحديث عن التجارب الذاتية وهكذا، صارت الجدوى فكرة مجردة مقترضة مقياسها الخيارات. إذا بدا لك أن في هذا الأمر خدعة، فمرحبا بك في النادي. لمزيد الإطلاع على تاريخ المصطلح أنظر:

N. Georgescu-Roegen, «Utility and Value in Economic Thought, *New Dictionary of the History of Ideas*, vol. 4 (New York: Charles Scribner's Sons, 2004), 450–58; and D. Kahneman, P. P. Wakker, and R. Sarin, «Back to Bentham? Explorations of Experienced Utility,» *Quarterly*

(385) سوف لن يثفق معظم علماء الاقتصاد المعاصرون على هذه العقولة لأن الاقتصاد ملتزم حالياً بافتراض تخلى عنه علم النفس منذ نصف قرن، لا سيما، أن علما يهتمم بالسلوك الإنساني يمكن أن يتجاهل ما يشعر به الناس وما يقولونه ويعتمد فقط على ما يفعلونه.

(386) D. Bernoulli, «Exposition of a New Theory on the Measurement of Risk», *Econometrica* 22: 23–36 (1954) (originally published as «Specimen theoriae novae de mensura sortis» in *Commentarii Academiae Scientiarum Imperialis Petropolitanae*, vol. 5 [1738], 175–92).

(387) المرجع ذاته؛ ب. 25.